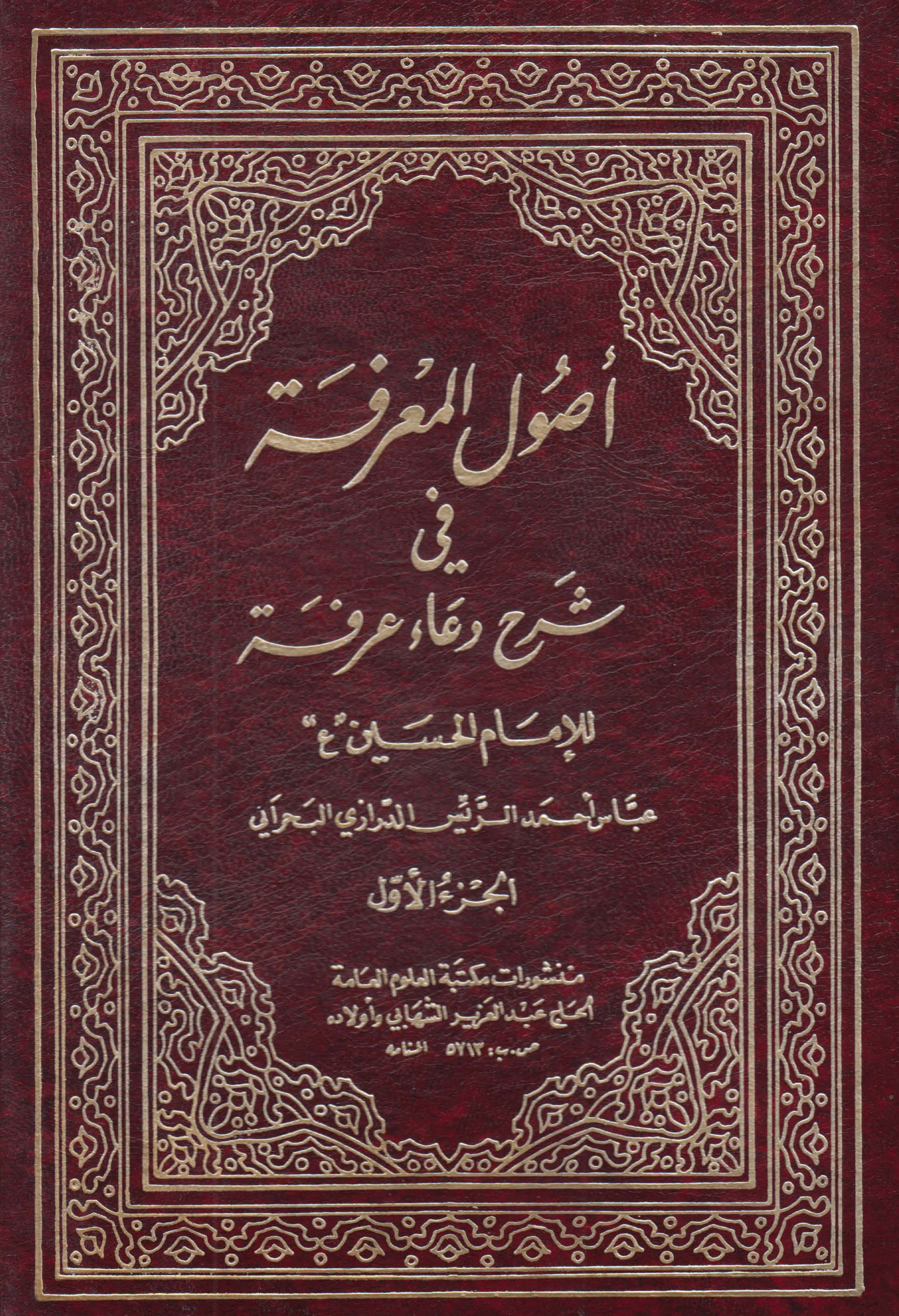

أصول المعرفة
في
شرح دعاء عرفة
للإمام الحسين "ع"
عباس أحمد الريّس الدرازي البحراني
الجزء الأول
منشورات مكتبة العلوم العامة
الحاج عبد العزيز الشهابي وأولاده
ص.ب: ٥٧١٣


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

أصول المعرفة في شرح دعاء عرفة

للإمام الحسين "ع"

الجزء الأول

عبّاس أحمد الرّيّس الدّرازي البحراني

منشورات مكتبة العلوم العامة
الحاج عبد العزيز الشهابي وأولاده
ص.ب: ٥٧١٣ - المنامه

الطبعة الأولىٰ

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الإهداء

إلىٰ الحر الأبي ، إلىٰ سبط النبي ، إلىٰ ابن علي والزهراء ، وأبي الأئمة النجباء ، وخامس أصحاب الكساء ، وسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين « عليه السلام » .

إليك يا سيدي أهدي هذا الجهد القليل وهو علىٰ قدري ؛ ولكنه نفحة من نفحات قدسك ، وومضة من نورك ، فارجو قبوله ، يا من قبلت توبة الحر الرياحي ؟

خادمك

المؤلف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ اَلْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الـرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَـالِكِ يَـوْمِ الـدِّينِ
* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * إِهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِـرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

صدق الله العظيم

تقريظ

هذه كلمة تفضل بها سماحة العلامة
الشيخ أحمد الشيخ خلف العصفور
دامت بركاته .

بسمه تعالىٰ

في كل يوم ، بل في كل لحظة تخرج لنا المطابع علىٰ يد الكتّاب تآليف متنوعة ، كل كتاب منها يعطينا لوناً من ألوان العلم ، وكل مؤلف يقضي وقتاً فيما يختاره من العطاء المتنوع ، ويقدم ذلك الجهد إلىٰ إخوانه في الدين . وهنا يظهر الفرق ، فبعضهم يكتب لله وللناس معاً ، وبعضهم يكتب للناس وحدهم . وهؤلاء الذين يكتبون للناس يختلفون أيضاً ، فمنهم من يكتب للنفع المادي ، مع قطع النظر عن الأخلاقيات والدين ، وفيهم من يكتب (ليقال : من ذا قالها ؟)[1] ، وهذا الصنف من الناس كثير جداً ، ولكن . . من الذي يستطيع التقييم ، ومن الذي يضع المقاييس ومن الذي يزن الأمور بميزان العدل ومن الذي يشير إلىٰ الشخصية إشارة القبول ، ويطبعها بطابع الرضا ؟ فتصبح في المرتبة المقبولة ؟ وتدخل حظيرة التأييد والتأييد بروح القدس التي قالها رسول الإنسانية محمد « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » لبعض الناس الذين كانوا من حوله ـ وقد اشترط من وراء ذلك شرطاً ـ بقوله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : لا تزال مؤيداً بروح القدس ما دمت ناصرنا بلسانك ـ كما قالها لحسان بن ثابت ـ الشاعر المخضرم في يوم الغدير المشهور .

---

(١) أشار بذلك إلى قول الشاعر أعشىٰ ميمون :

وفريدة تأتي الملوك عجيبة ... قد قلتها ليقال من ذا قالها ؟

هـذا مـا أريـد أن أقـولـه في تصنيف الكُتَّـاب ، والشعـراء والبـاحثين ، والعلماء ، والمؤلفين .

وصاحب هذا الكتـاب الذي بين يـديك ، أعتقـد جازمـاً أنه من أولئـك المقبـولين ، لما يحمله من ولاء خـالص لأهـل البيت الـطاهـر ، حيث أن مـا ينشده من شعر ، أو يكتبـه من كتابـة ، أو يمليه من درس ، أو يلقيـه من كلام يظهر عليـه طابـع القبول ، من حيث أنـه لا يتعدىٰ السيـر علىٰ سنتهم . وإني أحس بهـذا الإحساس من مـطاوىٰ كلامـه ، ومن بعض البشـائـر التي حـدثني بها ، والتي لها تمام الصلة بأهل الحق ، ومعونتهم لـه في بعض الأزمات التي لا يصـرفهـا عنـه إلَّا أهـل الحـل والقصـد ممن لهم القـدرة علىٰ الإتيـان بالمعجزات ـ كما حصلت لبعض المؤلفين من إخواني المخلصين ، كصـاحب الغدير الشيخ عبد الحسين الأميني وغيره .

ومن المـواهب التي حصـل عليهـا العبـاس الحسيني الـدرازي فضيلة العلامة الشيخ عباس ، هو أنه أول من شرح هذا الدعاء ـ كمـا أعلم ـ ولو أنـه يقـال : أن عدم الـوجدان لا يـدل علىٰ عدم الـوجـود ، إلَّا أني لم أعثـر علىٰ شارح شرح صدورنا بكلام ربيب الوحي الذي قال عنـه رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : (حسين مني ، وأنا من حسين) .

وكلمة أنا من حسين تعني ما أعطاه الإمام لهذه الأمـة في كل ميـدان من ميـادين العـطاء المثمـر . حيث أن السيـطرة لا تـأتي إلَّا من طـريق القـوة ، والبصيرة ، والعلم .

وهذه الثلاث هي مجموعة الفضائل . والقوة التي قام بها الإمام الحسين « عليـه السلام » . لم تكن تـوصف من حيث الكم ، بل هي نـابعة من إيمـان العصمة التي هي مصدر كل خير لهذه الأمة ، وقد أشرق نـورها فـدخل بيـوت الفرس والترك والديلم ، والملل الأخرىٰ .

فإذا قرأ الدعاء شخص من الناس مهما كانت لغته ، أو جنسه ، أو مذهبه ، أو طريقته تراه يتحول تحولاً سريعاً إلىٰ الله سبحانه بمجرد سماعه إلىٰ ذلك البيان الذي يحوي العلم والقوة والبصيرة ، ولا يستطيع شخص أن ينكر ذلك إذا تلا دعاء الإمام الحسين « عليه السلام » يوم عرفة ، وهذا مصداق قول المعصومين « عليهم السلام » : (وجعل أفئدة من الناس تهوىٰ إليكم . . .) ولم يقل أفئدة من المسلمين تهوىٰ إليكم .

وقد قال لي شخص : أن أحد المفكرين من أتباع السيد المسيح من إخواننا العرب في بيروت يقول : إني أسلمت بواسطة سماعي لدعاء الإمام علي بن أبي طالب المعروف بدعاء الصباح ، والذي أوله « يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلجه . . . » الخ . وهذا هو النور حقاً ، ﴿ وَمَن لَّم يَجعَلِ اَللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[1] . صدق الله العلي العظيم .

وبما أن كلام المعصوم من أهل البيت نور من أنوار الرسالة المشرقة ، استعمله إمام من أئمة أهل البيت ، وعرفت صحيفته باسمه (بالسجادية) وكلها دعاء ، ولكل دعاء لون خاص ينقلك من أجواء الظلام إلىٰ نور البصيرة ، ومن هموم الدنيا إلىٰ فضاء الآخرة ، ومن مرحلة اليأس إلىٰ ساحات الرجاء ، ومن مرض الخطايا إلىٰ روحانية الإيمان ، والوثوق . فإذا دخل الفرد أجواء الإيمان بانت له أعلام الصادقين التي قال الله عنها سبحانه : ﴿ وَكُونُوْا مَعَ الصَّادِقِين ﴾[2] .

ولذلك أصبح الدعاء أفضل من التلاوة ؛ لأن تلاوة القرآن قلَّ أن ينصهر بها الناس كل الناس من حيث أنها فوق كلام المخلوق ، والدعاء يقرب لك البعيد .

(١) سورة النور / الآية : ٤٠ .

(٢) سورة التوبة / الآية : ١١٩

فاغتنم الفرصة ، يا من لا تفوته الفرص التي لا تعوض ، وأسـأل الله أن ينفعنا جميعاً بهذا العطاء العظيم ، ويفتح لنا باب الرضا إذا طرقناه بمطرقة الدعاء.

والسلام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله وبركاته .

بتاريخ : ٤ جمادي الثانية ١٤٠٨ هـ   أخوكم : أحمد خلف العصفور

جامع الجمعة في عالي ـ البحرين

تقريظ

كلمة أخرىٰ تفضل بها سماحة
العلامة الشيخ سليمان المدني
دامت إفاضاته .

بِسمِ اللّٰهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ

الدُّعَاءُ في الإِسلامَ

قال الله «سبحانه» في كتابه العزيز :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَستَجِيبُوا لِي وَلْيُؤمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرشُدُونَ﴾(١) . وقال «عزّ وجلّ» : ﴿أدعُونِي أَستَجِب لَكُمُ﴾(٢) ، ووصف ذاته المقدسة متمدحاً فقال : ﴿أَمَّن يُجِيبُ المُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكشِفُ السُّوءَ﴾(٣) .

واوجب « سبحانه » علىٰ عباده الصلاة فرائض معلومة في أوقات محدودة ، وليس معنىٰ الصلاة في اللغة إلّا الدعاء والعطف .

وعن المعصومين ـ « صلوات الله وسلامه عليهم » إن الدعاء لب العبادة . فالدعاء إذاً هو الصلة الرابطة بين المخلوق والخالق ، وهو الوسيلة الناجعة لطلب الخيرات ، واستدفاع الشرور والآفات منه ـ تقدست أسماؤه ، وجلّ ثناؤه ـ . ولا يغرنك ما يلقلق به بعض من نزع الله حلاوة الإيمان من قلبه بعدم فائدة الدعاء ؛ لأن الله « سبحانه » يعلم ما يحتاجه عبده ، وما يرغبه .

---

(١) سورة البقرة / الآية : ١٨٦ .

(٢) سورة غافر / الآية : ٦٠ .

(٣) سورة النمل / الآية : ٦٢ .

فإذا كان يريد أن يعطيه اعطاه ، وإن كانت إرادته إتجهت إلىٰ منعه منه منعه ، فلا فائدة من الدعاء . فإن هذا الكلام إنما يكشف عن جهل قائله بحقيقة التوحيد واحكام الدين .

فالدعاء وسيلة من الوسائل التي جعلت لتحقيق المطالب لا لجهل الله ـ سبحانه ـ بما يريد عبده أو يرغب فيه ، ولا لأنه لا يعطيه من دون الدعاء ، وانما لربط عبده به وصلته له شرع له الدعاء كما جعل الشيء ثم طلب العمل والجهد في ذلك وسيلة لتحصيل الرزق فقال سبحانه : ﴿ فَأمشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزقِه ﴾[1] مع أنه « سبحانه » لا يعجز من إيصال الرزق إلىٰ المخلوق من غير كسب وعمل ، بل أن التوجه إلىٰ الكسب والعمل في حقيقته ليس إلاَّ دعاء بطلب الرزق من الله ، وكم من كادح لم ينلْ من كدحه إلاَّ التعب والعرق إذا لم يكتب الله له رزقاً من ذلك العمل .

فالدعاء لا ينحصر في الدعاء اللفظي ، بل هو ثلاثة أقسام : دعاء بالجنان ، ودعاء باللسان ، دعاء بالاركان .

والدعاء بالجنان أن يتشوق الإنسان إلىٰ نيلِ مأربه من الله « سبحانه وتعالىٰ » ويتمنىٰ ذلك عليه ، معتقداً بانه سوف يوصله ذلك .

والدعاء بالاركان هو الحركة والسعي لتحقيق ذلك المأرب وتسبيب الاسباب والمقدمات الطبيعية التي تحقق ذلك الشيء في العادة المعروفة من نظام الكون .

والدعاء باللسان أن يقول : اللّهم أعطني كذا ، وامثال ذلك .

والحقيقة أن الدعاء لكي يستجاب لا بد أن يتكون من هذه الأقسام الثلاثة بأن يتوجه نفسياً إلىٰ الله « سبحانه » بتحقيق رغبته وأن يتحرك بأركانه

---

(١) سورة الملك / الآية : ١٥

وليسعىٰ إلىٰ تحصيله من الـطرق التي رتب الله بهـا نـظام الكـون في ربط المسببـات بالأسبـاب وأن يتعبد الله « سبحـانه » بـالسؤال اللفـظي في تـوفيقـه وتمكينه من تحقيق مأربه .

والدعاء فوق هذا وذاك عبادة من العبادات التي شرّعها الله لعباده يتحقق بموجبها الثـواب الأخروي ، ولقـد ذكر « سبحـانه » قـوماً يـأبون سؤالـه ودعاءه فوصفهم بالتكبر علىٰ عبادتـه فقال فيمـا أنزل من كتـابه : ﴿ **أَلَّـذِينَ يَسْتَكِبرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾[1] فبحسب الروايات الواردة في تفسير الآية الذين لا يدعونه .

وهذه العبادة منها ما هو محدد مؤقت ومنها ما ليس بمحدد ولا مؤقت :

١ ـ أما ما ليس بمحـدد ولا مؤقت فهو مـا يخطر علىٰ ذهن الإنسـان من الالفاظ التي يقولها عند التوسل إلىٰ الله في أمرٍ من الأمور إذ لا شك أنه يجوز لـلإنسان أن يـدعو بمـا يلهمـه الله من الألفـاظ في وقت طلبـه الشيء من الله « سبحانه وتعالىٰ » أي لفظ كان وبأي لغة من لغات البشر .

لكن لا يجوز له أن يضع دعاءً معيناً بصيغة خاصة ويدعي أن هذا الدعاء للأمر الكذائي والحاجـة الفلانيـة أو للوقت الفلاني والمكـان الكذائي . فـإنه يكـون في الحقيقة إفتـراء علىٰ الله « سبحانـه » ومن هذا القبيـل الأدعيـة التي يضعها بعض الصوفية ويضعون لها شرائط خاصة وأوقات معينة وربما أشترطـوا تكرارها عدداً محدوداً . فالعبادة المؤقتة المحدودة بتوفيقه لا يجـوز وضعها إلاَّ من قبله « سبحانه وتعالىٰ » . ولا تعلم إلاَّ بالرواية عن نبيه وأهل بيتـه « عليهم الصلاة والسلام » . ولـذلك لا ينبغي الإعتقـاد بالأدعيـة المؤقتة التي ليس لهـا سند يوصلها إلىٰ المعصوم .

٢ ـ الـدعـاء المؤقت والمحـدد بـأوقـات معلومـة أو لأمـاكن خـاصـة أو

---

(١) سورة غافر / الآية : ٦٠ .

لأغـراض معينة . ومن هـذه الأدعيـة الـواردة عن النبي « صلىٰ الله عليـه وآلـه وسلم » والأئمـة « صلوات الله وسلامـه عليهم » ولا ينبغي التسـاهـل في شـأن طرق ثبوتها ما دامت مؤقتة ومحددة . فإن الإعتقاد باستحباب عبادة ما في وقت معين أو مكـان معين أو لأمـر معين في نسب الأمـر بـذلـك إلى البـاري جـلّ اسمه . وهو أمر عظيم خطير فليس كل دعاء وردت به رواية مـا يصح الإعتقـاد به ، والإتيان به باعتقاد أنه موظف في ذلك الوقت أو الزمان .

ولقد أغنىٰ الله شيعة آل محمد « عليه وآله الصلاة والسلام » عن الوضـع في هذا الشأن أو العمل بالـروايات غيـر الثابتة بالأدعيـة التي رواها الثقـاة عن النبي « صلّىٰ الله عليـه وآله وسلم » والأئمـة من عترتـه من لدن أميـر المؤمنين « عليه السلام » إلىٰ ما ورد في التوقيعات عن مولانا المهدي المنتظر عجل الله «تعالى» فرجه وجعل أرواحنا فداه .

والأدعية الواردة عن النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » وأهل بيته تمتـاز عمّا وضعه الـواضعون بجـزالة ألفـاظها وبـلاغة أسـاليبها ، وعمق مضـامينها . وجلالة مطالبها . ولا غـرو في ذلك فهم أفصـح العرب علىٰ الأطـلاق السناً ، وابعد العلماء غوراً ، واعرف الخلق بما يليق بمقام الباري من الخطاب ، ومـا ينبغي أن يقال في حضرته من المقال : إضافةٍ إلىٰ أنهم « صلوات الله عليهم » قد راعوا ما يحتاج الناس معرفته من حقائق التوحيد ، ومكارم الأخلاق فجعلوا الدعاء وسيلة إلىٰ إيصاله إلىٰ آذان الناس ونفوسهم . فجاءت أدعيتهم « عليهم السلام » شرحاً للعقائد وبياناً للمقاصد الدينية والخلقية .

ولعل دعاء أبي الأحرار سيد شباب أهل الجنة وريحانـة الرسـول الأعظم الحسين بن علي « عليه السلام » الذي قاله في موقف عرفات من ابرز الشواهد علىٰ ذلـك ، فليس في فقـراتـه من فقرة ، ولا في جمله جملة ، بـل ولا في كلماته كلمة إلاّ وهي تتضمن معنىً رائقاً ، ومطلباً من مطالب الدين جليلاً .

فلا غرو إذاً أن يجتذب هذا الـدعاء فضيلة الشيـخ عباس الـريس ، وهو الأديب الفـارع ، والشاعـر البارع ، ويشـده إليه فيقـوم بشرح الفـاظـه ، وبيـان معانيه وتفصيل مطالبه ، ولقد أجاد في فعله كما أجـاد باختيـاره ، حيث أخرج هذا الشرح الرائق ، فشكر الله سعيه وبلغه أمانيه وأجزل له عـطاءه ، وأشركنـا وإياه في ثوابه .

١٤٠٩/١/١٦ هـ   سليمان المدني

جد حفص ـ البحرين

المقدمة الأولىٰ
حول الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ أشرف خلقه أجمعين وآله الميامين وبعد :

فقد راودتني فكرة الشرح لهذا الدعاء الشريف قبل بضع سنين ، ولا زلت أتقدم مرة وأتأخر أخرىٰ ، وذلك لأسباب ليس من اللازم أن أتعرض إليها بعد أن من الله عليّ بالتوفيق لذلك .

إلَّا أن جانب الخير لا بد وأن يغلب وذلك عندما توكل الأمور إليه « سبحانه » ، فإنه يختار لعبده ما هو الأصلح . وإن من جملة الدوافع التي شجعتني علىٰ الشروع في هذا الشرح هو المداومة علىٰ حج بيت الله الحرام **قرابة الثلاث عشرة سنة متوالية ، والحج يفتح للنفس أبواباً من الخير متعددة .**

أما هذا الدعاء بالذات فله صفة خاصة في حياة الناسك في تلك الديار المقدسة ؛ لأن الموقف في ذلك اليوم له طابع خاص يفرضه وضع الإنسان المسلم الذي تمحض للعبادة ، ووطن نفسه علىٰ الإمتناع عن زينة الدنيا ولذاتها وكل ما أحله الله له في الحل .

وإذا قدر للإنسان أن يفهم حياته ، وما يجب عليه في دينه ودنياه ،

فليس عليه إلاّ أن يحضر ذلك المحضر الذي يتلىٰ فيه هذا الدعاء الذي جمع أشكالاً شتىٰ من التضرع والخشوع ، ويتلي غيره أيضاً ، لكي ينصهر في مثل ذلك الوضع الذي كساه الله رهبة ورغبة .

أما الرهبة فلأن الإنسان المسلم الذي يقوم بتأدية الشعائر المطلوبة ، يرىٰ بأم عينيه ذلك الجمع ، وهو كالفراش المبثوث في زي واحد في حركة واحدة ، في وقت واحد ، ففي مثل هذا الوضع الذي تعج فيه إلىٰ الله الأصوات بصنوف اللغات ، وتغاير اللهجات تأخذ الإنسان رهبة ذلك الموقف .

فهم بين متضرع يطلب من الله المغفرة والخير ، وخاشع يسأل ربه تعويض ذلك النصب في الوقوف والسير .

وأما الرغبة فإن الناسك بأعماله تلك لا شك وأنه يرغب فيما عند الله تعالىٰ من الثواب ـ كما وعد به المتقين ـ وهو لا يخلف وعده .

وإن هذا الكتاب محاولة لشرح الدعاء المأثور عن أبي عبد الله الحسين « عليه السلام » كما ذكرت ـ ولقد سلكت في شرحه طريقاً واضحاً لا عوج فيه ، جرياً علىٰ عادة من تطرق إلىٰ شرح بعض كلامهم سلام الله عليهم ، مع اختلاف يسير أرجو ألا يفوت القارىء ، عند تأملاته لأبحاث الكتاب المتلاحقة .

لكن ذلك ليس في كل المواطن ، فإني قد حاولت توضيح المعنىٰ لكن ليس في تهجينه . كما حاولت جهدي بالربط بين المعنىٰ المطروح ، وبين النص المشروح .

ولقد حاولت أن يكون الكتاب جامعاً شاملاً ، ولقد كنت أستنطق كل كلمة من كلمات الحسين « عليه السلام » في ذلك المحشر . ولما كان الدعاء

يحتوي علىٰ كلمات بعيدة عن أفهام الكثير من الناس ، حاولت التوسع في شرح معانيها ، وذلك لكي أحقق بذلك هدفين :

الأول : إضافة معلومات جديدة يستطيع القارىء أن يعتمدها من جملة حصائله ؛ لأنها قد أخذت من المصادر اللغوية الأصلية .

الثاني : لكي يستطيع القارىء أن يفهم سياق العبارة الواردة فيها تلك الكلمات . وبذلك يعرف الغرض الذي سيقت تلك العبارة من أجله .

أما بالنسبة إلىٰ البيان فهو كل ما يمكن أن يظهر لمن يقرأ الدعاء ، ولكن بعد التأمل ، وهو النظرة الشاملة للعبارة ، وما يمكن أن يستوحيه الإنسان من ذلك ؛ لأن كلامه « عليه السلام » في حاجة إلىٰ تأمل ، وتروٍّ لمعرفة القرائن التي تهدي إلىٰ المعنىٰ السامي .

وقد وضعت أمامي كثيراً من الإعتبارات التي جعلتها دافعاً وأمراً مشجعاً علىٰ هذه المحاولة منها :

١ ـ محاولة فهم المعنىٰ المقصود من فقرات الدعاء ، واستخراج الصورة التي تتناسب في مثل ذلك الموقف العظيم .

٢ ـ إيجاد فائدة للقارىء عندما يقرأ ما جاء في الشرح مربوطاً بالنص المقصود من بين فقرات الدعاء .

وبعبارة أخرىٰ : أن هذا الشرح أردته أن يكون رابطاً بين الله والإنسان ؛ لأنه قد جاء فيه كثير من المعارف الإلهية التي تشدّ الإنسان بربه شداً وثيقاً لكي يسمو بذلك إلىٰ أسمىٰ درجات الإنسانية ، ويصل إلىٰ أعلىٰ مراقي الكمال في الدنيا والآخرة .

ولقد اعتمدت في شرح هذا الدعاء علىٰ النسخة الموجودة في آخر الجزء الثاني من كتاب (سداد العباد ورشاد العباد) لجمال الملّة الشيخ حسين

آل عصفور ، والتي نقلها في ذيله جناب الأجل سماحة العلامة السيد جواد الوداعي حفظه الله تعالىٰ نقلاً عن كتاب الإقبال للسيد رضى الدين بن طاووس الحلي رحمه الله ؛ لأنها في نظري هي أصح النسخ المنقولة عن ذلك المصدر .

ولقد قابلتها بنسخة المصدر المذكور ، فوجدتها مطابقة تماماً . اللّهم إلاّ في النواحي الفنية ، كالفواصل ، والنقط ، وبداية الفقرات وهذا ما امتاز به الفرع عن الأصل .

أسأل الله العون علىٰ هذه المهمة ، والتوفيق والقبول ، إنه خير مسؤول، وخير مأمول ، وصلّىٰ الله علىٰ محمد وآله .

١٢ جمادي الثانية ١٤٠٨ هـ عباس أحمد الرَّيِّس الدرازي

المقدمة الثانية

في جغرافية عرفة

جوٌّ يشعر بالرهبة ، وأرض أحاطت بها الجبال من الجهات الأربع ، أو ما يقرب من ذلك ، فهناك فجوات يراها الرائي بين جبل وآخر ، هيأه بارؤه لكي يجتمع فيه عباده علىٰ هيئة واحدة ؛ ليؤدوا في يومه أعظم الشعائر العبادية ، ويعتلق به ذلك اليوم أشد من اعتلاق سواد العين ببياضها .

جبال شاهقة وأرض منبسطة لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً ، يطمئن فيها قلب الناسك عندما تحتضنه كما تحتضن الأم وليدها . ويتمنىٰ في ذلك اليوم علىٰ ربه بمختلف المسائل ، كما يسأل الوليد أمه ويتمنىٰ عليها .

وتأخذ الإنسان في ذلك الجو الذي مليء من جميع جهاته موجة تشده إلىٰ الملأ الأعلىٰ ، فيفارق الأرض ، ونفايات المادة العفنة إلىٰ ملأ أسمىٰ ، بفعل انصهاره في الطاعة بإخلاص .

تلك هي أرض عرفات ـ كما سماها القرآن والسنة والناس معاً ـ التي يجتمع فيها الحجاج في اليوم التاسع من ذي الحجة من كل عام من الزوال إلىٰ الغروب .

وهي أرض كما رآها الكثير أرض منبسطة محدودة بحدود معروفة

شرعية ، وجغرافية .

قال أبو الوليد الأزرقي في أخبار مكة[1] : قال ابن عباس حد عرفة من الجبل المشرف علىٰ بطن عرفة ، وهو ما بين العلمين اللذين هما حد عرفة ، والعلمين اللذين هما حد الحرم إلىٰ جبال عرفة إلىٰ الوصيق (وهو موضع أعلاه لكنانة ، وأسفله لهذيل) إلىٰ ملتقىٰ الوسيق إلىٰ وادي عرفة قال : وموقف النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » عشية عرفة بين الأجبل النبعة ، والنبيعة ، والنابت (النبعة والنبيعة ، وذات النابت ـ كَما ذكره ياقوت في المعجم) ويسمىٰ هذا الموقف الآل ، وهو الذي يعرف اليوم (بجبل الرحمة) وهو جبل نابت مضرَّس بين أحجار هنالك ناتئة في الجبل الذي يعرف بهذا لإسم بعرفة عن يسار الطريق للذاهب إلىٰ الطائف (المدينة المعروفة) .

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان : عرفات بالتحريك هو واحد في لفظ الجمع . وقال الأخفش : إنما صرف لأن التاء صارت بمنزلة الياء والواو في مسلمين ؛ لأنه تذكيره وصار التنوين بمنزلة النون فلما سمي به ترك علىٰ حاله .

وقال الفراء : عرفات لا واحد لها بصحة ، وقول الناس اليوم يوم عرفة مولدٌ ليس بعربي محض . والذي يدل علىٰ ما قاله الفراء أن عرفة ، وعرفات إسم لموضع واحد ، ولوكان جمعاً لم يكن لمسمىٰ واحد ، ويحسن أن يُقال : إن كل موضع منها يسمىٰ عرفة ، ثم جمع ولم يتنكر لما قلنا إنها متقاربة مجتمعة فكأنها مع الجمع شيء واحد .

وعرفة حدها من الجبل المشرف علىٰ بطن عرنة إلىٰ جبال عرفة ، وقرية عرفة موصل النخل بين ذلك بميلين .

---

(١) أخبار مكة : جـ٢ ص ١٩٤ .

قيل في سبب تسميتها أن جبرائيل « عليه السلام » عرّف إبراهيم «عليه السلام » المناسك ، فلما وقفه بعرفة قال لـه : عرفت ؟ قـال : نعم . فسميت عرفة .

ويقـال بل سميت بـذلك ؛ لأن آدم وحـواء تعارفـا بها بعـد نزولهمـا من الجنة ، ويُقال : أن الناس يعترفـون بذنـوبهم في ذلك المـوقف ، وقيل : بـل سمي بالصبر علىٰ ما يكابدون في الوصول إليها ؛ لأن العرف الصبر .

وقـال ابن عباس : حـد عرفـة من الجبل المشـرق علىٰ بطن عـرنه إلىٰ جبالها ، إلىٰ قصر آل مالك ، ووادي عرفـة والموقف منهـا علىٰ صيحـة عنـد جبل متلاطيء .

وأما ما جاء عن أهل البيت « عليهم السلام » فإن عرفة حدها من عرنة ، وثوية ، ونمرة إلىٰ ذي المجاز . ففي الصحيح عن معاوية بـن عمار ، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال : حد عرفة من بطن عرنة ، وثوية ، ونمـرة ، إلىٰ ذي المجـاز وخلف الجبـل مـوقف . وجـاء عن النبي « صلّىٰ الله عليـه وآلـه وسلم » قال : أصحاب الأراك لاحـج لهم ، ومقتضىٰ ذلك إن الحـدود لعرفـة أربعـة ، وباعتبـار آخر إنهـا خمسـة ، وذلـك بضم نمـرة إلىٰ عـرفـة . ويمكن القـول : بأن عـرفة إسم للزمـان ، فتقول يـوم عرفـة ، وعرفـات إسم للمكـان فتقول : أرض عرفات ، ولكن الروايـات عن أهل البيت « عليهم السـلام » لم تفرق بين هذا وذاك كـالروايـة السابقـة ، وغيرهـا . مما ورد في تحـديد أرض عرفات .

والوقوف بعرفات هو أول واجبات الحج ؛ ولهذا فإن هذا المـوقف يعتبر بداية أعمال الناسك ، إذا لم يأت بعمرة التمتع . ثم تأتي الأعمال بعده مرتبـة متسلسلة ، وقد أتاح الباريء هذه الفرصة للعبـد ، فجعل القـدر المجزي منـه من الموقف هو الكون في المحل ، ولكنـه منع من الخـروج من عرفـات حتىٰ

تغرب الشمس من ليلة النحر ، وما ذلك إلاّ مراعاة منه « سبحانه » لفائدة العبد ، ولكي يستدرك ما فاته ، ويستغفر من الذنوب التي فرطت منه . وبذلك يخرج من موقف عرفة ، وهو في حالة استعداد نفسي لاستقبال بقية الأعمال .

علىٰ أن الحج إذا قلنا بأنه مهرجان إسلامي يستفيد منه المسلمون في إجتماعاتهم ، والتعارف مع بعضهم البعض ومحاولة الإستفادة من هذا التجمع الإسلامي الكبير للتعرف علىٰ المشاكل الآنية وما يستجد منها علىٰ مسرح الحياة ذات التطور السريع . فإن هذا قدر كاف في لمس الفوائد العامة للإسلام والخاصة للمسلمين ، وبذلك يتضح ما قالته الزهراء « عليها السلام » في خطبتها الشهيرة : « والحج تشييداً للدين » ؛ بهذا فقد ركز الشارع المقدس علىٰ هذا الموقف بكثرة الأدعية ، والأذكار من أول ليلة عرفة إلىٰ نهاية يومها ، بل وحتىٰ بعد خروجه منها .

فقد جاء أنه إذا أفاض الحاج من عرفات بعد تحقق الغروب ذاهباً إلىٰ المشعر يدعو بالمأثور ، ويسأل من الله العتق من النار مكثراً من الإستغفار ، للآية والأخبار ، وعليه السكينة والوقار ، فإذا بلغ الكثيب الأحمر عن يمين الطريق قال ما رواه معاوية بن عمار صحيحاً عن الصادق : (اللهم ارحم موقفي ، وزد في عملي ، وسلم لي ديني ، وتقبل مناسكي) ويضيف إليه أيضاً (اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا الموقف ، وارزقنيه أبداً ما أبقيتني واقلبني اليوم مفلحاً منجحاً مستجاباً لي مرحوماً مغفوراً لي بأفضل ما ينقلب به اليوم أحد من وفدك ، وحجاج بيتك الحرام ، واجعلني اليوم من أكرم وفدك عليك ، واعطني أفضل ما أعطيت أحداً منهم من الخير ، والبركة ، والرحمة ، والرضوان ، والمغفرة ، وبارك لي فيما أرجع إليه من أهل ، أو مال ، أو قليل ، أو كثير ، وبارك لهم فيّ) .

والكثيب الأحمر هذا واقع عن يمين الطريق لمن أفاض من عرفات .

وهذا كافٍ في الدلالة علىٰ أهمية ذلك الموقف من بدايته إلىٰ نهايته ، وكاف أيضاً في الدلالة علىٰ قداسة أوقاته بل وما بعدها ؛ فإن الله قد أراد للإنسان أن ينشدَّ إليه في هذه الفترات الغالية أنشداداً قوياً ؛ لإستقبال بقية الأعمال .

أسأل الله أن يوفقنا لمراضيه إنه سميع الدعاء ، وصلّىٰ الله علىٰ محمد وآله .

البحرين ـ الدراز **عباس أحمد الريس الدرازي**

المقدمة الثالثة
في الدعاء وفضله

جاء في فضل الدعاء : بأنه مخ العبادة ، وأنه سلاح المؤمن . وقد ركز الشارع على العبادة بما هي عبادة وطرح لها اعتبارات لكي يزيد من ثوابها ، وتضاعيفه .

والدعاء شيء من العبادة ، بل هو العبادة ، وذلك لشدة الملازمة بينهما ، فلا يمكن أن نتصور عبادة خالية من الدعاء وقد ذكروا أنه يأتي بمعنى الصلاة إلا أن هذا اللفظ صار منقولاً من أصل اللغة إلى الإصطلاح الشرعي الذي خصص المعنى اللغوي .

الدعاء عبادة مركزة ، لأن الداعي لا يدعو إلا بعد أن ينطوي معناه في القلب . فهو أقرب إلى الروح من المادة ، وأقرب إلى السماء من الأرض ، وأقرب إلى الآخرة من الدنيا ، وأخيراً أقرب إلى الخالق من المخلوق . وبهذا يرتفع الإنسان الداعي إلى مصاف الملائكة إذا هو دعا وهو على هذه الصفة .

إن المجال الروحي أوسع من المجال المادي الذي يدور في فلكه جسم الإنسان الذي احتاج إلى تلك الأبعاد المتفاوتة . والروح تستطيع أن تتحرر من جميع القيود التي تحيط بالإنسان في هذا الكون المليء بالأجسام الفولاذية ،

كما قال العالم الرياضي أنيشتاين .

وفعل الدعاء في هذا المجال فعل كثير . فهو يقرب إلى الله زلفى ، ويبعد الإنسان عن غمرة الأهواء ، والنزعات التي تجتاحه بين آونة وأخرى ؛ لأنه في هذه اللحظات المملوءة بذكر الله «سبحانه» يعيش في أمن وأمان ؛ لأنه يناجي رب الأرباب ، في ظل أمنه وأمانه . ومن جهة أخرى ، إن الداعي وهو يمارس هذه العبادة ، يشعر بطمأنينة ؛ لأنه في مناجاته ، لا يطمع في شيء سوى رضوان الله ، ومن ثم فإن إجابته وتلبية مطالبه إن كانت خيراً هي محققة .

ثم إن الداعي في هذه الحالة لا يشك أحد في أنه قد بلغ من الثقة بربه بحيث أصبح لا يرجو إلا فضله ، ولا يأمل إلا نواله ، ولا يزيد إلا عطاءه ، والله أجل وأكرم من أن يرد لهذا العبد دعوة ، أو يخيب ظناً ، وإذا ظن العبد بربه خيراً ، فإن الله عند ظن عبده ، فليظن العبد بربه خيراً .

أما مكان الدعاء وزمانه ، فقد ورد عن أهل البيت الطاهر «عليهم السلام» في ذلك الشيء الكثير ، وتجد بعضه في تضاعيف الكتاب الذي بين يديك ، ونذكر هنا بعضاً مما جاء عنهم «سلام الله عليهم» .

فمنها ما جاء في البحار ما ملخصه : عن زيد النوسي قال : كنت مع معاوية بن وهب في الموقف، فما رأيته يدعو لنفسه بحرف واحد ، ورأيته يدعو لرجل رجل من الآفاق بأسمائهم وأسماء آبائهم ، حتى أفاض الناس ، فقلت له يا عم : لقد عجبت منك ومن إيثارك إخوانك على نفسك في مثل هذا الموضع . فقال : لا تعجب فإني سمعت مولاي ، ومولى كل مؤمن ومؤمنة ، جعفر الصادق «عليه السلام» ، وإلا صمت أذنا معاوية ، وعميت عيناه ، ولا نالته شفاعة محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» ، إن لم أكن سمعت منه ، وهو يقول : من دعا لأخيه المؤمن بظهر الغيب ، ناداه ملك من السماء الدنيا : يا

عبد الله ، ولك مائة ألف ضعف ما طلبت لأخيك ، ويناديه ملك من السماء الثانية : يا عبد الله ، ولك مائتا ألف ضعف ما دعوت ، وهكذا كل سماء يزاد فيها مائة ألف إلى السماء السابعة فيناديه ملك : يا عبد الله ولك سبعمائة ألف ضعف ما دعوت ، فيناديه الله «سبحانه» : أنا الغني لا أفتقر يا عبدي لك ألف ألف ، ضعف ما دعوت . فانظر أين أكثر يا بن أخي ؟ ما اخترته أنا لنفسي ، أو ما اخترته أنت لي[1] ؟ .

وفيه أيضاً عن مصابيح الأنوار ، عن جعفر بن محمد «عليهما السلام» قال : كانت فاطمة إذا دعت تدعو للمؤمنين والمؤمنات ، ولا تدعو لنفسها ، فقيل لها : فقالت : الجار ثم الدار[2] .

وفيه أيضاً عن كتاب الاختصاص ، عن ابن الوليد عن سعد ، عن محمد بن عيسى ، عن ابن أبي عمير ، عن بعض أصحابه قال : كان عيسى ابن أعين إذا حج فصار إلى الموقف أقبل على الدعاء لإخوانه حتى يفيض الناس ، فقيل له : تنفق مالك وتتعب بدنك حتى إذا صرت إلى الموضع الذي تبث فيه الحوائج إلى الله ، أقبلت على الدعاء لإخوانك ، وتترك نفسك ؟ فقال : إني على يقين من دعاء الملك لي ، وفي شك من الدعاء لنفسي[3] .

وفيه أيضاً عن الاختصاص : أحمد بن محمد بن القاسم الكوفي ، عن علي بن محمد بن يعقوب ، عن علي بن الحسن بن فضال عن علي بن أسباط ، عن إبراهيم بن أبي البلاد ، أو عبد الله بن جندب قال : كنت في الموقف ، فلما أفضت لقيت إبراهيم بن شعيب ، فسلمت عليه ، وكان مصاباً

---

(١) البحار : ج ٩٠ ص ٣٨٩ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) البحار : ج ٩٠ ص ٣٩١ .

بإحدى عينيه ، وإذا عينه الصحيحة حمراء كأنها علقة دم ، فقلت له : قد أصبت بإحدى عينيك ، وأنا مشفق لك على الأخرى ، فلو قصرت من البكاء قليلاً ! قال : لا والله يا أبا محمد ما دعوت لنفسي اليوم بدعوة فقلت : فلمن دعوت ؟ قال : دعوت لإخواني ، سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول : من دعا لأخيه بظهر الغيب وكل الله به ملكاً يقول : ولك مثلاه ، فأردت أن أكون إنما أدعو لإخواني ، ويكون الملك يدعو لي ، لأني في شك من دعائي لنفسي ، ولست في شك من دعاء الملك لي(١) .

وأنت إذا تأملت ما ذكرنا من الأخبار وغيرها مما لم يذكر أخذك العجب في هذا الكلام الذي يصدق آخره أوله ، فإن أئمة الهدى «عليهم السلام» ، قد محضوا النصح للناس جميعاً ، وشرعوا مسالك للدعاء ، وعرفوا الناس كيفية الخطاب مع المولى «سبحانه» فكانوا يترسمون الطريق الذي به يصل الإنسان إلى ربه ، ويشيرون إلى مواطن الخير والبركة التي يتوخاها الداعي من دعائه .

إن نبذ الأنانيات المقيتة في حالة الدعاء ، وتذويب الإنسان نفسه في إخوانه المؤمنين ، وتقديمهم في الدعاء على نفسه لهو أقصى درجات الكمال الإنساني ، فلو التزم كل إنسان بالدعوة لأخيه في ظهر الغيب ، ونبذ الظنون الباهتة في أخيه وأحسن الظن به ، لانتفت كل عاهة في المجتمع الإنساني وعلى رأسها النفاق الذي كان ولا يزال ينخر في عظام الأمة منذ اللحظة الأولى التي ظهرت فيها بوادر الرحمة للإنسان ، وبدأت فيها الدعوة الإسلامية في العطاء ، ثم لارتفعت الوساوس والأوهام من قلوب الناس .

ويظهر لك مما تقدم أيضاً أن يوم عرفة هو يوم دعاء ومسألة . وفي هذه الروايات حث على استغلال ذلك اليوم ، وعدم التفريط فيه ، وإن كثرة

---

(١) البحار : ج ٩٠ ص ٣٩١ .

الأدعية التي وردت فيه دليل على أهمية الزمان والمكان .

أما الأوقات التي يستجاب فيها الدعاء ، أو تكون مظنة الاستجابة أوقات بارك الله فيها ، وقد ذكرنا في مطاوي الكتاب بعضاً من هذه الأوقات المباركة ، ونضيف هنا شيئاً آخر من ذلك فنقول :

في نوادر الراوندي ، بإسناده عن موسى بن جعفر عن آبائه «عليهم السلام» قال : قال علي «عليه السلام» : إذا فاء الأفياء ، وهبت الرياح ، فاطلبوا حوائجكم من الله تعالى ، فإنها ساعة الأوابين[1] .

وفي الاختصاص : قال الصادق «عليه السلام» : يستجاب الدعاء في أربعة مواطن : في الوتر ، وبعد طلوع الفجر ، وبعد الظهر ، وبعد المغرب[2] .

وفي جواهر الكراجكي : عنهم «عليهم السلام» ، من كانت له إلى الله حاجة فليطلبها في ستة أوقات : عند الأذان ، وعند زوال الشمس ، وبعد المغرب ، وفي الوتر ، وبعد صلاة الغداة ، وعند نزول الغيث[3] .

وجاء في أمالي الطوسي عن الفضائري ، عن التلعكبري عن محمد بن همام ، عن الحميري ، عن الطيالسي ، عن رزيق الخلقاني قال : سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول : عليكم بالدعاء والإلحاح على الله عز وجل في الساعة التي لا يخيب الله عز وجل فيها براً ولا فاجراً ، قلت : جعلت فداك وأي ساعة هي ؟ قال : هي الساعة التي دعا فيها أيوب «عليه السلام» ، وشكا إلى الله عز وجل بليته ، فكشف الله عز وجل ما به من طر ودعا فيها

---

(١) البحار : ج ٩٠ ص ٣٤٦ .
(٢) البحار : ج ٩٠ ص ٣٤٦ .
(٣) البحار : ج٩٠ ص ٣٤٧ .

يعقوب «عليه السلام» فرد الله عليه يوسف ، وكشف الله كربته ، ودعا فيها محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فكشف الله عز وجل كربه ، ومكنه من أكتاف المشركين ، بعد اليأس أنا ضامن ألا يخيب الله عز وجل في ذلك الوقت براً ولا فاجراً ، البر يستجاب له في غيره ويصرف الله إجابته إلى ولي من أوليائه ، فاغتنموا الدعاء في ذلك الوقت[1] .

أرأيت كيف يضع الأئمة «عليهم السلام» أيدينا على اللامحسوسات ، لكي يغتنم الإنسان هذه الأوقات الثمينة التي ربما لا تعود ، وينصحون بالإلحاح في المسألة ، فإنه من كثر من قرع الباب يوشك أن يفتح له .

وبهذا الإعتبار نستطيع أن نقول : أن الدعاء له أهمية في علاج النفس الإنسانية ، وترويضها ، وكبح جماحها ؛ لأن الداعي كما أشرنا سابقاً ينقطع به عن الدنايا وشوائب المادية الهزيلة ، ويرتفع به إلى الملأ الأعلى ؛ ليزاحم الملائكة في عبادتها ، وينافسها في مراتبها ، ولا أطيل في هذه المقدمة بأكثر مما ذكرت ، ومن أراد الإلمام بأكثر من ذلك فعليه بمراجعة كتب الأدعية المختصة بذلك فإن فيها كنوزاً من الخير ، ومعيناً من البركة لا ينضب ، وبحوراً من العلم والمعرفة لا تنفد .

والله قريب مجيب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عباس أحمد الريس الدرازي

البحرين ـ الدراز

---

(١) البحار : ج٩٠ ص ٣٤٧ .

دعاء الإمام الحسين (ع) يوم عرفة

دعـاء الإمام سيـد شباب أهـل الجنة أبي الشهـداء الأحرار الحسين بن علي عليهمـا أفضـل الصلاة والسـلام ، في يـوم عـرفـة ، وقـد رواه السيـد رضي الـدين علي بن طاووس الحلي ، أحله الله دار كرامته آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

اَلْحَمْدُ للهِ الذي لَيسَ لِقضائهِ دافعٌ ، وَلا لِعَطائهِ مانعٌ ، وَلا كَصُنْعِهِ صُنْعُ صانعٍ ، وَهُوَ الجوادُ الواسعُ ، فطرَ أجناسَ البَدائعِ ، وأتقَنَ بحِكمَتِهِ الصّنائعَ ، لا تخفى عليهِ الطّلائعُ ولا تَضِيعُ عنـدهُ الودائعُ ، أتى بالكتابِ الجامعِ ، وبشرعِ الاسلامِ النّورِ الساطعِ ، وهُوَ للخليقةِ صانعٌ ، وهو المستعانُ على الفجائعِ ، جازِي كلِّ صانعٍ ورائشُ كلِّ قانعٍ ، وراحمُ كلِّ ضارعٍ ، ومنزِّلُ المنافعِ ، والكتابِ الجامعِ ، بالنورِ الساطعِ وهُوَ للدّعواتِ سامعٌ ، وللمطيعين نافع ، وللدّرجاتِ رافعٌ ، وللكُرُباتِ دافعٌ ، وللجبابرةِ قامـعٌ ، وراحمُ عبرةِ كلِّ ضارعٍ ورافعُ ضرعةَ كلِّ ضارعٍ ، فلا الهَ غيرهُ ، ولا شيء يعدلهُ

وليسَ كمثلهِ شيءٌ ، وهوَ السميعُ العليمُ البصيرُ ، اللطيفُ . الخبيرُ ، وهُوَ علىٰ كل شيءٍ قديرُ ، اللهمَّ اني أرغَبُ اليكَ ، واشهدُ بالربوبيةِ لَـكَ ، مقرّاً بانكَ ربيّ وأنّ اليكَ مَردّي ، ابتدأتني بنعمتكَ قبلَ أنْ أكونَ شيئاً مذكوراً ، وخلقتني مِنَ التّرابِ ، ثمّ اسكنتني الاصلابَ آمناً لِريبِ المنونِ ، واختلافِ الدهورِ ، فلمْ أزلْ ظاعناً مِنْ صُلبٍ الىٰ رَحِمٍ في تقادمِ الأيّامِ الماضيةِ ، والقرونِ الخاليةِ لم تُخرجني لرأفتكَ بي ولُطفكَ لي وإِحسانكَ اليّ في دولةِ أيامِ الكَفَرَةِ الذينَ نقضوا عهدكَ ، وَكذّبوا رُسلكَ ، لكنكَ أخرجتني رأفةً منكَ وتحنناً عليَّ ، للّذي سَبَقَ لي مِنَ الهُدىٰ الذي له يَسّرتني وَفيهِ أنشأْتني ومن قبلِ ذلكَ رؤفتَ بي بجميلِ صنعكَ وَسوابغِ نعمَتِكَ، فأبتَدعتَ خلقي من مَنيٍ يُمنى ثُمَّ أسكنْتني فى ظُلُمَاتٍ ثلاثٍ بَينَ لَحْمٍ وَجلْدٍ وَدمٍ ، لَمْ تُشْهِرْني بِخَلْقي وَلَم تَجْعَلْ إِليَّ شَيْئاً مِنْ أمري، ثُمّ أخْرجْتَني إِلىٰ ٱلدُّنيا تاماً سَوياً ، وَحفظتني في ٱلمَهْدِ طِفلاً صَبياً ، ورزقتني مِنَ ٱلغذاءِ لَبناً مَرياً ، وَعطفْتَ عليّ قلوبَ ٱلحواضِنِ وَكَفّلْتَني ٱلامَهات ٱلرّحائِمِ وَكَلأْتني من طَوارقِ ٱلجانِ وَسلمْتَني

مِنَ ٱلزِّيادَةِ وَٱلنُّقْصانِ ، فَتَعالَيْتَ يا رَحِيمُ يا رَحْمٰنُ ، حَتّىٰ إِذا اسْتَهْلَلْتُ ناطِقاً بِالْكَلامِ ، أَتْمَمْتَ عَلَيَّ سَوابِغَ ٱلْإِنْعامِ فَرَبَّيْتَنِي زائِداً في كُلِّ عامٍ حَتّىٰ إِذا كَمُلَتْ فِطْرَتِي وَٱعْتَدَلَتْ سَرِيرَتِي أَوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بِأَنْ أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ وَرَوَّعْتَنِي بِعَجائِبِ فِطْرَتِكَ وَأَيْقَظْتَنِي لِما ذَرَأْتَ في سَمائِكَ وَأَرْضِكَ ، مِنْ بَدائِعِ خَلْقِكَ وَنَبَّهْتَنِي لِذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ ، وَواجِبِ طاعَتِكَ وَعِبادَتِكَ ، وَفَهَّمْتَنِي ما جاءَتْ بِهِ رُسُلُكَ وَيَسَّرْتَ لِي تَقَبُّلَ مَرْضاتِكَ ، وَمَنَنْتَ عَلَيَّ في جَمِيعِ ذٰلِكَ بِعَوْنِكَ وَلُطْفِكَ ، ثُمَّ إِذْ خَلَقْتَنِي مِنْ حُرِّ ٱلثَّرىٰ ، لَمْ تَرْضَ لِي يا إِلٰهِي بِنِعْمَةٍ دُونَ أُخْرىٰ ، وَرَزَقْتَنِي مِنْ أَنْواعِ ٱلْمَعاشِ وَصُنُوفِ ٱلرِّياشِ ، بِمَنِّكَ ٱلْعَظِيمِ عَلَيَّ ، وَإِحْسانِكَ ٱلْقَدِيمِ إِلَيَّ ، حَتّىٰ إِذا أَتْمَمْتَ عَلَيَّ جَمِيعَ ٱلنِّعَمِ ، وَصَرَفْتَ عَنِّي كُلَّ ٱلنِّقَمِ ، لَمْ يَمْنَعْكَ جَهْلِي ، وَجُرْأَتِي عَلَيْكَ أَنْ دَلَلْتَنِي عَلىٰ ما يُقَرِّبُنِي إِلَيْكَ ، وَوَفَّقْتَنِي لِما يُزْلِفُنِي لَدَيْكَ فَإِنْ دَعَوْتُكَ أَجَبْتَنِي وَإِنْ سَأَلْتُكَ أَعْطَيْتَنِي ، وَإِنْ أَطَعْتُكَ شَكَرْتَنِي ، وَإِنْ شَكَرْتُكَ زِدْتَنِي ، كُلُّ ذٰلِكَ إِكْمالاً لِأَنْعُمِكَ

عليَّ وإحسانكَ إليَّ. فسبحانكَ سبحانكَ من مبديءٍ معيدٍ،
حميدٍ مجيدٍ. وتقدّست أسماؤك وعظمتْ آلاؤك. فأيُّ نعمكَ
يا إلهي أُحصي عدداً أو ذكراً، أم أيُّ عطاياك أقوم بها
شكراً. وهي يارب أكثر من أن يحصيها العادُّون. أو يبلغ
علماً بها الحافظون، ثمّ ماصرفت ودرأت عنّي اللّهم من
الضرّ والضرّاء أكثرُ ممّا ظهرَ لي من العافيةِ والسرّاء،
وأنا أشهدُ ياإلهي بحقيقةِ إيماني، وعقد عزماتِ يقيني،
وخالص صريحِ توحيدي، وباطن مكنُون ضميري، وعلائق
مجاري نورِ بصري وأساريرِ صفحة جبيني، وخُرق مسارب نفسي
وخذاريف مارنِ عِرنيني، ومساربِ صماخ سمعي، وماضمّتْ
وأطبقتْ عليهِ شفتاي. وحركاتِ لفظ لساني ومغرز
حنكِ فمي، وفكّي ومنابتِ أضراسي، وبلوغِ حبائل بارعِ
عُنُقي، ومساغ مطعمي ومشربي، وحمالة أمّ رأسي وجمل
حمائلِ حبلِ وتيني، وما اشتملَ عليه تامورُ صدري،
ونياط حجابِ قلبي، وأفلاذ حواشي كبدي، وماحوته
شراسيفُ أضلاعي، وحقاقُ مفاصلي، وأطرافُ أناملي،

وَقبْضُ عوامِلي ، وَلحمي وَدَمي ، وَشَعْري ، وَبَشَري ، وَعَصَبي
وَقَصَبي ، وَعِظامي ، وَمُخّي ، وَعُرُوقي ، وَجَميعُ جَوارِحي ،
وَما انتَسَجَ على ذلكَ أيامَ رِضاعي ، وما أقَلَّتِ الأرضُ مِنّي
وَنَومي ، وَيقَظتي ، وَسُكوني ، وَحَرَكَتي ، وَحَرَكاتُ رُكوعي
وَسُجُودي ، أنْ لو حاوَلتُ وَاجْتَهَدتُ مَدى الأعصارِ
وَالأحقابِ لَو عُمِّرْتُها ، أنْ أُؤدّي شُكرَ واحدَةٍ مِنْ أنعُمِكَ ،
ما استَطَعْتُ ذلكَ إلاّ بِمَنِّكَ المُوجِبِ عَليَّ شُكراً آنفاً جَديداً ،
وَثَناءً طارِفاً عَتيداً ، أجَلْ ، وَلَوْ حَرَصْتُ أنا وَالعادُّونَ مِن
أنامِكَ ، أنْ نُحصيَ مَدى إنعامِكَ سالِفَةً وَآنِفَةً ، لَما حَصَرْناهُ
عَدَداً ، وَلا أحصَيْناهُ أبَداً ، هَيْهاتَ أنّى ذلكَ وَأنتَ المُخْبِرُ
عَنْ نَفْسِكَ في كِتابِكَ النّاطِقِ ، وَالنَّبأِ الصّادِقِ : وَإنْ تَعُدُّوا
نِعْمَةَ اللهِ لا تُحصُوها ، صَدَقَ كِتابُكَ اللّهُمَّ وَإنباؤكَ وَبَلَّغَتْ
أنبياؤكَ وَرُسُلُكَ ما أنزَلْتَ عَلَيْهِمْ مِن وَحْيِكَ ، وَشَرَعْتَ
لَهُمْ مِنْ دِينِكَ غَيْرَ أنّي يا إلهي أشهَدُ بِجِدّي وَجُهْدي ، وَمَبالِغِ
طاقَتي وَوُسْعي ، وَأقولُ مُؤمِناً مُوقِناً ، ألْحَمْدُ للهِ الّذي لَمْ
يَتَّخِذْ وَلَداً فَيَكُونَ مَوْرُوثاً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في

ٱلْمُلْكِ فَيُضَادُّهُ فِيمَا ٱبْتَدَعَ وَلاَ وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ فَيُرْفِدُهُ فِيمَا صَنَعَ ، سُبْحَانَهُ ، سُبْحَانَهُ ، سُبْحَانَهُ ، لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ ٱللّٰهُ لَفَسَدَتَا ، وَتَفَطَّرَتَا ، فَسُبْحَانَ ٱللّٰهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْحَقِّ ، ٱلأَحَدِ ، الصَّمَدِ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ . الْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْداً يَعْدِلُ حَمْدَ مَلاَئِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَأَنْبِيَائِهِ ٱلْمُرْسَلِينَ ، وَصَلَّى ٱللّٰهُ عَلَىٰ خِيَرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ الْمُخْلَصِينَ .

اللّٰهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشَاكَ ، كَأَنِّي أَرَاكَ ، وَأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ وَلاَ تُشْقِنِي بِمَعْصِيَتِكَ ، وَخِرْ لِي فِي قَضَائِكَ ، وَبَارِكْ لِي فِي قَدَرِكَ ، حَتَّى لاَ أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ ، وَلاَ تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ ، اللّٰهُمَّ ٱجْعَلْ غِنَايَ فِي نَفْسِي ، وَٱلْيَقِينَ فِي قَلْبِي وَٱلإِخْلاَصَ فِي عَمَلِي ، وَٱلنُّورَ فِي بَصَرِي ، وَٱلْبَصِيرَةَ فِي دِينِي وَمَتِّعْنِي بِجَوَارِحِي ، وَٱجْعَلْ سَمْعِي وَبَصَرِي الْوَارِثَيْنِ مِنِّي ، وَٱنْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنِي ، وَٱرْزُقْنِي مَآرِبِي وَثَارِي ، وَأَقِرَّ بِذٰلِكَ عَيْنِي ، اللّٰهُمَّ اكْشِفْ كُرْبَتِي ، وَٱسْتُرْ عَوْرَتِي ، وَٱغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي ، وَٱخْسَأْ شَيْطَانِي ، وَفُكَّ رِهَانِي ، وَٱجْعَلْ

لي يا إلهي الدرجة العليا، في الآخرة والأولى، اللهم لك الحمد كما خلقتني، فجعلتني سميعاً بصيراً، ولك الحمد كما خلقتني، فجعلتني حياً سوياً، رحمة بي وكنت عن خلقي غنياً، رب بما برأتني فعدلت فطرتي، رب بما أنشأتني فأحسنت صورتي، رب بما أحسنت بي وفي نفسي عافيتني، رب بما كلأتني ووفقتني، رب بما أنعمت علي فهديتني، رب بما آويتني ومن كل خير آتيتني، وأعطيتني، رب بما أطعمتني وسقيتني، رب بما أغنيتني واقنيتني، رب بما اعنتني واعززتني، رب بما ألبستني من سترك الصافي، ويسرت لي من صنعك الكافي، صل على محمد وآل محمد، وأعني على بوائق الدهر، وصروف الأيام والليالي، ونجني من أهوال الدنيا، وكربات الآخرة واكفني شر ما يعمل الظالمون في الأرض، اللهم ما أخاف فاكفني، وما أحذر فقني، وفي نفسي وديني فاحرسني، وفي سفري فاحفظني، وفي أهلي

وَمالي وَوَلَدي فَاخْلُفْني، وَفيما رَزَقْتَني فَبارِكْ لي، وَفي نَفْسي فَذَلِّلني، وَفي أَعْيُنِ النّاسِ فَعَظِّمْني، وَمِنْ شَرِّ الجِنِّ وَالإِنْسِ فَسَلِّمْني، وَبِذُنوبي فَلا تَفْضَحْني، وَبِسَريرَتي فَلا تُخْزِني، وَبِعَمَلي فَلا تُبْسِلْني، وَنِعَمَكَ فَلا تَسْلُبْني، وَإِلى غَيْرِكَ فَلا تَكِلْني، إِلى مَنْ تَكِلُني إِلى القَريبِ فَيَقْطَعُني، أَمْ إِلى البَعيدِ فَيَتَجَهَّمُني، أَمْ إِلى المُسْتَضْعِفينَ لي وَأَنْتَ رَبّي وَمَليكُ أَمْري، أَشْكُوا إِلَيْكَ غُرْبَتي، وَبُعْدَ داري، وَهَواني عَلى مَنْ مَلَّكْتَهُ أَمْري، أَللَّهُمَّ فَلا تُحْلِلْ بي غَضَبَكَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ غَضِبْتَ عَلَيَّ فَلا أُبالي سِواكَ، غَيْرَ أَنَّ عافِيَتَكَ أَوْسَعُ لي، فَأَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي أَشْرَقَتْ لَهُ الأَرْضُ وَالسَّماواتُ وَانْكَشَفَتْ بِهِ الظُّلُماتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الأَوَّلينَ وَالآخِرينَ، أَنْ لا تُميتَني عَلى غَضَبِكَ، وَلا تُنْزِلَ بي سَخَطَكَ لَكَ العُتْبى، حَتّى تَرْضى، مِنْ قَبْلِ ذلِكَ: لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ رَبَّ البَلَدِ الحَرامِ، وَالمَشْعَرِ الحَرامِ، وَالبَيْتِ العَتيقِ الَّذي أَحْلَلْتَهُ البَرَكَةَ، وَجَعَلْتَهُ لِلنّاسِ أَمَنَةً: يا مَنْ عَفى عَنِ العَظيمِ مِنَ الذُّنوبِ بِحِلْمِهِ، يا مَنْ أَسْبَغَ النِّعْمَةَ بِفَضْلِهِ،

يامَنْ أعطى الجزيلَ بِكَرَمِهِ ، ياعُدَّتي في كُرْبَتي ، وَيامُؤْنِسي في حُفْرَتي ، ياوَلِيَّ نِعْمَتي ، ياإلٰهي وَإله آبائي إبْراهيمَ ، وَإسْماعِيلَ ، وَإسْحاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، وَرَبَّ جَبْرَئيلَ وَميكائيلَ وَإسْرافيل ، وَرَبَّ مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيّين ، وَآلِهِ المُنْتَجَبين ، وَمُنْزِلَ التَّوْراةِ ، وَالإنْجيلِ ، وَالزَّبورِ ، وَالقُرآنِ العَظيمِ ، وَمُنْزِلَ كهيعص ، وَطه وَيس وَالقُرآنِ الحَكيمِ ، أنتَ كَهْفي حينَ تُعْيِيني المَذاهِبُ في سَعَتِها ، وَتَضيقُ عَلَيَّ الأرضُ بِما رَحُبَتْ ، وَلَوْلا رَحْمَتُكَ لَكُنْتُ مِنَ المَفْضوحينَ ، وَأنتَ مُؤَيِّدي بِالنَّصْرِ عَلى الأعْداءِ وَلَوْلا نَصْرُكَ لي لَكُنْتُ مِنَ المَغْلوبينَ ، يامَنْ خَصَّ نَفْسَهُ بالسُّمُوِّ وَالرِّفْعَةِ فَأوْلِياؤُهُ بِعِزِّهِ يَعْتَزُّونَ ، يامَنْ جَعَلَتْ لَهُ المُلُوكُ نيرَ المَذَلَّةِ عَلى أعْناقِهِمْ فَهُمْ مِنْ سَطَواتِهِ خائِفونَ ، يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ وَما تُخْفي الصُّدورُ ، وَغَيْبَ ماتَأتي بِهِ الأزْمانُ وَالدُّهُورُ ، يامَنْ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إلاّ هُوَ ، يامَنْ لا يَعْلَمُ ماهُوَ إلاّ هُوَ ، يامَنْ لا يَعْلَمُ مايَعْلَمُهُ إلاّ هُوَ ، يامَنْ كَبَسَ الأرضَ عَلى الماءِ ، وَسَدَّ الهَواءَ بِالسَّماءِ ، يامَنْ لَهُ أكْرَمُ الأسْماءِ ، ياذا المَعْروفِ

الّذي لا يَنْقَطِعُ أبَداً ، يامُقَيِّضَ الرَّكْبِ لِيُوسُفَ في البَلَدِ القَفْرِ ، وَمُخْرِجَهُ مِنَ الْجُبِّ وَجاعِلَهُ بَعْدَ الْعُبُودِيَّةِ مَلِكاً ، يارادَّ يُوسُفَ عَلىٰ يَعقُوبَ بَعْدَ أنِ ابيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظيمٌ ، ياكاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلاءِ عَنْ أيُّوبَ ، يامُمْسِكَ يَدِ إبراهيمَ عَنْ ذَبحِ ابنِهِ بَعدَ أنْ كَبُرَ سِنُّهُ وَفَنِيَ عُمُرُهُ ، يامَن اسْتَجابَ لِزَكَرِيّا فَوَهَبَ لَهُ يَحْيىٰ ، وَلَمْ يَدَعْهُ فَرْداً وَحيداً يامَنْ أخْرَجَ يُونُسَ مِن بَطْنِ الْحُوتِ ، يامَنْ فَلَقَ البَحْرَ لِبَني إسرائيلَ فَأَنْجاهُمْ وَجَعَلَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنَ الْمُغْرَقينَ يامَنْ أرْسَلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، يامَنْ لا يَعْجَلُ عَلىٰ مَنْ عَصاهُ مِنْ خَلْقِهِ ، يامَن اسْتَنْقَذَ السَّحَرَةَ مِنْ بَعْدِ طُولِ الْجُحُودِ ، وَقَدْ غَدَوْا في نِعْمَتِه ، يأكُلُونَ رِزْقَهُ ، [illegible]

يا بَديءُ لا بَدْءَ لَكَ ، يادائِماً لا نَفادَ لَكَ ، ياحَيُّ ، ياقَيُّومُ ، يامُحيِيَ الموتىٰ ، يامَنْ هُوَ قائِمٌ عَلىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ يامَنْ قَلَّ لَهُ شُكْري فَلَمْ يَحرِمْني ، وَعَظُمَتْ خَطيئَتي فَلَمْ يَفْضَحْني وَرَآني عَلىٰ المَعاصي فَلَمْ يَخْذُلْني يامَنْ حَفِظَني في

صغري، يامن رزقني في كبري، يامن أياديه عندي لا تحصى يامن نعمه عندي لا تجازى، يامن عارضني بالخير والإحسان وعارضته بالإساءة والعصيان، يامن هداني للايمان قبل أن أعرف شكر الإمتنان، يامن دعوته مريضاً فشفاني. وعرياناً فكساني، وجائعاً فأطعمني، وعطشان فأرواني، وذليلاً فأعزني، وجاهلاً فعرفني، ووحيداً فكثرني، وغائباً فردني، ومقلاً فأغناني، ومنتصراً فنصرني، وغنياً فلم يسلبني وأمسكت عن جميع ذلك فابتدأتني فلك الحمد يامن أقال عثرتي، ونفس كربتي، وأجاب دعوتي، وستر عورتي وذنوبي وبلغني طلبتي، ونصرني على عدوي، وإن أعد نعمك ومننك وكرائم منحك لا أحصيها يامولاي. أنت الذي أنعمت، أنت الذي أحسنت أنت الذي أجملت، أنت الذي أفضلت، أنت الذي مننت، أنت الذي أكملت، أنت الذي رزقت، أنت الذي أعطيت، أنت الذي أغنيت أنت الذي أقنيت، أنت الذي آويت، أنت الذي كفيت أنت الذي هديت، أنت الذي عصمت، أنت الذي سترت،

أنتَ الذي غفَرتَ ، أنتَ الذي أقلْتَ ، أنتَ الذي مَكّنْتَ ، أنتَ الذي أعززْتَ ، أنتَ الذي أعنْتَ ، أنتَ الذي عَضَدْتَ ، أنتَ الذي أيّدْتَ ، أنتَ الذي نَصَرْتَ ، أنتَ الذي شَفَيْتَ أنتَ الذي عافَيْتَ ، أنتَ الذي أكرَمْتَ ، تباركتَ ربّنا وتعاليتَ ، فلكَ الحمدُ دائماً ولكَ الشكرُ واجباً ، ثم أنا يا إلهي المُعترِفُ بذنوبي فاغفرها لي ، أنا الذي أخطأتُ ، أنا الذي أغفلْتُ ، أنا الذي جَهِلتُ ، أنا الذي هَمَمْتُ ، أنا الذي سَهَوتُ ، أنا الذي اعتَمَدْتُ ، أنا الذي تعَمَّدْتُ ، أنا الذي وَعَدْتُ ، أنا الذي أخلَفْتُ ، أنا الذي نكثتُ ، أنا الذي أقرَرْتُ ، يا إلهي أعترفُ بنِعَمِكَ عندي ، وأبوءُ بذنوبي فاغفرْ لي ، يا من لا تَضُرُّهُ ذنوبُ عبادِهِ وهُوَ الغنيُّ عن طاعَتِهِم ، والموفِّقُ مَنْ عَمِلَ منهم صالحاً بمعونتِهِ ورحمتِهِ فلكَ الحمدُ ، إلهي أمرتَني فعصيتُكَ ونهيتَني فارتكبتُ نَهيَكَ ، فأصبحتُ لا ذا بَراءةٍ فأعتذِر ، ولا ذا قُوّةٍ فأنتَصِر ، فبأيّ شيءٍ أستقبِلُكَ يا مولاي ، أبِسَمْعي أم بِبَصري أم بِلساني ، أم بيدي ، أم برجلي ، أليسَ كلُّها نعَمَكَ عِندي ، وبكلِّها عَصيتُكَ يا مولاي ، فلَكَ الحجّةُ والسبيلُ

عليّ ، يامن سترني من الآباء والأمّهات أن يزجروني ، ومن العشائر والإخوان أن يعيّروني ، ومن السلاطين أن يعاقبوني ولو اطّلعوا يامولاي على ما اطّلعت عليه مني إذاً ما أنظروني ولرفضوني ، وقطعوني ، فها أنا ذا بين يديك يا سيّدي خاضعاً ، ذليلاً ، حصيراً ، حقيراً ، لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو قوّة فانتصر ، ولا حجّة لي فأحتجّ بها ، ولا قائل لم أجترح ولم أعمل سوءا . وما عسى الجحود لو جحدت يامولاي ينفعني ، وكيف وأنى ذلك وجوارحي كلّها شاهدة عليّ بما قد عملت ، يقيناً غير ذي شك أنك سائلي من عظائم الأمور وأنك الحكيم العدل الّذي لا يجور ، وعدلك مهلكي ، ومن كل عدلك مهربي . فإن تعذّبني فبذنوبي يامولاي بعد حجّتك عليّ ، وإن تعف عني فبحلمك وجودك وكرمك ، لاإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من المستغفرين ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الموحدين ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الوجلين ، لا إله إلا أنت سبحانك

إني كُنْتُ من ٱلرّاجينَ ٱلرّاغبينَ ، لا إلهَ إلا أنتَ سُبحانك إني كُنْتُ من ٱلسّائلينَ ، لا إلهَ إلا أنت سُبحانكَ إني كُنْتُ مِنَ ٱلمُهلّلينَ ٱلمُسبّحينَ ، لا إلهَ إلا أنت ربى وَربُّ آبائى ٱلأوّلينَ . اللهُمَّ هذا ثنائي عَلَيْكَ مُمجّداً وَإخلاصي لكَ مُوحّداً وإقراري بآلائكَ مُعدّداً ، وَإنْ كُنْتُ مُقرّاً أنّي لاأُحصيها ، لِكَثْرتها ، وَسُبُوغها ، وَتَظاهُرِها ، وَتقادُمِها ، إلى حادِثٍ ما لَمْ تزَلْ تتَغَمّدُني معَها ، مُذْ خَلَقْتَني وبرأتني مِنْ أوّلِ ٱلعُمُرِ مِنَ الإغناء بعْدَ ٱلفَقْرِ ، وكَشْفِ ٱلضُرّ ، وَتَسبيبِ ٱليُسْرِ ، وَدَفْعِ ٱلعُسْرِ ، وَتَفريجِ ٱلكَرْبِ ، وَٱلعافيَةِ في ٱلبَدَنِ ، وَٱلسّلامَةِ في ٱلدّينِ ، وَلَوْ رَفَدَني عَلى قَدْرِ ذِكرِ نِعَمِكَ عَليَّ جَميعُ ٱلعالَمينَ مِنَ ٱلأوّلينَ وَٱلآخِرينَ ، لمَا قَدَرْتُ وَلا هُمْ عَلى ذلِكَ ، تَقَدّسْتَ وَتعالَيْتَ مِنْ رَبٍّ عَظيمٍ ، كَريمٍ رَحيمٍ ، لا تُحصى آلاؤُكَ ، وَلا يُبلَغُ ثَناؤُكَ ، وَلا تُكافى نَعْماؤُكَ ، صَلِّ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِ مُحَمّدٍ ، وَأتمِمْ عَلَيْنا نِعمَتَكَ ، وأسعِدْنا بطاعَتِكَ ، سُبْحانَكَ لا إلهَ إلا أنتَ تُجيبُ دَعْوَةَ ٱلمُضْطَرِّ إذا دَعاكَ وَتَكْشِفُ السُّوءَ ، وَتُغيثُ

المَكْرُوبَ ، وَتشْفِي السَّقِيمَ ، وَتُغْنِي الفَقِيرَ ، وَتجبُرُ الكَسِيرَ وَترْحمُ الصَّغِيرَ ، وَتُعِينُ الكَبِيرَ ، وَلَيْسَ دُونَكَ ظَهِيرٌ وَلا فَوْقَكَ قَدِيرٌ ، وَأَنتَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ، يامُطْلِقَ المُكَبَّلِ الأَسِيرِ يارَازِقَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ ، ياعِصمَةَ الخائِفِ المُسْتَجِيرِ ، يامَنْ لاشَرِيكَ لَهُ وَلا وَزِيرَ ، صَلِّ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحمَّدٍ ، وَأَعْطِنِي فِي هٰذِهِ العَشِيَّةِ أَفضَلَ ماأَعطَيْتَ وَأَنلْتَ أَحداً مِنْ عِبادِكَ ، مِنْ نِعْمَةٍ تُولِيها ، وَآلاءٍ تُجدِّدُها وَبَلِيَّةٍ تَصرِفُها ، وَكُربَةٍ تَكْشِفُها ، وَدَعْوَةٍ تَسمَعُها ، وَحَسَنَةٍ تتقَبَّلُها وَسيِّئَةٍ تَغفِرُها إِنَّكَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ وَعَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، اللّهُمَّ إِنَّكَ أَقرَبُ مَنْ دُعِي ، وَأَسرَعُ مَنْ أَجابَ ، وَأَكْرَمُ مَنْ عَفىٰ ، وَأَوسَعُ مَنْ أَعطىٰ ، وَأَسمَعُ مَنْ سُئِلَ ، يا رَحْمٰنَ الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَرَحِيمَهُما ، لَيسَ كَمِثْلِكَ مَسؤُولٌ ، وَلاسِواكَ مَأْمُولٌ ، دَعَوتُكَ فَأَجبتَنِي ، وَسَأَلتُكَ فَأَعطيتَنِي ، وَرَغِبتُ إِلَيْكَ فَرَحِمْتَنِي ، وَوَثِقْتُ بِكَ فَنَجَّيْتَنِي ، وَفَزِعتُ إِلَيْكَ فَكَفَيْتَنِي ، اللّهُمَّ صَلِّ عَلىٰ مُحمَّدٍ عَبدِكَ ، وَرَسُولِكَ ، وَنبِيِّكَ

وَعلىٰ آلهِ الطَّيِّبينَ الطّاهرينَ أجمَعينَ ، وَتَمِّمْ لَنٰا نعمٰاءكَ ، وَهَنِّئْنٰا عطاءكَ ، وَاْجعَلْنٰا لَكَ شاكرينَ ، وَلالآئكَ ذاكرينَ آمينَ رَبَّ العٰالَمينَ ، اللّهُمَّ يامَنْ مَلَكَ فقدَرَ ، وَقدَرَ فقَهَرَ ، وَعُصيَ فستَرَ ، وَاْستُغفِرَ فغَفَرَ ، ياغايَةَ رَغبَةِ الرّاغِبينَ ، وَمُنْتَهىٰ أمَلِ الراجينَ ، يامَنْ أحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلماً ، وَوسِعَ المُستَقيلينَ رَأفةً وَحِلماً ، اللهُمَّ إنّا نَتَوَجّهُ إلَيكَ في هٰذِهِ العَشِيَّةِ الّتي شَرَّفتَها وَعَظّمْتَها بِمُحمّدٍ نَبيِّكَ وَرَسُولكَ وَخِيرَتكَ وَأمينِكَ علىٰ وَحيِكَ اللهُمَّ فصَلِّ علىٰ البَشيرِ النَّذيرِ ، السراجِ المُنيرِ ، الّذي أنعمْتَ بِهِ عَلىٰ المُسلِمينَ ، وَجعَلتَهُ رَحمَةً للعٰالَمينَ ، اللّهُمَّ فصَلِّ علىٰ مُحمّدٍ وَآلِهِ ، كَما مُحمّدٌ أهلُ ذٰلِكَ ياعَظيمُ ، فصَلِّ عَلَيهِ وَعلىٰ آلِ مُحمّدٍ المُنتَجَبينَ الطّيّبينَ الطاهرينَ أجمَعينَ وَتغَمّدْنا بِعَفوِكَ عَنّا فإلَيكَ عَجّتِ الأصواتُ بِصنُوفِ اللّغاتِ ، وَاْجعَلْ لَنا في هذهِ العَشيّةِ نَصيباً في كُلِّ خَيرٍ تقسِمُهُ ، وَنُورٍ تَهدي بهِ ، وَرَحمَةٍ تَنشُرُها ، وَعافيَةٍ تجَلّلُها ، وَبَرَكَةٍ تُنزِلُها ، وَرِزقٍ تَبسُطُهُ ياأرحَمَ الرّاحمينَ ، اللّهُمَّ اقلِبْنا في هٰذا

الوَقتِ مُنجحينَ ، مُفلحينَ ، مَبرُورين ، غانمينَ ، وَلا تَجعَلْنا منَ القانطينَ ، وَلا تخلنا مِنْ رَحمَتِكَ ، وَلا تحرِمْنا ما نؤمّلهُ من فضلكَ ، وَلا تَردُّنا خائبينَ ، وَلا عَنْ بابكَ مَطرُودينَ ، وَلا تجعَلْنا مِنْ رَحمَتكَ محرُومينَ ، وَلا لفضلِ ما نؤمّلُهُ من عطايَاكَ قانطينَ ، ياأجودَ الأجوَدينَ ، وَيا أكرَمَ الأكرَمينَ ، اللّهُمّ إلَيكَ أقبلْنا مُوقنينَ ، وَلبَيتِكَ الحرامِ آمّينَ قاصدينَ ، فأعِنّا علىٰ مَنسَكِنا ، وَأكمِلْ لنا حجّنا وَآعفُ اللّهُمّ عنّا وَعافنا ، فقَدْ مَدَدْنا إليْكَ أيديَنا وَهيَ بذلّةِ الإعترافِ مَوسُومَةٌ ، اللّهُمّ فأعطِنا في هذهِ العَشيّةِ ماسألناكَ وَآكفِنا ما آستكفَيناكَ ، فلا كافي لَنا سِواكَ ، وَلا رَبّ لَنا غَيرُكَ ، نافذٌ فينا حُكمُكَ ، مُحيطٌ بِنا عِلمُكَ ، عَدلٌ فينا قَضاؤكَ ، إقضِ لَنا الخيرَ ، وَآجعَلْنا من أهلِ الخيرِ ، اللّهُمّ أوجِبْ لَنا بجُودكَ عَظيمَ الأجرِ ، وَكَريمَ الذُخرِ ، وَدوامَ اليُسرِ ، وَآغفِر لَنا ذنوبَنا أجمَعينَ ، وَلا تُهلِكنا مَعَ الهالكينَ وَلا تَصرِفْ عنّا رَأفتَكَ برَحمَتكَ يا أرحَمَ الرّاحمينَ ، اللّهُمّ آجعَلْنا في هذا الوَقتِ ممّنْ سَألَكَ فأعطَيتَهُ ، وَشكَرَكَ فزِدتَهُ

وَتابَ إِلَيْكَ فَقَبِلْتَهُ ، وَتَنَصَّلَ إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِهِ فَغَفَرْتَها لَهُ ، يا ذا الجَلالِ وَالإِكْرامِ ، اللَّهُمَّ وَفِّقْنا ، وَسَدِّدْنا ، وَاعْصِمْنا ، وَاقْبَلْ تَضَرُّعَنا ، يا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ ، وَيا أَرْحَمَ مَنِ اسْتُرْحِمَ ، يا مَنْ لا يَخْفى عَلَيْهِ إِغْماضُ الجُفُونِ ، وَلا لَحْظُ العُيُونِ ، وَلا ما اسْتَقَرَّ في المَكْنُونِ ، وَلا ما انْطَوَتْ عَلَيْهِ مُضْمَراتُ القُلُوبِ ، أَلا كُلُّ ذلِكَ قَدْ أَحْصاهُ عِلْمُكَ ، وَوَسِعَهُ حِلْمُكَ ، سُبْحانَكَ وَتَعالَيْتَ عَمّا يَقُولُ الظّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ، تُسَبِّحُ لَكَ السَّماواتُ السَّبْعُ ، وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، فَلَكَ الحَمْدُ وَالمَجْدُ ، وَعُلُوُّ الجَدِّ ، تَعالَيْتَ رَبَّنا يا ذا الجَلالِ وَالإِكْرامِ ، وَالفَضْلِ وَالإِنْعامِ وَالأَيادِي الجِسامِ ، وَأَنْتَ الجَوادُ الكَرِيمُ ، الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ، أَوْسِعْ عَلَيَّ مِنْ رِزْقِكَ ، وَعافِنِي في بَدَنِي وَدِينِي ، وَآمِنْ خَوْفِي وَأَعْتِقْ رَقَبَتِي مِنَ النّارِ ، اللَّهُمَّ لا تَمْكُرْ بِي ، وَلا تَسْتَدْرِجْنِي ، وَلا تَخْذُلْنِي ، وَادْرَأْ عَنِّي شَرَّ فَسَقَةِ الجِنِّ وَالإِنْسِ .

يا أَسْمَعَ السّامِعِينَ ، وَيا أَبْصَرَ النّاظِرِينَ ، وَيا أَسْرَعَ الحاسِبِينَ ، وَيا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ

وَأسألُكَ اللّهُمَّ حاجَتي الّتي إنْ أعطيتَنيها لَمْ يَضُرَّني ما مَنَعْتَني وَإنْ مَنَعْتَنيها لَمْ يَنْفَعني ما أعطيتَني ، أسألُكَ فكاكَ رَقَبَتي مِنَ النّارِ ، لا إله إلا أنتَ وَحدَكَ لا شَريكَ لَكَ ، لَكَ المُلْكُ ولَكَ الحَمْدُ ، وَأنتَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ، يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبِّ .

إلهي أنا الفَقيرُ في غِنايَ ، فَكَيْفَ لا أكُونُ فقيراً في فَقْري إلهي أنا الجاهِلُ في عِلْمي ، فَكَيْفَ لا أكُونُ جَهُولاً في جَهْلي ، إلهي إنَّ اختلافَ تَدْبيرِكَ ، وَسُرْعَةَ طواءِ مَقاديرِكَ مَنَعا عِبادَكَ العارفينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إلى عَطاءٍ ، وَاليَأسِ مِنْكَ في بَلاءٍ ، إلهي مِنّي ما يَليقُ بِلُؤْمي ، وَمِنْكَ ما يَليقُ بِكَرَمِكَ إلهي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأفَةِ لي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفي ، أفَتَمْنَعُني مِنْهُما بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفي ، إلهي إنْ ظَهَرَتِ المَحاسِنُ مِنّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ المِنَّةُ عَلَيَّ وَإنْ ظَهَرَتِ المَساوي مِنّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الحُجَّةُ عَلَيَّ ، إلهي كَيْفَ تَكِلُني وَقَدْ تَكَفَّلْتَ لي ، وَكَيْفَ أُضامُ وَأنتَ النّاصِرُ لي ، أمْ كَيْفَ أخيبُ وَأنتَ الحَفِيُّ بي ها أنا أتَوَسَّلُ إلَيْكَ بِفَقْري إلَيْكَ ، وَكَيْفَ

أتوسّلُ إليكَ بما هوَ محالٌ أنْ يصلَ إليكَ ، أم كيفَ أشكو إليكَ حالي وهو لا يخفى عليكَ ، أم كيفَ أترجمُ بمقالي وهوَ منكَ برزَ إليكَ ، أم كيفَ تخيّبُ آمالي وهي قد وفدت إليكَ أمْ كيفَ لا تحسنُ أحوالي وبكَ قامتْ ، إلهي ما ألطفكَ بي مع عظيم جهلي ، وما أرحمكَ بي مع قبيح فعلي ، إلهي ما أقربكَ مني وأبعدني عنكَ ، وما أرأفكَ بي فما الذي يحجبني عنكَ ، إلهي علمتُ باختلاف الآثار وتنقّلات الأطوار أنَّ مرادكَ مني أنْ تتعرّفَ اليَّ في كلِّ شيءٍ ، حتى لا أجهلكَ فى شيءٍ ، الهي كلّ ما أخرسني لؤمي أنطقني كرمُكَ ، وكلّ ما آيستني أوصافي أطمعتني مننُكَ ، الهي مَنْ كانتْ محاسنُهُ مساوي فكيفَ لا تكونُ مساويهِ مساوي ، وَمَنْ كانتْ حقائقُهُ دعاوي ، فكيفَ لا تكونُ دعاويهِ دعاوي الهي حكمُكَ النافذُ وَمشيئتُكَ القاهرةُ لَم يترُكا لذي مقالٍ مقالاً ، وَلا لذي حالٍ حالاً . الهي كَمْ مِنْ طاعةٍ بنيتُها ، وحالةٍ شيدْتُها : هدمَ اعتمادي عليها عدلُكَ ، بلْ أقالني منها فضلُكَ ، الهي إنّكَ تعلمُ أني وانْ لمْ تدمِ الطاعةُ مني فعلاً

جَزْماً، فَقَدْ دامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْماً، الهي كَيفَ أعزِمُ وَأنتَ ٱلقاهِرُ، وَكَيفَ لاأعزِمُ وَأنتَ ٱلآمِرُ، الهي تَرَدُّدي في ٱلآثارِ يُوجِبُ بُعْدَ ٱلمَزارِ، فَٱجمَعْني عَلَيْكَ بِخِدمَةٍ تُوصِلُني إِلَيْكَ، كَيفَ يُستَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ الَيكَ، أيكُونُ لِغَيرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مالَيسَ لَكَ حَتّىٰ يَكُونَ هُوَ ٱلمُظْهِرَ لَكَ، مَتىٰ غِبتَ حَتّىٰ تَحتاجَ الى دَليلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتى بَعُدْتَ حَتّىٰ تَكُونَ ٱلآثارُ هِيَ ٱلّتي تُوصِلُ اليكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفقَةُ عَبدٍ لَمْ تَجعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً، الهي أمَرتَ بِالرُّجُوعِ الى ٱلآثارِ فَأرْجِعني الَيكَ بِكِسوَةِ ٱلأنوارِ، وَهِدايَةِ ٱلإستِبصارِ، حَتّىٰ أرجِعَ الَيكَ مِنها كَما دَخَلْتُ إِلَيكَ مِنها مَصُونَ السِّرِّ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيها، وَمَرفُوعَ ٱلهِمَّةِ عَنِ الإعتِمادِ عَلَيها إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، إِلٰهي هٰذا ذُلّي ظاهِرٌ بَيْنَ يَدَيكَ. وَهٰذا حالي لا يَخفىٰ عَلَيْكَ، مِنكَ أطلُبُ ٱلوُصُولَ إِلَيكَ، وَبِكَ أستَدِلُّ عَلَيكَ فَاهْدِني بِنُورِكَ إِلَيكَ، وَأقِمْني بِصِدقِ ٱلعُبُودِيَّةِ بَينَ يَدَيكَ، إِلٰهي عَلِّمْني مِنْ عِلمِكَ ٱلمَخزُونِ، وَصُنّي بِسِرِّكَ ٱلمَصُونِ،

إلهي حققني بحقائق أهل القرب ، واسلك بي مسلك أهل الجذب ، إلهي أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري ، وباختيارك لي عن اختياري ، وأوقفني على مراكز اضطراري ، إلهي أخرجني من ذل نفسي ، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي ، بك أنتصر فانصرني ، وعليك أتوكل فلا تكلني ، وإياك أسأل فلا تخيبني ، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ، وبجنابك أنتسب فلا تبعدني ، وببابك أقف فلا تطردني ، إلهي تقدس رضاك أن تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة مني ، إلهي أنت الغني بذاتك أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنياً عني ، إلهي إن القضاء والقدر يمنيني وان الهوى بوثائق الشهوة أسرني ، فكن أنت النصير لي ، حتى تنصرني وتبصرني ، وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذي هديتهم حيث

اسْتَبانَتْ لَهُمُ المَعالِمُ ، ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ، وَمَا الّذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ، لَقَدْ خابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغى عَنْكَ مُتَحَوّلاً ، كَيْفَ يُرجى سِواكَ وَأَنْتَ ما قَطَعْتَ الإِحْسانَ ، وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ ما بَدَّلْتَ عادَةَ الإِمْتِنانِ يا مَنْ أَذاقَ أَحِبّاءَهُ حَلاوَةَ المُؤانَسَةِ فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ ، وَيا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِياءَهُ مَلابِسَ هَيْبَتِهِ فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَغْفِرِينَ ، أَنْتَ الذّاكِرُ قَبْلَ الذّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ البادِئُ بِالإِحْسانِ قَبْلَ تَوَجُّهِ العابِدِينَ وَأَنْتَ الجَوادُ بِالعَطاءِ قَبْلَ طَلَبِ الطّالِبِينَ وَأَنْتَ الوَهّابُ ثُمَّ لِما وَهَبْتَ لَنا مِنَ المُسْتَقْرِضِينَ ، إِلٰهي أُطْلُبْني بِرَحْمَتِكَ حَتّى أَصِلَ إِلَيْكَ ، وَاجْذِبْني بِمَنِّكَ حَتّى أُقْبِلَ عَلَيْكَ ، إِلٰهي إِنَّ رَجائي لا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ كَما أَنَّ خَوْفي لا يُزايِلُني وَإِنْ أَطَعْتُكَ ، فَقَدْ دَفَعَتْني العَوالِمُ إِلَيْكَ ، وَقَدْ أَوْقَعَني عِلْمي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ ، إِلٰهي كَيْفَ أَخِيبُ وَانْتَ امَلي ، امْ كَيْفَ أُهانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلي ، إِلٰهي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفي

ٱلذِّلَّةِ أَرْكِزْ نَنِي أَمْ كَيْفَ لا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ، إِلٰهي كَيْفَ لا أَفْتَقِرُ وَأَنتَ ٱلَّذي فِي ٱلْفُقَرَاءِ أَقَمْتَنِي ، أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنتَ ٱلَّذي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي ، وَأَنتَ ٱلَّذي لا إِلٰهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنتَ ٱلَّذي تَعَرَّفْتَ لِي فِي كُلِّ شَيْءٍ فَرَأَيْتُكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنتَ ٱلظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، يَا مَنِ ٱسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ فَصَارَ ٱلْعَرْشُ غَيْباً فِي ذَاتِهِ مَحَقْتَ ٱلآثَارَ بِالآثَارِ ، وَمَحَوْتَ الأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلاكِ ٱلأَنوَارِ ، يَا مَنِ ٱحْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عَرْشِهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الأَبْصَارُ ، يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ ٱلإِسْتِوَاءَ ، كَيْفَ تَخْفَى وَأَنتَ ٱلظَّاهِرُ أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنتَ ٱلرَّقِيبُ ٱلْحَاضِرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ .

أصــول المعرفة

قال عليه السلام :

[الحمدُ لِلَّهِ الَّذِي ليسَ لِقَضَائِهِ دَافِعٌ ، ولا لِعَطَائِهِ مانعٌ ، ولاَ كَصُنْعِهِ صُنعُ صَانِعٍ ، وَهُوَ الجَوادُ الواسِعُ] .

اللغة والإعراب

الحمد : نقيض الذم ، يقال : حمدته على فعله ، ومنه المحمدة ، خلاف المذمة . قال تعالى : ﴿**ألحَمدُ لِلَّهِ ربِّ العَالَمِينَ**﴾[1] .

وأما قول العرب : بدأت بالحمدُ لله فإنه على سبيل الحكاية ، أي بدأت بالحمدُ لله ، أو بقول : الحمدُ لله رب العالمين ، وقد قرىء بالنصب على المصدر ، وبالجر على الإتباع . وقال الفراء : اجتمع القراء على رفع الحمد لله ، وأهل البدو منهم من يقول : الحمد لله بالنصب .

ومنهم من يقول : الحمد لله بالخفض .

ومنهم من يقول : الحمد لله فيرفع الدال ، ويضم اللام ، وقال ابن عباس : الرفع هو القراءة لأنه المأثور ، والمختار في العربية . وقال ابن الإعرابي : رجل حمد وامرأة حمدة ، ومنزل حمد وأنشد :

---

(١) سورة الفاتحة / الآية : ٢ .

وكانت من الزوجات يؤمن غيبها   وترناد فيها العين منتجعا حمدا[1]

القضاء : الحكم ، وأصله قضايٌ ؛ لأنه من قضيت ، إلا أن الياء لما جاءت بعد الألف همزت . والجمع الأقضية ، والقضيَّة مثله ، والجمع قضايا . قال أهل الحجاز : القاضي معناه في اللغة القاطع للأمور ، المحكم لها ، واستقضي فلان ، أي جعل قاضياً يحكم بين الناس . ونقول : قضى بينهم قضية وقضايا . والقضايا الأحكام ، واحدها قضية . وقد جاءت هذه الوجوه من المعاني اللغوية في الحديث . ومنه القضاء المقرون بالقدر .

والمراد بالقدر التقدير ، وبالقضاء الخلق ، كقوله تعالى : ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبعَ سَماواتٍ**﴾[2] . والقضاء بمعنى العمل ، ويكون بمعنى الصنع والتقدير . قال تعالى : ﴿**فَاقضِ مَآ أنتَ قَاضٍ**﴾[3] معناه فاعمل ما أنت عامل .

قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما   داود أو صنع السوابغ تبّعُ[4]

الصنع : قال تعالى : ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتقَنَ كُلَّ شَيءٍ**﴾[5] . قال أبو إسحاق : القراءة بالنصب ويجوز الرفع . والمعنى عمل الله الذي أتقن كل شيء ، واصطنعه اتخذه واختاره ، قال تعالى : ﴿**وَاصْطَنَعتُكَ لِنَفسِي**﴾[6]

---

(١) أشار في هذا البيت إلى أنها لم تخن زوجها في غيابه عنها في حين أن جمالها يتراءى للعين كأنه مكان جميل شبيهاً بالروضة الغَنَّاء ، وفي معنى الحمد قال زهير :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يكن حمده ذماً عليه ويذمم

(٢) سورة فصلت / الآية : ١٢ .

(٣) سورة طه / الآية : ٧٢ .

(٤) تبع أحد ملوك اليمن . وهم طوائف مختلفة ، فمنها : التبابعة تتبع الأول ، وتبع الثاني ، ومنها : الاذواء كذي القرنين ، وذي الكلاع .. الخ .

(٥) سورة النمل / الآية : ٨٨ .

(٦) سورة طه / الآية : ٤١ .

تأويله اخترتك لإقامة حجتي ، وجعلتك بيني وبين خلقي . قال ابن بري : والذي اختاره ثعلب رجل صَنعُ اليد ، وامرأة صناع اليد . فيجعل صناعاً للمرأة بمنزلة كعاب ورواح ، وحصان .

قال ابن شهاب الهذلي :

صناع بإشفاها حصان بفرجها جواد بقوت البطن والعرق زاخر

الجواد : الرجل السخي ، وكذلك الأنثى بغير «ها» ، والجمع أجواد وأنشد أبو شهاب الهذلي البيت المتقدم .

وقال الفرزدق :

قوم أبوهم أبو العاصي أجادهمُ قوم نجيب لجدات مناجيب

البيان

الحمد والشكر والمدح ألفاظ لمعان متقاربة . فالحمد هو الثناء على الجميل ، والشكر هو مقابلة النعمة قولاً ، وعملاً واعتقاداً . والمدح هو الثناء على الجميل مطلقاً .

وقال الزكشي المحقق في شرحه على تلخيص المفتاح الذي سماه «تجلي الأفراح» وهو أكبر من المطول : إعلم أن الألف واللام في (الحمد) للإستغراق ، وقيل : لتصريف الجنس واختاره الزمخشري ، ومنع كونها للإستغراق ، قيل : وهي نزعة اعتزالية ، ويشبه أن يقال : في تبيين مراد الزمخشري ، أن المطلوب من العبد إنشاء الحمد لا الإخبار به ، وحينئذ يستحيل كونها للإستغراق ، إذ لم يمكن للعبد أن ينشيء جميع المحامد منه ، ومن غيره بخلاف كونها للجنس .

وقد جرت عادة المتأوبين ، في بداية خطابهم عندما يوجَّهُ إلى الله تعالى

أن يخاطبوه بما يحب لكي يقبل عليهم بوجهه الكريم ، وهو (الحمد) . وقد بدأ «عليه السلام» بذلك لكي يسمعه الباري عندما يبدأ بحمده ، وثنائه عليه في ذلك اليوم العظيم الذي يعطى فيه عباده ما يسألون بلا حساب .

وأنت إذا تأملت ما جاء في هذه الكلمة ، وتأملت ما جاء من بعدها ، (ليس لقضائه دافع) أخذك العجب من كيفية الجمع بين وصفه تعالى بأن الحمد له ، ومعناه كثير التفضل على عباده ، وبين القضاء الذي هو بمعنى القطع في الحكم .

وهذه غاية الشدة لأنه قد وصفه بالحسم وعدم التردد ، فجمع في هذه العبارة بين اللين والشدة ، وهذا ما يعجز عنه المتكلمون البلغاء .

فالقضاء بالنسبة إلى الله كما مر هو القطع والحسم ، وقد مر معنى ذلك في فصل اللغة .

أما بالنسبة إلى **الإصطلاح الشرعي** ، فكما هو المحكي عن الدروس : (ولاية شرعية على الحكم ، والمصالح العامة من قبل الإمام عليه السلام) .

وفي المسالك ، وكشف اللثام وغيرهما : (ولاية الحكم شرعاً لمن له أهلية الفتوى بجزئيات القوانين الشرعية على أشخاص معينين من البرية بإثبات الحقوق ، واستيفائها للمستحق) .

ولا يخفى أن الظاهر من مثل التعريفين ، أن القضاء عبارة نفس الولاية دون فعل من له الولاية في مقام الترافع ، مع أن الظاهر من لفظه نفس فعل الحاكم ، وحكمه ، سيما بملاحظة كون المنقول عنه اللفظ ، أي معناه اللغوي ، وهو الحكم بالمعنى الأعم ، حيث أن الظاهر أنه كان في الصدر الأول من باب استعمال الكلي في الفرد ، فصار بكثرة الاستعمال منقولاً إليه ، وحقيقة في عرف الشارع ، والمتشرعة .

أما الأدلة التي تشير إلى أهمية القضاء في حياة المسلمين فهي كثيرة منها :

(أ) من الكتاب العزيز قوله تعالى :

١ ـ ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرضِ فَأحكُم بَينَ النَّاسِ بِالحقِ﴾[١] .

٢ ـ ﴿وَمَن لَّم يَحْكم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فأولئك هُمُ الكَافِرُون﴾ ، وفي أخرى ﴿هم الظَّالِمُون﴾ وفي أخرى ﴿هم الفَاسِقُون﴾[٢] .

٣ ـ ﴿إنا أَنزَلنَا إِلَيكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتحكمَ بينَ النَّاسِ بِمَا أراكَ اللَّهُ﴾[٣] .

(ب) ما ورد عن أهل البيت «عليهم السلام» :

١ ـ **فمنها**: رواية أبي خديجة سالم بن مكرم الجمال قال : (قال أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق «عليه السلام» : إياكم أن يحاكم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور ، ولكن انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه بينكم ، فإني قد جعلته قاضياً فتحاكموا إليه .

٢ ـ **ومنها**: رواية أخرى قال : بعثني أبو عبد الله «عليه السلام» إلى أصحابنا فقال : قل لهم : إياكم إذا وقعت بينكم خصومة أو تدارى في شيء من الأخذ والعطاء أتحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفساق ، اجعلوا بينكم رجلاً قد عرف حلالنا وحرامنا ، فإني قد جعلته عليكم قاضياً ، وإياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى السلطان الجائر .

وبالجملة فإن القضاء له أهمية خاصة كما سبق القول في حياة المسلمين ، وذلك لفض خصوماتهم ، واستلال الأحقاد من نفوسهم اللهم إلا من كان مريض القلب لا يرضى بحكم الله ورسوله ، ويسلِّم تسليماً .

(١) سورة ص / الاية : ٢٦ .

(٢) سورة المائدة / الآيات : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .

(٣) سورة النساء / الآية : ١٠٥ .

القضاء في نظر المتكلمين

سبق أن أشرنا إلى القضاء من وجهة النظر الشرعية وقلنا : بأن له أهمية كبيرة في حياة الإنسان المسلم في فض الخصومات ، ونشر العدل والإنصاف . وهذا ما يتعلق بالإنسان . أما القضاء المنسوب إلى الله فقد أفاض فيه علماء الكلام بالقول الكثير ، ونحن ننقل ههنا بعضاً مما قالوا لكي نستوضح معناه ـ وإن كان مركبه صعباً ـ وفي هذا السبيل نقول : إنا نجد الحوادث الخارجية ، والأمور الكونية بالقياس إلى عللها ، والأسباب المقتضية لها على إحدى حالتين . فإنها قبل أن تتم عللها الموجبة لها ، والشرائط وارتفاع الموانع التي يتوقف عليها حدوثها ، وتحققها لا يتعين لها التحقق والثبوت ، ولا عدمه ، بل يتردد أمرها بين أن تتحقق ، وأن لا تتحقق من رأس .

فإذا تمت عللها الموجبة لها ، وكملت ما تتوقف عليه من الشرائط ، وارتفاع الموانع ، ولم يبق لها إلا أن تتحقق خرجت من التردد ، والإبهام ، وتعين لها أحد الطرفين وهو التحقق ، أو عدم التحقق ، إن فرض انعدام شيء بما يتوقف عليه وجودها ، ولا يفارق تعين التحقق نفس التحقق .

والإعتباران جاريان في أفعالنا الخارجية ، فما لم نشرف على إيقاع فعل

من الأفعال كان متردداً بين أن يقع ، أو لا يقع ، فإذا اجتمعت الأسباب ، والأوضاع المقتضية وأتممناها بالإرادة والإجماع بحيث لم يبق له إلا الوقوع ، والصدور عينا له أحد الجانبين ، فتعين له الوقوع .

وكذا يجري نظير الإعتبارين في أعمالنا الوضعية الإعتبارية ، كما إذا تنازع اثنان في عين يدعيه كل منهما لنفسه كان أمر مملوكيته مردداً بين أن يكون لهذا أو لذاك ، فإذا رجعا إلى حكم يحكم بينهما فحكم لأحدهما دون الآخر كان فيه فصل الأمر عن الإبهام ، والتردد ، وتعيين أحد الجانبين بقطع رابطته مع الآخر .

ثم توسع فيه ثانياً فجعل الفصل والتعيين بحسب القول كالفصل ، والتعيين بحسب الفعل . فقول الحكم : إن المال لأحد المتنازعين فصل للخصومة ، وتعيين لأحد الجانبين بعد التردد بينهما ، وقول المخبر إن كذا كذا ، فصل وتعيين ، وهذا المعنى هو الذي نسميه (القضاء) .

ولما كانت الحوادث في وجودها ، وتحققها مستندة إليه «سبحانه» وهي فعله جرى فيها الاعتباران بعينهما فهي ما لم يرد الله تحققها ، ولم يتم لها العلل ، والشرائط الموجبة لوجودها باقية على حال التردد بين الوقوع ، واللاوقوع .

فإذا شاء الله وقوعها وأراد تحققها فتم لها عللها ، وعامة شرائطها ، ولم يبق لها إلا أن توجد ، كان ذلك تعييناً منه تعالى ، وفصلاً لها من الجانب الآخر ، وقطعاً للإبهام ، ويسمى قضاء من الله .

أما القضاء بمعنى الإرادة ، والإمضاء ، فقد ورد عن أهل البيت كثير من الروايات التي توضح ذلك أي وضوح .

فمنها : ما ورد في المحاسن ، عن أبيه ، عن ابن أبي عمير عن

هشام بن سالم قال : قال أبو عبد الله «عليه السلام» إن الله إذا أراد شيئاً قدره ، فإذا قدره قضاه ، فإذا قضاه أمضاه .

ومنها : عن يونس عنه «عليه السلام» قال : لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى . قلت : فما معنى شاء ؟ قال : ابتداء الفعل ، قلت : فما معنى أراد ؟ قال : الثبوت عليه . قلت : فما معنى قدّر ؟ قال : تقدير الشيء من طوله وعرضه . قلت : فما معنى قضى ؟ قال : إذا قضى أمضى ، فذلك الذي لا مرد له .

ومنها : ما في التوحيد عن الدقاق عن الكليني عن ابن عامر عن المصلى قال : سئل العالم «عليه السلام» : كيف علم الله ؟ قال : علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى فأمضى ما قضى ، وقضى ما قدر ، وقدر ما أراد ، فبعلمه كانت المشيئة ، وبمشيئته كانت الإرادة ، وبإرادته كان التقدير وبتقديره كان القضاء ، وبقضائه كان الإمضاء . فالعلم متقدم على المشيئة ، والمشيئة ثانية ، والإرادة ثالثة والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء . فللّه تبارك وتعالى البدا فيما علم متى شاء ، وفيما أراد بتقدير الأشياء فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء . . الحديث .

ومنها : ما جاء في الكافي والتوحيد ، وعيون الأخبار ، وكتاب الإحتجاج ، وكنز الفوائد وغيرها بطرق مختلفة ، بحذف الإسناد قال : كان أمير المؤمنين «عليه السلام» جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفين إذ أقبل شيخ فجثىٰ بين يديه ثم قال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء الله وقدره ؟ فقال أمير المؤمنين «عليه السلام» : أجل يا شيخ ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن وادٍ إلا بقضاء من الله وقدره ، فقال له الشيخ : عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين ، فقال له : مه يا شيخ فوالله لقد عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي مقامكم وأنتم مقيمون ، وفي

منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليه مضطرين ؟

فقال له الشيخ : وكيف لم نكن في شيء من حالاتنا مكرهين ، ولا إليه مضطرين ؟ وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنصرفنا ، ومنقلبنا ؟ فقال له : وتظن أنه قضاء حتم وقدر لازم ، إنه لو كان كذلك لبطل الثواب ، والعقاب والأمر والنهي والزجر من الله ، وسقط معنى الوعد والوعيد ، فلم تكن لائمة للمذنب ، ولا محمدة للمحسن ، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب ، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان ، وخصماء الرحمٰن ، وحزب الشيطان ، وقدرية هذه الأمة ، ومجوسها إن الله تبارك وتعالى كلف تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يطع مكْرِهاً ، ولم يملك مفوضاً ولم يخلق السموات والأرض ما بينهما باطلاً ، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً : ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[1] فأنشأ الشيخ يقول :

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته — يوم النجاة من الرحمٰن غفرانا
أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً — جزاك ربك بالإحسان إحسانا

وزاد في التوحيد والعيون :

فليس معذرة في فعل فاحشة — قد كنت راكبها فسقاً وعصيانا
لا، لا، ولا قائلاً ناهيه أوقعه — فيها عبدت إذاً يا قوم شيطانا
ولا أحب، ولا شاء الفسوق ولا — قتل الولي له ظلماً وعدوانا
أنى يحب وقد صحت عزيمته — ذو العرش أعلن ذاك الله إعلانا

وفي بعض روايات العيون والتوحيد : فقال له الشيخ يا أمير المؤمنين :

---

(١) سورة ص / الآية : ٢٧ .

فما القضاء والقدر اللذان ساقانا ، وما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بهما ؟ فقال أمير المؤمنين «عليه السلام» الأمر من الله ، والحكم . ثم تلا هذه الآية : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1] أي أمر ربك ألا تعبدوا إلا إياه .

قال السيد عبد الله شبر «رحمه الله» في كتاب (مصابيح الأنوار) في التعليق على هذا الخبر :

إن المراد بالقضاء والقدر هما المتعلقان بأفعال العباد (الأمر والنهي) ، وبيان حسن الأفعال وقبحها ، ومباحها وحرامها ، وفرضها ونفلها ، أو العلم بها ، أو الثبت في الألواح السماوية ، وشيء منها لا يصير سبباً للجبر والإضطرار .

وقد أبطل بذلك مذهب الجبرية ، والأشاعرة بقوله : (إنه لو كان كذلك أي : قضاء حتماً ، وقدراً لازماً لبطل الثواب والعقاب المترتبان على الطاعات والمعاصي التابعين للإختيار دون الإجبار . إذ طلب الفعل والترك متفرعان على الإختيار ولا يتصوران مع الإجبار . فإن من طلب الطيران من الإنسان وعدم الإحراق من النار عد سفيهاً جاهلاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[2] .

ثم انتقل «عليه السلام» إلى شيء آخر ، لطيف كل اللطف ، عجيب كل العجب ، جميل كل الجمال ، وهو طلب العطاء من الله تعالى بدون أن يأتي بصيغة الأمر كقوله «اللهم أعطني» بل ذكر كيفية العطاء الذي يعطيه الله لعباده بدون أن يمنع ذلك أحداً ، فاعتبر نفسه «سلام الله عليه» كواحد من الناس الذين يشملهم ذلك العطاء الغير الممنوع في ذلك الموقف الذي جمع من أصناف اللغات وتعدد اللهجات ، واختلاف الأصوات ، على مكانته

---

(١) سورة الإسراء / الآية : ٢٢ .

(٢) مصابيح الأنور : ج ١ ص ٧٢ بتصرف .

«سلام الله عليه» وقربه من الله وهذا منتهى الغاية في التعبد لله في ذلك اليوم الذي يكون فيه الناس عادة كالفراش المبثوث على هيئة واحدة .

ثم استمر «عليه السلام» في الحمد لله والثناء عليه ووصفه بأروع الصفات الحسنة الجميلة البالغة الغاية «ولا كصنعه صنع صانع» يريد أن يقول : إن صنعه لا يشبهه صنع خلقه ؛ لأنهم يحتاجون إلى تفكير وإلى تخطيط وإضافة ، وحذف ، ونقض وإبرام ولا تزال أعمالهم على إتقانها ناقصة ، وذلك لنقص العقل الإنساني ، والعوامل التي تطرأ عليه من التشويش بين آونة وأخرى ، كالنفس الأمارة بالسوء قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعلمُ مَا تُوسوِسُ بِهِ نفسُهُ**﴾[1] . ثم أثنى على ربه بأبلغ الثناء فذكر صفة من صفاته يتميز بها عن خلقه «وهو الجواد الواسع» . فإن الحمد ليس كالشكر ـ كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ـ وفي هذه العبارة أراد منه العطاء الذي لا حدود له ، وذلك بأن ترك ذكر نوع العطية والحاجة إلى الله ؛ لعلمه بعلمه بها ، كما أنه لم يحدد قدرها بأن أوكل الأمر إليه في العطاء ، وذلك بحسب الوجدان الظاهر من إنعامه على خلقه بغير حدود ، عطاء من لا تنقص خزائنه ، ولا تزيده كثرته إلا جوداً وكرماً .

وإذا تأملنا الكرم المتبادل بين الناس نجده طبيعة بشرية ، وسجية إنسانية لها آثار اجتماعية طيبة ، وذلك من خلال عطف الناس على بعضهم البعض ، كما أنا نرى في حنايا التاريخ الإنساني أمثلة رائعة برزت في هذا الجانب كأمثال (حاتم الطائي) وهو من العرب الذين لم يدركوا الإسلام ، وقد قال عنه رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» عندما وصفته له ابنته سفانة ، وذكرت صفاته وسخاءه (إن هذه من صفات المؤمنين ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه) .

---

(١) سورة ق / الآية : ١٦ .

وقال الشاعر يمدح كريماً :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ... معي وإذا ما لمته لمته وحدي

وقال آخر في آخر :

هو البحر من أي الجهات أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله
تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك معطيه الذي أنت سائله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

وقال الشاعر يمدح معن بن زائدة :

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي ... فليس إلى معن سواك شفيع

قال عليه السلام :

[فَطَرَ أجْنَاسَ البَدَايِع ، وَأَتْقَنَ بِحِكمتِهِ الصَّنَايِع ، لَا تخفَى عَليهِ الطَّلايِع ، وَلَا تَضِيعُ عِندَهُ الوَدَايِع] .

اللغــة

فـطر : يفطره فـطراً فانفـطر ، وفـطّره : شقـه ، وتفـطر الشيء تشقق ، والفطر : الشق ، وجمعه فطور . وفي التنزيل : ﴿هَل تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[1] قال ثعلب :

شـقـقـتِ الـقـلـبَ ثـمَّ ذَرَرْتِ فـيـه　　هـواكِ فـلـيـمَ فـالـتـأمَ الـفُـطُورُ

ومنه قوله تعالى : ﴿إذا السَماءُ انفَطَرت﴾[2] أي انشقت ومنه أخذ فطر الصائم ؛ لأنه يفتح فاه . وفطر الله الخلق يفطرهم خلقهم وبدأهم ، والفطرة

---

(١) سورة الملك / الآية : ٣ .

(٢) سورة الإنفطار / الآية : ١ .

الابتـداءِ والاختـراع . قـال تعـالى : ﴿**الحَمـدُ لِلَّهِ فَـاطِـرِ السَّـمـاوَاتِ والأرض**﴾[1] .

والفـطرة بالكسـر الخلقة . وجـاء في الحديث : كـل مولـود يولـد على الفـطرة التي فطر الله عليهـا بني آدم حين أخـرجهم من صلب آدم ـ كمـا قـال تعـالى : ﴿**وإذ أَخَـذَ رَبُّـكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُـورِهِم ذُرِّيَّتهم وأَشهَـدَهُم عَلى أنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِكُم قَالُوا : بَلَى**﴾[2] .

أجناس : جمع جنس الضرب من كل شيء . وهو من الناس ومن الطير وقال الأنصاري يصف النخل :

تخيـرتهـا صـالحـات الجنـوس   لا أسـتـميـل ولا أسـتـقـيـل

ومنه المجانسة والتجنيس .

والجناس في البلاغة **هو تشابه لفظين في** النطق واختـلافهما في المعنىٰ ، وهو ينقسم إلى نوعين لفظي ومعنوي ومنه الجناس التام وذلك كقوله :

إذا رمـاك الـدهـر فـي مـعـشـر   قـد أجمـع النـاس على بغضهـم

فـدارهـم مـا دمـت فـي دارهـم   وأرضـهـم مـا دمـت فـي أرضـهـم

ومنه الجناس المطلق ، ومنه المذيل .

والجنس في المنطق هو تمام الحقيقة المشتركة بين الجزئيات المتكثرة بالحقيقة في جواب ما هو .

أتقن : فلان عمله إذا أحكمه ، والإتقـان **الإحكام للأشياء** وتِقْنٌ : رجـل من عاد .

---

(١) سورة فاطر / الآية : ١ .

(٢) سورة الأعراف / الآية : ١٧٢ .

وتِقنٌ : إسم رجل كان جيد الرمي يضرب به المثل ، وأتقن الصنعة أتقنها قال تعالىٰ :

﴿ **صُنعَ اللهِ الذّي أَتقنَ كُلَّ شَيءٍ** ﴾[1] .

حكمته : الحكمة من أحكم بمعنىٰ أتقن ـ كما تقدم ـ وقيل الحكيم ذو الحكمة ، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء وبأفضل العلوم ، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم ، والحكيم من أسماء الله تعالىٰ ، والحاكم والحكيم معان متقاربة قال الشاعر :

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

وجاء في التنزيل قوله تعالىٰ : ﴿ **وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فقَدَ أُوتِي خَيراً كَثيراً** ﴾[2] .

الطلايع : يُقال طلعت الشمس ، والقمر ، والفجر ، والنجوم طلوعاً فهي طالعة ، قال تعالىٰ : ﴿ **حَتَّىٰ إذَا بَلغَ مَطِلعَ الشَّمسِ وَجَدهَا تَطلُعُ عَلَىٰ قَومٍ** ﴾[3] . . وطلاع الأرض ما طلعت عليه الشمس ، واستطلع رأيه نظر ما هو ، وفلان طلاع الثنايا إذا كان يعلو الأمور فيقهرها بمعرفته وتجاربه ، وجودة رأيه قال الشاعر :

وأحفظ جاري أن أخالط عرسه ومولاي بالنكراء لا أتطلّعُ

البيان

في هذه الفقرة ذكر « عليه السلام » خلق الإنسان وغيره من الموجودات التي يشاهد بعضها الإنسان ، ولا يشاهد البعض الآخر فقد خلق الله الأشياء

(١) سورة النمل / الآية : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة / الآية : ٢٦٩ .

(٣) سورة الكهف / الآية : ٩٠ .

بأن قال لها : كوني فكانت .

وأما الكائنات الحية فقد أراد الله أن يجري فيها الأسباب التي تصدر عنها فجعل من طبيعة تكوينها التزاوج .

وعندما نرىٰ هذه الحركات ، والسكنات في هذا الكون مما نشاهده بأم أعيننا يأخذنا العجب العجاب ، أما ما لم نره فهو أجناس كثيرة لا يحصىٰ عددها ، ولا يدرك أمدها بل ولا يعرف الإنسان لماذا وجدت هذه الأحياء المختلفة بهذه الدقة المتناهية قال تعالىٰ : ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعلَمُونَ** ﴾[1] وقال تعالىٰ : ﴿ **فلا أقسمُ بما تُبصرونَ * وما لا تبصرون** ﴾[2] .

وبهذا المفهوم نستطيع أن نقول : إن الموجودات تنقسم إلى منظور وغير منظور . فكلما يراه الإنسان بعينه المجردة أو بالمجاهر أو بالمراقب ، أو الأجهزة المقربة ، وكل ما في السماء ، وما تحت الأرض ، وما في قاع المحيطات ، وما في السحب كل ذلك من العالم المنظور .

وأما غير المنظور فهو الذي لا يمكن حصره ، ولا يمكن رؤيته بالآلات أو بالعين المجردة ، ولكنه موجود بحكم العقل بوجوده أكثر مما يحكم بوجود المنظور .

وإذا صح لنا أن نقول بأنه يصح للعقل بأن يفكر فيما وراء هذا الكون أو فيما وراء المادة ويتخطىٰ حدوده فإنه بذلك يكون قد وصل إلى ما لا يرىٰ أي غير المنظور ولكن بالتفكير المجرد عن الحواس .

فهناك أشعة لا ترىٰ بالعين ، ولا بالآلة ، أشعة غير منظورة ، أي أن هناك أشعة مترتبة ، وأشعة غير مرتبة .

---

(١) سورة النحل / الآية : ٨ .

(٢) سورة الحاقة / الآيتان : ٣٨ ر ٣٩

وإن الأشعة المرئية هي جزء صغير من الصورة الكلية للضوء ، والأشعة غير المرئية أكثر تفرعاً ، وتأثيراً من الأشعة المرئية .

لذلك أخذ يقول علماء الضوء : إن كلمة (ضوء) أو (حزمة ضوئية) أو (إشعاع) قد لا تدل على حقيقة الضوء ، والأولىٰ أن يقال : (الطاقة المشعة) لتدل على جميع الإشعاع ما يرىٰ وما لا يرىٰ .

وفي هذا الخلق الدقيق يتجلىٰ الإتقان في الحكمة عند ما خلق الخلق . فقوله « عليه السلام » : (أتقن بحكمته الصنايع) . يعني أن كل ما خلقه من هذه الأجناس تتجلىٰ فيه الحكمة والإحكام وذلك بمعرفة دقائق هذه المخلوقات ـ كما تقدم ـ بواسطة العلوم التي تختص بذلك النوع من المخلوقات .

مرة أُخرىٰ نريد أن نقف قليلاً لنتأمل ما جاء في مطاوي كلام أبي عبد الله « عليه السلام » إنه يقول : (وأتقن بحكمته الصنائع) وهذا يعني أن الإتقان في الصنع لا يكون إلاّ بالحكمة ، إذن فالحكمة هي قمة التفكير الإنساني إذا قيل لأحد هذا حكيم .

أما نسبة الحكمة إلى الله تعالىٰ فلا جدال فيها بعد أن ذكر ذلك الكتاب العزيز فأكثر من ذلك . مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّىٰ الْقُرآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَا مُوسىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾[2] ، وكثير غيرها من الآيات التي تحمل هذا المعنىٰ .

وقد أوسع علماء الكلام القول في هذه الصفة في إثباتها له تبارك وتعالىٰ ، وبذلك نزهوا جميع أفعاله عن العبث .

---

(١) سورة النمل / الآية : ٦ .

(٢) سورة النمل / الآية : ٨ .

قال الفيلسوف الكبير كمال الدين ميثم بن علي البحراني : لو لم يكلف من أكمل شرائط التكليف فيه لكان مغرياً له بالقبيح ، واللازم باطل ، فالملزوم مثله[1] .

وشرع في بيان الملازمة وبطلان اللازم وأطال في النقض والإيرام . ثم أشار إلى حقيقة اللطف ووجوبه في الحكمة فقال : (مرادنا باللطف هو ما كان المكلف معه أقرب إلى الطاعة ، وأبعد من فعل المعصية ، ولو لم يبلغ حد الإلجاء . وأما وجوبه فبرهانه أنه لو جاز الإخلال به في الحكمة فبتقدير ألا يفعله الحكيم كان مناقضاً لفرضه ولكن اللازم باطل فالملزوم مثله)[2] .

ثم شرع في بيان الملازمة التي ينتج عنها بطلان ذلك وقسم اللطف إلى ما يتعلق بفعله تعالىٰ كالبعثة ، وما يتعلق بفعل المكلف ، وهذا ينقسم إلى قسمين :

١ ـ فأما أن يكون لطفاً في تكليف نفسه ويجب في حكمته تعالىٰ أن يعرفه إياه ويوجبه عليه لما مر أيضاً فإن قصر المكلف في فعله فقد أتىٰ من قبل نفسه ، وذلك كمتابعة الرسل والإقتداء بهم .

٢ ـ أو في تكليف غيره ، ولا يجوز في الحكمة أن يكلف ذلك الغير إلاَّ مع علمه تعالىٰ بأن ذلك اللطف لا بد أن يقع ثم كلفه بما في ذلك لطف فيه لكان مناقضاً لفرضه ، وكذلك يجب في الحكمة إيجابه على فاعله كما مر ، وذلك كتبليغ الرسل للوحي .

ثم لا بد وأن يشتمل على مصلحة تعود إلى فاعله ، إذ إيجابه عليه لمصلحة غيره مع خلوه عن مصلحة تعود إليه ظلم ، وهو عليه محال .

---

(١) قواعد المرام ص ١١٥ .

(٢) قواعد المرام : ص ١١٧ ، ١١٨ .

وأما نسبة الحكمة إلى الإنسان فهي تختلف عن نسبتها إليه تعالىٰ . فإن نسبة الحكمة إلى الإنسان تعني تعقل الأمور في جميع الحركات والسكنات ، والتعمق في أسرار المسائل الإنسانية ، وحل عقدها بأسهل طريق ، وأسرع وقت .

وقد ذكر لنا التاريخ كثيراً نماذج كثيرة في أفرادٍ آتاهم الله سعة من العلم حتى بلغوا إلى هذه المرتبة السامية ولقد استعرض القرآن الكريم شخصيات حكيمة جعلها نموذجاً حياً وطريقاً لا حباً للسير فيها والإهتداء بهديها .

فمن هذه الشخصيات الحكيمة هو لقمان . قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَقد أَتَينَا لُقَمانَ الحِكَمةَ أَن أشكُر لِلَّةِ . . الخ** ﴾[1] . وقال تعالىٰ في وصفها : ﴿ **وَمَن يُؤتَ الحِكَمةَ فَقدَ أُوِتَي خَيراً كَثِيراً . . الخ** ﴾[2] .

ونود أن نطرح هذه الشخصية التي أمتدحها القرآن ونوه بذكرها لكي تكون نبراساً للإنسان المؤمن الذي يريد أن يستزيد من خصال الخير ، فنورد بعض ما جاء في حقه ومدحه ونماذج كما قال :

ففي تفسير علي بن إبراهيم عن حماد قال : سألت أبا عبد الله « عليه السلام » عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل فقال : أما والله لقد أوتي لقمان الحكمة ، لا بحسب ، ولا مال ، ولا أهل ، ولا بسط في جسم ولا جمال ؛ ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله متورعاً في الله عميق النظر طويل الفكر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال ؛ لشدة تستره ، ولم يضحك من شيء قط ، ولم ينازع إنساناً قط ، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا ، ولا حزن منها على شيء قط ، وقد نكح من النساء وولد له الأولاد الكثيرة ، وقد مات أكثرهم إفراطاً ، فما بكىٰ لأحد

(١) سورة لقمان / الآية : ١٢ .

(٢) سورة البقرة / الآية : ٢٦٩ .

منهم ، ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلاَّ أصلح بينهما .

ولم يسمع قولاً من أحد استحسنه إلاَّ سأل عن تفسيره وعمن أخذه . وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء ، وكان يغشىٰ القضاة والملوك والسلاطين فيوتي للقضاء مما ابتلوا به ، ويرحم الملوك والسلاطين لعزتهم بالله ، وطمأنينتهم بذلك ، ويتعلم ما يغلب به نفسه ، ويجاهد به هواه ، وكان يداوي قلبه بالتفكر ويداوي نفسه بالعبر ، وكان لا يتكلم إلاَّ فيما يعنيه فبذلك أوتي الحكمة ، وإن الله تعالىٰ أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهـ هدأت العيون بالقايلة ، فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا : يا لقمان : هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض وتحكم بين الناس ؟ فقال لقمان : لقد أمرني ربي فالسمع والطاعة ؛ لأنه إن فعل بي ذلك أعانني وعلمني ، وعصمني ، وإن هو خيرني قبلت العافية ، فقالت الملائكة : يا لقمان لم ؟ قال : لان الحكم بين الناس بأشد المنازل من الدين ، وأكثر فتناً ، وبلاءً .

وقال أمير المؤمنين « عليه السلام » : كان فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال له : يا بني ليعتبر من قصر يقينه ، وضعفت نيته في طلب الرزق ، إن الله تبارك وتعالىٰ خلقه في ثلاثة أحوال من أمره وآتاه رزقه ، ولم يكن له في واحدة منها كسب ولا حيلة ، والله تبارك وتعالىٰ سيرزقه في الحالة الرابعة .

وأما أول ذلك : فكان في رحم أمه يرزقه هناك في قرار مكين حيث لا يؤذيه حلا ولا برد ، ثم أخرجه من ذلك وأجرىٰ له رزقاً من لبن أمه ، يكفيه به ويُرْبيه من غير حول ولا قوة ، ثم فطم من ذلك فأجرىٰ له رزقاً من كسب أبويه ورأفة له من قلوبهما لا يملكان غير ذلك ، حتى أنهما يؤثرانه على أنفسهما في أحوال كثيرة ، حتى إذا كبر وعقل واكتسب وضاق به أمره ، وظن الظنون بربه ، وجحد الحقوق في ماله ، وقتر على نفسه وعياله مخافة إقتار رزق وسوء يقين بالخلف من الله له في العاجل والآجل ! فبئس العبد هذا يا بني .

ومن حكمته أنه قال : يا بني أن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم ، فلم يبق ما جمعوا ولا من جمعوا له ، وإنما أنت عبد مستأجر ، قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوفر عملك واستوف أجرك ، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر حتى سمنت ، فكان حتفها عند سمنها ، ولكن أجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر ، اخربها ولا تعمرها فإنك لم تؤمر بعمارتها . واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع : شبابك فيما أبليته ؟، وعمرك فيما أفنيته ؟ ، ومالك مما أكتسبته ؟ وفيما أنفقته ؟ فتأهب لذلك وأعدّ له جواباً .

ومن حكمه أيضاً قال : لان يضربك الحكيم فيؤذيك ، خير من أن يدهنك الجاهل بدهن طيب . يا بني لا تطأ أمتك ولو أعجبتك وانه نفسك عنها وزوجها . يا بني : لا تفشين سرك إلى امرأتك ولا تجعل مجلسك على باب دارك . يا بني تعلمت سبعة آلاف من الحكمة فاحفظ منها أربعاً وسر معي إلى الجنة :

١ ـ أحكم سفينتك فإن بحرك عميق .

٢ ـ وخفف حملك فإن العقبة كئود .

٣ ـ وأكثر الزاد فإن السفر بعيد .

٤ ـ وأخلص العمل فإن الناقد بصير .

وقال أرسطاطاليس في السعادة : السعادة ثلاثة : أما في النفس فالحكمة ، والعفة والشجاعة ، وأما في البدن فالصحة والجمال والقوة ، وأما خارج النفس والبدن فهي المال والجاه والنسب .

وقال آخر : من قصر كلامه جل قدره ، ومن استقصر عتابه وجب

شكره ، ليكن كلامك لطيفاً ، وعتابك خفيفاً .

ومما تقدم ندرك أن الحكمة لها دور كبير في ترويض النفس الإنسانية ، وإظهار دفائن الخير في غرائز الإنسان لأن العقل مقدم في كل شيء عند الحكيم وهو لا يدل إلاَّ على كل معقول مقبول ، وقد جاء في الأثر عن أهل البيت « عليهم السلام » : (رأس الحكمة مخافة الله) .

قـال عليه السـلام :

[أَتِيَ بِالكِتَابِ الجَامِعِ ، وَبِشرعِ الإِسلاَمِ النُّـورِ السَّاطِـعِ وهُوَ للخَلِيقَـةِ صَانِعٍ ، وَهُوَ المستعانُ عَلَىٰ الفَجَايعِ .] .

اللغــة

الكتـاب : القرآن المجيـد الذي لا يـأتيه البـاطل من بين يـديـه ولا من خلفه .

الجامع : جمع الشيء عن **تفـرقـه ،** يجمعه جمعـاً ، وجمعه وأجمعـه فاجتمع . وتجمـع القوم اجتمعـوا أيضاً من ههنـا وههنا ، قـال الشاعـر محمد لضبي :

في فتيــة كلمـا تجمعت البيــداء لم يهلعــوا ولم يخمــوا

وأمر جامع يجمع النـاس ، وفي التنزيـل : ﴿ **وَإِذَا كَانُـوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمـرٍ جَامِعٍ لَمَّ يَذهَبُوا حَتَّىٰ يَستَـأذِنُوهُ** ﴾[1] . وفي قـول ينسب للرسول « صلّىٰ الله

(١) سورة النور / الآية : ٦٢ .

عليه وآله وسلم » (أوتيت جوامع الكلم يعنى القرآن) لما جمع الله عز وجل بلطفه من المعاني الجمة فيه .

شرع : قال ابن الإعرابي : شرع أي أظهر . وقال في التنزيل : «شرع لكم مِنَ الدِينِ ما وصى به نوحاً» قال الأزهري : معنى شرع بين وأوضح .

الإسلام : **والإستسلام الإنقياد** ، والإسلام من الشريعة إظهار الخضوع ، وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي « صلّى الله عليه وآله وسلم » وبذلك يحقن الدم ، **ويستدفع المكروه** . قال ثعلب : الإسلام باللسان ، والإيمان بالقلب . وجاء عن النبي « صلّى الله عليه وآله وسلم » المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . قال أخو كنده :

دعوت عشيرتي للسلم لما رأيتهم تولوا مدبرينا

الخليقة : الطبيعة التي يخلق بها الإنسان ، والجّمع الخلائق قال لبيد :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علاّمُها

وقد يجوز أن يكون الخليق جمع خليقة ، كشعير وشعيرة والخلق الخليقة أعني الطبيعة ، وفي التنزيل العزيز ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِمٍ** ﴾[1] .

المستعان : قال **الليث** : كل شيء أعانك فهو عون لك كالصوم عون على العبادة ، والجمع الأعوان ، وتقول : أعنت إعانة ، واستعنته ، واستعنت به فأعانني .

---

(١) سورة القلم / الآية : ٤ .

البيـــان

في هذا النص بدأ بذكر نعمٍ أنعمها عليه وعلى آبائه من قبل وعلى سائر المسلمين فقال «عليه السلام» (أتىٰ بالكتـاب الجامـع ، وبشرع الإسـلام . . الخ) . بل هي نعم على العباد كافة وان كان بعضهم لم يعترف بها بل ونبذها وراء ظهره . وعندما بدأ بذكر الكتاب الذي هـو القرآن ـ كمـا أشرنـا إلى دلك في فصل اللغة ـ وهو حبل الله الممدود إلى خلقه بين السماء والأرض والرحمة التي لا تنقطع ، فقد بدأ باكبر نعمةٍ يستطيع الإنسان بها أن ينال سعادتي الدنيا والآخرة .

فقد جمع بين دفتيه علم ما كـان وما يكـون إلى يوم القيـامة ، ونـزّل فيه الأحكام التي يحتاجها الإنسان في حياته وفيه ارش الخدش ، والجلدة ونصف الجلدة .

والقرآن هو الثقل الأكبر ، واحدىٰ كفتي الميزان التي تعادل العترة ـ كمـا ورد في المتواتر عن النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » .

ولقد اطنب أهل البيت « عليهم السلام » في وصف القرآن بمـا لا مزيـد عليـه ، فقد جـاء عن الإمـام أميـر المؤمنين « عليـه السـلام » في كتـاب نهـج البلاغة قوله : (كتاب ربكم فيكم مبيناً حلاله وحـرامه ، وفـرائضه وفضـائله ، ونـاسخه ومنسـوخه ، ورخصـه وعزائمـه ، وخاصـة وعامـه ، وعبره وامثـالـه ، ومرسله ومحدوده ، ومحكمه ومتشابهه ، مفسراً مجمله ، مبينـاً غوامضـه ، بين مـأخوذ ميثـاق علمه ، ومـوسع علىٰ العبـاد في جهله ، وبين مثبت في القـرآن فـرضـه ، ومعلوم في السنـة نسخـه ، وواجب في السنـة اخـذه ، ومرخص في الكتاب تركـه ، وبين واجب بوقتـه ، وزائل في مستقبله ، ومبـاين محارمـه من كبير أوعد عليه نيرانه ، أو صغير أرصد عليه غفـرانه ، وبين مقبـول في أدناه ، موسع في أقصاه) .

وصفُ الزَّهراء للقرآن

وقالت فاطمة الزهراء « عليها السلام » في وصف القرآن (أنتم عباد **الله** نصب امره ونهيه ، **وحملة دينه** ووحيه ، وامناء **الله** على انفسكم وبلغائه إلى الأمم ، وزعيم حق له فيكم وعهد قدّمه إليكم وبقية استخلفها عليكم كتاب **الله** الناطق ، والقرآن الصادق ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، بينه بصائره ، منكشفة سرائره ، متجلية ظواهره ، مغتبط به أشياعه ، قائد إلى الرضوان اتباعه ، مؤد إلى النجاة استماعه ، به تنال حجج **الله** المنورة ، وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة ، وبيناته الجالية ، وبراهينه الكافيه ، وفضائله المندوبة ، ورخصة الموهوبه ، وشرائعه المكتوبه) .

ثم شرع « عليه السلام » في بيان **الملازمة** بين القرآن الذي وصفه باشتماله على جميع الأحكام ، وما يحتاجه الإنسان في آخرته ودنياه ، إذ سمّاه : (الكتاب الجامع) ، وبين شرع الإسلام الذي يعتبر القرآن منه أو فيه بمنزلة الروح من الجسد . فذكره بعد ذكر القرآن مباشرة وذلك ينبيك عن عدم الإنفصال بينهما ، ووصف الإسلام بانه نور يستضيء به السالكون ، ويترسم طريقه المهتدون ، ويتبصر به الغافلون . فتنجلي به ظلمات الجاهلية الجهلاء والعشائرية الخرقاء ، والعصبية العمياء . وإليك ما قال فيه **سيد البلغاء**

والمتكلمين أمير المؤمنين « عليه السلام » في أحدىٰ روائع خطبه حيث قال : (ثم أن هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه ، واصطنعه علىٰ عينه ، واصفاه خيرة خلقه ، وأقام دعائمه على محبته .

اذل الإديان بعزته ، ووضع الملل برفعه ، واهان اعداءه بكرامته ، وخذل محادِّيه بنصره ، وهدم اركان الضلالة بركنه ، وسقىٰ من عطش من حياضه ، واتأق الحياض بمواتمه . ثم جعله لا انفصام لعروته ، ولا فك لحلقته ، ولا انهدام لإساسه ، ولا زوال لدعمائه ، ولا إنقلاع لشجرته ، ولا إنقطاع لمدته ، ولا عناء لشرائعه ، ولا جذ لفروعه ، ولا ضنك لطرقه ، ولا وعوثة لسهولته ، ولا سواد لواضحه ، ولا عوج لانتصابه ، ولا عضل في عوده ، ولا وعث لفجه ، ولا انطفاء لمصابيحه ، ولا مرارة لحلاوته . فهو دعائم اساخ في الحق اسناخها ، وثبت لها آساسها ، وينابيع غزرت عيونها ، ومصابيح شبّت نيرانها ، ومنار اقتدىٰ بها سفّارها ، واعلام تصد بها فجاجها ، ومناهل روي بها ورادها . جعل الله فيه منتهىٰ رضوانه . وذروة دعائمه ، وسنام طاعته ، فهو عند الله وثيق الأركان ، رفيع البنيان ، منير البرهان ، مضيء النيران ، عزيز السلطان ، مشرف المنار ، معوذ المثار . فشرِّفوه واتَّبعوه ، وادُّوا إليه حقه ، وضعوه مواضعه) .

هكذا جاء وصف الإسلام ـ دين الله القويم ـ عن أهل البيت « عليهم السلام » . وقبل ذلك ما جاء التنزيل العزيز ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبغِ غَيرَ الإِسلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ فِي الآخرةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلاَمَ ﴾[2] . وقوله تعالىٰ : ﴿ اليومَ أكمَلتُ لَكُمَ دِينَكَمُ ، وَأَتَممتُ عَلَيكُم نِعمَتِي ورَضِيتُ لَكُم الإِسلاَمَ دِيناً ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ٨٥ .

(٢) سورة آل عمران / الآية : ١٩ .

(٣) سورة المائدة / الآية : ٣ .

إن الإسلام وهو دين الله في الأرض الذي رضيه لجميع خلقه قد تعقب القرون وتخطىٰ الحواجز عبر البيئات المختلفة ، والهويات المتباينة بعناية الله « سبحانه » ، لأنه الدين القويم والصراط المستقيم . نسخ جميع الأديان السابقة ، وجاء لينظم سلوك الإنسان وعلاقاته وغرائزه ، ليصوغ منه كائناً حياً يرتفع إلى مصاف الملائكة . وسوف يأتي في بحث آخر من ابحاث الكتاب اللاحقة ما يدل على عظمة هذا الدين .

ونعود إلى النص الذي أمامنا لنرىٰ فيه ذكر بعض صفات الباري التي وصفه بها (وهو للخليقة صانع) والخليقة كما مر تفسيرها (الطبيعة) . فهي مرةً تعني طبيعة الإنسان أي خلقته ، ومرة تعني طبيعة الحيوان التي تشمل الإنسان وغيره ، وأخرىٰ تكون ما هو أعم وأشمل .

ثم يصف الباري بما هو أهل له فيصفه بأنه : (المستعان علىٰ الفجايع) ومعنىٰ ذلك أن الإنسان يلجأ إلى الله في ساعة العسرة . فإن الإنسان بطبيعته وغرائزه إذا ما تأزمت به الحال فإنه يلجأ إلى غيره رغبة في النجاة والإنقاذ ، فإن وجد النجاة من قريب وإلّا لجأ إلى البعيد . ويعوّل الإنسان على عشيرته لانها أقرب إليه من غيرها وبحكم القرابة والرحم فإنه أقرب إلى اللحمية والشبه منجذب لشبهه .

إن هذه الطبيعة البشرية قد ألفت إليها القرآن في مجال التخطيط لنشر الدعوة الإسلامية بأن أمر نبيه الكريم بدعوة أهله وعشيرته قبل غيرهم وذلك لينتصر بهم في مجال الدفاع عن الدعوة ، وليأمن من معارضتهم قال تعالىٰ : ﴿ وأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[1] .

لكنه (أي الإنسان) عندما يشتد الخطب به وتضيق الحلقة ، ويدق عليه

---

(١) سورة الشعراء / الآية : ٢١٤ .

ناقوس الخطر ، ويعجز الإنسان عن إنقاذه ، وييأس من نجدته يمد عينيه ، ويشخص ببصره نحو السماء ، فلماذا ؟ أنه يلقى بمقاليد الأمور إلى الله ، ويفوِّضها إليه ، فإنها آخر مندوحة له في النجاة وبذلك يعبر عن الإلتجاء إلىٰ الله تعالىٰ ، وهذا آخر سهم في كنانة قوسه .

ولذلك فإن هذه الحالة المتأزمة تجبره على أن يخلص لله في الدعاء ، ويلح في الطلب .

وهذه الحالة أيضاً هي التي يكون فيها الباري تبارك وتعالىٰ أقرب إلى عبده . وقد تعرض القرآن لهذه الظاهرة في طبيعة الإنسان قال تعالىٰ : ﴿ وإِذَا أَنعَمنَا عَلَىٰ الإنسانِ أَعرَضَ وَنَأىٰ بِجَانِبِهِ وإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾[١] .

وفي حديث الزنديق مع الإمام الصادق « عليه السلام » بما معناه : قال الإمام للزنديق : هل ركبت البحر يوماً ، فلما توسطت البحر عصفت بكم ريح عاتية ؟ قال : نعم حدث لي ذلك . فقال الإمام : هل شعرت بأن نفسك تنشد إلى قوة تنجيك من هذه الورطة ؟ قال : نعم شعرت بذلك . قال الإمام : هذه القوة التي شدّتك إليها في تلك الساعة هو (الله) .

---

(١) سورة فصّلت / الآية : ٥١ .

قال عليه السلام :

[جَازِي كلِّ صَانِعٍ ، وَرَائِشُ كُلِّ قَانِعٍ ، ورَاحِمُ كُلِّ ضَـارِعٍ ، ومُنَزِّلُ المَنَافِع ، وَالكِتَابِ الجَامِعِ بِالنُّورِ السَّاطِعِ] .

اللغــة

جازي : الجزاء المكافأة على الشيء جزاه به وعليه جزاء وجازاه مجازاةً قال تعالىٰ : ﴿ **فَمَا جَزَاؤه إن كُنتُم كَاذِبِين قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِـدَ فِي رَحْلِهِ فهُوَ جزاؤُهُ** ﴾[1] قال القطامي :

وما دهـري يُـمـنـيـنـي ولـكـن   جـزتكم يـا بني حشم الـجـوازي

وقال الجوهري جزيته بما صنع جزاء وجازيته بمعنى .

رائش : أي ذو ريش والريش كسوة الطائر والجمع أرياش قـال أبو كبيـر الهذلي :

فـإذا تسـلُّ تخشخشت أريـاشهـا   خشف الجنـوب بيـابس من أسحـل

(١) سورة يوسف / الآيتان : ٧٤ و ٧٥ .

وفي حديث أبو حجيفة أبري النبلة وأريشها أي أعمل لها ريشاً يُقال رشت السهم أريشه . وفلان لا يريش ولا يبرئ أي لا يضر ولا ينفع والريش والرياش الخصب والمعاش والمال والاثاث واللباس الحسن الفاخر . وفي التنزيل العزيز ﴿ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقوىٰ ﴾[1] والريش الزينة والرياش كل اللباس .

ضارع : الضارع المتذلل للغنى ، وتضرع إلى الله ابتهل إليه . وخد ضارع ، وجنب ضارع متخشع ، والتضرع التلوي والإستغاثة وأضرعت له مالي أي بذلته له قال الاسود :

وإذا أخلائي تنكب ودهم ‏ ‏ ‏ فأبو الكدادة ماله لي مضرع

أي مبذول . والضارع الصغير من كل شيء ، وإن فلاناً لضارع الجسم ، أي نحيف الجسم . والمضارعة المشابهة والمقاربة ، والضريع نباتٌ أخضر منتن يرمي به البحر ، وله جوفٌ . وقيل هو يبيس العرفج . وهو مرعىٰ سوء ، لا تعقر عليه السائمة شحماً ولا لحماً . قال تعالىٰ : ﴿ لَيسَ لَهمُ طَعَامٌ إلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسمِنُ وَلاَ يُغنِي مِنْ جُوعٍ ﴾[2] .

البيان

قسم العلماء صفات الله الثبوتية إلى قسمين : صفات ذات وصفات أفعال .

قال الشيخ المفيد « رحمه الله » : (صفات الله على ضربين ، أحدهما منسوب إلى الذات ، فيقال عنها انها صفات للذات وثانيهما منسوب إلى الأفعال ، فتكون صفةً لها .

---

(١) سورة الأعراف / الآية : ٢٦ .

(٢) سورة الغاشية / الآيتان : ٦ و ٧ .

١ ـ معنىٰ صفات الذات :

ويـراد بصفات الـذات تلك التي لا يتصف الله بأضـدادها ولا يجـوز أن يخلو عنها كالعلم والقدرة والحياة . فلا يتصف « سبحانـه » بالجهـل أو العجز أو الموت . كما لا يجوز أن يخلو عن هذه الصفات ابداً .

قال المفيد : (فصفات الذات لـه تعالىٰ هي وصفـه بأنـه حيّ ، عالم ، قـادر . ألا ترىٰ أنـه لم يزل مستحقـاً لهذه الصفـات ، ولا يزال ؟ فـلا يوصف بالموت ، ولا بالعجز ، ولا بالجهل . كما لا يوصف بخلوه عن الحيـاة والعلم والقدرة ، . لأن هذه الصفات ثابتة له)(١) .

٢ ـ معنىٰ صفات الأفعال :

أما صفات الأفعال فيراد بها ، تلك التي يصح أن يتصف الله بأضدادهـا كمـا يجوز أن يخلو عنهـا ، كـالخـالق والـرازق والمحيي والمميت والمبـديء وغيرها . فيجوز أن يتصف بأنه غير خالقٰ اليوم ، ولا رازق لـزيدٍ الميت ، ولا محيي للميت الفلاني ، ولا مبديء لشيءٍ ما في حالةٍ ما .

وصفات الأفعال لمّـا لـم تكن جاريـة علىٰ الذات بلحـاظ نفس الذات ، بل بلحاظ وجود الأفعال ، فإنها علىٰ هذا لا يصح أن توصف الذات بها قبل وجودها ، فهي إذاً حادثةً بحدوث تلك الأفعال .

بعد أن المحنا إلى الفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال قبل قليـل ، يتضـح لنا مـا جاء في نص الفقـرة المطروحـة امـامنـا بمـا فيهـا من الصفـات المتعاقبة (جازي) ، (رائش) ، (راحم) ، (منزّل) .

ولقد ثبت في الدين ضرورة ، أن صفات الباري تعالىٰ ، كلهـا حسنة ،

---

(١) تصحيح إعتقادات الصدوق ، للشيخ المفيد / ١١ .

وأنها لم تكن عبثاً ، ولا فعلاً باطلاً . بل أفعاله معللة بأغراضٍ وفوائد مشتملة علىٰ حكم وعوائد ومصالح تعود على مخلوقاته ، بحسب ما تقضيه حكمته . وخفاؤها في البعض منها لا يقتضي نفيها .

ما قال الأشاعرة في ذلك :

خالف في ذلك الأشاعرة فزعموا أن أفعاله كلها ليست لغرضٍ **وحكمه** ، بل وقعت لمقتضىٰ الإرادة .

واحتجوا علىٰ ذلك : بأنه لو كان فاعلاً لغرضٍ لكان مستكملاً بذلك الغرض ، فيكون ناقصاً قبل خلقه للخلق !

وأجيب عن ذلك : بأنه إنما يلزم الإستكمال لو كان الغرض عائداً إليه ، ونحن لا نقول بذلك . بل الغرض أما عائدٌ إلىٰ مصلحة العبد ، أو إلىٰ إقتضاء نظام الوجود ، بمعنىٰ أن نظام الوجود لا يتم إلاَّ بذلك الغرض ، وعلىٰ كلا الأمرين لا يلزم الإستكمال ولا يرد ما قالوه من أن افادة الكمال لغيره إستكمال .

وإلىٰ هذا أشار قوله تعالىٰ : ﴿ **أَفَحسِبتُم أَنَّما خَلَقنَاكُم عَبَثاً وأَنَكُم إلِيَنا لاَ تُرجَعُون** ﴾[1] . وهو استفهام إنكاري على نفي الغرض عن أفعاله تعالىٰ . وقوله تعالىٰ : ﴿ **وَمَا خلَقتُ الجِّنَ والإنسَ إلاَّ ليَعبدُوُنُ** ﴾[2] . وقد فسرت العبادة هنا فيه هي (المعرفة له) ولما يترتب علىٰ المعرفة . **وقوله تعالىٰ** : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلقتَ هَذَا بَاطِلاً ، سُبَحانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾[3]. وكل فعل لا غرض فيه لفاعله يكون باطلاً .

---

(١) سورة المؤمنون / الآية : ١١٥ .

(٢) سورة الذاريات / الآية : ٥٦ .

(٣) سورة آل عمران / الآية : ١٩١ .

هـذا من جهة ، ومن جهـة أخرى إنـه لو لم يكن فـاعلاً لفـرض ، لكان عبثاً ؛ لأن الفعل منحصر فيهما ؛ ولأن العبث هو ما فعـل لا لفرض ، والعبث قبيح بالضرورة ، وقد تقدم إنه لا يصح نسبة القبيح إليه تعالى .

وقد تعرض إلى هـذا البحث علماء الكـلام في كتبهم المطولـة فليرجـع إليها من أحب .

والجزاء الذي ذكره في كلامه «عليه السلام» لكل صـانع ، أي لكـل من يعمـل عملاً صـالحاً ، فإنه «سبحانه» قـد وعد على ذلـك الجـزاء ، وزيـادة . والعطاء كجزاء بلا زيادة ولا نقصان هو المعبّر عنه لغة وشرعـاً (بالعـدل)، **وأما العطاء** كجزاء وفيه زيـادة فهو (التفضـل أو الإحسان) وإلى هـذا المعنى الدقيق أشار تعالى بقوله : **﴿فَمَنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيـراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعمَـلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾**[1] .

وتحقيق ذلك **كما يظهر** من شعاع الآية الكريمـة هو أن الـذرة هي أصغر موجود توصل إليـه العلم الحديث ، ولكن بـآثاره وإن العلم في تـطوره العظيم بهذه السرعـة الجنونيـة وعلى ما اختـرع من آلات التكبير فـإنه لم يستـطع إلى الآن أن (يرى) هذه الذرة التي أصبح لها من الآثار الإيجـابية والسلبيـة ما يقف أمامه العقل مبهوتاً .

أمّا الجزاء على هـذا العمل الفعلي يعـادل الذرة التي لا تـرى فإنـه يرى ويتمثـل أمام الإنسـان ومعنى ذلك أن الجـزاء على العمل (يـرى) في حين أن العمل (لا يرى) ، لأنه مثقال ذرة . وهو معنى دقيق .

أما الرياش فهو وإن جاء بمعنى الزينـة الظاهـرة ، لكنه يتعـدى إلى أكثر فهو في الحقيقة النعمة ظاهرة وباطنة قال تعالى : **﴿وَأَسبَغَ عَلَيكُم نِعَمهُ ظَاهِرةً**

---

(١) سورة الزلزلة / الآيتان : ٧ و ٨ .

وَبَاطِنَةً﴾[1] .

وعلى معنىً آخر أنه تعالىٰ يعطي زيادةً في الرزق على ما يطلبه السائل ، ويزيده علىٰ ما يريد ، وإنه ليرحم من يسترحمه ، ويعطف على من يستعطفه ؛ لأنه قد وصف نفسه بالرحمة . ولأنه ينزّل الخيرات على الإنسان دون أن يستحقها ولهذا فإنه (أي الإنسان) لا يقوم بشكر نعمةٍ واحدة حتىٰ تتجدد عليه نعم أخرىٰ .

ثم ذكر تنزيل الكتاب الذي جمع بين دفتيه علم ما كان وما يكون ـ كما تقدم تفسير ذلك ـ.

(بالنور الساطع) النور نقيض الظلمة كتناقض الوجود والعدم قال تعالىٰ : **﴿أو كَظُلُمَاتٍ في بَحرٍ لُجّيٍّ يَغشَاهُ مَوجٌ مِن فَوقِه مَوجٌ مِن فَوقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتُ بَعضَها فَوقَ بَعضٍ إذا أخرَجَ يَدَهُ لَم يَكَد يَرَاهَا وَمَن لَّم يَجعلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾**[2] .

وعلىٰ هذا يمكن القول بأن المقصود من النور الساطع هو دين الإسلام الواضح الطريق البين المعالم ، السهل التناول ، فطرة الله التي فطر الناس عليها .

ويمكن القول أيضاً بأن هذا الإخراج ، وما يشاكله من المعاني أمورٌ حقيقية غير مجازية خلافاً لما توهمه بعض الباحثين . .

فالنور مثلاً هو الإعتقاد الحق بما يرتفع به ظلمة الجهل وحيرة الشك ، واضطراب القلب . والنور هو صالح العمل ، من حيث أن رشده بين ، وأثره في السعادة جلي ، كما أن النور الحقيقي على هذه الصفات .

---

(١) سورة لقمان / الآية : ٢٠ .

(٢) سورة النور / الآية ٤٠ .

والظلمة هو الجهل في الإعتقاد ، والشبهة والريبة . وإن الإخراج من الظلمة إلى النور ـ مثلاً ـ الذي ينسب إلى الله تعالى ـ كما هو صريح الكتاب العزيز ـ كالإخراج من النور إلىٰ الظلمات التي تنسب إلىٰ الطاغوت .

وذكر آخرون أن الله يفعل فعلاً كالإخراج من الظلمات إلىٰ النور ، وإعطاء الحياة والسعة والرحمة وما شاكلها ، ويترتب على فعله «تعالىٰ» آثارٌ كالنور والظلمة والرحمة ونزول الملائكة ، لا ينالها أفهامنا ولا يسعها مشاعرنا ، غير أنّا نؤمن بحسب ما أخبر به ـ وهو يقول الحق ـ بأن هذه الأمور موجودة ، وأنها أفعال له «تعالىٰ» وإن لم نمط بها خبرىٰ . ولازم هذا القول أيضاً كالقول السابق ، أن يكون هذه الألفاظ ، يعني أمثال النور والظلمة ، ونحوها مستعملة علىٰ المجاز بالاستعارة ، وإنما الفرق بين القولين أن مصاديق النور والظلمة ونحوهما علىٰ القول الأول نفس أعمالنا وعقائدنا .

وعلىٰ القول الثاني أمورٌ خارجة عن أعمالنا وعقائدنا لا سبيل لنا إلىٰ فهمنا ، ولا طريق إلىٰ نيلها والوقوف عليها .

والقولان جميعاً خارجان عن صراط الاستقامة . والحق في ذلك أن هذه الأمور التي أخبر الله «سبحانه» بإيجادها وفعلها عند الطاعة والمعصية ، إنما هي أمورٌ حقيقية واقعية من غير تجوز ، غير أنها لا تفارق أعمالنا وعقائدنا ، بل هي لوازمها التي في باطنها وهذا لا ينافي كون قوله تعالى : ﴿يُخرِجُهُم مِن الظُلُماتِ إلى النُورِ﴾ . وقوله تعالى : ﴿يُخرِجُونَهُم مِن النُورِ إلى الظُلُماتِ﴾[1] . كنايتين عن هداية الله «سبحانه» وإضلال الطاغوت .

وعلى ما تقدم نستطيع أن نقول : أن النزاع في مقامين :

أحدهما : كون النور والظلمة ، وما شابههما ذا حقيقة في هذه النشأة ،

---

(١) سورة البقرة / الآية : ٢٥٧ .

أو مجرد تشبيه لا حقيقة له ؟

وثانيهما : إنه على تقدير تسليم إن لها حقائق ، وواقعيات هل استعمال اللفظ كالنور مثلاً في الحقيقة التي هي حقيقة الهداية ، حقيقة أو مجاز ؟

وعلى أي حال : فإن النور والظلمة في أي استعمال هما كنايتان عن الهداية والإضلال ، وإلا لزم أن يكون لكل من المؤمن والكافر نور ، وظلمة .

لكن يمكن أن يقال : إن الإنسان بحسب خلقته على نور الفطرة ، هو نور إجمالي يقبل التفصيل . وأما بحسب النسبة إلى المعارف الحقة والأعمال الصالحة تفصيلاً فهو في ظلمة بعد لعدم تبين أمره .

والنور والظلمة بهذا المعنى لا يتنافيان ، ولا يمتنع اجتماعهما ، والمؤمن بإيمانه يخرج من هذه الظلمة إلى نور المعارف ، والطاعات تفصيلاً ، والكافر بكفره يخرج من (نور الفطرة) التي هي الإسلام ـ كما جاء في فقرة الدعاء المطروحة أمامنا ـ إلى (ظلمات الكفر ، والمعاصي التفصيلية) .

ولقد جمع «عليه السلام» ما يربط بين منهجية الإنسان في الحياة ، فهو يجزي كل إنسان على علمه ، ويزيده على ما يؤمل منه ، ويرحم من توسل إليه ، وينزل من السماء ما ينفع الناس في دنياهم ، وأخراهم .

أما في الدنيا فالمعاش والرياش ، وأما في الآخرة فالكتاب الجامع لكل شيء ، والذي هو منهج الإسلام ، وهو دين الله ارتضاه لخلقه ، وقد عبر عنه بالنور الساطع ؛ لظهوره وجلائه ، وتمشيه مع فطرة البشر في مختلف البيئات ، ولا زال يطوي الدهر طياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال عليه السلام :

[وهُوَ للدَّعَوات سَامِعٌ ، وللمطيعينَ نَافِعٌ ، وللدَّرَجَاتِ رَافِعٌ ، وللكُرُباتِ دَافِعٌ ، وللجَبَابِرَةِ قَامِعٌ ، ورَاحِمُ عَبرَةِ كُلِّ ضَارِعٍ ، ورَافِعُ ضَرعةِ كُلِّ ضَارِعٍ] .

اللغــة

الدعوات : جمع دعوة وهي المرة الواحدة من الدعاء ، وداعية بمعنىٰ الدعوة قال تعالىٰ : ﴿يَدعو لمن ضَرُّهُ أَقرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾[1] ، ذهب أبو إسحاق إلىٰ أن : يدعو بمنزلة يقول . قال عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئرٍ في لبان الأدهم

وتداعىٰ القوم دعىٰ بعضهم بعضاً ، ودعاه إلى الأمير ساقه . وقوله تعالىٰ : ﴿وَآخِرُ دَعوَاهُم أن الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين﴾[2] يعني إن دعاء أهل الجنة تنزيه الله وتعظيمه ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿دَعواهم فيها سُبحانَك

(١) سورة الحج / الآية : ١٣ .

(٢) سورة يونس / الآية : ١٠ .

اللهم﴾ . وقال رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» : (الدعاء هو العبادة) .

ثم قرأ : (وقال ربكمُ ادعوني استجبْ لكم) .

الكربات : الأحزان والغموم التي تأخذ بالنفس ، والكرب الحزن ، وجمع كروب ، وكربه الأمر ، والغم يكربه كرباً اشتد عليه فهو مكروب وكريب ، والاسم الكربة . والكرائب الشدائد ، قال سعد بن ناشب المازني :

فيا لرزام رشحوا بي مقدماً إلىٰ الموت خواضاً إليه الكرائب

الجبابرة : جمع جبّار . الجبار هو الله عز اسمه القاهر لخلقه على ما أراد من أمرٍ ونهي ، وقيل الجبار ها هنا المتمرد العاتي .

وفي الحديث : (ثم يكون ملك وجبروت) أي عتوّ وقهر . والجبار أيضاً المتكبر عن عبادة الله . والجبار القتال في غير حق فال تعالىٰ : **﴿وإذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ﴾**[1] وقال الأحمر :

فإنك إن عاديتني غضب الحصىٰ عليك وذو الجبورة المتغطرف

القمع : مصدر قمع يقمعه قمعاً قهره وذلّله فذلّ ، والقمع الذل ، وقمعه قمعاً ردعه وكفه ، قال تعالىٰ : **﴿ولهم مقامعُ من حديدٍ﴾**[2] .

والمقمعة واحدة المقامع من الحديد كالمحجن يضرب علىٰ رأس الفيل . وقد قمعته إذا ضربته بها .

---

(١) سورة الشعراء/ الآية : ١٣٠ .

(٢) سورة الحج/ الآية : ٢١ .

الـدعوات جمـع دعوة وهي بمعنىٰ الـدعـاء في كـلامـه «عليه السلام».

والدعاء أحد أنواع الطلب التي قسموها إلى ثلاثـة أقسام فـإذا كان الـطلب من الداني إلى العالي فهو دعاء ، وإذا كان من المتساويين فهو التماس، وإذا كـان من العالي إلىٰ الداني فهو أمرٌ ؛ وهذه المراتب الثـلاث يترتب بحسبهـا الكلام الصادر من صاحبها بين الدعاء والالتماس والأمر .

ولا نريد أن نتـطرق إلى هذا المـوضوع في كتـابنا هـذا لأنه قـد تكفلت بالبحث فيه كتب البلاغة ، ليرجع إليها من أراد ذلك .

كلام حول الدعاء

والدعاء له دورٌ كبير في العبادة عند الإنسـان المسلم ، وله آثـارٌ إيجابيـة في تهذيب النفس وشدّها إلىٰ باريء السماء تعالىٰ .

كما أن له آثاراً في الانفعالات التي تعتـري الإنسان فيحقق بـه كثيراً من أمـور الخيـر ، إذا كـان ضمن الضـوابط والشـروط التي ينبغي أن تتـوفـر في الدعاء ، خصوصاً إذا كان نابعـاً من المنطقـة الحرام (القلب) ، وهي المنـطقة البعيدة عن المؤثرات الخارجية .

وقد جاء في الترغيب والحث عليه ما لا مزيد عليه .

أما ما جاء في الكتاب العـزيز فهـو قولـه تعالىٰ : ﴿وَقَـالَ رَبُّكُمُ أَدعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم﴾[1] وقـال تعالى : ﴿أدعُـوا رَبَّكُم تَضَـرُّعـاً وَخُفيَـةً إِنَّـهُ لَا يُحِبُّ المُعتَدِينَ﴾[2] .

وأما ما جاء عن المعصومين «عليهم السـلام» فشيءٌ كثير قـال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» : (أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة) .

---

(١) سورة غافر / الآية : ٦٠ .

(٢) سورة الأعراف / الآية : ٥٥ .

وفي ما أوحىٰ الله إلى موسىٰ «عليه السلام» : (يا موسىٰ كن إذا دعوتني خائفاً مشفقاً وجلاً ، وعفّر وجهك في التراب ، واسجد لي بمكارم بدنك ، واقنت بين يدي في القيام ، وناجني حيث تناجيني بخشية من قلب وجل ، وأحيي بتوراتي أيام الحياة وعلم الجهال محامدي وذكرهم آلائي ونعمي وقل لهم لا يتمادون في غيّ ما هم فيه فإن أخذي أليم شديد .

يا موسىٰ لا تطول في الدنيا أملك فيقسو قلبك وقاسي القلب مني بعيد وأمت قلبك بالخشية وكن خلق الثياب جديد القلب تخفىٰ على أهل الأرض وتعرف في أهل السماء حلس البيوت ، مصباح الليل . واقنت بين يدي قنوت الصابرين . وصح إليّ من كثرة الذنوب صياح الهارب من عدوه ، واستعن بي على ذلك ، فإني نعم العون ونعم المستعان)[١] .

ولقد ورد في فضل الدعاء وأثره في العبادة ومكانته فيها عن أهل بيت العصمة ما يعجز عنه البيان فهو بحقٍ يعتبر من الأسرار الخفية التي كشف عنها أهل البيت «عليهم السلام» للمسلمين عامة ، ولشيعتهم خاصة .

ونحن نذكر هنا شطراً من هذه الروايات التي تعرضت لفضل الدعاء ومكانته .

فمنها ما جاء في خبر الشيخ الشامي أنه سأل أمير المؤمنين أي الكلام أفضل عند الله عز وجل ؟ قال : كثرة ذكره ، والتضرع إليه ، ودعاءه[٢] .

وفيما أوصىٰ به أمير المؤمنين «عليه السلام» ابنه الحسن يا بني للمؤمن ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة

---

(١) البحار : ج ٩٠ ص ٣٠٥ .
(٢) أماني الصدوق : ص٢٣٧ .

يخلو فيها بين نفسه ولذّتها فيما يحل ويحمد .

عن محمد العطار عن العمركي ، عن علي بن جعفر ، عن أخيه موسىٰ «عليه السلام» قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» : هل أدلكم على سلاح ينجيكم من عدوكم ، ويدر رزقكم ؟

قالوا : نعم ، قال : تدعون بالليل والنهار ، فإن سلاح المؤمن الدعاء[1] .

عن العالم «عليه السلام»[2] أنه قال : لكل داءٍ دواء سألته عن ذلك فقال : لكل داءٍ دعاء ، فإذا ألهم العليل الدعاء فقد أذن في شفاءه . ثم قال لي العالم «عليه السلام» : الدعاء أفضل من قراءة القرآن ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤا بِكُمْ رَبيّ لولا دُعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً﴾[3] .

من كتاب معاوية بن عمّار قال : قلت له : رجلان دخلا المسجد جميعاً ، افتتحا الصلاة في ساعةٍ واحدة ، فتلا هذا من القرآن ، وكانت تلاوته أكثر من دعائه ، ودعا هذا ، وكان دعاؤه أكثر من تلاوته ، ثم انصرفا في ساعةٍ واحدة . أيهما أفضل ؟ قال : كل فيه فضل ، كل حسن . قال : قلت : إني قد علمت أن كلاً حسن ، وأن كلًا فيه فضل ، قال : فقال : الدعاء أفضل . أما سمعت قول الله تعالىٰ : ﴿ادعوني أستجبْ لكم إنّ الذين يستكبِرُون عنْ عبادتي سيدخُلونَ جَهَنَّمَ داخِرين﴾[4] .

---

(١) ثواب الأعمال : ص ٢٥ .

(٢) العالم هو الإمام الكاظم « عليه السلام » وقد جرىٰ هذا الإصطلاح على لسان الشيعة في أيامه لشدة الطلب على أهل البيت خوفاً على الإمام .

(٣) سورة الفرقان/ الآية : ٧٧ .

(٤) سورة غافر / الآية : ٦٠ .

هي والله أفضل ، هي والله أفضل ، هي والله أفضل ، أليس هي العبادة ، أليست أشد ، هي والله أشد ، هي والله أشد ، هي والله أشد . ثلاث مرات .

جاء عن الإمام الصادق «عليه السلام» بعد حذف الإسناد قال : الدعاء كهف الإجابة ، كما أن السحاب كهف المطر[1] .

وعن الرضا «عليه السلام» أنه كان يقول لأصحابه : عليكم بسلاح الأنبياء . فقيل : وما سلاح الأنبياء ؟ قال : الدعاء .

أما ما جاء في ذكر الأوقات والحالات التي يرجىٰ فيها الإجابة ، وعلامات الإجابة ، فكثير .

ونحن إذ نسرد بعضاً من الروايات من طريق أهل البيت «عليهم السلام» فإنّما نبين مدىٰ اهتمام الذي أظهره أهل البيت لهٰذه العبادة ، ووضعوا لشيعتهم النقاط على الحروف لكي يغتنموا الأوقات المناسبة لذلك فيملؤها بالتضرع إلىٰ الله تعالىٰ .

فمنها ما جاء عن الصادق «عليه السلام» عن آبائه قال : (اغتنموا الدعاء عند خمسة مواطن ، عند قراءة القرآن ، وعند الآذان ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الصفين للشهادة ، وعند دعوة المظلوم فإنها ليس لها حجاب دون العرش)[2] .

عن أبي الصباح ، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال : إن الله عز وجل يحب من عباده المؤمنين كل دعاء ، فعليكم بالدعاء في السحر إلىٰ طلوع

---

(١) مكارم الأخلاق : ص ٣١٢ .

(٢) أمالي الصدوق : ص ٦٧ .

الشمس ، فإنها ساعةٌ تفتح فيها أبواب السماء ، وتقسم فيها الأرزاق ، وتقضىٰ فيها الحوائج العظام .

عن عمر ابن أذينة قال : سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول : إن في الليل ساعةً ما يوافقها عبد مسلم ، ثم يصلي ويدعو الله عز وجل فيها إلا استجاب الله تعالىٰ له في كل ليلة ، قلت : أصلحك الله وأي ساعة هي من الليل ؟ قال : إذا مضىٰ نصف الليل ، وبقي السدس الأول من أول الليل[1] .

وعن أبي جعفر «عليه السلام» قال : اطلب الإجابة عند اقشعرار الجلد ، وعند إفاضة العبرة ، وعند قطرة المطر ، وإذا كانت الشمس في كبد السماء أو زاغت ، فإنها ساعة يفتح فيها أبواب السماء ، يرجىٰ فيها العون من الملائكة ، والإجابة من الله تبارك وتعالىٰ .

وقال : إن التضرع والصلاة من الله تعالىٰ بمكانٍ إذا كان العبد ساجداً لله فإن سالت دموعه فهنالك تنزيل الرحمة ، فاغتنموا تلك الساعة المسألة ، وطلب الحاجة ولا تستكثروا شيئاً مما تطلبون ، فما عند الله أكثر مما تقدرون ، ولا تحقروا صغيراً من حوائجكم ، فإن أحب المؤمنين إلىٰ الله تعالىٰ أسألهم[2] .

وجاء عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» : الدعاء بين الآذان والإقامة لا يرد .

قال صاحب البحار أعلىٰ الله مقامه : رأيت في مجموعةٍ بخط بعض الأفاضل ـ والظاهر أنه نقله من مجموعةٍ قد كان جميعها بخط الشيخ شمس الدين محمد الجباعي جد شيخنا البهائي ، وهو قد نقلها من خط الشهيد

---

(١) مكارم الأخلاق : ص ٣١٦ .

(٢) مكارم الأخلاق : ص ٣٦٦ .

قدس الله أرواحهم الشريفة ، وقد أورده الكفعمي في البلد الأمين ، ما هذه صورته :

إجابة الدعاء للوقت والحال والمكان ، وعبادة الأركان والأسماء العظام .

فالوقت السحر ؛ لقصة يعقوب «عليه السلام» وقيل : أخرهم إلى غيبوبة القمر ليلة العاشر من الشهر ، وقيل : إلى ليلة الجمعة وعند الزوال . ورد إذا زالت الأفياء وراحت الأرواح ـ أي هبت الرياح ـ فارغبوا إلى الله في حوائجكم ، فتلك ساعة الأوابين ، وبين العشائين . وروي من دعا بينهما لم يرد دعاؤه . وآخر الليل لما روي أنه يقال هنالك هل من داعٍ فأستجيب له ؟ هل من مستغفرٍ فأغفر له ؟ وعند الإفطار ، وآخر ساعة من الجمعة ، وبين طلوع الفجر والشمس ، وقيل هي ساعة الإجابة في الجمعة ، وقيل : هي عند جلوس الإمام علىٰ المنبر ، وقيل عند غيبوبة نصف القرص ، وفي يوم الأربعاء بين الظهر والعصر ، رواه جابر عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» .

وفي الخبر الدعاء بين الصلاتين لا يرد[1] .

وأما الحال فهو كدعاء المريض ، ودعاء الوالد لولده ، والولد لوالده ، ودعاء الحاج والمعتمر ، والمسافر في غير معصية حتىٰ يرجع ، والأخ لأخيه بظهر الغيب ، والمظلوم يفتح به أبواب السماء ، ويرفع فوق الغمام ، ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين . . . الخ .

ثم استطرد في ذكر كثير من الروايات عن أهل الذكر «سلام الله عليهم» ، تفيد بأن مكانة الدعاء لا تصل إليها عبادة ، ولا تدانيه مكانة .

---

(١) البحار : ج ٩٠ ص ٣٤٨ .

وهناك كثير من الأوقات ، والحالات التي يظن فيها استجابة الدعاء ، ذكرت في مطاوي كثير من الروايات الواردة عنهم «سلام الله عليهم» كالدعاء بعد المكتوبة ، وعند هبوب الرياح ، وظهور آية معجزة لله في أرضه وعند احتضار الميت ، وعند نزول الغيث .

أما استجابة الدعاء فهي موكولة إليه سبحانه لأنه أعرف بمصلحة العبد . وربما دعا المؤمن فلم يستجب له ولكن دعوته أجلت لوقت علم الله لحاجته إليها أكثر مما لو استجيبت له في وقت الدعاء . وربما عجِّلت الإجابة للرجل الفاسق أو المنافق ليستوفي أجره في دار الدنيا ، وليس له في الآخرة من نصيب .

وهناك أسباب أخرىٰ تدعو إلى التعجيل والتأجيل ، طويناها خوف الإطالة فليرجع إليها من أرادها في مضانها .

* * *

ثم وصفه تعالىٰ بالنفع لمن أطاعه وهذه منفعة خاصة للمؤمنين دون غيرهم من بقية المخلوقين ، فمنفعة المطيعين هي ثمرة طاعتهم ونتيجة عملهم ، وهي الثواب الذي يوصلهم إلى الجنة .

ولا يمكن القول بأن المنفعة هي النعم المتوفرة ؛ لأنها عند المطيعين والعاصين على السواء . ومسألة الرزق لا دخل لها في الطاعة والمعصية .

إنما نقول بأن المطيع أحق بنعم الله من العاصي ، لأنه يطلبه من طريقه الطبيعي ، وكما أمر الله ، فلا سطو ولا سرقة ، ولا احتيال ، ولا خداع ، ولا مكر ، ولا ظلم . وبكلمة عامة إن وجود المؤمن علىٰ وجه الأرض غير مؤذٍ لغيره . أما العاصي فهو على العكس من ذلك .

فمسألة الرزق خارجة عن نطاق الإيمان والرزق ، لأنها من التزامات

المولىٰ سبحانه للعبد ، والإيمان هو التزام العبد للمولىٰ .

ولقد جاء ضمن هذا المعنىٰ ما هو مرويٌّ في صحيح أبي حمزة الثمالي ، عن الباقر «عليه السلام» قال : قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» في حجة الوداع : (إن الروح الأمين نفث في روعي إنه لن تموت نفس حتىٰ تستوفي رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء شيءٍ من الرزق أن تطلبوه بشيءٍ من معصية الله ، فإن الله تعالىٰ قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً ، ولم يقسمها حراماً ، فمن اتقىٰ الله وصبر آتاه الله رزقه من حلّه ، ومن هتك حجاب الله عز وجل ، وأخذ من غير حلّه قص به من رزقه الحلال ، وحوسب عليه) .

(وللدرجات رافع) أي رافع درجات الأنبياء والأوصياء والمؤمنين . وهذه نقلة عجيبة تمت طبقاً لهذا الكلام ، فبعد أن ذكر نفعه للمطيعين لوّح في هذه العبارة بالنفع الكبير لهٰؤلاء ، فمنه رفع الدرجات ودفع الكربات وهذا غاية ما يتصوره الإنسان من الإنعام والإكرام ، يدفع عنه الشر ويرفع درجاته في الآخرة والدنيا ؛ لأن الدرجات تتفاوت حتىٰ في مقام الأنبياء والرسل فإن بعضهم أفضل من بعض قال تعالىٰ : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعضَهُم عَلَى بَعضٍ مِّنهم مَّن كَلَّم اللَّهُ وَرَفَعَ بَعضَهُم دَرَجَات﴾[1] .

وإذا تصورنا ما جاء في الفقرة السابقة عرفنا كيفية الربط بينه وبين قوله (وللجبابرة قامع) ؛ لأنه لا يتصور أن يأتي الكرب ، بل الشر إلّا من هذا الوجه إن صحّ التعبير ؛ لأن الجبابرة على ما يروي التاريخ الإنساني إنهم هم مصدر القلق الذي يبعث على الفوضىٰ التي تهدم المجتمعات الإنسانية .

كما يحدثنا التاريخ عن نماذج من هؤلاء الجبابرة الذين استعبدوا

---

(١) سورة البقر / الآية : ٢٥٣ .

الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . فمن هؤلاء الجبابرة :

١ ـ فرعون

وهو فرعون مصر ونعني به فرعون موسىٰ وقد حكم مصر بذلك الاسلوب الاستكباري وتمادىٰ في غيه ، وعلا في الأرض ، وأنزل الخسف بطائفةٍ من رعاياه هم بنو إسرائيل ، إذ عاشوا في ظلاله عيشة البلاء واصطبروا على اللاواء . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِرعَونَ عَلاَ فِي الأَرضِ وَجَعلَ أَهلَها شِيَعاً﴾[(١)] . وبما أن هذا الرجل قد ادّعىٰ أمراً عظيماً ، لا يحتمله العقلاء ، ولمّا كان ضرر هذا الإدّعاء عاماً شاملاً قد نزل بأهل مصر وما والاها لأنه أمرهم بعبادته دون عبادة الله وأجبرهم عليها ومن أبىٰ ذلك نكّل به ، فأما القتل وأما التنكيل والعيش النكد وسوء الحال ؛ فقد ذكر القرآن الكريم هذه الشخصية الشاذة ذات الوضع النشاز من أوله إلى آخره ، حتى استوفاها كاملة . وقد قرأنا كيفية هلاك هذا الجبار ، فقد أصبح عبرةً لمن اعتبر من أولي الألباب .

٢ ـ نمرود

وهو أيضاً من الشخصيات التي رواها التاريخ واشتهرت فيه بالجبروت والعنف ، فأمر الناس أن يعبدوه من دون الله وقد أشار إليه القرآن في حجاجه ولجاجه مع إبراهيم «عليه السلام» فقد سجل هذه المحاورة القرآن المجيد في قوله تعالى : ﴿أَلَم تَرَ إِلىٰ الَّذي حَاجَ إبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَن آتَاهُ اللَّهُ المُلكَ إِذ قَالَ إبرَاهِيمُ : رَبِّيَ الَّذِي يُحيي وَيُمِيتُ قَالَ أَنا أُحيي وأُمِيتُ قال إبرَاهِيمُ : فَإِنَّ اللَّهَ يَأتِي بالشَّمس مِنَ المَشرِقِ فأتِ بِهَا مِنَ المَغربِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهدِي القومَ الظَّالِمِين﴾[(٢)] .

---

(١) سورة القصص / الآية : ٤ .

(٢) سورة البقرة / الآية : ٢٥٨ .

ثم ضاعف من تحديه لإبراهيم «عليه السلام» لينتقم منه فجمع الحطب ليحرق به إبراهيم ، وأراد الله أن يبرهن له على ضعفه ، فإنه مهما صنع ومهما دبّر فلا يمكن أن ينال إبراهيم بسوء ، فصدر الأمر السامي إلىٰ النار فقال تعالىٰ : ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرداً وسَلَاماً عَلى إبرَاهِيمَ﴾(١) .

وأخيراً جاءت نهايته بمقتله بأضعف خلق الله ، وهي بعوضة دَخلت في منخره أقضت مضجعه ، وسلبته الراحة ، فذاق بذلك الأمرين ، ثم مات بعد عناءٍ شديد وخرجت البعوضة من دماغه مكسورة الجناح ، وقد عوضت عن ذلك بملأ الدنيا ذهباً فلم تقبل وقالت إن هذا لا يساوي جناحي ، وهكذا فإن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

٣ ـ دقيانوس

وهذا هو الشخصية الثالثة التي ابتليت بها الناس في حقبة من الزمن ، فقد تحكم في رقابهم وأموالهم ودمائهم وأمرهم أن يعبدوه من دون الله ، حتى هرب من هرب ، ومن هؤلاء الذين هربوا هم أصحاب الكهف ، وقد فزوا بدينهم ورجعوا بعد موتهم فجعلهم الله آية للناس .

إن هذا الملك الجبار قد عوّدهم على كل رذيلة وأرغمهم على عبادته وأمرهم أن يكفروا بالله الذي خلقهم وما يعبدون واستتبع ذلك نكران كل فضيلة ومنها إنكار البعث والحساب .

ولمّا كان الإنسان البدائي قليل التعقل للأمور الفكرية فإنه يلزم جانب الإهمال في كثيرٍ من هذه القضايا ، ولا يكلف نفسه عناء التأمل والشعور بالمسؤولية . فلهذا نرىٰ الإنسان ينساب وراء الغوغائية والفوضوية . فمرةً يعبد الأوثان ، ومرةً يعبد الهوىٰ ، ومرة يعبد الشهوات ، ومرةً لا يلتزم بمعبودٍ

(١) سورة الأنبياء / الآية : ٦٩ .

مطلقاً ، حقاً كان ذلك أو باطلاً ، كما هو الحال في هذا الملك الجبار مع قومه .

هذه نماذج تعرض لنا ألواناً من تصرفات الإنسان وهناك نماذج أخرىٰ لا يسعها المقام ولا يقوم بها حصر ، فكلما رمينا بأبصارنا في عمق الزمن رأينا فيه هذه العينات الشاذة والبعيدة كل البعد عن الطبيعة الإنسانية الخيّرة .

ثم أشار «عليه السلام» إلىٰ ذلك الأمل الجميل الذي يداعب خيال الإنسان في مثل تلك المواقف التي يظن العبد فيها بربه ظن الخير . فقد قال وكله ثقة بالله : (وراحم عبرة كل ضارع) فقد تمثّل نفسه وهو أحد تلك الأفراد الذين يبكون إشفاقاً من خشيته تعالى ، فإذا كانت هذه حاله فإنّ الله أكرم من أن يعرض بوجهه عنه ، فإذا بكى الإنسان من خشية الله تواضعاً فلا بدّ أن تدركه الرحمة .

ثمّ إنّه بعد أن تدركه الرحمة من الله فإنّ هذا التذلّل والخضوع والخشوع ، لا شك أنّه بعين الله ، وإذا كان كذلك فإنّ هذه الضرعة ، أو هذه الدعوة التي هي بمعنى الدعاء ترفع إلى الله تعالى ، وذلك فيما إذا أخلص الإنسان في تضرّعه إلى الله سبحانه وقد مرّ في كلام سابق حديث في الدعاء ومظنّة الاستجابة ، فليرجع إليها من أراد .

قال عليه السلام :

[فَلاَ إِلَهَ غَيرُهُ ، وَلاَ شيءَ يعدلُهُ ، وَليسَ كَمِثلِهِ شيءٌ ، وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ البَصِيرُ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ] .

اللغــة

إلّـه : كلمـة للجنس اتخـذت لكـلّ معبـود ، والجمـع آلهـة والآلهـة : الأصنـام سمّيت بذلـك لاعتقـادهم أنّ العبـادة تحصين لهـا وجـاء في حـديث وهيب بن الورد : إذا وقع في إلهيّة الرب ومهيمنيّـة الصدّيقين ورهبـانيّة الأبـرار لم يجـد أحـداً يـأخـذ بقلبــه ، أي لم يجـد أحــداً يعجبـه ولـم يحب إلاّ الله سبحانه .

قال ابن الأثير : هو مأخوذ من إلّهه وأصله من ألِهَ يألَهُ ، إذا تحيّر . يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبيّة وصرف همّته إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد .

وتقـول العرب : لله مـا فعلت ذاك يريـدون : والله ما فعلت ، والتـألّه : التنسّك والتعبّد ، والتأليه : التعبيد قال الشاعر :

للّه درّ الغانيات المدّهي سبّحنّ واسترجعن من تألّه

وقال تعالى : ﴿أإلهُ مَعَ اللّهِ قَلِيلاً مَا تذَكَّرُون﴾[1] .

يعدله : عدل الموازين والمكاييل : سوّاها ، وعدْل الشيء يعدله عدلاً وعادله : وازنه ، وعادلت بين الشيئين وعدلت فلاناً بفلان إذا سوّيت بينهما ، وتعديل الشيء تقويمه . قال تعالى : ﴿أو عَدلُ ذَلِكَ صِياماً﴾[2] .

قال مهلهل :

على أن ليس عِدْلاً من كليب إذا برزت مخبّأة الخدور

كمثله : المثل كلمة تسوية وهي تقارب في المعنى الكلمة السابقة . ولكن قال ابن برّي : الفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة بين المختلفين في الجنس ، والمتّفقين ؛ لأنّ التساوي هو التكافؤ لا يزيد ولا ينقص في المقدار . وأمّا المماثلة فلا تكون إلاّ في المتفقين . وإذا قيل هو مثله على الإطلاق فإنّه يسدّ مسدّه ، وإذا قيل هو مثله في كذا فهو مساوٍ له في جهة دون جهة قال تعالى : ﴿مَثَلُهم كَمَثلِ الَّذي استوقدَ ناراً﴾[3] .

السمع : حسّ الأذن ، وفي التنزيل ﴿أوَ ألقَى السَّمعَ وهُوَ شَهِيد﴾[4] .

وفي الحديث : ملأ الله مسامعه . هي جمع مسمع وهي آلة السمع ، والأذن أخفّ الأعضاء شعراً ، بل أكثرها لا شعر فيه فيكون النزع منها أبلغ ، وفي التنزيل ﴿وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[5] ، وهي صفة من صفاته عزّ وجل .

---

(١) سورة النمل / الآية : ٦٢ .

(٢) سورة المائدة / االآية : ٩٥ .

(٣) سورة البقرة / الآية : ١٧ .

(٤) سورة ق / الآية : ٣٧ .

(٥) سورة النساء / الآية : ١٣٤ .

وقد يكون في كلام العرب السميع بمعنى سامع ويكون مسمع ، قال عمرو بن معدي كرب الزبيدي :

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

العليم : والعالم والعلّام من صفاته تعالى ، قال سبحانه : ﴿**عَالِمُ الغَيبِ والشَّهادَةِ**﴾[1] ، وقال جلّ وعلا : ﴿**ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ**﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿**عَلاَّمُ الغُيُوبِ**﴾[3] .

والعلم نقيض الجهل ، ورجل عالم وعليم ، من قوم علماء .

قال ابن جنّي : لمّا كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابسة ، صار كأنّه غريزة ولم يكن على أوّل دخوله فيه ولو كان كذلك لكان متعلماً لا عالماً ، فلمّا خرج بالغريزة إلى باب فعل صار عالماً في المعنى كعليم .

البصير : من أسمائه تعالى ، وهو الذي يشاهد الأشياء كلّها ظاهرها وخافيها بغير جارحة ، والبصر في حقّه عبارة عن الصنعة التي يتكشّف بها كمال نعوت المبصرات ، أي على حقيقتها ، أو لاتخفى عليه دقائقها .

والبصر حاسّة الرؤية ، وأبصرت الشيء رأيته ، قال الشاعر :

فبت على رحلي وبات مكانه أراقب ردفي تارة وأباصره

اللطيف : من أسماء الله أيضاً ، وصفاته ، وفي التنزيل قال تعالى : ﴿**وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾[4] . قال ابن الأثير : اللطيف هو الذي اجتمع له

---

(١) سورة الأنعام / الآية : ٧٣ .

(٢) سورة الأنعام / الآية : ٩٦ .

(٣) سورة المائدة / الآية : ١٠٩ .

(٤) سورة الأنعام / الآية : ١٠٣ .

الـرفق في الفعل والعلم بـدقائق المصـالح ، وإيصـالها إلى من قـدّرها لـه من خلقه .

البيـــان

(فـلا إلّـه غيـره) . هـذه هي الكلمـة التي فـطر الله الـنـاس عـليها ونـادت بهـا الأنبيـاء الـذين بعثهم الله لكي يخـرجـوا النــاس من الـظلمــات إلى النور . وهي من أهمّ الأبحاث عند علماء الكلام .

فلا شك أن واجب الوجود واحد لا تعدد فيه ، وللعلماء من أهـل الفرق الإسلاميّة طرق في الإستدلال بعضها أوضح من بعض .

وقد أستدلّ الحكماء منهم أنَّ وجوده وتعيّنه غير خارجين عن ذاته ، وإلاَّ لزم أن يكون معلولين لها ، والعلّة ما لم تكن موجودة معيّنـة إستحال أن تـوجد غيرها ، بل عينها . فلو تعدد الواجب حصل فيـه اشتراك وافتقر إلى مميّز غير عام الحقيقه ، وغير عارض لعدم خروج كل من الوجود والتعيّن عن ذاته ، بـل جزئه ، فيلزم التركيب الملزوم للإمكان ، يـكون ممكناً ، وقد ثبت أنَّـه واجب لذاته .

وأمّا المتكلمون فـاحتجاجهم على عـدم الإحتياج إلى العلّة لا يسلم من خدش حيث قالوا بزيادة وجود الواجب على ذاته فيكون الوجود إعتباريّاً عقليّاً ، وزيادته على الماهيّة ، وافتقاره إليها إنَّما هو في الذهن ؛ نظراً إلى أنَّ المفتقر إلى الغير إنَّما يكون ممكناً ممّا له عين خارجة . . إلخ .

ولغمـوض هذا الكـلام عدل المتكلمـون عن تلك الطريقـة إلى بـرهـان التمانع المشار إليه في القـرآن في غير آيـة ، كقولـه تعالىٰ : ﴿ لَـو كَانَ فِيهِمَـا آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَنَا ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنبياء / الآية : ٢٢ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إلهٍ إذاً لَّذَهبَ كُلُ إلهٍ بِمَا خَلَقَ وَلعَلا بَعضُهُم عَلَىٰ بَعَضٍ ﴾[1] .

ومعناه أنَّه لو أمكن الأمان مع تساويهما في الصفات وتساوي الممكنات بالنسبة إليهما لم يقع منهما شيء ولم يقع هذا النظام للعالم ؛ لأنَّه كالشخص الواحد ؛ لأنَّ المؤثر إمَّا أن يكون كل واحد منهما ، فتجتمع علتان علىٰ معلول واحد شخصي ، وإلاَّ فيلزم الترجيح من غير المرجّح ، أي انتصار أحد الإلهين علىٰ الآخر ، مع تساويهما في الذات والصفات وهذا غير ممكن .

وبمعنىٰ آخر أوضح أنَّه لو أمكن ذلك ؛ لأمكن أن يريد أحدهم حركة زيد والآخر سكونه ، لإمكان كل منهما في نفسه ، فمع الإرادتين إمَّا أن يقعا معاً ، فيجتمع الضدّان (الحركة والسكون) ، أولاً ، فيلزم عجزهما مع اجتماع الضدّين ووقوع المرادين من حيث لا يقعان أو عجز أحدهما ، وفي العجز شائبة الإحتياج ، وأيضاً يلزم الترجيح من غير المرجّح ؛ لأنهما متساويان في الكمال .

وبالجملة فجميع الأدلة العقليّة لهذا المطلب قابلة للمناقشة فيها ، ولا تخلو من أخذ وردّ ، ونقض وإبرام ، وثبوت كلام في يوم لا بدّ وأن ينتقض في يوم آخر وبالعكس .

فالأولىٰ الإعتماد على السمع ولا يلزم الدور ـ كما توهّمه البعض ـ لأنَّه كلام من ثبتت إلهيته ، ولقد نفي الشريك عن نفسه فقال عز من قائل : ﴿ فَاعَلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ ﴾[2] .

وما تقدم في الآيتين مع اشتمالهما على الإستدلال بما ذكرناه ،وكثير غيرهما

---

(١) سورة المؤمنون / الآية : ٩١ .

(٢) سورة محمد (ص) / الآية : ١٩ .

من الآيات المنتشرة في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقول عليّ « عليه السلام » لابنه الحسن « عليه السلام » : (إنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه) فهو وإن كان من باب دليل الخطاب إلاّ أنه في قوّة البرهان ، وجاء في الدعاء الذي بين أيدينا قوله « عليه السلام » : (كيف يستدل بما هو مفتقر في وجوده إليك ، عميت عين لا تراك ، وكنت عليها رقيبا) .

والمثل والعديل كلّها ألفاظ تعطي معنىٰ الشريك ، وقد سبق نفي الشريك عنه تبارك وتعالىٰ بالدليل السمعي والعقلي ، وهناك الأدلّة الأخرىٰ التي لا يقوم لها شيء ، ولا يردها شيء . على أنّ الشريك إذا أخذ بحسب المعنيين السابقين (العديل والمثل) فإنه الوجدان يشهد بعدم وجودهما ، وما لأوهام التي تعلق بذهن الإنسان إلاّ من تصوراته الخاطئة التي لا وجود لها إلاّ في الذهن . كما مثل لذلك علماء الميزان .

فهو تبارك وتعالىٰ منزّه عن العديل والمثل والشريك وعن كل نقصٍ ينافي كمال وجوده كالند خلافاً للبهشمية الذين جعلوا ذاته مساوياً لذات غيره ، وعن التركيب خلافاً للغلاة والحشوية ، وعن الحاجة للنقص ، وعن الجوهرية لا بمعنىٰ ذات الشيء ، خلافاً لبعض النصارىٰ ، والضد والإتحاد بمعانيهما ، خلافاً لبعض الصوفية .

صفات الباري

أما صفاته تبارك وتعالىٰ ، فمنها ثبوتية ومنها سلبية . وقال بعضهم : إن صفاته كلها سلبية ، وما ورد من إثبات هذه الصفات : (السميع ، العليم ، البصير) فهي صفات ذاتية ، ولعلهم قد فرقوا بينها وبين صفات الأفعال ، سلباً وإيجاباً . فإن صفات الذات لا يمكن سلبها عنه بحال ، فهو لا يوصف بالجهل ، أو عدم السمع ، أو عدم البصر .

أما السميع ، والبصير فعليهما انعقد إجماع المسلمين ـ إلاَّ من شذ ـ وكذلك الأدلة السمعية القطعية دالان على كونه ـ تعالىٰ ـ سميعاً بصيراً ، فيجب الإذعان ، والتصديق بهما . وأما كونه عالماً فهذه صفة من أجل الصفات وقد استدل على إثباتها له « سبحانه وتعالىٰ » لأنها من أعلا صفات الكمال للموجودات ، فيجب اتصافه بها ، وإلاَّ فإن معلوله الممكن (المخلوق) أشرف ، وأتم منه لثبوت ذلك له بالضرورة .

والمشهور في الإستدلال على ذلك بين المتكلمين اشتمال أفعاله على لطائف ، وبدايع الترتيب ، والإحكام التي تحير فيها العقول والأفهام ، وبأنه قادر فاعل بالقصد والإختيار ، وأما السمع والبصر فهما بالنسبة إليه العلم بالمسموعات والعلم بالمبصرات .

وذهب السيد المرتضىٰ إلى أن السميع البصير من كان على صفةٍ بكونها مختصة به ، صح أن يبصر المبصر ويسمع المسموع إذا وجد السامع المبصر هو المدرك للمسموع والمبصر .

أما العلم فقد عرّفوه منطقياً بأنه (حضور صور الأشياء في الذهن) ثم اختلفوا فيما لو حضرت صورة شيءً بزعم أنها صورة شيء مغاير آخر واعتقدها ذلك المعتقد أنها هي الحقيقة ، فهل تعتبر من العلم ؟ قالوا : لا ؛ لأن الصورة خلاف الحقيقة وليس هذا من العلم ، وقالوا نعم لأن وجود الصورة قد استتبع جزماً واعتِقاداً . ولا يعنينا أمر ادلتهم على أقوالهم .

وعلماء الكلام يقولون : هو في الأزل والمقصود هو الله تعالىٰ ، سميع لا سامع ، بصير لا مبصر ، إذ ليس في الأزل موجود سواه .

وذهب جمهور الأشاعرة والمعتزلة ، والكرامية إلىٰ أن صفة السمع والبصر صفتان قديمتان زائدتان علىٰ العلم محتجين : بأنه تعالىٰ حي ، والحي يصح اتصافه بهما وكل من يصح اتصافه بصفةٍ لو لم يتصف بها لا تصف بضدها ، وضدّها نقص ، وهو عليه تعالىٰ محال .

وعلى هذا مجرىٰ السمع والبصر بالنسبة إلى ذاته مجرىٰ العلم والقدرة لقوله « عليه السلام » لم يزل الله عزّ وجلّ ربنا والعلم ذاته ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور ، فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه علىٰ المعلوم ، والسمع على المسموع ، والبصر على المبصر ، والقدرة علىٰ المقدور .

والمراد بوقوع العلم علىٰ المعلوم تجدد نسبته على العلم ، والمعلوم لو لا تحققها لم يكن العلم علماً به ، وقد يعبر عن هذا الوقوع بالعلم . . . وقس على هذا وقوع البصر والسمع .

ويمكن أن يراد بالوقوع تجدد وقوع متعلقة بالخارج على حسب ما تعلق

به . وكان هذا إشارةً إلى تفسير آيات ، ودفع اشكالات عنها مثل قوله تعالىٰ : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ ﴾[1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِم ﴾[2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُمْ ﴾[3] .

وهكذا في كثيرٍ من الأيات فكان العلم إليه تعالىٰ له معنيان :

أحدهما : من صفات الذات ، والأخر من صفات الفعل ، وهو وقوع المعنىٰ الأول على المعلوم ، وفيه إشارة أيضاً إلى رد ما زعمه الفلاسفة من أن علمه تعالىٰ حضوري لا يمكن إلاَّ بوجود المعلوم في الخارج . . . وهكذا في السميع والبصير وقد تقدم .

وبهذا المعنىٰ جاء خبر جعفر بن محمد بن حمزة قال : كتبت إلى الرجل[4] أسأله إنما مواليك إختلفوا في العلم فقال بعضهم : لم يزل الله عالماً ؛ لأن معنىٰ يعلم (يفعل) فإن أثبتنا العلم فقد أثبتنا في الأزل معه شيئاً ، فإن رأيت ـ جعلني الله فداك ـ أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه . فكتب عليه بخطه (لم يزل الله عالماً تبارك وتعالىٰ) .

* * *

وجاءت صفة اللطيف مع الخبير لكي يربط بينهما في معاملته « سبحانه » للإنسان الضعيف . فاللطيف كما تقدم معناها ، الرفق والرأفة والرحمة والدقة في العمل ولا يمكن أن تعرف الدقة إلاَّ بالخبرة . ومعرفة

---

(١) سورة الكهف / الآية : ١٢ .

(٢) سورة الفتح / الآية : ١٨ .

(٣) سورة محمد / الآية : ٣١ .

(٤) الرجل : هذه إشارةٌ معروفة ومألوفة لدىٰ الشيعة ، وكانوا يعنون بها الإمام الكاظم « عليه السلام » وذلك خوفاً عليه وعلى أنفسهم .

مقدرة الإنسان في تقبل التكاليف الشرعية كما تقتضيه الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها تحتاج إلى مثل ذلك .

واللطف واجب علىٰ الله كما هو مقتضىٰ عدله ، وحكمته وقد عرفوه : بما يقرب المكلف معه إلىٰ الطاعة ، ويعبر عن المعصية ، ولا يبلغ حد الإلجاء ، وخالف في ذلك الأشاعرة بناءاً على ما ذهبوا إليه من عدم وجوب شيءٍ علىٰ الله ، وهو أصل فاسد بالضرورة ، ولا حاجة بنا إلىٰ مناقشته .

وعلىٰ ذلك فإذا أردنا تمشية هذا التقرير في حقه « تعالىٰ » نقول : إنه تعالىٰ قد كلف العباد بالأوامر والنواهي ، وهذا التكليف هو إيقاع الطاعة من العبد المكلف ، والبعد عن المعصية ، فإذا علم أنهم لا يفعلون ذلك إلاَّ بفعل يفعله بهم بحيث يصل به تقربهم لإيقاع ذلك منهم ، ولو لم يفعل ذلك مع علمه بتوقف غرضه عليه كان ناقضاً لغرضه ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً . فوجب في حكمته وعنايته فعل الألطاف المقربة للمكلفين بالقيام بالطاعات المعدة لهم عن إرتكاب المعاصي .

أما الحديث عن قدرته « تعالىٰ » فإن لسان العالم وإلباسه الوجود بعد العدم ينادي بثبوت القدرة علىٰ الوجه الأتم لصانع هذه الأشياء ، والملبس لها بعد الإمكان الوجود الفعلي ولهم في تعريف القدرة لا يرجىٰ زواله .

وما جاءت به أخبار أئمتنا « عليهم السلام » هو ما نختاره وهذه التعاريف ليست حقيقية ، بل تقريبية وللفرق بينها وبين قدرة الأنام ، وإلاَّ مقدرته عين ذاته ، فلا تصل إليها الفطن والأفهام ، وقد عرفها الأكثر من الفريقين بمعنىٰ : (إنه إن شاء فعل ، وإن شاء ترك) . أي يصح كلٌ من الفعل والترك بحسب الدواعي والمصالح المختلفة ، خلافاً للفلاسفة . فقد نفوا القدرة عنه بهذا المعنىٰ ، وأثبتوها له بمعنىً آخر .

وكان منشأ الخلاف علىٰ هذا نفس التعريف ويحتمل أن يكون منشأه

القول بالوجوب، والإمتناع المتقدمين، فلا يكون خلافاً في معنىٰ القدرة.

فلو أريد بصحة الفعل وتركه ما يساوق الإمكان الذاتي لانتفىٰ الفرق بين التعريفين. وقد نقل عن بعض العلماء أنه فسّر القدرة (بصحة صدور الفعل عنه، وتركه).

وكان الداعي للحكماء بذلك قولهم: كل فعلٍ بإرادة مختارة، سواءً قارن فعله أو تأخر عنه. وموضع الخلاف بينهم وبين المتكلمين إنما هو في الداعي.

ومذهب أكثر الإمامية، والأشاعرة عموم قدرته « تعالىٰ » على جميع الممكنات، والإستدلال عليه عقلاً بأن المقتضي للقدرة أو آثارها هو ذاته « تعالىٰ » والمصحح للمقدورية هو الإمكان، ونسبته إلى جميع الممكنات على السواء، وهو مبني على أن المعدوم نفي محض، وأنه لا مادة له، ولا صورة. فلا يتصور إختلاف في نسبة الذات إلى المعدومات للإختصاص بعضها بالمقدورية.

وفي خبر إسحاق قال: إن عبد الله الديصاني سأل هشام بن الحكم فقال له ألك ربٌّ؟ قال: بلىٰ. قال: أقادرٌ هو؟ قال: نعم. قادرٌ قاهر. قال: أيقدر على أن يدخل الدنيا كلها في البيضة، ولا تكبر البيضة ولا تصغر الدنيا؟ قال هشام: النظرة. قال له: قد انظرتك حولاً. ثم خرج عنه فركب هشام إلى أبي عبد الله « عليه السلام » فاستأذن عليه فأذن له. فقال له: يابن رسول الله، أتاني عبد الله الديصاني بمسألةٍ ليس المعول فيها إلاّ علىٰ الله وعليك، فقال أبو عبد الله « عليه السلام »: عمّاذا سألك؟ فقال: قال لي كيت وكيت، فقال أبو عبد الله « عليه السلام »: يا هشام كم حوّاسك؟ قال: خمسٌ، فقال: أيها أصغر؟ فقال الناظر، فقال: وكم قدر الناظر؟ قال: مثل العدسة، أو أقل منها، فقال: يا هشام فانظر أمامك وفوقك وأخبرني بما ترىٰ، فقال: أرىٰ سماءً وأرضاً ودوراً وقصوراً وتراباً وجبالاً

وأنهاراً ، فقال له أبو عبد الله : أن الذي قدر أن يدخل الذي تراه العدسة أو أقل منها قادر أن يدخل الدنيا كلها في البيضة لا يصغر الدنيا ولا يكبر البيضة .

فانّكب هشام عليه وقبل يديه ورأسه ورجليه ، وقال حسبي يابن رسول الله فانصرف إلى منزله ، وغدىٰ إليه الديصاني فقال : يا هشام أني جئتك مسلّماً ولم أجئك متقاضياً للجواب ، فقال له هشام : إن كنت جئت متقاضياً فهاك الجواب ، فخرج عنه الديصاني ، فأُخبر أن هشاماً دخل على أبي عبد الله «عليه السلام» فاستأذن عليه فأذن له ، فلما قعد قال له : يا جعفر بن محمد دلني على معبودي ، فقال له أبو عبد الله « عليه السلام » ما أسمك ؟ فخرج عنه ولم يخبره باسمه ، فقال له أصحابه : كيف لم تخبره باسمك ؟ قال : لو كنت قلت له : (عبد الله) كان يقول من هذا الذي أنت له عبد ؟ فقالوا له : عُد إليه فقل له يدلك على معبودك ولا يسألك عن اسمك ، فرجع إليه فقال له : يا جعفر دلني على معبودي ولا تسألني عن أسمي ، فقال له أبو عبد الله « عليه السلام » : أجلس ، وإذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها ، فقال أبو عبد الله « عليه السلام » : ناولني يا غلام البيضة فناوله أياها فقال أبو عبد الله « عليه السلام » : يا ديصاني هذا حصن مكنونٌ له جلد غليظ وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق ، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مايعة وفضة ذائبة ، فلا الذهبة المايعة تختلط بالفضة الذائبة ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة ، هي على حالها لم يخرج منها مصلح فيخبر عن إصلاحها ولا دخل فيه مفسد فيخبر عن فسادها ، لا يدري للذكر خلقت أم للانثىٰ ، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس ، أترىٰ لها مدَّبراً ؟ قال : فاطرق ملياً ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله ، وانك إمام وحجة من الله على خلقه ، وانا تائب مما كنت فيه[1] .

---

(١) توحيد الصدوق : ص ١٢٣ .

في خبر أبي نصر بحذف الإسناد قال : جاء قوم من وراء النهر إلىٰ أبي الحسن « عليه السلام » فقالوا له : جئناك نسألك عن ثلاث مسائل ، فإن أجبتنا فيها علمنا أنك عالم ، فقال : سلوا ، فقالوا : أخبرني عن الله أين كان وكيف كان وعلى أي شيء كان اعتماده ؟ فقال : أن الله عزو جل كيّف الكيف فهو بلا كيف ، وأيّنَ الاين فهو بلا أين ، وكان اعتماده علىٰ قدرته ، فقالوا : نشهد أنك عالم .

قال الصدوق « رحمه الله » : يعني بقوله (وكان اعتماده على قدرته) أي على ذاته ؛ لأن القدرة من صفات ذات الله ـ عز وجل ـ[1] .

وفي ما جاء عن أمير المؤمنين « عليه السلام » في خطبة النملة : ـ (ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة ، لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق . . الخطبة) .

إن الحسين « عليه السلام » قد وصف ربه باحسن الصفات واعظمها القدرة والعلم واللطف . . الخ ، وذلك لأنه أهل لذلك ولأنه ـ أي الحسين الداعي ـ محتاج إليه في مثل ذلك الموقف الذي جمع من اصناف البشر واصنافها .

ففي مثل ذلك اليوم يتضرع الإنسان إلى ربه باساليب شتىٰ من التضرع والخشوع والإستعطاف والإسترحام . فتراءت له القدرة لكي لا يلتفت إلى أحد سواه ، وترائىٰ له اللطف لكي يطمئن إلى ربه في معاملته في ذلك اليوم ، وتراءت له كلمة الخبير لكي يشعر بانه عالم كل خفية ، وهكذا بقية الصفات تترائىٰ عادة للعبد المخلص في طاعته ويتمثل صفات الكمال فيتجلي له الباري «سبحانه » عظيماً لا كالعظماء ، قديراً لا كالقاديرين ، خبيراً لا كالخبيرين ، قوياً لا كالاقوياء .

---

(١) توحيد الصدوق : ص ١٢٥ .

قال عليه السلام :

[اللَّهمَّ إنِّي أرْغَبُ إلَيك ، وَاشْهَدُ بالرُّبُوبِيَّةِ لَك مُقِرّاً بِأَنَّك رَبِّي ، وإنَّ إلَيكَ مَرَدِّي] .

اللغة والإعراب

اللَّهم : منادى جاءت الميم في آخر الأسم الأعظم بدلاً عن الياء في أوله ، وهي ميم مشددة تأتي خصوصاً في لفظ الجلالة ولكون الميم عوضاً عن حرف النداء لم يجمع بينهما إلاّ في الضرورة كقول الراجز .

إنـي إذا مـا حَـدَثٌ الـمّـا　　　أقـول يـا لـلهمَّ يـالـلهـمـا

وهذا ما أشار إليه ابن مالك في الفيتة بقوله :

والاكثـر اللهم بـالتعـويض　　　وشـذّ يـا للهم فـي قـريض

رغب : الرغبة والرغباء الضراعة والمسألة ، وجاء رغبة ورهبة إليك . قال ابن الأثير : أُعمل لفظ الرغبة وحدها ، ولو اعملهما معاً لقال : رغبة إليك ورهبة منك ، ولكن لما جمعهما في النظم حمل أحدهما على الآخر كقول الراجز :

وزحَّجنا الحواجبَ والعيونا .

ورغبت فيه احببته ، ورغبت عنه كرهته ، ورغبت به اخترته على غيره ، ورغبت إليه تضرعت إليه وسألته سؤال المحتاج . والرغبة السؤال والطمع ، ورغَّبه اعطاه ما رغب . قال ساعدة بن جؤية :

لقلت لدهري إنه هو غزوتي   واني وإن رغّبتني غير فاعلِ

أشهد : الشهادة خبر قاطع تقول شهد الرجل على كذا ، وقولهم أشهد بكذا أي احلف . والتشهد في الصلاة معروف ، والشهادتان هما في دين الإسلام كلمة الإخلاص ، أو آية الحق هي (لا إله إلاَّ الله ، محمد رسول الله) والشهيد من اسماء الله « عز وجل » ، والشهيد الحاضر وهو على وزن فعيل من ابنية المبالغة كالعليم .

الربوبية : الرب هو الله « عز وجل » ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو رب الأرباب ، ومالك الملوك ، ولا يُقال الرب في غير الله إلاَّ بالإضافة ، فيقال رب الدار ، وفلان رب البيت ، وهن ربات الحجال .

مقراً : الإقرار الاذعان للحق والإعتراف به . أقر بالحق أي اعترف به ، وقد قرره عليه وقرره بالحق غيره حتىٰ اقر .

مردّي : الرد صرف الشيء ورده ، والرد مصدر رددت الشيء . ورده عن وجهه صرفه ، وتقول رده إلى منزله ورد إليه جواباً ، أي رجع ، والرّدة الأسم من الارتداد ، واسترد الشيء طلب رده إليه .

البيـــان

الرغبة إلى الله هي طلب ما عنده من الثواب ، وطلب ما عنده من الرحمة ، وطلب ما عنده من الرضوان .

وتعتمد هذه الأقسام والدرجات على مقدار الثقة التي يثقها الإنسان

بـربه ، وعـدم إساءة الـظن به ، . ففي مثـل ذلك اليـوم الذي دعـا فيه البـاري « سبحانه » عباده لضيافته ، وامرهم بدعائه أنه لا بد وقد ضمن لهم الإجـابة ، فانه لم يـأمرهم بـذلك إلا ليؤملهم ويفيض عليهم من نـواله ، ويتفضـل عليهم من خيره الذي لا ينقطع .

أما مسألة الاخلاص في الدعاء فهذا شيء يغلب على الظن فإن الإنسان الذي قد قاسىٰ في سبيل الوصول إلى ذلك المكان التعب المجهد فإنـه احرىٰ به أن يكون مخلصاً في هذا الدعاء واحرىٰ ان يكون راغباً في ما عند الله .

أما الرغبة فهي تختلف مفهومـاً ومصداقـاً بحسب القرب من الله وكمـال معرفته .

فالرغبة من الناس إلى الله هو طلب النوال والعطاء من الله ، وربما جـاء المعنىٰ بالرغبة في ما عند الغير حتىٰ من بعضهم البعض ـ كما سبق تفسيره في فصل اللغة ـ .

وأما الرغبة من المعصومين كالانبياء والأئمة « عليهم السلام » فهي طلب المزيد من الرضوان وهو (أي المعصوم) محـل لذلـك . أوطلب التعجيل في لقائه « سبحانه » حيث يحله دار الكرامة ، أو طلب النـوال والعطاء ، ولكن من الله فقط ؛ لأن ثقتهم بـالله وهو المكـرمـون تختلف عن ثقـة النـاس جميعـاً ، ولانهم أقرب إلى الله من غيرهم .

الم تر إلى إبراهيم « عليه السلام » عندما القي في النار ، ولقيه جبـرئيل في الهواء ؟ قال لـه جبرئيـل : يا إبـراهيم هل لـك حاجـة ؟ فقال : أمـا إليك فلا ، ولكني محتاج إلى الله . ولهذا فإن حاجته إلى الله لجـوؤه إليه في سـاعة العسرة نتج عنه عدم تأثير النار في جسمه ، لأن الله قد أصدر امـره إليها بعـدم التأثير . قال تعالىٰ : ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرداً وسَلاَماً عَلَىٰ إبراَهِيمَ** ﴾[1] .

(١) سورة الأنبياء / الآية : ٦٩ .

ولا حاجة بنا إلى ذكر الأسباب التي أدّت إلى برد النار وعدم تأثيرها فيه ، وهل أنها سلبت خاصية الإحراق ؟ أو تكون حاجز هوائي فصل بينها وبين إبراهيم « عليه السلام » أدّىٰ إلى منع الحرارة ووصولها إلى جسده ؟ لأن هذا ليس من غرضنا .

ثم ذكر الشهادة التي ضمّنها الإعتراف له بالربوبية ، والإقرار على نفسه بالعبودية وهذا ما يتطلبه ذلك الموقف من التضرع والخشوع والتملق لنيل المراد ، والإنقلاب بجواب المسألة . فإن ذكر الباري **باجلِّ الصفات** ، والشهادة له باعظمها (الربوبية) ، واقرار العبد على نفسه بالعبودية له بهذا المعنىٰ يحدث الصلة بين العبد وربه . فإن الرب ينبغي أن يوصف بأعظم الصفات واجلّها ، وإن العبد يتصف بالطاعة والتذلل والخشوع . فبمقدار ما يعّظم الإنسان ربه بذكر أعظم الصفات له واجلها يصف نفسه بالتواضع والخضوع والخشوع لله « سبحانه » . قال أمير المؤمنين « عليه السلام » في بعض مناجاته : (كفاني عزاً أن كنت لك عبداً ، وكفاني فخراً إن كنت ليّ رباً . . الخ) .

والشهادة أحدي ركائز الحياة الإنسانية في معاملاته في ما بين الإنسان والإنسان لغرض إثبات الحقوق واخذها أو إظهارها .

أما الشهادة إلى الله بالربوبية كما جاءت بذلك عبارة الدعاء : (واشهد بالربوبية لك) ، فهذه كلمة قد نادىٰ بها الأنبياء من أول يوم خلق فيه أول إنسان .

هذه الشهادة التي أخذ الله على العباد بها العهد والميثاق في وجوده الظلِّي الذي كان في علم الله قبل أو يودَع الأصلاب ، وينـزَل منها إلى الأرحام ، ثم إلى وجوده الحقيقي على وجه الأرض هي التي تحدد طريق الإنسان من خير أو شر .

والإقرار إذا تأملناه نجده نتيجة لحالة نفسانية صعبة تنازع الإنسان في ممارستها ، كما نراه من حالات الإنسان النفسانية . فمن الصعب عليه ـ مثلاً ـ ان يُقر على نفسه بالخطأ ، ومن الصعب عليه أن يعترف على نفسه بالجهل ، ومن الصعب عليه أن يعترف على نفسه بالقصور . وكذلك من الصعب عليه ان يعترف على نفسه بالعبودية لله وذلك لوجود إتجاهين مختلفين :

أولاً : الإتجاه الداخلي ، وهو الميل إلى الفطرة ومحبة الخير لأنه مفطور عليه .

ثانياً : النفس الإمارة بالسوء التي تمنع الإنسان عن التعقل في الأمور وهي تغاير بطبيعتها العقل الإنساني ، وتردي الإنسان في المهالك . قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾[1] .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرىٰ هناك دوافع خارجية تمنع الإنسان عن هذا الإقرار الذي فيه حل كثير من القضايا الإنسانية ، وربما توقفت عليه المصلحة العامة ، بل ربما توقفت عليه نجاة بعض النفوس البريئة كما حدث ذلك في مسألة الحسن بن علي « عليهما السلام » وهي باختصار .

كان القصاب يزاول عمله في الصباح الباكر ، وعلى أثر الواعية القريبة من دكانه هرع كغيره من الناس ، وسكينة بيده ، وثيابه ملطخة بدم الذبيحة ، وكان أول من وصل إلى محل الحادث . قتيل يضطرب ، ودمه ينزف . وأدرك الناس القتيل ، والقصاب ، ووجدوا دلالة الأثر على المؤثر .

وقرروا القصاب فلم يسعه الإنكار ، واعترف على نفسه بالقتل ، فجروه إلى المسجد النبوي الشريف ، حيث الخليفة الثاني الذي قرر بدوره هذا القصاب السيء الطالع فاعترف أيضاً بأنه القاتل ، وجروه للقتل كما هو

---

(١) سورة يوسف / الآية : ٥٣ .

معروف في الشرع ـ النفس بالنفس ـ وبينما الناس في هذه الأزمة وإذا برجل آخر قد برز من بين ذلك الجمع ، فاعترف على نفسه هو الآخر بالقتل وإرتكاب الذنب ، فتحيّر المسلمون في هذه الأزمة الطارئة ، بما فيهم الخليفة ، واخذوا يلتمسون المخرج في هذه الأزمة فكلما فكروا فيها استعصىٰ أمرها عليهم ، وكلما سلكوا طريقاً أنسد في وجوههم ، فرفعوا أمرها إلى الإمام علي بن أبي طالب « عليه السلام » فأمرهم بالتوجه إلى أبنه الحسن « عليه السلام » ، وكان قد أخذ ناحية من المسجد فجاءوا إليه واخبروه بما جرىٰ ورأىٰ القصاب وقد أوثقوه كتافاً فامرهم بحل وثاقه . ثم التفت إلى المعترف الثاني وقال له : ما خبرك ؟

فقال يا بن رسول الله انه كان بيني وبين بن عمي حزازات تنامت وإزدادت حتىٰ أدّىٰ ذلك إلى أن قمت باغتياله في المَكان الذي وجد فيه ، وانسللت بسرعة وهرع الناس ، ولكن بعد فوات الأوان . ودخلت إلى المسجد ؛ لارىٰ ما يجري ، فما راعني إلّا والناس قد دخلوا بهذا موثقاً ، وبكلمات سهلة بسيطة حكموا عليه بالقتل على أنه هو القاتل ،ووجدت نفسي تلومني بان قتلت نفساً ، وستقتل نفس اخرىٰ بسببي إن لم أعترف بجريمتي ، ثم وجدت قتل نفس اهون عليَّ من قتل نفسين عمداً فلم يسعني إلّا الإعتراف بذلك لكي ينجو هذا .

ثم التفت إلى القصاب فقال له : وانت ما أخبرك ؟ فقال يا بن رسول الله أني كنت قصاباً أزاول عملي في الصباح الباكر وفجأة سمعت الواعية ، وهرعت كغيري ، ولسوء حظي كنت أول من وصل إلى القتيل فوجدته يتعفر ، ودمه ينزف ، وادركني الناس القتيل بين يدي ، والسكين بيدي مشهورة عليها آثار الدماء ، وثيابي ملطخة ،فلم يسعني الإنكار بعد السؤال مع كل هذه القرائن الشاهدة عليّ بارتكاب الجريمة ، وجروني بعد ذلك إلى المسجد حيث

حكموا عليَّ بالقتل فانظر ماذا ترىٰ .

التفت الإمام الحسن « عليه السلام » إليه فقال له قم واذهب إلى أهلك راشداً ثم التفت إلى القاتل الحقيقي ونظر إلى الناس وقال : أن كان هذا قد قتل نفساً فقد أحيا نفساً اخرىٰ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . يذهب هذا إلى أهله ايضاً ، وتؤخذ الدية للقتيل من بيت مال المسلمين .

فقام له أبوه وضمّه إلى صدره وقبله وقال : ﴿ ذُرِّيَةً بَعضُها مِن بَعضٍ واللهُ سمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

فمن هذه الدوافع الخارجية التي تؤثر في سلوك الإنسان أثراً ظاهراً سلبياً أو إيجابياً :

١ ـ الشيطان الذي يقول للإنسان أكفر ، ثم يتبرأ منه وذلك كما أشار إليه تعالىٰ في الكتاب العزيز : ﴿ كمثلِ الشَّيطانِ إذ قَالَ للإنسَانِ اكفرُ فَلمَّا كَفرَ قَالَ إنِّي بَرِيءٌ مِنَّكَ إنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربَّ العَالمِينَ ﴾[2] .

٢ ـ قرناء السوء : وهم الذين يكونون جنبة كبيرة من حياة الإنسان وتصرفاته .

٣ ـ التربية الإنسانية التي يعتمد عليها الإنسان من الذات الفردية إلى المجتمع الواسع في تطوره الإجتماعي .

وكثير غير هذه الأمور التي تؤثر على الإنسان في تكوين شخصيته وتهذيبها .

وبعد الإقرار لله « تعالىٰ » بالعبودية اعترف له بالرجوع والعود يوم

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ٣٤ .

(٢) سورة الحشر / الآية : ١٦ .

القيامة ، وهو اليوم الذي يجازىٰ فية العباد ، محسنهم ومسيئهم ـ فيجازىٰ بالخير خيراً ، وأما جزاء الشر فهو موكول إلى الله فإن عفا فهو أهل للعفو والرحمة ، وإن جازىٰ فالمرء يؤخذ بذنبه . قال تعالىٰ : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلوا حَاضِراً وَلا يَظِلمُ رَبُّكَ احَداً ﴾[1] .

والمردّ كما يفهم من سياق الكلام هو الرجوع ، والمقصود به يوم القيامة . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الرُّجعَىٰ ﴾[2] .

وكما أشار لذلك بعض المفسرين في هذه الآية بان المقصود هو الموت ، والبعث معاً في مقام التهديد والوعيد .

وعندما نتطرق في البحث إلى هذا اليوم الذي وصفته الأنبياء بابلغ الصفات وهدّدت وبشرت به كما أمر الله بذلك لا بد لنا من وقفة تأمل واعتبار فنقول : المردّ هو الرجوع للإبدان البشرية وإعادة نفوسها المدبرة إليها ، وافاضة الحياة عليها ، لأخذ الحق منها وإيصال الثواب ، والاعراض إليها ، ولا حاجة بنا إلى ذكر الخلاف القائم بين من يرىٰ تلاشي هذه الابدان في التراب أم لا ، وانعدامها أم لا ، وامكان إعادة المعدوم أم لا .

والحق ما عليه المليون ، والإدلة عليه والبراهين والحجج قائمة ؛ لأنه ممكن ، والله « تعالىٰ » قادر على كل الممكنات ، وقد أخبر الصادق بوقوعه ، وكل شيء ثبت امكانه في العقل واخبر الصادق بوقوعه وجب وقوعه ، ووقوع ما أخبر به الصادق ، وإلاَّ لم يكن صادقاً هو به .

ولهذا أن جميع المسلمين حكموا بأن جاحد الإعادة البدنية كافر ، وإن دان بجميع الأصول والفروع ،لأن الإعادة البدنية من جملة أركان الإيمان ومع

---

(١) سورة الكهف / الآية : ٤٩ .

(٢) سورة العلق / الآية : ٨ .

عدم وجودها لا يحصل الإتصاف به ، ومن لم يتصف بالإيمان فهو كافر . وفي آيات القرآن المتكثرة دلالة على انكار جاحد المعاد البدني حاكمة بكفره .

ولما ثبت الإعادة البدنية بالنسبة إلى المكلفين فلم يكن المعاد عامّاً بالنسبة لغيرهم . لكن الإدلة قد اثبتت عمومة لا مكانه عقلاً . نظراً إلى العوض ، وهو ثابت في جميع الحيوانات في حصول الألم لها . فوجب إثباته لها ، لا يجاب إيصال حقها إليه ، واخذ الحق منه لوجوب الإنتصاف ، والإنصاف في الحكمة الربانية فهؤلاء تجب إعادتهم عقلاً وسمعاً ، حيث ثبت لهم عوض على الله أو على غيره ، أو عليه عوض من حقوق الله ، أو من حقوق غيره للعلة المذكورة .

المعاد في القرآن والسنّة مربوطاً بما تقدم

وأما من لا عوض له ولا عليه فهو لا تجب إعادته عقلاً . نعم السمع دلّ على إعادته. قال الله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرضِ وَلاَ طَائرٍ يَطِيرُ بجَناحَيهِ إلاَّ أُممٌ أَمثالُكمُ مّا فرّطنا في الكِتابِ مِن شيءٍ ثُم إلىٰ رَبِّهم يُحشروُنَ ﴾[1] .

وليس الحشر إلإ عبارة عن الإعادة البدنية ـ كما تقدم الكلام فيه ـ . وقوله تعالىٰ : ﴿وإذا الوُحُوشُ حُشِرت﴾[2] وكثير من الآيات غيرها .

وكذلك الأخبار النبوية البالغة حد التواتر اللفظي والمعنوي . ففي مجالس الشيخ عن غير واحد من الرواة ، أن نفراً من قريش اعترضوا الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» منهم عتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن سعيد فقالوا : يا محمد هلمّ فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن يكن الذي نحن عليه الحق ، فقد أخذت بالحظ منه ، وإن يكن الذي أنت عليه الحق فقد أخذنا بحظنا منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿قل يا أيها الكافرون . . .﴾ إلى آخر السورة . . ثم أتى

---

(١) سورة الإنعام / الآية : ٣٨ .

(٢) سورة التكوير / الآية : ٥ .

ابن خلف بعظم رميم ، ففته في يده ثم نفخه ، وقال : أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد ما ترىٰ ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وَضَربَ لَنا مَثَلاً وَنَسِي خَلقَهُ قَالَ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُل يُحيِيها الذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مرَّةٍ ، وَهُو بِكُلِّ خَلقٍ عَلِيم﴾[1] .

وفي حديث الاحتجاج ، عن هشام بن الحكم ، أنه قال : قال الزنديق للصادق «عليه السلام» أنّىٰ للروح بالبعث ، والبدن قد بلى ، والأعضاء قد تفرقت ؟ فعضو في بلدة تأكله سباعها ، وعضو بأخرىٰ تمزقها هوامها ، وعظم قد صار تراباً بني به مع الطين حائط قال : إن الذي أنشأه من غير شيء ، وصوره على غير مثال ، كان قد سبق إليه ، قادر أن يعيده كما بدأه ، قال : أوضح لي ذلك . قال : إن الروح مقيمة في مكانها ، روح المحسنين في ضياء وسعة ، وروح المسيء في ضيق وظلمة ، والبدن يصير تراباً منه خلق ، وما تقذف به السباع ، والهوام من أجوافها ، مما أكلته ومزقته ، كل ذلك في التراب محفوظاً عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ، ويعلم عدد الأشياء ووزنها ، وإن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب ، وإذا كان حين البعث مطرت السماء ثم تمخض مخض السقاء ، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء ، والزبد من اللبن إذا مخض فيجتمع تراب كل قالب ، فينتقل بإذن الله تعالى ، حيث الروح فيها . فإذا استوى لا ينكر من فضله شيئاً .

وفي صحيح جميل بن دراج ، كما في تفسير القمي ، عن الصادق «عليه السلام» قال : إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً ، فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم ، وقال : أتى جبرئيل رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» فأخذه ، وأخرجه إلى البقيع ، فانتهى إلى قبر

---

(١) سورة يٓس / الآيتان : ٧٨ و ٧٩ .

فصوّت فصاح به ، وقال : قم بإذن الله تعالى ، فخرج منه رجل أبيض الرأس واللحية يمسح التراب عن وجهه ، وهو يقول : الحمد لله ، والله أكبر . فقال جبرئيل : عد بإذن الله ، ثم انتهى به إلى قبر آخر ، فقال قم بإذن الله تعالى فخرج منه رجل مسود الوجه ، وهو يقول : يا حسرتاه ويا ثبوراه ، ثم قال له جبرئيل : عد إلى ما كنت بإذن الله تعالى . فقال : يا محمد هكذا يحشرون يوم القيامة ، والمؤمنون يقولون هذا القول ، وهؤلاء يقولون ما ترى .

وهذه الأخبار وما في معناها التي بلغت المتواتر شاهدة بالإضافة إلى البعث والنشور أنه ليس بعد العدم بالكلية بل بعد تفرق الأجزاء أو صيرورتها تراباً فلا يرد ما أورده منكروا البعث من استحالة إعادة المعدوم وأنه القادر على كل شيء حتى لو قلنا بالعدم . وقال علماء الفيزياء : (المادة لا تفنىٰ ولا تخلق من العدم) . والمعنى الذي يظهر من قولهم أن الجسم الإنساني بمواده الحية الأولية (الهيولى) وإن ذهب متبدداً في التراب بل حتى في الكون فإن أجزاءه موجودة وجمعها ممكن عند خالق الممكنات . وهذا مؤيد لما ذكره المتكلمون من أن تشخص الإنسان إنما هو بالأجزاء الأصلية ، ولا مدخل للأجزاء والعوارض فيه .

قال عليه السلام :

[ابتَدَأْتَنِي بِنِعْمَتِكَ قَبلَ أنْ أكُونَ شَيئاً مذكُوراً ، وَخَلقْتَنِي مِنَ التُّرابِ ، ثمَّ أسْكَنْتَنِي الأَصْلاَبَ ، آمِناً لِرِيبِ المَنُونِ ، وَاخْتِلافِ الدُّهُورِ] .

اللغـــة

ابتـدأتني : البداءة ، والبـداهة : أول مـا يفجؤك ، الهـاء فيـه بـدل من الهمز ، وبديت بالشيء قدمتـه ، وبديت بـالشيء ، وبدأت ابتـدأت ، وأبدأت بـالأمر بـدءاً : ابتدأت بـه . وبـدأت الشيء فعلتـه ابتـداء ، وقـد استعمله في الدعاء متعدياً لا لازماً ، والبدىء الأول ، ومنه قولهم : أفعلهم بـادىء بدء أي أول شيء ، وبادىء الرأي أوله وابتداؤه .

بنعمتك : النعيم والنعماء والنعمة كله : الخفض والدعة والمال ، وهـو ضد البأساء والبؤس ، وقولـه «عز وجـل» : **﴿وَمَن يُبدِّل نِعمَـةَ اللَّهِ مِن بَعدِ مَـا جَاءَتهُ فإنَّ اللَّهَ شدِيـدُ العِقَاب﴾**(١) . يعني في هذا المـوضع حجـج الله الدالـة

---

(١) سورة البقرة / الآية : ٢١١ .

على أمر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وقال تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يَومئِذٍ عَن النَّعِيمِ﴾[1] . أي تسألون يوم القيامة عن كل ما استمتعتم به في الدنيا على قول ، وعلى القول الآخر النعيم ولاية آل محمد يسأل عنها الإنسان المكلف .

قال النابغة :

فلن أذكر النعمان إلا بصالحٍ فإن له عندي يُديّن وأنعما

وقال تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذين أَنعمتَ عَليهِم﴾[2] .

مذكوراً : الذكر الحفظ للشيء ، والذكر الشيء يجري على اللسان .

قال سيبويه : قوله تعالى : ﴿وَاذكُرُوا ما فِيهِ﴾[3] معناه ادرسوا ما فيه ، والذكر والذكرىٰ بالكسر نقيض النسيان . والتذكرة ما تستذكر به الحاجة ، وذكرت الشيء بعد النسيان ، وذكرته بلساني وقلبي ، وأذكرته غيري ، وذكّرته بمعنى . قال الله تعالى : ﴿وَادَّكَرَ بَعد أُمَّةٍ﴾[4] أي ذكر بعد نسيان .

الأصلاب : جمع صلب وهو عظم من لدن الكاهل إلى العجز ، قال الشاعر :

أما تريني اليوم شيخاً أشيبا إذا نهضت أتشكل أصلبا

والصلب من الظهر ، وكل شيء من الظهر فيه فقار فذلك الصلب .

وقال القتيبي : إن أصيب صلبه بشيء ذهب بالجماع فلم يقدر عليه ، فسمى الجماع صلباً ؛ لأن المني يخرج منه ، قال تعالى : ﴿يَخرُجُ مِن بَينِ الصُّلبِ والتَّرائِبِ﴾[5] . والأصلاب جمع صلب وهو الظهر والصلابة ضد اللين سمى

---

(١) سورة التكاثر / الآية : ٨ .
(٢) سورة الفاتحة / الآية : ٧ .
(٣) سورة الأعراف / الآية : ١٧١ .
(٤) سورة يوسف / الآية : ٤٥ .
(٥) سورة الطارق / الآية : ٧ .

هذا الصلب صلباً من الشدة ؛ لأن الجسم يعتمد عليه في قوامه .

آمـاناً : الأمن نقيض الخـوف ، أمن فلان يـأمن أمناً وأمـانـاً فهـو آمن ، والأمنة الأمن ، ومن قوله تعالى : ﴿**إذ يُغشِّيكُمُ النُّعاس أَمَنَةً مِنهُ**﴾[1] .

المنـون : الموت وقيـل المنون الـدهـر ، وجعله عـدي بن زيـد جمعاً. فقال :

مـن رأيت الـمنــون عـزيـن أمنــاً ذا عـليــه مـن أن يـضــام خـفـيــر

وهو يذكـر ويؤنث ، فمن أنث حمل على المنيـة ، ومن ذكر حمـل على المنون ، قال أبو ذؤيب :

أمـن الـمـنــون وريـبــة تـتــوجــع والــدهــر ليس بمعتب من يـجــزع

وقال في البيت الآخر في القصيدة نفسها :

وإذا الـمنـيــة أنشبـت أظـفــارهــا ألـفـيـت كــل تـمـيـمــة لا تـنـفــع

الرّيب : صرف الدهر ، ورابني فلان إذا رأيت منه ما يريبك وتكرهه .

وفي حديث فاطمـة الزهـراء «عليها السـلام» وبيان فضلهـا : يريبني مـا يريبها ، أي يسيئني ما يسيئها ، ويزعجني ما يزعجها ، هو من رابني هذا الأمر وأرابني ، إذا رأيت منه ما تكره .

البيان ـ نشأة الإنسان

ذكرنا في ما مضى بعض الصفات الذاتية ، وصفات الأفعال ، بنـاءً على مـا ورد في كلامـه «عليه السـلام» من هذه الصفـات ، كالقـدير ، واللطيف ، والعليم ، والسميع ، والبصير .

---

(١) سورة الأنفال / الآية : ١١ .

أما في هذه الفقرة التي استهللنا بها بحثنا هـذا فإنـا سنتعرض إلى ذكـر بعض النعم التي أنعمها الله على الإنسان ـ بناءً على ما عـرضه الحسين «عليـه السـلام» في هذه الفقـرة حيث أشـار إلى أولى نعمـة أنعمهـا «سبحـانـه» على الإنسان وابتدأه بها قبل أن يكون شيئاً مذكوراً كما صرح بذلك الكتاب العزيـز في قـولـه تعـالى : ﴿هـل أَتى عَلَى الإنسـانِ حِينٌ مِن الـدَّهـرِ لم يَكُنْ شَيئاً مَذكُوراً﴾[1] ؛ لأن نعمة الإيجاد هي من أعـظم النعم التي ينبغي للإنسـان أن يعترف بها طفلاً وصبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً هرماً وفي كل مراحل حياته ، طالما كان له قلب نابض ، ورزق دار ، وعيش قار .

ومن كـلام لأمير المؤمنين «عليـه السلام» في نهـج البلاغـة ، يصف فيه خلق الإنسان الأول ، آدم «عليه السلام» قال : (ثم جمـع «سبحانـه» من حزن الأرض وسهلهـا ، وعذبهـا وسبخها تـربة سنهـا بالمـاء حتى خلصت ، ولاطها بـالبلة حتى لـزبت ، فجبـل منهـا صـورة ذات احنـاء ، ووصـول ، وأعضـاء وفصول ، أجمدها حتى استمسكت ، وأصلدها حتى صلصلت لوقت معدود ، وأمـد معلوم ، ثم نفخ فيهـا من روحه فمثلت إنسـانـاً ذا أذهـان يجيلهـا وفكـر يتصرف بها ، وجوارح يختدمها ، وأدوات يقلبها ، ومعرفة يفـرّق بها بين الحق والباطل ، والأذواق ، والمشام ، والألوان ، والأجناس ، معجوناً بطينـة الألوان المختلفة ، والأشباه المؤتلفة ، والأضداد المتعادية ، والأخلاط المتباينـة ، من الحر والبرد والبلة والجمـود ، واستأدى الله «سبحـانه» المـلائكة وديعتـه لديهم وعهد وصيته إليهم في الأذعان بالسجود له والخنوع لتكرمته ، فقال سبحـانه : ﴿اسجُـدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبلِيسَ﴾[2] اعتـرته وغلبت عليـه الشقوة ، وتعـزز بخلقـة النـار ، واستـوهن خلق الصلصـال ، فـأعـطاه الله النضـرة استحقـاقـاً للسخطة ، واستتماماً للبلية ، وإنجازاً للعدة ، فقال : ﴿إنك مِنَ المنظرين إلى

(١) سورة الإنسان / الآية : ١ .

(٢) سورة البقرة / الآية : ٣٤ .

يوم الوقتِ المعلوم﴾[1] . ثم أسكن «سبحانه» آدم داراً أرغد فيها عيشه ، وأمن فيها محلته ، وحذره إبليس وعداوته ، فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام ، ومرافقة الأبرار ، فباع اليقين بشكه ، والعزيمة بوهنه ، واستبدل الجذل وجلاً ، وبالاغترار ندماً . ثم بسط الله «سبحانه» له في توبته ، ولقاه كلمته ورحمته ، ووعده إلى جنته ، وأهبطه إلى دار البلية ، وتناسل الذرية) .

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج حول هذه الخطبة : أعلم أن الناس اختلفوا في ابتداء خلق البشر كيف كان ؟ فذهب أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى أن مبدأ البشر هو آدم ، الأب الأول «عليه السلام» ، وأكثر ما في القرآن العزيز من قصة آدم مطابق لما في التوراة ، وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك .

أما الفلاسفة فإنهم زعموا أنه لا أول لنوع البشر ، ولا لغيرهم من الأنواع .

وأما الهند فمن كان منهم على رأي الفلاسفة فقوله ما ذكرناه . ومن لم يكن منهم على رأي الفلاسفة ، ويقول بحدوث الأجسام لا يثبت آدم ، ويقول : إن الله «تعالى» خلق الأفلاك وخلق فيها طباعاً محركة لها بذاتها ، فلما تحركت وحشوها أجسام ؛ لاستحالة الخلاء كانت تلك الأجسام على طبيعة واحدة ، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلكية ، فكان القريب من الفلك المتحرك أسخن وألطف ، والبعيد أقرب وأكثف . ثم اختلطت العناصر ، وتكونت منها المركبات ومنها تكون نوع البشر كما يتكون الدود في الفاكهة واللحم ، والبق في البطائح والمواضع العفنة . ثم تكون بعض البشر من بعض بالتوالد وصار ذلك قانوناً مستمراً ، ونسي التخليق الأول الذي كان بالتوالد .

---

(١) سورة الحجر / الآية : ٣٨ .

ومن الممكن أن يكون بعض البشر في بعض الأراضي القاصية مخلوقاً بالتوالد ؛ لأن الطبيعة إذا وجدت لتكون طريقاً استغنت به عن طريق ثاني[1] .

وهذا نظير ما نسب إلى داروين في نظريته وهو قوله : إن جميع السلالات الحيوانية ترجع في أصل تكوينها إلى نوع واحد . وإذا تأملت ما تقدم من الكلامين وجدت ألاّ فرق بينهما ، فإن داروين اعتمد في كلامه عن نظريته على ما قاله علماء الهند ، ثم نسب إليه ذلك الكلام عندما اشتهر في المجامع العلمية ، فأصبحت نظرية تلهج بها المناهج الدراسية المتطورة على ما فيها من الأفكار المتاهته .

وأما المجوس فلا يعرفون آدم ولا نوحاً ، ولا ساماً ، ولا حاماً ، ولا يافث .

وهناك نظريات انتشرت عند الناس حول موضوع نشأة الخلق أغلبها كانت تعتمد على الأساطير المنتشرة عند كثير من الشعوب ، يعمد إليها أرباب الأفكار المعقدة والأغراض المشبوهة ، ثم يحورونها بحسب ما يرون كما تمليه أنانياتهم ومصالحهم .

فنشأة الخلق في عقيدة المصريين القدماء هو أن الإله الأعلىٰ الذي هو الشمس قد تزوج الأرض . والشمس هو الخالق عندهم على الدوام . ولما أشرق أول مرة ، ورأى الأرض صحراء جرداء ، غمرها بأشعته ، فبعث فيها النشاط ، فخرجت من عيونه كل الكائنات الحية ، من نبات ، وحيوان ، وإنسان .

أما عقيدة البابليين القدماء حول كيفية نشوء الخلق والحياة على هذه الأرض فهي تقول : كان في أول الأمر عماء في الوقت الذي لم يكن فيه شيء

---

(١) شرح النهج ابن أبي الحديد : ج ١ ص ١٠٣ .

عال يسمى السماء ولم يكن فيه شيء واطىء يسمى الأرض ، ثم جاء (ابسو) أي المحيط ، وكان أبا الأشياء أول الأمر . و (تيامات) التي ولدتها كلها ، وخلطا دماءهما معاً . وبدأت الأشياء تنمو وتتخذ لها أشكالاً ، ولكن تيمات الآلهة المهولة شرعت تبيد كل الآلهة الآخرين ، لتجعل نفسها صاحبة المقام الأعلىٰ . وأعقبت هذا ثورة عظيمة اضطرب منها كل نظام . ثم جاء إلّه آخر هو مردك ، وقتل تيامات ، ثم قسم تيامات الميت قسمين مستطيلين ، كما يقسم الإنسان السمكة ليجففها . ورفع أحد القسمين إلى أعلى فكان هو (السماء) . وبسط النصف الآخر تحت قدميه فكان (الأرض) . ولما أن فتق مردك السماء والأرض ووضعهما مكانيهما ، شرع يعجن الأرض بدمائه ويصنع الناس . . . الخ[1] .

وهناك نظريات أخرىٰ كنظرية النقل ، ونظرية الانبثاق ، وغيرهما .

وهذه وتلك تسير سيراً عرضياً واحداً، بمعنى أنها تأخذ مستوىً واحداً من حيث البطلان ولست أرىٰ ضرورة في طرح أدلة بطلانها وتعقبها الواحدة تلو الأخرىٰ ، لأن القارىء النبيه لا يحتاج إلى تنبيه ؛ ولأن الكلام في هذه النظريات يعطيها كثيراً من الاعتبار لذلك فإنا فضلنا عدم الخوض في مناقشتها وذلك لأنه لا يأتِ بكثير فائدة .

(١) قصة الحضارة : ج٢ ص ١٥٧ .

نظرية الإلٰهيين في ابتداء الخلق

أما ما ذهب إليه الإلٰهيون فهو أن الحياة قد استحدثت في هذا الكون من قبل قوة فاعلة ، هي نفس القوة التي يرد إليها الإلٰهيون خلق الكون نفسه في مرحلة سابقة هذه القوة هي (الله) .

وهذه النظرية قد أجمعت عليها الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام ، متمثلة في كتبها : التوراة ، والإنجيل ، والقرآن .

ونحن نستعرض هنا ما أراده القرآن الكريم من الإشارة إلىٰ بداية خلق الإنسان . كما تعرض إليه المفسرون . فقد جاء في تفسير كثيرٍ من الآيات التي أشارت إلىٰ بداية خلق آدم هو أن هذا الهيكل المحسوس الذي نسميه (إنساناً) مبدأ للحياة ينتسب إليه الشعور والإرادة ، وقد عبّر تعالىٰ عنه في الكلام في خلق ـ آدم ـ بالروح ، وفي سائر المواضع من كلامه بالنفس ، قال تعالىٰ : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخَتُ فِيه مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾[1] وقال تعالىٰ : ﴿ثُم سَوّاهُ وَنفخَ فيهِ مِن رُوحهِ﴾[2] والذي يسبق من الآيتين إلى النظر

(١) سورة الحجر / الآية : ٢٩ .

(٢) سورة السجدة / الآية : ٩ .

البادىء أن الروح والبدن حقيقتان إثنتان متفارقتان ، نظير العجين المركب من الماء والدقيق . والإنسان مجموع الحقيقتين فإذا قارنت الروح الجسد كان إنساناً حياً وإذا فارقت فهو الموت .

لكن يفسرها قوله تعالىٰ : ﴿قُل يَتوفَّاكُم مَّلَكُ الموتِ الَّذِي وُكِّلَ بكُم﴾[1] حيث يفيد أن الروح التي يتوفاها ويأخذها قابض الأرواح هي التي يعبر عنها بلفظة (كم) أي الضمير العائد على الإنسان بتمام حقيقته لا جزء من مجموع أجزاءه . فالمراد بنفخ الروح في الجسد جعل الجسد بعينه إنساناً لا ضم واحدٍ إلى واحدٍ آخر يغايره في ذاته وآثار ذاته فالإنسان حقيقة واحدة حين تعلق روحه ببدنه وبعد مفارقة روحه البدن .

ويفيد هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَلَقد خَلقنَا الإنسَانَ مِن سُلالةٍ مِن طِين * ثُم جَعلنَاهُ نُطفةً فِي قَرارٍ مَّكين * ثُم خَلقنَا النُّطفَةَ عَلقَةً فَخَلقنا العَلقةَ مُضغةً فخلقنا المُضغةَ عِظاماً فكَسَونا العِظامَ لحماً ثُم أَنشأناهُ خلقاً أَخَرَ﴾[2] . فالذي أنشأه الله خلقاً آخر هو النطفة التي تكونت علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً بعينها . وفي معناها قوله تعالىٰ : ﴿هَل أَتىٰ عَلَى الإنسانِ حِينٌ مِن الدّهرِ لم يكُنْ شَيئاً مَذكُوراً﴾[3] . فتقييد الشيء المنفي بالمذكور يعطي أنه كان شيئاً لكن لم يكن مذكوراً فقد كان عرضاً أو نطفةً مثلاً لكن لم يكن مذكوراً أنه الإنسان الفلاني ثم صار هو هو .

فمفاد كلامه «تعالى» إن الإنسان واحدٌ حقيقي هو المبدأ الوحيد لجميع آثار البدن الطبيعية ، والآثار الروحية ، كما أنه مجرد في نفسه عن المادة .

وجاء في الأثر : إن الله قد خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام وجعلها

---

(١) سورة السجدة / الآية : ١١ .

(٢) سورة المؤمنون / الآيات : ١٢ و١٣ و١٤ .

(٣) سورة الإنسان / الآية : ١ .

تسبح في الكون اللامتناهي ، حرةً طليقةً ، إلى أن وجدت في نفسها تيهاً وكبراً ، فأخضعها الله تعالىٰ بأن قيدها بالأجسام فخضعت له فأصبح الإنسان إنساناً بالروح والبدن ذا حقيقة واحدة كما تقدم .

وبهذا يتضح بطلان قول من عنون كتابه (الإنسان روح لا جسد) ، فإنه لا يمكن تصور الإنسان مجرداً عن المادة ولا يسمىٰ الإنسان إنساناً حقيقةً بدون روح .

ونعود ثانية لما كان فيه الإمام «عليه السلام» من مناجاةٍ وابتهالٍ ودعاء واعترافٍ بالنعم التي أنعمها عليه ، ومنها خلقه من التراب . والتراب هو الأرض التي عليها يعيش الإنسان ، ثم إليها يعود كما هو صريح الكتاب العزيز في قوله تعالىٰ : ﴿مِنها خَلقنَاكُم وَفِيها نُعيدُكُم وَمِنها نُخرجُكُم تَارَةً أخرىٰ﴾[1] .

(١) سورة طه / الآية : ٥٥ .

فضل التراب

وقد فضل الله التراب على غيره من سائر الأشياء ؛ لأنه قد خلق منه الإنسان الذي كرمه على جميع مخلوقاته قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَد كَرَّمنا بَنِي آدَمَ وَحَملناهُم فِي البَرِّ والبَحرِ﴾[1] .

ويرىٰ الباحثون أن معظم العناصر التي يتركب منها جسم الإنسان ، هي موجودةٌ تقريباً في التراب .

أما المقارنة التي عقدها بعضهم في التفاضل بين النار والتراب فإن مصدرها القرآن على لسان إبليس في قوله تعالىٰ : ﴿خَلقتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلقتَهُ مِن طِينٍ﴾[2] .

وبناءً علىٰ ما ذهب إليه الشاعر المتزندق بشار بن برد في تناوله هذه الفكرة التي تمسك بها إبليس قال :

إبليس خير من أبيكم آدم ... فتنبهوا يا معشر الفجار
إبليس جوهرة وآدم طينةٌ ... والطين لا يسموا سمو النار

أما مكانة التراب وتعظيمه فقد اعتبر الشارع المقدس أن السجود عليه

(١) سورة الإسراء / الآية : ٧٠ .

(٢) سورة «ص» / الآية : ٧٦ .وسورة الأعراف / الآية : ١٢

فيه تعظيم للخالق «سبحانه» وزيادة خضوع وتذلل من العبد ؛ لأنه بسجوده علىٰ الأرض أو ما أنبتت مما لا يؤكل ولا يلبس رجوع إلى الأصل وفيه مبالغة في الإخلاص في العبادة .

قال الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، في كتابه (الأرض والتربة الحسينية) : ولعل من أجلّ شرف التراب وقداسته ، وعظيم خيراته ، وبركاته ، كنّى رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وصيه وأحب الخلق إليه عليّاً «عليه السلام» بأبي تراب ، وكانت أحبّ الكنىٰ إلىٰ أمير المؤمنين «عليه السلام» ، ومنها قد استخرج عبد الباقي العمري معنىً شعرياً عرفانياً حيث قال :

خلق اللّه آدماً من تراب   فهو ابنٌ له وأنت أبوه[1]

وربّما توجهت نظرة أخرىٰ إلىٰ تقبيل الأرض بين يدي الملوك والعظماء إلىٰ معنيين متخالفين :

الأول : تعظيم الأرض التي خلق منها الإنسان ، ومن ثم تعظيم للإنسان ، ومن ثم تعظيم لخالق الإنسان .

الثاني : تذكير الإنسان بأصله ، وإنه سوف يعود إلىٰ المكان الذي خلق منه ، والمادة التي تكون منها (التراب) . قال الحكيم العارف الخيام في بعض رباعياته ما معناه : أيها التراب ، لو يشقّون عن قلبك وينظرون إلىٰ باطنك لوجدوا فيك الكثير من الجواهر الكريمة ذوات القيمة العظيمة . وأبدع من هذا قول بعض أكابر العرفان الشامخين باللغة الفارسية ما معناه ، قلب كل ذرة إذا شققته ونظرت فيه تجد شمساً منيرةً فيه . وقد حاول بعض الرجال البارزين من المصريين ، ممّن له إلمام بالأدب الفارسي أن يجعل هذا الكلام

(١) الأرض والتربة الحسينية : ص ٣ .

إشارة إلى الذرة التي هي من أعظم ما جاء به العقل الإنساني في هذه العصور ، وأراد للشمس ، تلك الشمس التي أشرقت منها الشموس ، والأقمار ، فعميت عن إدراكها البصائر والأبصار .

وقد جاء في الكتاب العزيز قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿وَيَقُولُ الكافِرُ يَا لَيتَنِي كُنتُ تُراباً﴾[1] أي يتمنىٰ أن لو كان تراباً فاقداً للشعور والإرادة فلم يعمل ولم يجز بعمله هذا الجزاء الذي جعله عبرةً لمن اعتبر . أو أنه يتمنىٰ لو لم يخلق حتىٰ يحاسب علىٰ ما قدم من عملٍ جعله عبرةً لمن اعتبر .

ويدل استعمال التراب حال الضرورة في الطهارة للصلاة وهي من أعظم الواجبات الدينية علىٰ قيمته المادية والمعنوية . فهو في هذه الحال جعله الله يقوم بديلاً عن الماء الذي هو طاهرٌ ومطهرٌ وقد جعل الله منه كل شيءٍ حي .

أما الأصلاب فإنها ـ كما ذكرت في فصل اللغة ـ باحتمالاتها فهي واردة بتلك المعاني ، وهي محتملة في موضوع الدعاء . وسيأتي بحث ذلك في عبارة الدعاء التالية لهٰذا البحث .

ثم ذكر الأمن الذي هو من أعظم النعم علىٰ الإنسان وسائر الأحياء . ومن الألطاف الإلهية الطاهرة ، والنعم الباهرة التي يتجلى فيها الأمن هو النوم الذي جعله الله راحة للإنسان ليلاً ، ووصفه بالسبات ، ولذلك فإنه لا يمكن أن يعوض نوم النهار الذي يأتي في حالة اضطراب الأعضاء واهتزازها ، عن النوم في الليل في حالة هدوءها وراحتها . وسيأتي بحث مفصل عن هذا الموضوع إن شاء الله .

وقد ذكر الله ذلك في مقام الامتنان فقال تعالىٰ : ﴿إذ يُغشِّيكُمُ النُّعاسَ أمنةً مِّنهُ وَيُنزِّلُ عَليكُم مِن السَّماءِ مَاءً﴾[2] ، وسيأتي بحث ذلك لاحقاً .

---

(١) سورة النبأ / الآية : ٤٠ .

(٢) سورة الأنفال / الآية : ١١ .

ونستطيع أن نقول : إن الإيمان مأخوذٌ من الأمان والأمن ؛ لأنه يأمن خوف الإنسان من الفزع الأكبر يوم القيامة ؛ لأن موارد اللغة يستقي بعضها من بعض . وقد جاءت الأديان ووضعت الحدود ، وأقيم القصاص لكي يأمن الإنسان على نفسه ، وماله وعرضه .

وأما اختلاف الدهور فهو تقلبها وتقلب الإنسان فيها من حالٍ إلىٰ حال ، فتراها تشتد وتقسوا تارةً ، وتهدأ وتلين أخرىٰ . ولا نعني بالدهور إلاّ الإنسان الذي يعيش منها فيغير حياته وأسلوبها وأسلوبه في العيش فيتغير تبعاً لذلك وجه الحياة العامة .

وإذا ما عاش الإنسان في مجتمع حضاري فإنه ينسجم به وينصهر فيه فيتغير بذلك أسلوبه في الحياة ، وتبعاً لذلك يتغير في معاملته مع أبناء جنسه لأن نفسيته المتغيرة أيضاً تتحكم في حركاته وسكناته وشعوره . وأما اللين فإنه يعني انشراحه في معاملته مع الناس إذا وجد من يبادله ذلك .

والإنسان عليه أن يتعايش مع كل هذه الظروف ويكابد هذه التقلبات ، ويتلاءم مع هذه الاختلافات ، ويحسب لها حساباً ، قال الحريري :

يا طالب الدنيا الدنية إنها ... شرك الردىٰ ومَرارة الأكدار
دارٌ متىٰ ما أضحكت في يومها ... أبكت غداً بعداً لها من دار
غاراتها لا تنقضي وأسيرها ... لا يفتدىٰ بجلائل الأخطار

وأما ما جاء في الكتاب العزيز بهذا المعنىٰ ، فهو قوله تعالىٰ : ﴿**لَقَد خَلقنَا الإنسان فِي كَبَدٍ**﴾[1] ؛ لأنه مأخوذ من المكابدة ، والمكابدة هي معايشة الظروف ، ومعرفة أحكامها . وقد فرضت لذلك للشرع الشريف أحكامٍ تتلاءم مع هذه الظروف طرداً وعكساً ، كأحكامِ الضرورات ، وأحكام التقية .

---

(١) سورة البلد / الآية : ٤ .

قال عليه السلام :

[فَلَمْ أَزَلْ ظَاعِناً مِنْ صُلْبٍ إلىٰ رَحِم ، فِي تَقَادُمِ الأَيَّامِ المَاضِيَة ، وَالقُرُونِ الخَالِيَة . لَمْ تُخْرِجْنِي لِرَأفَتِكَ لِي ، وَلُطْفِكَ لِي ، وَإِحْسَانِكَ إليَّ فِي دَولَة أَيَّامِ الكَفَرَةِ ، الذِينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ] .

اللغــة

ظاعناً : الظعن سير البادية لنجعة أو حضور ماء ، أو طلب مربع أو تحول من ماء إلى ماء ، أو من بلد إلى بلد ، وقد لكل شاخص في حج أو غزو ، أو سير من مدينة إلى أخرى ظاعن ، والظعينة الجمل يظعن عليه .

والضعينة ، الهودج تكون فيه المرأة ، أو هو الهودج بنفسه كانت فيه أو لم تكن .

والجمع ظعائن ، قال عمرو بن كلثوم التغلبي :

قفي قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

الصلب : سبق تفسيرها في البحث المتقدم .

القرون : جمع قرن الأمة تأتي بعد الأمة ، قيل مدته عشر سنين ، وقيل

عشرون سنة ، وقيل ثلاثون ، وقيل ستون ، وقيل سبعون ، وقيل ثمانون ، وهو مقدار المتوسط في أعمار أهل الزمان ، مأخوذ من الاقتران ، كأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم ، وأحوالهم بمن يأتي بعدهم .

وجاء في الحديث أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مسح رأس غلام ، وقال : عش قرناً ، فعاش مائة سنة ، قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

الرأفة : الرحمة ، وقيل أشد الرحمة ، ومن صفات الله «عز وجل» الرؤوف ، الرحيم ، وهو العطوف على عباده بألطافه ، والرأفة أخص من الرحمة وأرق وفيه لغتان قرىء بهما معاً قال جرير :

يرى للمسلمين عليه حقاً كفعل الوالد الرؤوف الرحيم

وبهذا المعنى جاء قوله تعالى : ﴿**وَلَولاَ فضلُ اللَّهِ عَليكُم ورحمَتُهُ وأَنّ اللَّهَ رؤُوفُ رَحِيمُ**﴾[1] .

الكفرة : الكفر نقيض الإيمان (آمنّا بالله وكفرنا بالطاغوتِ) والكفر كفر النعمة ، وهو نقيض الشكر ، ويستعمل لازماً ومتعدياً ، ورجلٌ كافر جاحدٌ لأنعم الله ، وهو مشتق من الستر ، وقيل لأنه مغطٍ للقلب ، فإذا غطاه أظلم ؛ ولهذا كان من جملة معانيه ظلمة الليل وسواده ، قال حميد :

فوردت قبل إنبلاج الفجر وابن ذكاءٍ كامنٍ في كفر

أي فيما يواريه من سواد الليل .

النقض : ـ إفساد ما أبرم من عقدٍ أو بناء ، وفي الصحاح : النقض نقض البناء والحبل ، والعهد . وناقضه في الشيء خالفه ، قال الشاعر :

---

(١) سورة النور / الآية : ٢٠ .

وكـان أبـو العيـوف أخـاً وجـاراً   وذا رحـم فـقـلت لـه نـقـاضـا

ولذلك قالوا : (نقائض جرير والفرزدق) أي مدح وهجاء كلٌ منهما .

العهد : ـ كل ما عوهد الله عليه ، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد . وكل ما أمر الله به ونهىٰ عنه فهو عهد قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَوفُوا بِالعَهدِ إِنَّ العَهدَ كانَ مَسئُولا** ﴾[1] ويُقال : عهد إليّ فلان كذا ، أي أوصاني . والعهد الأمان وجاء في التنزيل : ﴿ **لَا يَنَالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ** ﴾[2] .

البيــان

فقل صاحب البحار عن الرازي ، قال : ترائب المرأة عظام صدرها ، حيث تكون القلادة ، وكل عظم من ذلك تريبة ، وهذا قول جميع أهل اللغة . ثم قال : فيّ هذه الآية قولان ، ويعني بها قوله تعالىٰ : **يَخرُجُ مِنْ بَينِ الصُّلبِ والتَّرائبِ** ﴾[3] .

أحدهما : أن الولد مخلوق من الماء الذي يخرج من الرجل وترائب المرأة . وقال آخرون : إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه .

واحتج صاحب القول الثاني على مذهبه بوجهين :

الأول : أن ماء الرجل من الصلب فقط ، وماء المرأة خارج من ترائبها فقط ، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خرج من بين الصلب والترائب وذلك على خلاف الآية .

الثاني : إنه « تعالىٰ » بين أن الإنسان مخلوق من ماءٍ دافق ، والذي

(١) سورة الإسراء / الآية : ٣٤ .
(٢) سورة البقرة / الآية : ١٢٤ .
(٣) سورة الطارق / الآية : ٧ .

وصف بذلك ماء الرجل ، ثم وصفه بأنه يخرج هذا الدافق من بين الصلب والترائب ، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من الرجل فقط .

وأجاب القائلون :

بالقول الأول عن الحجة الأولىٰ : إنه يجوز أن يُقال للشيئين المتباينين ، إنه يخرج من بين هذين خير كثير ؛ ولأن الرجل والمرأة عند إجتماعهما يصيران كالشيء الواحد ، فحسن هذا اللفظ هناك .

وعن الثانية : لأن هذا من باب إطلاق إسم البعض على الكل ، فلما كان أحد قسمي المني دافقاً أطلق هذا الإسم علىٰ المجموع ثم قالوا : والذي يدل علىٰ أن الولد مخلوق منهما أن مني الرجل وحده صغير ولا يكفي .

وروي أنه «صلّىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: إذا غلب ماء الرجل يكون ذكراً ، ويعود شبهه إليه وإلىٰ أقاربه ، وإذا غلب ماء المرأة فإليها وإلىٰ أقاربها يعود الشبه . وذلك يقتضي صحة القول الأول .

وعلى تقدير تسليم ما ذكره الأطباء في ذلك ، يمكن أن يكون المراد خروج المني من الرجل والمرأة من أعضاء محصورة بين الصلب من جهة الخلف ، والترائب من جهة القدّام ، بأن يكون الصلب والترائب مقصودين في كل من الرجل والمرأة ، ويكون هذا التعبير لبيان كثرة مدخلية الصلب والترائب فيهما ، وكون ماء المرأة غير دافق ممنوع ، بل الظاهر أن له أيضاً دفقاً لكنه لمّا كان في داخل الرحم لا يظهر كثيراً ، وما ورد في الأخبار من تخصيص الصلب بالرجل والترائب بالمرأة لكون الصلب أدخل في مني الرجل ، والترائب في مني المرأة[1] .

جاء في التفسير والإحتجاج بالإسناد إلىٰ أبي محمد العسكري

---

(١) بحار الأنوار : ج ٥٧ ص٣٣٠ .

«عليه السلام» عن جابر بن عبد الله، قال: سأل ابن شوريا النبي «صلّىٰ الله عليه وآله وسلم» فقال: أخبرني يا محمد، الولد يكون من الرجل أو من المرأة؟ فقال النبي «صلّىٰ الله عليه وآله وسلم»: أما العظام والعصب والعروق فمن الرجل، وأما اللحم والدم والشعر فمن المرأة. قال: صدقت يا محمد. ثم قال: يا محمد فما بال الولد يشبه أعمامه ليس فيه من شبه أخواله شيء، ويشبه أخواله ليس فيه من شبه أعمامه شيء؟ فقال رسول الله «صلّىٰ الله عليه وآله وسلم»: أيهما علا ماؤه ماء صاحبه كان الشبه له. قال: صدقت يا محمد. فأخبرني عمّن لا يولد له، ومن يولد له؟ فقال: إذا مغرت النطفة لم يولد ـ أي إذا احمرت وكدرت ـ وإذا كانت صافية ولد له... الخبر.

ومما تقدم نستطيع أن نقول: بإن مفهوم كلامه «عليه السلام»: (ظاعناً من صلبٍ إلىٰ رحم) أن هذه المراحل والتطورات التي يمر بها الإنسان منذ أن يريد الله أن يخلقه إلى يوم ولادته هي من العجائب التي تنطوي في كلامه الشريف، وهذه العجائب، كما ذكر بعضها في الحديث النبوي المتقدم، وبعضها ممّا استبطه علماء الطب بتجاربهم المادية المحضة، كل ذلك يدل علىٰ أن لله المشيئة التامة في خلق ما يشاء سواءً كان ذكراً أو أنثىٰ، طويلاً أو قصيراً، أبيض أو أسود.

أما الرحم التي أشارت إليها عبارة الدعاء فإنه من أعجب العجائب التي تمر في ذهن الإنسان.

إن الرحم يمكن اعتباره من الوجهة الفراغية في منتصف الجسم تماماً، طولاً وعرضاً وعمقاً، وهكذا فهو يتلقىٰ الحماية من كافة الجهات غير أن هناك حماية مهمة على مستوىٰ الحوض، حيث أن مكونات الحوض هي عظم العجز بالخلف ومن الجانبين والإمام يوجد عظمات هما عظماً الحرقفة، هذا العظم هو حلقة الإتصال ما بين العمود الفقري في الأعلىٰ والعجز بالخلف،

وعظم الفخذ من الأسفل وهو ما يسمىٰ بالزنّار الحوضي ، وهنا ملاحظتان :

الأولىٰ : أن هذا العظم يحمي الرحم تماماً ، ويكوّن جوفاً يستقر الرحم فيه بحامية من كافة الجوانب .

الثانية : إن هذه الحماية يجب أن تتلاءم مع وظيفة اخرىٰ ، وهي التناسب مع شكل الجنين ؛ لأن أي زيادة طفيفة في الطول أو العرض أو الإرتفاع أو الثنيات والحفر يجعل دخول الجنين وخلاصه مستحيلاً .

أن هذا العظم عليه أن يقوم بوظيفة الحماية للرحم ، والتناسب مع حجم وشكل الجنين لاستقباله ، واخراجه بسلام إلى العالم الخارجي ، والتلاؤم مع هيكل الجسم العام . بحيث يستقبل ضغط عظم الفخذ من الأسفل وثقل الجسم من الأعلىٰ من خلال العمود الفقري وعليه أن يكون مقراً لإرتكاز عشرات العضلات والعديد من الاربطة ، كما عليه أن يحتوي العديد من الثقب والحفر والثلم لمرور الالياف والاعصاب واوتار العضلات ، والاربطة ، والصفق ، والشرايين والاوردة ، واللمث ، كما تقع عليه مهمة إعطاء المنظر الجمالي للخارج لأن جمال المرأة يتكون من تناسب شكلها ما بين ضيق الصدر واتساع الحوض وقلة العضلات وكثرة الشحم ، واخيراً على هذا العظم مهمة تكوين الدم فهو مصنع لا يكل عن الإنتاج والصناعة ونقل الكلس والفوسفور والمغنسيوم من العظام وإليها ، فتبارك الله صاقل العظام ومهندس القوام ، فأي مهمة جبارة يقوم بها هذا العظم من التلاؤم والتناسب والتكيف والمرونة بين الصناعة والحمل وتقبل الضغط ، بين الإستقبال والتوديع ، بين الإدخال والتصريف ، ثم إنه في النهاية يجب أن يتناسب تماماً مع عشرات العضلات ليستر القاع السفلي للجسم ، وليخرج من هذا القاع مصارف البول والغائط ، وبنفس الوقت ليكون المقر والستر للعورات .

وإذا رأيت ثم رأيت قراراً مكيناً لكي يحفظ الولد والأم من خطر

الإجهاض إلاَّ نادراً ، فالولد حقيقة هو في حفظ وامان كما صرح بذلك القرآن المجيد في قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَخلُقكُم مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعلنَاهُ فِي قَرارٍ مَّكين * إلىٰ قَدرٍ مَّعلومٍ * فَقَدرنَا فَنِعَم القَادِرُونَ * ويَلٌ يَومَئذٍ لِلمُكَذِبينَ ﴾[1] .

وهناك آية من آيات الله العظيمة ، فالرحم يكبر حتىٰ إذا كان عمر الحمل الأسبوع الثاني عشر ، بدأ الرحم يرفع رأسه ويتجاوز عظم العانة من الإمام ، فإذا بلغ الحمل عمره من الاسبوع السادس عشر أو ما يقارب الشهر الرابع برز تماماً في البطن في منتصف المسافة تماماً ما بين السرة والعانة وهكذا يأخذ في التطور كلما طرأ على الجنين زيادة . وسيأتي بحث آخر حول هذا الموضوع في كلام لأحق أن شاء الله « تعالىٰ » .

أما تقادم الأيام وتعاقب القرون فإن الإنسان تمر عليه ازمان تختلف شدة وضعفا فتقسو مرة وتلين اخرىٰ .

أما القرن فهو أحد الوحدات الزمنية الطويلة ، وكذلك السنة والشهر ، إلى أن تنتهي بالدقيقة ثم الثانية ، وقد مرت على الإنسان بعد أن وجد على وجه الأرض ، وعلى اختلاف البيئات وتفاعل الإنسان معها وبما تحمل من خير أو شر في حيناها ينصهر الإنسان فيها كجزء من أجزائها وكشيء من مكوناتها ، فمرة مؤمناً واخرىٰ كافراً .

ولقد خلق الله الإنسان وهداه إلى سواء السبيل كما نطقت بذلك الآيات . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّا هَدَيناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً﴾[2] .

وبهذا تذوب مسألة الجبر والتفويض كما تذوب حبة الملح في الماء الفرات .

---

(١) سورة المرسلات / الآيات : ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و٢٣ و ٢٤ .

(٢) سورة الإنسان / الآية : ٣ .

الذين ينقضون عهد اللهِ

أما الذين نقضوا العهد بينهم وبين الله فهم الكفار ، سيد ومسود .

وقد مر فيما مضىٰ من الأبحاث أن الله « سبحانه » قد خلق الإنسان وأشهده علىٰ نفسه ، واشترط عليه بالطاعة واشترط له بالرزق ، وألّا يكله إلى نفسه . أما الباري فقد أوفىٰ للعبد بما اشترط عليه ، وأما العباد فإنهم لم يلتزموا بذلك الشرط واعرضوا عن ذكر الله ، وبذلك فقد نقضوا عهد الله كما أشار « عليه السلام » في الفقرة المتقدمة (الذين نقضوا عهدك) .

وبتنازل الإنسان ورضاه لنفسه بالحياة المهينة ، ينشأ الضعف في النفس وبمقدار ما يبتعد الإنسان عن الله يقترب من الشيطان وتستولي عليه الوساوس التي منشأها النفس الأمارة بالسوء .

ومن ثم يتحكم الإنسان في الإنسان لضعف كل منهما وينشأ تبعاً لذلك ، (دولة أيام الكفرة) وهم الملوك الذين كفروا بربهم ، أو كفّروا الناس بصرهم عن سبيل الله وإرغامهم على عبادة الأوثان ، كفرعون ونمرود وغيرهما ، وقد مرت لمحة عن هذه العينات فيما مضىٰ من أبحاث الكتاب ، وقد اهتم القرآن الكريم بعرضٍ مفصل لأعمال هؤلاء الملوك وجرائمهم وعاقبة

أمرهم ؛ لخطورتهم على المجتمعات البشرية .

إن هؤلاء وأمثالهم هم الذين يدعون ـ بحق ـ الكفرة ؛ لأن بلاءهم يتعدىٰ إلى غيرهم ويجبرون الناس على الكفر ، منقضوا بذلك العهد الذي أخذه الله عليهم قبل خلقهم وهم في عالم الذّر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بني آدمَ مِنْ ظُهُورِهم ذُريتَهم وأَشهَدَهُم عَلَىٰ أَنَفُسِهم . أَلستُ بِربِّكُم قَالُوا بَلىٰ ! شَهِدنَا أن تقولُوا يومَ القِيَامةِ إِنَّا كُنَّا عن هَذَا غَافِلِينَ ﴾[1] .

هذا مع العلم بأن الرسل قد جاءت تترىٰ منذ أن خلق الله آدم ، حتىٰ خُتموا بنبي الإسلام « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » .

(١) سورة الأعراف / الآية : ١٧٢ .

معنىٰ الرسول والرسالة

والرسل جمع رسول ، والرسول عرّفوه بأنه أخص من النبي ؛ لأن الرسول هو المخبر عن الله مع مشاهدته للملك ، وقد بعثهم الله ليدعوا الناس إلىٰ الإيمان ، ولا يدعوا احداً إلىٰ الكفر فيكون الرجل كافراً قد ثبت له الكفر عند الله فينقله بعد ذلك من الكفر إلىٰ الإيمان .

فقد جاء في صحيح الفضل بن شاذان عن الرضا « عليه السلام » ما حاصله : فلم وجب عليهم معرفة الرسل والإقرار بهم والإذعان لهم بالطاعة ؟ قيل : لأنه لم يكن في خلقهم ، وقواهم ما يكملون لمصالحهم ، وكان الصانع متعالياً عن أن يرىٰ ، وكان ضعفهم عن إدراكه ظاهراً فلم يكن بداً من رسولٍ بينهم وبينه معصوم يؤدي إليهم أمره ونهيه ، وأدبه ويوقفهم على ما يكون به من إحراز منافعهم ، ودفع مضارهم . إذا لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون به من منافعهم ومضارهم ، فلو لم يكن لهم في مجيء الرسول منفعة ، ولا سد حاجز ، ولكان إيتانه عبثاً بغير منفعة ، ولا صلاح .

وليس هذا من صفة الحكيم الذي أتقن كل شيء وناهيك بها من أخبارٍ كشفت عن وجوه الحكمة ، وأبرأت الأكمة والأبرص .

وحينئذٍ فينطبق على هذا ما قاله الحكماء والمتكلمين حيث قالوا إرشاد

الخلق إلىٰ مصالحهم بالنسبة إلىٰ أحوال معاشهم ومعادهم واجب . وكل ما كان كذلك كانت النبوة واجبة .

ولم ينكر هذا إلَّا البراهمة ، حيث زعموا أنه لا فائدة فيها ؛ لأن النبي إما أن يأتي بما يوافق العقل ، أو بما يخالفه . فإن جاء بما يوافق العقل فلم يأت بشيءٍ جديد ، والعقل به غنية عنه ، ولا حاجة إليه . وإن كان الثاني قبح إتباعه لأن اتباع ما يخالف العقل قبيح في العقل .

وردّ هذا القول بأنه إذا أتىٰ بما يوافق العقل ، لا نسلِّم أن في العقل غنية عنه ، إذ ليس كل ما يوافق العقل يجب أن يكون عالماً أو مستقلاً بإدراكه ، بل جاز أن يكون عالماً به بالجملة . ويجب البعثة لتعريفنا ذلك مفصلاً .

وهذا كما يعلم المريض في الجملة أن كل ما ينفعه يجب تناوله ، وكل ما يضره يجب إجتنابه ، وإن لم يعلم تفصيل الضار والنافع ، فإذا عرّفه الطبيب أن شيئاً معيناً ينفعه ، أو يضره ، لم يكن ذلك مخالفاً لعلمه في الجملة ، بل موافقاً بتفصيله ، مع أنه ليس في عقله غنية عنه .

وبهذا ينهدم ما بناه البراهمة في إعتقادٍ فاسد ، إضافةً إلىٰ ما ورد في الكتاب العزيز من تأكيدات علىٰ إرسال الرسل ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾[1] .

أما الرسالة فهي كل ما يأتي به الرسول من عند الله جملةً وتفصيلاً ويشمل الأحكام الخمسة الواجب والمحرم والمندوب والمكروه والمباح .

فالرسول يأتي بالرسالة وفيها ما يحتاجه الإنسان في آخرته ودنياه .

---

(١) سورة الإسراء / الآية : ١٥ .

قال عليه السلام :

[لكَنَّـكَ أخـرجتَنِي رَأفَـةً مِنـكَ ،وتحُنناً عَلَيَّ للَّذِي سبق لي مِنَ الهُـدَىٰ الَّذي لَهُ يَسَّرتَنِي ، وَفِيهِ أنْشَأتَنِي ومِنْ قبلِ ذلـكَ رؤفتَ بِي بجميلِ صُنعِـك ، وسَوابغِ نِعْمَتِكَ] .

الإعراب

رأفة : مفعول لأجله منصوب وعلامة نصبه فتحة ظاهرة .

قبل : قال ابن هشام ذكروا أن لها أربع حالات :

الأولىٰ : أن تكـون مضافـة فتعرب نصبـاً على الظرفيـة ، أو خفضاً بمن تقول (جئتك قبلَ زيد) وقال تعالىٰ : ﴿ **كَـذَّبت قَبلَهُم قَومُ نُـوح** ﴾[١] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **أَلَمَ يَأتِهم نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهم** ﴾[٢] .

وهذه الحالة هي التي ذكرت باعرابها في فقرة الدعاء التي امامنا ، فـإنها مضافة ، واسم الإشارة مضاف إليه .

---

(١) سورة الحج / الآية : ٤٢ .

(٢) سورة التوبة / الآية : ٧٠ .

الثانية : أن يحذف المضاف إليه ، وينوي ثبوت لفظه فيعرب الإعراب المذكور بدون تنوين .

الثالثة : أن تقطع عن الإضافة لفظاً ، ولا ينوي المضاف إليه فتعرب أيضاً الأعراب المذكور لكنها تنون ؛ لأنها حينئذٍ اسم تام كسائر الأسماء النكرات كقراءة بعضهم ﴿ **لِلَّهِ الامرُ مِن قَبلٍ ومِن بَعدٍ** ﴾[1] بالخفض والتنوين .

الرابعة : أن يحذف المضاف إليه ، وينوي معناه دون لفظه فحينئذٍ يبنى علىٰ الضم ، كقراءة السبعة : ﴿ **لِلَّهِ الأمرُ مِن قَبلُ ومِن بعدُ** ﴾[2] .

اللغة

تحنناً : الحنّان من أسماء الله « عز وجل » بتشديد النون ، بمعنىٰ الرحيم . وهو مأخوذ من الحنان بتخفيفها وهو الرحمة ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ **وَحَنَاناً مِن لَّدُنَّا** ﴾[3] . أي وآتيناه حناناً ، والحنان العطف والرحمة ، وانشد سيبوية :

فقالت حناناً ما أتىٰ بك ها هنا ... أذو نسب أم أنت بالحي عازما .

ويقال حنَّ عليه عطف عليه ، وحنّ إليه فزع إليه ومال .

وقالوا : حنانك وحنانيك أي تحننا إليَّ بعد تحنن ، وهذا معنىٰ التثنية عند سيبوية في هذا الضرب .

قال طرفة :

أبا منذر افنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

قال سيبوية : ولا يستعمل مثنىٰ إلاّ في حد الإضافة .

(1) و (2) سورة الروم / الآية : ٤ .
(3) سورة مريم / الآية : ١٣ .

يسر : اليسر اللين والإنقياد ، ويكون ذلك للإنسان والفرس . ويقال أنه ليسر خفيف إذا كان لين الإنقياد ، وولدت المرأة ولداً يسراً ، والميسور ضد المعسور وقد يسره الله لليسرىٰ أي وفقه لها .

قال الفراء في قوله عز وجل : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[1] . يقول سنهيئه للعود للعمل الصالح .

أنشأ : خلق . أنشأ الله الخلق أي أبتدأ خلقهم ، وفي التنزيل قال تعالىٰ : ﴿ **وأنَّ عَلَيهِ النَّشأَةَ الأخرىٰ** ﴾[2] . أي البعثة . ونشأ نشوءاً ربا وشب ، ونشأت في بني فلان شببت فيهم ، والناشيء فويق المحتلم ، وقيل هو الحدث الذي جاوز حد الصغر ، يذكر ويؤنث ، قال نصيب :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشأ الصغارُ .

سوابغ : شيء سابغ أي كامل ، وسبغ الشيء طال إلى الأرض واتسع ، وسبغت النعمة سبوغاً اتسعت ، واسباغ الوضوء المبالغة في إتمامه ، واسبغ الله عليه النعمة أكملها واتمها ووسعها قال تعالىٰ : ﴿ **وأَسْبَغَ عَلَيكُم نِعَمهُ ظَاهِرةً وَبَاطِنَة** ﴾[3] والسابغة الدرع الواسعة ، قال الأسدي :

وسابغة تغشىٰ البنان كأنها أضاة بضحضاح من الماء ظاهرِ

البيان

تابعَ في هذه الفقرة ذكر النعم التي مر شطر منها في الكلام السابق ، ثم تعرض مرة اخرىٰ لبعض اخر منها ، اعترف بها في ذلك **الموقف العظيم** ، فقد ذكر الرأفة والتحنن عليه ؛ لأنه « سبحانه » أهل لهما ، وقد ذكرهما بهذا

---

(١) سورة الليل / الآية : ٧ .

(٢) سورة النجم / الآية : ٤٧ .

(٣) سورة لقمان / الآية : ٢٠ .

السياق ، فالرأفة اخص من الرحمة ، والتحنن اخص من الرأفة ـ كما يلوح من سياق الكلام في هذه الفقرة ـ لأن الحنان من اصدق مصاديقه حنان الأم على أولادها ، قال الشاعر :

نـزلنـا دوحـة فحنـا علينـا   حنو المرضعات على الفطيم
واتـرعنـا على ظمـأ زلالاً   ألـذّ من المـدامـة للنـديم

ولقـد ذكر في هـذه الفقرة سبب خلقـه ، وهو قـولـه(للذي سبق لي من الهدىٰ) ومعنىٰ ذلك أنـه قد خلقـه لكي يطيعـه في أمره ، وينتهي عمـا نهاه ، وهذا هو السبب المبـاشر لخلق الخلق ، وقـد مرت لمحـة خاطفـة في ما سبق من أبحاث الكتاب عن ذلك ، وذكرنا الآيات التي تعرضت لهذا الموضوع مثل قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقتُ الجِنَ والإِنسَ إلاَّ ليَعبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنهُم مِن رِزقٍ وَمَا أُرِيدُ أن يُطعِمُونِ * إنَّ اللَّهَ هُو الرَّزَّاقُ ذُو القُوةِ المَتينُ﴾[1] .

أما الأخراج الذي ذكره « عليـه السلام » فهـو بمعنىٰ الخلق بعد أن كـان في عالم الذر ، ويقال للسحاب أول ما ينشأ (خـروج) ، وبهذا المعنىٰ نفهم ما أراد، وهو أن الله «سبحانه» أخرج الناس إلى هذا الوجود بعد أن لم يكونوا، إلاّ في علمه . فربط بهذه الكلمة (اخرجتني) بين عالم الذر ، وعالم الـوجود المادي الذي يمزج بين المرحلة الأولىٰ والثانية من عمر الإنسان وجسمه[2] .

ولا شك أن التحول من عالم إلى آخر ، مغايراً له تمامـاً في حاجـة إلى وقفة تأمل ، ويكفينا أن نبحث جهة من هذه الجهات في حياة الإنسان الماديـة

(١) سورة الذاريات / الآيات : ٥٦ و٥٧ و٥٨ .
(٢) هناك مراحل أربع يمر بها الجسم الإنساني منذ أن ينشأ :
أ ـ مرحلة الجنين في بطن أمه ، وهي تمتد إلى مدة الحمل .
ب ـ مرحلة الحياة الدنيا ، وهي منذ ولادته إلى يوم موته .
جـ ـ مرحلة البرزخ ، وهي ما بين موته إلى يوم البعث .
د ـ مرحلة القيامة وهي تبدأ من يوم بعثه إلى ما شاء الله .

الضاربة في عمق الزمن .

قال الكسيس كاريل في كتابه الإنسان ذلك المجهول : ترتبط أهمية الزمن المادي الطبيعي البشري بطبيعة الزمن الداخلي ؛ لأن الزمن الفسيولوجي عبارة عن تدفق للتغيرات التي لا ترد للانسجة والإخلاط ، ويمكن قياسه على وجه التقريب بوحدات خاصة ، كل واحدة منها تساوي تعديلاً وظيفياً معيناً لمصل الدم . وتعتمد خصائصه على تركيب الجسم ، وعلى العمليات الفسيولوجية المرتبطة بمثل هذا التركيب وهي محدودة في كل نوع ، وكل فرد ، وكل سن لكل فرد .

ان الزمن الفسيولوجي يشار إليه عادة بالزمن المادي ، أي بزمن الساعة ما دمنا جزءاً من العالم المادي ، فتقاس الفترات الطبيعية من حياتنا بالآلام أو الأعوام . فالطفولة والصبا والمراهقة تستمر حوالي ثمانية عشر عاماً ، بينما يستمر النضوج والكهولة فترة تتراوح بين خمسين وستين عاماً ، وهكذا يشتمل الإنسان على فترة قصيرة من النمو وفترة طويلة للإكتمال والإنحلال . وبالعكس يمكن أن يرجع المادي إلى الزمن الفسيولوجي ويعبر عن وقت الساعة باصطلاحات العمر البشري . وحينئذٍ تحدث ظاهرة غريبة إذ يفقد الزمن المادي اضطراد قيمته ويصبح ما يحتوي العام عليه من وحدات الزمن الفسيولوجي قابلاً للتغيير فهو مختلف بالنسبة لكل فرد ولكل فترة من حياة الفرد الواحد .

إن الإنسان يدرك بوضوح قد يكون كثيراً ، وقد يكون قليلاً التغييرات المتعلقة بالزمن المادي التي تحدث في مجرىٰ حياته ، فتبدو أيام الطفولة بطيئةً جداً ، وأيام النضوج والشيخوخة سريعةً بشكلٍ يدعو للحيرة . ومن المحتمل أن نكابد هذا الإحساس ؛ لأننا نضع الزمن المادي لا شعورياً إطار أعمارنا الفسيولوجية ، فمن الطبيعي أن يبدو الزمن المادي وكأنه يختلف عنه

اختلافاً عكسياً .

إن نظام عمرنا يبطىء باضطراد ، والزمن المادي ينزلق إلىٰ الأمام بدرجةٍ مضطردة ، إنه أشبه بنهرٍ كبير يتدفق عبر السهول . ففي فجر حياته يعدو الإنسان بنشاطٍ فوق الضفة ، وتكون سرعته أكثر من الماء نفسه فإذا ما انتصف اليوم تباطأت خطواته ، وينزلق الماء بسرعة مساويةٍ لخطوة الإنسان . فإذا أقبل الليل تعب الإنسان بينما يزيد ماء النهر من سرعته ويترك الإنسان خلفه ، وإن هي إلّا لحظات حتىٰ يتوقف الإنسان تماماً ثم يسقط صريعاً .

أما النهر فيستمر في إنزلاقه دون أن يعوقه شيءٌ . وحقيقة الأمر أن ماء النهر لم تزد سرعة تدفقه ، إن البطء التدريجي في خطونا هو المسؤول عن هذا الوهم . ويمكن أيضاً أن يعزىٰ ما يبدو من سرعةٍ في القسم الأول من حياتنا ، وبطءٍ في القسم الأخير إلى الحقيقة جيداً ، والتي مؤداها أن السنة تمثل أجزاء من الماضي مختلفة تماماً بالنسبة للطفل والكهل .

وعلىٰ كل حالٍ يحتمل أكثر إن شعورنا يدرك في إبهام بطيء زمننا ـ أي عملياتنا الفسيولوجية ـ وأن كل واحدٍ منا يعدو فوق شاطىء النهر ، ويتطلع إلى مياه الزمن المادي المتدفقة[1] .

والزمن المادي هو : ما إصطلح عليه الناس لتقسيمه إلى وحدات زمنية متفاوتة كالثانية والدقيقة والساعة واليوم والشهر والسنة ، وان إختلفت المفاهيم في ذلك بحسب الأيديلوجيات . ففي الشرع الشريف قسم الزمن إلىٰ ساعات متفاوتة في الطول والقصر ، وقد أطلق على كل ساعةً إسماً ، كالفجر[2]

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : ص ٢١٠ .

(٢) لما خرج الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر «عليه السلام» من عند هشام بن عبد الملك في الشام مع ابنه جعفر بن محمد «عليه السلام» عنه ، قال : لما خرجنا من عنده ، وإذا بميدان ، وفي آخره خلق كثير قعود فسأل أبي عنهم ، فقيل : هؤلاء . . إلى أن قال : قال له (أي =

والضحىٰ والظهر والعصر والمغرب .

وفي التقسيم الإصطلاحي الحاضر قسموا اليوم إلىٰ أجزاء متساوية أطلقوا عليها إسم الساعة ، وهي أربعةٌ وعشرون جزءاً ، كل جزءٍ قسموه إلىٰ ستين جزءاً أسموه دقيقةً .

وأما الزمن الفيسيولوجي فهو عبارةً عن المراحل المتعاقبة التي يمر بها جسم الإنسان النامي في تطوره كالطفولة والصبىٰ ، والشباب ، والكهولة ، والشيخوخة ، وهذه المراحل هي ما تشابه الوحدات الزمنية في الزمن المادي ، وبعبارةٍ أخرىٰ إن المقصود بالزمن الفيسيولوجي هو عمر الإنسان بجميع فتراته . فهو يختلف عن الزمن المادي في بعض الجهات فمن ناحية المنظور فإن التقسيم للزمن المادي هي أجزاء الزمن وإن إختلفت طولاً وقصراً في بعض المفاهيم .

أما الزمن الفيسيولوجي فإنه يقوم بالنظر إلىٰ جسم الإنسان أولاً والذات ، وثانياً ينظر إليه باعتباره مرتبطاً بالزمن المادي في مراحل النمو المتعاقبة .

ومن النعم الميسرة للعبد والتي تبدو ظاهرةً هي الهداية والتوفيق إلى سبيل الهدىٰ ، وطريق الخير ، وولادته على الفطرة وتيسير السبيل للوصول إلى الغرض الأسمىٰ ، وهو الرضوان منه « سبحانه » . فإن التنافس عند

= العالم) أسألك ؟ قال أبي : سل . فقال : من أين ادعيتم أن أهل الجنة يطعمون ، ويشربون ، ولا يحدثون ؟ قال أبي : (أي الباقر «عليه السلام» إن الجنين في بطن أمه يطعم ولا يحدث . . . إلى أن قال : أخبرني عن ساعة لا من ساعات الليل ، ولا من ساعات النهار ؛ قال : هي الساعة التي بين طلوع الفجر ، وطلوع الشمس . يهدأ فيها المبتلي ، ويرقد الساهر ، ويفيق المغمى عليه . . إلى آخر المناظرة التي جرت بين الإمام الباقر والعالم النصراني .

المؤمنين العارفين في غير حقدٍ للوصول إلى تلك الـدرجة التي هي أعلىٰ من الجنة ؛ لأن الجنة قد يدخلها المذنب بعد غفران ذنوبه ومسامحته ، أو بعد أن تدركه الشفاعة من النبي أو الإمام أو أحد المؤمنين .

أمـا الرضـوان فإن صـاحبه يكـون أقرب إلى الله من غيـره فهو وإن كـان مذنباً ـ مع تسامح في التعبير ـ لكنـه لم يكن في مصاف المـذنبين الذين دخلوا الجنة بعد غفران الذنوب قال تعالىٰ : ﴿ **تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتغُـونَ فَضلاً مِن اللهِ وَرِضواناً** ﴾[1] وقال تعالىٰ : ﴿ **وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدنٍ وَرِضَـوانٌ مِن اللهِ أَكبَرُ** ﴾[2] .

ثم إن النشأة التي ينشأ فيها الإنسان تبدأ من خروجـه من صلب أبيه إلى رحم أمه من مني يمنىٰ ، ورعايته في بطنهـا نعمةٌ اخـرىٰ ، وسوف يـأتي ذلك في شرح كلامه الآتي .

والمقصود من نشأته من قبل هـو ما قبـل ولاته ، وكمـا سبق تفسير هـذه الكلمة (أنشأ) بمعنىٰ خلق ، ومعنىٰ ذلك أنها الفترة ما بين وصوله إلى الرحم نطفةً وخروجه منه خلقاً سـويا وهـذه **اللغتة** التي ألمـح إليها « سـلام الله عليه » تشير إلى عملية التطور التي تحدث في بطن الأم للولد وما يطرأ عليـه من تغيرٍ في نمـوه كل يـوم . وسيوافيـك بحثٌ مفصل عمّـا قليل في كـلامـه بعـد هـذا البحث .

وأمـا قولـه تعـالىٰ : ﴿ **أَوَ مَن يُنَشَّؤُ فِي الحِليَـةِ وهُـو فِي الخِصَـامِ غَيـرُ مُبِين** ﴾[3] .

---

(١) سورة الفتح / الآية : ٢٩ .
(٢) سورة التوبة / الآية : ٧٢ .
(٣) سورة الزخرف / الآية : ١٨ .

أي يتربىٰ في الزينة وهو في المخاصمة والمحاجّة غير مبين الحجّة لا يقدر على تقرير دعواه ؛ لأن عاطفته فوق عقله ، ألا ترىٰ أن المرأة بطبعها أقوىٰ عاطفة ، وأضعف تعقلاً بالقياس إلى الرجل ؟ .

فمن أوضح مظاهر قوة عاطفتها تعلقها الشديد بالحلية والزينة ، وضعفها في تقرير الحجة القائمة على قوة العقل .

فالآية الكريمة تشير من بُعدٍ إلى أن الإنسان وهو بعيد عن مظاهر الدنيا في بطن أمه يتقلب في سوابغ النعم ، وليس له عقلٌ يدبر حركاته وسكناته ، ولكن الله بعنايته دبر خلقه فأحسن تدبيره .

قال عليه السلام :

[فـابتـدَعت خَلقِي مِن مني يُمْنَى ، ثم اسكَنتَنِي فِي ظُلُمــاتٍ ثـلاثِ بينَ لحمٍ وجلدٍ ودمٍ ، لم تُشهِرْنِي بخلقِي ، ولم تجعلْ إليَّ شيئاً مِن أمرِي] .

اللغــة

إبتدع : أنشأ والبديع والبدع الشيء الذي يكون أولاً ، والبدعـة الحدث وما إبتدع في الـدين بعد الإكمـال ، وقال ابن السكيت : البـدعة كل محدثة . وفلان بدع في هذا الأمر ، أي أول لم يسبقه أحد . وابتدعت الشيء اخترعته على غير مثال . والبديع من أسماء الله « تعالىٰ » ؛ لإبتداعه الأشيـاء واحداثـه أيـاها ، وهـو البديـع الأول قبل كـل شيء، قالت فاطمة الـزهـراء « سـلام الله عليها » : (إبتدع الأشيـاء لا من شيء كان قبلهـا ، وأنشأهـا بلا احتـذاء امثلة امتثلها) . وقال تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ السَمٰوَاتِ والأرضِ ﴾[1] .

وقال الأحوص :

---

(١) سورة البقرة / الآية : ١١٧ .

فخـــرت فـــانتمت فقلت انـــظريـني   لـــيس جـهـــل اتـيـتــه بـبــديــع

المني : مشدد ماء الرجل ، وفي التنزيل جاء قولـه تعالىٰ : ﴿ **مِنَّ مَّنِيٍ يُمنى** ﴾[1] ، وقرىء بالتاء على النطفـة ، وبالياء على المني . يُقال : مني الرجل وامنىٰ من المني ، واستمنىٰ استـدعىٰ خروج المني . ومنى الله الشيء قـدره ، وبـه سميت مني . قـال بن شميـل : سمي منىٰ لأن الكبش مني أي ذبح ، وقال بن عيينه : أخذ من المنـايا ، ومنىٰ موضع آخـر بنجد ، قيـل أياه عني لبيد بقوله :

عفت الـــديـــار محلهـــا فمقـــامهـــا   بمنىً تـأبـد غـــولهـــا فـــرجـــامهـــا

شهـر : الشهرة ظهـور الشيء في شنعة حتىٰ يشهـره النـاس ، والشهـرة وضوح الأمر قال الشاعر :

أحـب هـبـــوط الـــواديـــن وانـــنـى   لـمشـتـهـــر بـــالـــواديـــن غـــريـــب

والشهر : القمر سمىٰ بـذلك لشهـرته وظهـوره ، وقيل يسمىٰ بـذلك إذا ظهر وقارب الكمال وقال الزّجاج :

سمي الشهر شهراً لشهرته وبيـانه ، وشهـر سيفه أي سلّه من غمـده فرآه عدوه ، وظهر أمامه قال ذو الرمة :

وقـد لاح بالســار الذي كمّـل السرىٰ   على اخـــريـات الليـــل فتق مشهـــر

البيـــان

لمّـا انتهىٰ في ما تقـدم من ذكـر النشـأة الأولىٰ ، والعلة التي من أجلهـا خلق الإنسـان ، بدأ بعـد ذلك في وصف الكيفيـة ، والتطورات التي يمـر بهـا الإنسان من كونه نطفة إلى كونه جنيناً حياً سويـاً في بطن أمـه ، ثم تعقبه بهـذا

---

(١) سورة القيامة / الآية : ٣٧ .

الوصف في مراحل حياته المختلفة في دار الدنيا ، كما سوف يأتي في مطاوي كلامه القادم « عليه السلام » .

أما ها هنا فسنستعرض ما ذكره النص وما يشير إليه من بداية خلقه وكيفية هذه التطورات التي ينتقل فيها الإنسان من مرحلة إلىٰ اخرىٰ ، فقوله : (فابتدعت خلق من مني يمنى) أي من ماء يراق ، وهذا الماء الذي وصفه الباري في أحدىٰ آيات القرآن بأنه دافق من أهم فوائده حفظ الجنس البشري وغيره من الأجناس الحيوانية وكلما خلق الله من الأجناس وقدّر له أن تستمر اجناسه في الوجود بهذه الكيفية ، وهو التلاقي بين الذكر والأنثىٰ .

ويقول كاريل : أن للغدد الجنسية وظائف اخرىٰ غير دفع الإنسان باتيان عمل من شأنه حفظ الجنس . فهي تزيد أيضاً من قوة النشاط الفسيولوجي والعقلي والروحي .

فليس هناك خصيٌ اصبح فيلسوفاً عظيماً ، وعالماً خطير الشأن ، أو حتىٰ مجرماً عاتياً ؛ لأن للخصيتين والمبايض وظائف على أعظم جانب من الأهمية ، أنها تولد الخلايا الذكرية والأنثوية ، وهي في الوقت نفسه تفرز في الدم مواد معينة تطبع الخصائص الذكرية ، أو الأنثوية المميزة على انسجتنا ، واخلاطنا ، وشعورنا . وتعطىٰ جميع وظائفنا صفاتها من الشدة .

فالخصية تولد الجرأة والقوة والوحشية ، وهي الصفات التي تميز الثور المقاتل عن الثور الذي يجر المحراث في الحقل . ويؤثر المبيض في جسم المرأة بطريقة مماثلة ، ولكن عمله يستمر فقط أبان جزء من حياتها فحينما تبلغ المرأة سن اليأس تضمر الغدة بعض الشيء ، وحياة المبايض القصيرة تجعل المرأة المتقدمة أكثر منعة من الرجل الذي تظل خصيتاه نشيطتين حتىٰ سن متقدمة جداً .

ان الإختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص

للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . أنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض ولقد أدىٰ الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الانوثة بانه يجب أن يتلقىٰ الجنسان تعليماً واحداً ، وان يمنحا قوىً واحدة ومسؤوليات متشابهة .

والحقيقة أن المرأة تختلف إختلافاً كبيراً عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لاعضائها ، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبي فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي .

صحيح أن الأب والأم يساهمان بقدر متساوٍ في تكوين نواة البيضة التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد لكن دور الرجل في التناسل قصير الأمد ، أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر وفي خلال هذه الفترة يغذىٰ الجنين بمواد كيميائية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص . وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفرزها أعضاء الجنين . وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطرة . فحقيقة الأمر أن الجنين . ينشأ تقريباً من الأب مثل ما ينشأ من الأم ومن ثم فإن مخلوقاً من أصل غريب جزئياً قد أتخذ له مأوىٰ في جسم المرأة ، فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل . وقد تسمم المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها . ومن ثم فمن سخف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للامومة بعد هذه المعاناة التي تمر بها[1] .

ومن العجيب أن نرىٰ حضارات ذهبت فيها النساء إلى تقليد الرجال ،

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : ص ١٠٨ .

وذهب فيها الرجال إلى تقليد النساء ، فخالفوا بذلك طبيعتهم البشرية وكلفوا انفسهم فوق ما تستطيع ، فخالفوا بذلك التركيب الفسيولوجي في محاولات شاقة الرجل منهم والمرأة ، ولكن دون جدوى .

وقد أشار إلى هذا وامثال هذا ما ورد عن النبي « صلّى الله عليه وآله وسلم » ومن قوله : (يأتي على الناس زمان يتشبه فيه الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال) أجل أن مخالفة الفطرة أمر شاق ؛ لأن ذلك مخالفة للطبيعة البشرية ، قال أبو الحسن التهامي :

ومكلف الأيام ضد طباعها — متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما — تبني الرجاء على شفير هار

ويمكن القول أن الحضارة الغربية التي بدأت في الإنحدار الخلقي والأخلاقي هي التي جعلت المرأة وسيلة وسلعة تباع وتشترى ، وساوت بعد ذلك بينها وبين الرجل ، وليس بعد ذلك غريباً أن تقف الراقصة على المسرح في أمريكا وتقول : إنني لا أعترف بالأخلاق ، فإن الديك والفرخة ، والخروف والنعجة ، والثور والبقرة كلها لا تعترف بالأخلاق ؛ فاختارت لنفسها أن تهبط إلى مستوى البهيمية العمياء .

ونعود فنقول : ليست أهمية الجنسين متساوية في ما يتعلق بالجنس .

فإن خلايا الخصية تفرز بلا توقف، وخلال الحياة كلها حيوانات ميكرسكوبية وهبت حركات نشطة للغاية ، في الحيوانات المنوية . وهذه الحيوانات المنوية تسبح في المخاط الذي يغطي المهبل والرحم ، وتقابل البويضة على سطح الغشاء المخاطي الرحمي .

وتنتج البويضة من النضج البطيء لخلايا المبيض الجرثومية ، ويوجد حوالي ثلاثمائة ألف بويضة في مبيض القناة . وتبلغ حوالي أربع مائة

منهـا فقط درجـة النضـوج . وفي وقت الحيض ينفجـر الكيس المشتمـل على البـويضة ، ثم تبـرز البويضـة فـوق غشـاء (بـوق فـالـوب) ، فتنقلهـا السيليا (الأهداب المتحركة للغشاء) إلىٰ داخل الرحم ، وتكـون نواتهـا قد تعـرضت في تلك الأثناء لتغيير هام ، ذلك أنها تكون قد قذفت بنصف مادتها ـ أو بعبارةٍ أخرىٰ ـ بنصف كلٍ كرموسوماتها .

وعندئذٍ يخترق الحيوان المنـوي سطح البـويضة ، وتتحـد كرمـوسومـاته التي تكون فقدت أيضاً نصف مادتها بكرموسومات البويضة .

وهكذا يولد مخلوق جديد إنه يتألف من خليةٍ واحدة طعمت فوق مخاط المهبل . وتنفصل هذه الخلية إلىٰ جزأين ، ثم يبدأ نمو الجنين .

أمـا السكنىٰ في الظلمـات الثلاث وهي : ظلمـة البـطن وظلمـة الـرحم وظلمة المشيمة ، فهي نعمة ورحمة في آنٍ واحد .

نعمةٌ لأنه تعالىٰ تكفل بغذاءه وهو جنين لا يستمرىء الطعـام ، وليس له أي تذوق للطعوم . وأما الرحمة فلانه قد حفـظه في هذه الـظلمات الثـلاث ، وهي في الحقيقة حواجز تقيه العوامل الطبيعية المؤثرة ، وتقيه من هموم الدنيـا وغمومها ، بعيداً كل البعـد عن الآلام والأسقام ، قـريباً كـل القرب من الـرأفة والرحمة .

وقيل : أن الظلمات الثلاث هي ظلمة الصلب ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمـة . إلاَّ أن هذا القـول لا ينسجم وصـريـح القـرآن في قـولـه تعـالىٰ : ﴿ خَلَقَكُم مِن نَّفسٍ وَاحِدةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنها زَوجَهَا وأَنزَلَ لَكُم مِن الإنعامِ ثَمـانِيةَ أَزواجٍ يَخلُقُكُم فِي بُـطُونِ أُمَّهاتِكُم خَلقَـاً مِن بَعدِ خَلقٍ فِي ظُلُماتٍ ثلاثٍ . . الـخ ﴾[1] فإن قـوله (في بـطون أمهاتكم) صـريح في أن المـراد بالـظلمـات

---

(١) سورة الزمر / الآية : ٦ .

الثلاث ما في بطون النساء دون أصلاب الرجال .

ومن لطيف هذا الكلام إنه « عليه السلام » عبّر بالسكنىٰ في هذه الظلمات ، والمعروف أن المسكن هو الذي يأوي إليه الإنسان ليستريح فكأنه أراد بذلك أن الإنسان في بطن أمه في غاية الراحة ، قد توفر لديه جميع وسائلها كما لو كان في مسكنه الذي يأوي إليه وفيه تتوفر جميع وسائل الحياة .

وفي تفصيل آخر للظلمات الثلاث قالوا إن النتائج التي جاءت بها تجارب وبحوث علماء النسج موافقة تمام الموافقة لنص الآية الشريفة ، وكأنها تفسير لها .

وخلاصتها :

إن أنسجة الجسم المختلفة تنشأ من وريقات ثلاث أساسية موجودة في البيضة المخصبة ، هي الوريقة الخارجية ، والوريقة الوسطىٰ ، والوريقة الداخلية . ولزيادة الإيضاح نقول :

الظلمات الثلاث

١ ـ المنبارية :
٢ ـ الأمنيونية :
٣ ـ الخوربونية :

إن الخلية الأولىٰ التي يبدأ منها خلق الإنسان وتكوينه هي البيضة الملقحة ، وتنتج من إتحاد الحويمن المنوي بالبيضة ، ويسمىٰ هذا الإتحاد (بالالقاح) .

ثم تنقسم البيضة الملقحة إلىٰ قسمين ، فأربعة أقسام متشابهة ، وهكذا . وتعرف الخلايا المتكونة بالخلايا الوالدية ؛ لأنها أم ما في الجسم من نسج وأعضاء ، فتستقر بعض الخلايا الناتجة من هذا الإنقسام في المركز ، ويتولد منها الجنين ، وتعرف بالخلايا المضغية .

وتستقر الخلايا الأخرىٰ الناتجة من هذا الإنقسام أيضاً في المحيط ، وتغلق الأولىٰ ، وتعمل على وصل الأم بجنينها ، فتساعد على جلب الغذاء من الأم إلى الجنين ، وتسمىٰ الطبقة المكونة منها الطبقة المحيطية ، أو (المغذية) .

ويستمر الإنقسام ، فتتكون كتلةٌ مركزية خلاياها كبيرة مضلعة ، تتولد منها المضغة ، وتحيط بها خلايا صغيرة مرتبة تعمل على وقايتها وتغذيتها . وتسمىٰ المضغة حينئذٍ (بالمضغة التوتية) . ثم يضخم حجم البيضة ، وينشأ

فيها جوف يفصل الخلايا المضغية عن الخلايا المغذية ، وتأخذ خلايا الطبقة المغذية بالنمو السريع ، ويظهر شقٌّ صغير بينها وبين الكتلة المركزية يأخذ بالإتساع حتىٰ يصير جوفاً يعرف (بالقيلة المحّية) وتقوم القيلة المحية بدفع خلايا المضغة إلى جهة الطبقة المغلقة ، فتكون برعماً بارزاً في جوف القيلة المحية يدعم البرعم المضغي .

وتنمو الطبقة المغذية نمواً سريعاً يؤدي إلى إتساع القيلة المحّية وضخامة البيضة .

ثم تتسع خلايا البرعم المضغي المماسة للقيلة المحية ، وتصطف صفاً واحداً ثم تتكاثر وتنتشر في جانبي البرعم ، فتبطن قسماً من وجه الطبقة المغلفة الباطن ، وتعرف بالوريقة الباطنة .

وتنفصل باقي خلايا البرعم المضغي عن الطبقة المغلقة إلاّ في الجانبين ، وتتكون وريقة أخرىٰ تستقر في ظاهر الوريقة الباطنة تعرف بالوريقة الظاهرة . ثم يتكون بعد هذا الإنفصال جوف صغير يسمىٰ (الجوف الصائي) الإبتدائي بين الطبقة المغلقة والوريقة الظاهرة .

إن كل ما تقدم وصفه يتم والبيضة ما زالت في البوق ، وبسبب التبدلات التي طرأت عليها يكبر حجمها ، فتهبط إلى الرحم نتيجةً لثقلها وتثبت في غشائها المخاطي .

ومن ثم تنفصل الوريقة الباطنة عن الظاهرة إلاّ في نقطة خاصة تدعىٰ (عقدة هنسن) .

تنشأ في عقدة هنسن خلايا عن الوريقيتين الباطنة والظاهرة تنتشر في الجانبين بين الوريقيتين ، وتتكون وريقةٌ جديدة تسمىٰ الوريقة المتوسطة ، وتمتاز خلاياها بكونها سريعة التكاثر ، حيث تفصل الوريقة الباطنة عن الوريقة

الظاهرة بمدةٍ وجيزة ، وتشغل جوف القيلة المحية ، وتنثني الوريقة الباطنة على نفسها وتغلق وتكون حويصلاً يعرف بالحويصل المحي ، ثم تتكاثف عناصر الوريقة المتوسطة الخارجة عن المضغة ، فتكون صفيحتين تنطبق إحداهما على الطبقة المغلقة ، وتنطبق الثانية على الحويصل السري ، فتنجم منها الوريقة الوسطىٰ المحية ، ويظهر بين الصفيحتين المذكورتين جوف جديد غير مضغي يأخذ بالنماء سريعاً .

مما تقدم يعرف أن البيضة الملقحة تجري عليها تبدلات كثيرة وتغيرات معقدة جداً حتىٰ تصل إلىٰ الشكل الذي وقفنا عليه ، وتحتوي فيه علىٰ وريقات ثلاث هي :

الوريقة الخارجية ، والوريقة الوسطىٰ ، والوريقة الداخلية ، ومن هذه الوريقات الثلاث تنشأ فيما بعد أعضاء الجسم المختلفة(١) .

فالجلد والشعر والأظافر وغدد الدهن والعرق والأثداء وبعض الخلايا العضلية الموجودة فيها ، وما كان من سنخها يتولد من الوريقة الخارجية .

والمثانة وبشرة المجرىٰ التنفسي وغدده بإستثناء المنخرين وبشرة الأنبوب الهضمي ، وما يلحق به من غدد الكبد والمرارة والبنكرياس ينشأ من الوريقة الداخلية .

وكافة الأنسجة الضامة والأعضاء اللمفاوية وخلايا الدم ومخ العظام والقلب والعضلات المحططة والملس وبشرة الجهاز البولي التناسلي تنشأ كلها من الوريقة الوسطىٰ .

ومن لطيف كلامه « عليه السلام » (ثم أسكنتني في ظلمات ثلاث ، بين لحمٍ وجلدٍ ودمٍ) إنه عبّر بالسكنىٰ في هذه الظلمات ، ومن المعروف أن

---

(١) من علوم الطب في الإسلام : ص ٤٨ ، وما بعدها .

المسكن هو الذي يأوي إليه الإنسان ليستريح ، فكأنه أراد بذلك : إن الإنسان في بطن أمه في غاية الراحة ، وقد توفرت لديه جميع وسائل الراحة في هذا المسكن ، كما لو كان في مسكنه في الخارج كما مر سابقاً .

وقالوا إن السائل الذي يسبح فيه الجنين في بطن أمه هو الذي يقيه المؤثرات الخارجية الطبيعية ، كالضياء والهواء . فالأشعة تتكسر في مثل هذا الوسط النصف شفاف ، فسبحانه وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

أما عن تطور الجنين في بطن الأم فإن العلم الحديث لم يوفق لحد الأن إلى حل هذا السر الدقيق بجميع شعبه ، ومنها الطب ، وكل ما وصل إليه هو أن جسم الإنسان يتكون من نفس المواد الأولية التي تتكون منها التربة ، ولا بد أن يأتي ذلك اليوم الذي يوفق فيه العلم والطب إلىٰ معرفة أن الإنسان قد خلق من تراب .

وقد بيّن القرآن بعد أن بيّن أن آدم وهو الإنسان الأول قد خلق من طين ، أن سلالة آدم قد خلقت من النطفة الموجودة في مكان حصين ، وأنها تستحيل إلى علقة ، والعلقة إلى مضغة ، والمضغة إلى عظام ، ومن ثم تكسىء العظام باللحم وإلىٰ هذا أشار قوله تعالىٰ : ﴿ **وَلَقد خَلقنا الإِنسانَ مِن سُلالةٍ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَلعنَاهُ نُطفةً فِي قَرارٍ مَّكِينٍ * ثُم خَلَقنا النُّطفةَ عَلقَةً * فَخلقَّنا العَلقَةَ مُضغةً فَخلقَنا المُضغةَ عِظاماً ، فَكَسوَنا العِظَامَ لحَماً ثُم أَنشأنَاهُ خَلقاً آخَر فَتبَارَكَ اللهُ آحَسنُ الخَالِقِينَ * ثُم إِنَّكُم بَعدَ ذَلِكَ لميِّتونُ** ﴾[1] .

فلقد إستعرضت هذه الآية مراحل تطور الجنين منذ النطفة حتىٰ يكمل تكوينه وتتم نطفته ، وأن هذه المراحل عينها قد عرفها العلم والطب أخيراً بعد أن أستكملا عدتهما وقضيا روحاً من الزمن في الدرس والبحث وإجراء التجارب .

---

(١) سورة المؤمنون / الآيات : ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ .

مراحل تطور الجنين

إن التلقيح هو أول عمليةٍ من عمليات خلق الإنسان وتكوينه ، ويتم ذلك غريزياً بالتقاء الذكر بالأنثىٰ بالجماع ثم الإنزال .

أما الإخصاب فهو عبارة عن دخول الحيوان المنوي الذكري في البويضة الأنثوية ، وهو ذو رأسٍ وعنقٍ ذنب ، ويبلغ طوله ٥٥ ميكرو مليمتراً ، وهو أصغر خليةٍ في جسم الإنسان ولا يرىٰ إلاَّ بالمجهر ، ورأسه بيضي الشكل ، وعنقه قصير ، وذنبه طويل ينتهي باستطالة .

فهو ذو قدرةٍ كبيرة على الحركة التي تتم بواسطة الذنب ، وذو قدرةٍ كبيرة على تحمل العوارض ، فيقاوم التجمد ويبدو كالميت ، ولكنه يعود إلى الحركة عند التسخين . تقتله الأحماض ، أماالقلويات فتساعده علىٰ الحركة .

كما أنه يعيش في الحاضنة تسعة أيام ، وفي البول الآسن من يومين إلىٰ ثلاثة أيام .

وذكر الدكتور نجيب محفوظ في كتابه (فن التوليد) الصفات العامة للمني ، فقال :

هو سائل غروي قشطي أصغر مبيض ، قلوي التأثير ، له رائحةٌ خاصة

به تنشأ من إختلاطه بإفرازات الغدد الخاصة بذلك ، وأخصها إفراز البروستاتا المسمىٰ بالسيرمين ، وتختلف الكمية التي تخرج وقت الإنزال من غرام إلىٰ عشرة غرامات أو تزيد ، ومتوسطها ٣ غرامات .

ويتألف المني من الحيوانات المنوية والخلايا المنوية وخلايا بشرية وكرات بيضاء وبلورات ، وقد يبلغ عدد هذه الحيوانات في إنزال مرة واحدة ٢٢٧ مليوناً ولا شك في أن أغلبها يموت من تأثير الإفراز المهبلي الحامض . وإذا تكرر الجماع في وقت قريب جداً يقل عدد الحيوانات ثم ينعدم بالمرة ، ولكنه يعود إلىٰ حالته الطبيعية بعد راحة بضعة أيام .

فإذا تم الإتحاد بين الحيوان المنوي ، والبويضة ، وتكونت عملية الإخصاب أخذت بالنمو والتطور شهراً فشهراً .

ففي الشهر الأول : تكون البويضة في نهاية الأسبوع الثاني من هذا الشهر صغيرة وتتغذىٰ بالضغط الأسموزي . وفي نهاية الأسبوع الرابع تكون البويضة قد قاربت حجم بيضة الحمامة ، وتتغذىٰ من الحويصلة السرّية بواسطة الحويصلة المساريقية السرية .

وأما الشهر الثاني : فنجد في نهايته البويضة بحجم بيضة الدجاج ، وطول العلقة ٣ سم ، وثقلها ١٥ غراماً ، وتضمر الحوصلة السرية تماماً .

وفي الشهر الثالث : نجد في نهايته أن البويضة قد بلغت حجم البرتقالة ، والمشيمة يكاد يتم تكونها ، واعضاء التناسل تبدأ بالظهور ، ولا يمكن تمييزها ، وظهور بعض آثار الأظافر ، وظهور بعض آثار عظمية لا غلب العظام .

أما في الشهر الرابع : فنجد في نهايته أن العلقة قد تميزت بشكل يمكن أن يسمىٰ جنيناً ، ووضوح الأعضاء التناسلية ، وظهور الوبر على جلد

الجنين ، وضمور الخمل السلائي ؛ لأنه قد إنتهىٰ مفعوله .

والشهر الخامس : ظهور الشعر علىٰ الرأس ، مع ظهور وبر رفيع يستر الجسم ، ويكون جسم الجنين مغطىٰ بطبقة دهنية تتألف من إفراز الغدد الدهنية ، ومن خلايا بشريه متفلسه ، ويكون ذلك في نهاية الشهر .

أما الشهر السادس : فنجد في نهايته ظهور الحاجبين والأهداب ، وظهور مادة صفراء في الامعاء الدقاق .

وتبدأ المواد الشحمية بالظهور تحت الجلد .

وأما الشهر السابع : فنجد في نهايته أن الوبر قد بدأ بالزوال ، وان الجنين يعتبر قابلاً للحياة إذا ولد في الشهر هذا ، وله صراخ ضعيف عند ولادته .

وأما الشهر الثامن : فنجد في نهايته إزدياد المواد الشحمية تحت الجلد ، وزوال تكرشه ، وزوال مقدار كبير من الوبر ، وكذلك الغشاء الحدقي .

أما الشهر التاسع : ففي نهايته زوال اللون الأحمر اللامع للجلد ، وبلوغ الأظافر نهايات الأصابع .

أما طول الجنين فيبلغ في هذا الوقت ٤٥ سم ، ووزنه ٢٥٠٠ غم .

أما الشهر العاشر : وهو نهاية الحمل ـ على فرض تأخر الولادة إلى هذه المدة ـ فنجد في نهايته أن الجنين قد بلغ طوله ٥٠ سم ، ووزنه ٧ أرطال (٣١٧٥ غراماً) تقريباً ، والذكور أثقل قليلاً من الأناث ، والاظافر تتجاوز نهايات الأصابع ، والجنين يصرخ بشدة عند ولادته ، ويحرك اطرافه بقوة ، وهو يبول ويتغوط بعد بضع ساعات من ولادته ، ويتكون العقىٰ (الغائط) من مواد خضراء ،أو سوداء مؤلفة من مخاط ووبر ، وخلايا بشرية وصفراء .

وقد وصف الإمام الصادق « عليه السلام » تصوير الجنين في الرحم، ونشوئه، وتطوره حتىٰ خروجه مستوفياً جميع ما فيه صلاحه، حيث قال: (أول ذلك[1] تصوير الجنين في الرحم، حيث لا تراه عين، ولا تناله يد، ويدبره حتىٰ يخرج سوياً مستوفياً جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الأحشاء، والجوارح، والعوامل، إلى ما في تركيب أعضائه من العظام، واللحم، والشحم، والعصب، والمخ، والعروق، والغضاريف.

فإذا خرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع اعضائه، وهو ثابت على شكل، وهيئة لا تتزايد، ولا تنقص، إلى أن يبلغ أشده ـ إن مد في عمره ـ أو يستوفي مدته قبل ذلك، هل هذا إلاَّ من لطيف التدبير والحكمة) ؟ .

أما اللحم والجلد والدم، فهي التي تحيط بتلك الظلمات الثلاث، ويلوح من هذه العبارة في الدعاء بأن هذه الأشياء هي :

١ ـ وعاء لذلك الجنين الذي يسبح في ذلك السائل المعّقد الذي يحميه من الصدمات والعثرات التي ربما تتعرض لها الأم الحامل، فقد جعل الله مسكنه في ذلك القرار المكين كما سبقت الإشارة إليه.

٢ ـ إن نشأة الجنين الذي يمر بتطورات متعددة يحتاج خلال هذه المدة إلى ما يغذيه بما يتناسب ومراحل نموه بين عشية وضحاها، وهذا يتكفل به اللحم والجلد والدم في الأم، فينبت لحمه من لحمها، وجلده من جلدها، ودمه من دمها، فهي مرتبطة به إرتباطاً عضوياً، وان شئت فقل : إن هناك تحولاً كيميائياً في ما تفرزه الأم من الغذاء للجنين قبل تغذيته أياً كان نوعه، ولذلك فإنه لا يصل إلى الجنين إلاَّ بعد أن يخضع لعملية تغيير كيميائية مهمة. وهذه كلها أسرار خفية، لا يعلم بها الإنسان أي إنسان، ولا يعلم بها

(١) أي أول نشوء الأبدان وتكونها في رحم الأم.

الجنين ولا الأم وهي الصق بالجنين من غيرها من الناس .

وهـذا ما أراده الله لـلإنسان ، وهـو يعيش جنيناً في بـطن أمـه ، أراد إلا يعلم بخلقه ، والا يفكر في أمره ، وألا يفكر في رزقه ، وهذا هو غاية الراحـة والدعة والإستقرار ، وإلى ذلك أشار القرآن العزيز في قـوله تعـالىٰ : ﴿ وَاللَّهُ أَخـرَجَكَم مِن بُطُونِ أُمَّهـاتِكُم لاَ تَعلَمُونَ شَيئـاً وَجَعَـلَ لكُمُ السَّمَـع والأَبصَـارَ وَالأَفِئدةَ لعَلكُم تَشكُرُونَ ﴾[1] .

قال المفسرون أن الآية تؤيد ما ذهب إليه علماء النفس : إنَّ لوح النفس خـالية من المعلومـات أول تكونهـا ، ثم تنتقش فيها شيئـاً فشيئاً ـ كمـل قيـل ـ وهذا في غير علم النفس بذاتها ، فلا يطلق عليه عرفاً (يعلم شيئاً) . والدليل عليه قوله تعالىٰ في خلال الآيات السابقة في من يرد إلى ارذل العمر : ﴿ لِكَيْلَا يَعلمَ مِن بَعدِ عِلمٍ شيئاً ﴾[2] فإنه عالم بنفسه في تلك الحالة .

(١) سورة النحل / الآية : ٧٨ .

(٢) سورة الحج / الآية : ٥ .

قال عليه السلام :

[ثُمَّ أخرجْتَنِي إلىٰ الدُّنيَا تامّاً سَوِياً ، وحَفِظْتَنِي في المَهـدِ طِفلاً صَبِيّـاً ، وَرَزَقْتَنِي مِنَ الغـذَاءِ لبَنـاً مَـرِيّـاً ، وَعَـطَفْتَ عليَّ قلوبَ الحَـواضِنِ ، وكفَّلتَنِي الأمهـاتِ الـرَّحَـائِمُ ، وكَـلأتَنِي مِن طَـوارِقِ الجَـانِّ ، وَسَلمتَنِي مِنَ الـزِّيـادَةِ والنُّقْصَانِ ، فتعالَيتَ يَا رَحِيمُ يا رَحْمَانَ] .

اللغــة

سـوياً : الإستـواء فعله لازم من قولـك سويتـه فاستـوىٰ وتقـول العـرب إستوىٰ الشيء مع كذا وكذا، وبكذا . ويقال إستـوىٰ الماء والخشبـة ، أي مع الخشبة ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَلمّا بَلَغَ أَشُدَّهَ وَاستَوىٰ آتيناهُ حُكماً وعِلماً** ﴾[1] .

المهد : مهد الصبي موضعه الذي يهيأ له ويوطأ لينام فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ **مَن كَـانَ فِي المَهدِ صَبِيّـاً** ﴾[2] ، وقال تعـالىٰ : ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهـدِ**

(١) سورة القصص / الآية : ١٤ .

(٢) سورة مريم / الآية : ٢٩ .

وكَهلاً ومِنَ الصّالِحِين﴾[١] .

والمهد النشز من الأرض عن ابن الإعرابي ، وأنشد :

إن أبــاك مــطلق مــن جــهــد إن أنت كثــرت قتــور المــهــد

مريا : المرىء رأس المعدة ، والكرش اللازق بالحلقوم ، ومنه يدخل الطعام في البطن ، والطعام المرىء هو الذي يمر في هذه القناة بسهولة .

الحواضن : حضن الطائر بيضه وعلىٰ بيضه ـ لازماً ومتعدياً ـ وجن عليه للتفريخ . وقال الجوهري حضن الطائر بيضه إذا ضمه إلىٰ نفسه تحت جناحيه وكذلك المرأة إذا حضنت ولدها ، وحماسة حاضن بغير (هاء) . واسم المكان المحضن ، والحضانة مصدر الحاضن ، وحضن الصبي حضناً ربّاه ، والحاضن والحاضنة الموكلان بالصبي يحفظانه ويربيانه ، والحاضنة هي التي تربي الطفل .

قال القشيري :

من كـل بـائنةٍ تبين عـذوقها عنهـا وحـاضنـة لها ميقـار

كلأ : يقال كلأك الله أي حفظك وحرسك .

قال الشاعر :

إن سـليـمىٰ والله يـكـلـؤهـا ضلّت بـزادٍ مـا كـان يـرزؤهـا

وقال تعالىٰ : ﴿ قُـلْ مَنْ يَكلؤُكُم بِاللَّيـلِ والنَّهارِ مِن الـرّحمٰنِ ﴾[٢] أي يحفظكم .

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ٤٦

(٢) سورة الأنبياء / الآية : ٤٢ .

الطوارق : جمع طارق وهو كل آتٍ ليلاً ، وقيل أصل الطروق من الطرق وهو الدق ، وسمّي الأتي بالليل طارقاً لحاجته إلىٰ دق الباب فيكون في وقتٍ غير مألوف ، فربما أرتاع له أهل المنزل ، وفيه تأمل ؛ لأن الطارق الأجنبي يحتاج لذلك إذا أتىٰ منزلاً ليلاً أو نهاراً .

قال الشاعر :

أما القطاة فإني سوف أنعتها   نعتاً يوافق نعتي بعض ما فيها
سقّاء محظومةٌ في ريشها طرقٌ   سود قوادمها صحب ضوافيها

وجاء في الحديث : (كأن وجوههم المجان المطرقة) ، يعني التي يطرق بعضها على بعض .

البيـــان

بدأ الحديث « عليه السلام » عن مرحلة من المراحل التي يمر بها الإنسان ، فقد ذكر في ما مضىٰ الحديث عن الجنين في بطن امه ، وما تعانيه الأم من الجهد والتعب في مدة الحمل ، وما يطرأ عليه من التطورات التي يتنقل فيها بين فترة واخرىٰ في تلك المدة ، من حين تخلقه حتىٰ الولادة .

أما هاهنا فإن الكلام يدور حوله ، ولكن في ما بعد الولادة ، وهي الحياة الحقيقية للإنسان ، والتي يتحمل فيها المسؤولية كاملة ؛ لأن خلقه وحياته في هذه الفترة يؤدي دوراً فيها كما أنيط به ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿**أَفَحسِبتُم أنمَا خَلَقناكُم عَبَثاً وأَنكُم إلينَا لا تُرجَعُون**﴾(١) .

وفي هذه الفترة من عمر (الهيولىٰ) تتغير التركيبة الفسيولوجية لجسم الإنسان ، وتختلف عنها وهو جنين في بطن أمه ، بحيث تتناسب هذه التركيبة

(١) سورة المؤمنون / الآية : ١١٥ .

والجو الطبيعي الذي يعيش عليه الإنسان في تنفسه ، وفي غذائه ، وفي شرابه ـ كما ورد ذلك عن أهل البيت «عليهم السلام» .

فقد روىٰ الصدوق في العيون عن موسىٰ بن جعفر « عليه السلام » انه دخل على الرشيد ، فقال له الرشيد : يا بن رسول الله أخبرني عن الطبائع الأربع .

فقال : «عليه السلام» (أما الريح فإنه ملك يداري ، وأما الدّم فإنه عبد عارم ، وربّما قتل العبد مولاه .

وأما البلغم فإنه خصم جدل ، إن سددته من جانب انفتح من آخر .

وأما المرة فإنه الأرض إذا اهتزت خفت بما فوقها ، فقال له هارون : يابن رسول الله تنفق على الناس من كنوز الله ورسوله) .

معنىٰ الطبائع الأربع

قال شراح هذا الحديث : المراد أن الجسم الطبيعي مركب من العناصر الأربعة ، النار ، والهواء ، والماء ، والأرض . وقد اصطلح عليها الأطباء الأركان الأربعة :

وأما كيفياتها :

فالنار حارة يابسة بالطبع تفعل ذلك فيما تجاوره ، وموضع كرتها أعلىٰ مواضع كرات العناصر . فإن محدب كرتها مماس لمقعّر فلك القمر ، وفيه دلالة علىٰ أنها أخف من سائر العناصر ؛ لأنها تطلب المحيط بطبعها .

وأما الهواء : فهو حارٌ رطب ، وهو جسم بسيط ، وموضع كرته تحت كرة النار .

والماء : باردٌ رطب وموضع كرته فوق الأرض وتحت الهواء .

وأما الأرض : فهي باردةٌ يابسةٌ وموضعها الطبيعي المركز الحقيقي وهي المتوسطة بين الكل .

فهذه هي الأركان الأربعة وإذا امتزجت هذه الأركان وبطلت صورة كل

واحدٍ منها حصلت الطبائع الأربع وانتسبت كل طبيعةٍ إلىٰ عنصر .

والمراد بالريح هنا الصفراء التي هي بمنـزلة النـار بالكيفيـة بالنسبـة إلىٰ بـاقي العناصـر ، وهي رغوة مـا صفا من الكيلوس إذا نضـج في الكبد كـرغوة الدم الطافية عليه ، ولونها أحمر لقوة لطافتها الحادثة ووزنها خفيف ، فمن هنا علت علىٰ الجميع ، وأما إطـلاق الريـح عليها فـلأن تلك الرغـوة لا تخلو من الريح مع أن الريح على قالة الأطباء نفـخ يحدث في مـادة الصفراء بـاعتبار أن تلك الرغوة لا تخلو منه .

وأمـا أنه ملك يـداري فلأنهـا أحدّ وأحـرّ من سـائـر الأخـلاط مـع أنـك تحققت أنها فوقها حساً ، فهي مسلطة على الأخلاط فوقها . فإن خـرجت عن الاعتدال ولم تعالج سريعاً قتلت صاحبها .

وأمـا الـدم : فهـو حـار رطب ونسبتـه من الأخـلاط كنسبـة الهـواء من الأركان ، ويرشد إليه تولده من الأغذية الحارة الرطبة كاللحـوم ، وأما أنـه عبد فلأنه مركب الحرارة الغريزية ، وباعتبار فعله وخدمة البدن من التسخين ودفـع البرودة ، وإعانة القوىٰ على أفعالها ، وترطيبه ، وإفادته حسن اللون وغير ذلك يكون كالعبد .

وأمـا البلغم الـطبيعي : وهـو مـا يصلح لأن يصيـر دمـاً في وقت من الأوقات ، وهو دم قاصر عن تمام النضج ، وهو بارد رطب كـالماء ، وتحـدث منه الأمراض الباردة والرطبة عند كثرته ، وهو كالخصم الجـدل ؛ لتكثر أنـواعه في الغلظة والرقة ، والملوحـة ، والمرارة ، والحمـوضة ، ونحـو ذلك . وكـل واحد من أنواعه يفعل ما لا يفعله الآخر باعتبار كثرته ، لا يسـره شيء كالمـاء الكثير .

وأما المرة ، وهي في اللغـة القـوة والشـدة ، وفي اصـطلاح الأطبـاء :

تطلق تارة على الصفراء ، وأخرىٰ على السوداء ، وسميت مرة لمرارتها وحدتها .

وينبغي أن يراد منها هنا السوداء ونسبتها إلى الأخلاط كنسبة الأرض إلى الأركان ، والطبيعي منها ثقل الدم ، وهي تحدث عن احتراق أي خلط كان .

وأما إطلاق الأرض عليها فلأن الأجزاء الأرضية غالبة عليها ؛ لأنها حاصلة من رسوب الدم المحمود المتولد في الكبد ، فتكون بمنزلة الأرض ، وهي إذا تحركت تسبب خروجها عن الاعتدال ، ورجفت واضطرب ما فوقها(١) .

ولا يخفى ما في هذا التفسير من بعض التكلف ، إلا أننا نقول : بأن البون الشاسع ، والمدة المتطاولة أدىٰ إلى تغير الاصطلاحات العلمية بحسب الوضع الاجتماعي . صحيح إنما جاء من التفصيل في كلام الإمام «عليه السلام» لهارون الرشيد لم يخرج عن المألوف عند أهل هذا الفن ، لكنه من المستبعد أن يقصد هذا الكلام ، والله أعلم .

وقد بعثت برسالة خطية ضمنتها كلام الإمام الكاظم الآنف الذكر لأستوضح بعض خباياها إلى الأخ الكريم الدكتور محمد حسن عبد علي الدرازي ، فتفضل مشكوراً بالإجابة والتوضيح في الكلام الآتي :

أما عن تلك التي جاءت على لسان الإمام الكاظم «عليه السلام» في رده على سؤال هارون الرشيد عن الطبائع الأربع فهي كالآتي :

(أما الريح فإنه ملك يداري) هناك معنيان للريح :

١ ـ الريح بمعنى النفس ، أي الهواء الذي يتنفسه الإنسان ، فإن عليه اعتماد

---

(١) مصابيح الأنوار ، السيد عبد الله شبر : ج ٢ ص ٤٧ .

حياته ، فإن لم يستطع التنفس فإنه سيموت . وكذلك هذه الريح يمكن من خلالها معرفة حالة الإنسان الصحية ، فمثلاً تكون رائحة التنفس بنوع خاص عند وجود مرض في الكلىٰ ، أو مرض في الكبد ، أو السكّر .

٢ ـ المعنى الآخر : وهو الريح التي تتكون في الجهاز الهضمي ـ المصران والمعدة ـ فهي ناتجة عن التفاعلات التي تحصل من جراء عملية الهضم ، وهي إن لم تكن موجودة فإن عمل الجهاز الهضمي ربما يتعطل ، وهي أن تتجمع ولا تخرج من الإنسان فإنها ربما قد تودي بحياته ، فوجودها مهم ، وكثرتها وتجمعها مرض خطر .

(وأما الدم فإنه عبد عارم وربما قتل العبد مولاه) .

الدم: هو هذا السائل الذي يحمل الحياة إلىٰ جميع أنحاء الجسم . فهو عبد يخدم صاحبه ، أي يحمل الأكسجين إلىٰ كافة أجزاء الجسم ، وهذا العبد ربّما يقتل مولاه أي الإنسان ، فإذا زادت كميته يسبب أمراض القلب ، والضغط ، ويؤدي إلىٰ الوفاة ، وإذا قلت كميته يسبب متاعب مشابهة .

وإذا أُصيبت خلاياه بمرضٍ ما كضعف المناعة مثلاً فإنها تؤدي إلىٰ موت الإنسان ، وكذلك إذا أصيبت خلاياه بالسرطان ، وأحياناً يصاب الدم بمرض عدم التخثر ، فينزف الإنسان للموت . وفي أحيانٍ أخرىٰ يزيد تخثر الدم (تجلط) فتسد الأوعية الدموية ، مما قد يؤدي إلىٰ وفاة الإنسان .

فإذاً : فإن الدم عبدٌ عارم ، وربّما قتل العبد مولاه .

ثم يقول الإمام «عليه السلام» : (وأما البلغم فإنه خصم جدل ، إن سددته من جانب انفتح من آخر .

البلغم : ينتج البلغم عن تجمع إفرازات المسالك التنفسية في الأنف ،

والجيوب الأنفية ، والقصبات الهوائية ، والحلق والحنجرة . تختلط هذه مع الخلايا الميتة ، وبعض خلايا الدم البيضاء ، وبعض المضادات الحيوية التي يفرزها الجسم ، هذه بالإضافة إلىٰ اللعاب وتكون البلغم .

هذا البلغم إذا تكون فإنه يجد طريقه إلىٰ الخارج عن طريق الأنف والفم ـ الجهاز الهضمي بعد بلعه ـ وإذا تجمع داخل الجسم فإنه يؤدي إلىٰ الإلتهابات التي تؤذي الجسم .

فالبلغم يسلك طرقاً مختلفة حتىٰ يخرج من الجسم ، وكذلك فإنه يتكون في أماكن كثيرة من موادٍ كثيرة .

(وأما المرة فإن الأرض إذا اهتزت خفت بما فوقها) .

المرة : علىٰ ما أعتقد هي عصارة الصفراء ، وهي في المرارة الصفراوية وهي مرةٌ إلىٰ درجة كبيرة ، وهي تتكون في الكبد ، ثم تفرزها الكبد على شكل محلول مخفف إلىٰ القنوات الصفراوية ، حيث يسري الجزء الأكبر منها إلى الإثني عشر حيث يشترك مع الإفرازات الأخرىٰ في هضم الطعام ، وخصوصاً المواد الدهنية .

أما الجزء غير المستعمل فيسري إلىٰ الحويصلة المرارية ، حيث يتم امتصاص الماء منه ، وتتركز الحصارة بعد عملية الامتصاص إلىٰ أكثر من ١٠٠ ٪ ، فتكون مركزةً جداً ، ويكون طعمها شديد المرارة .

أما حياة الإنسان في المهد طفلاً صبياً فهي تمتاز في كثير من الأمور التي تخالفه وهو جنين في بطن أمه ، ومنها :

١ ـ اختلاف المظاهر في حياة الإنسان على وجه الأرض ووسائلها التي تكفل استمرارية حياته .

٢ ـ نوع المؤثرات التي تحيط بالإنسان من الخارج ، فهو في هذه الدنيا عرضة لأزماتٍ ومشاكل كثيرة .

٣ ـ حاجته إلىٰ الرعاية والحنان ، وهو في مهده لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فحركاته محدودة وتصرفه محدود ، وطعامه وشرابه ليس له قدرة على اختياره ، بل وحتىٰ آلامه لا يتمكن أن يفصح عنها إذا ما طرأت عليه في هذه الفترة .

بينما يعيش الإنسان جنيناً في بطن الأم بعيداً كل البعد عن هذه المؤثرات ، ولقد تكفل الباري بالإنسان من بداية حياته .

تم ذكر الرزق الذي حتمه الله على نفسه ، وتعهد به للعبد قبل خلقه . وذكر علماء الكلام في أبحاثهم ذلك ، وقالوا : إن الله قد تعهد للإنسان بأمرين ، وأوجب عليه أمراً واحداً ، أما ما تعهد له به فهو :

(أ) أن يتكفل له برزقه منذ أن تلجه الروح في بطن أمه ، حتى يغمض عينيه ويطبق فاه ، ويفارق الدنيا . وقد يعترض علىٰ هذا القول بأننا كثيراً ما نرىٰ بعض الفقراء والمعدمين يتضررون سغباً وجوعاً ، وربما مرت عليهم الأيام والليالي دون أن يحصلوا على رغيفٍ ، أو بعض رغيف لسد جوعه ، وإخماد سورته المضطرمة . وأجيب عن هذا : بأن أنانية الإنسان قد تؤدي إلىٰ أكثر من هذا ، وأن حب الذات يجعل الإنسان يتردىٰ إلىٰ هذه المعاملة بينه وبين أبناء جنسه وعدم الالتزام بالأمور الشرعية يؤدي إلىٰ تغير الأحوال في المجتمعات الإنسانية . فاعتداء كلٍّ علىٰ الآخر يسلب البعض رزقه وبذلك تتحول الدنيا إلىٰ حديقة حيوانية ، وإنسانها الوديع الأنيس الاجتماعي بالطبع يتحول إلىٰ وحش كاسر ، فوضعت أحكام الحدود والقصاص والديات ليأمن الإنسان شر الإنسان . قال تعالىٰ : ﴿وَلَكُم فِي القَصَاصِ حَياةٌ يَا أُولِي الأَلبَابِ

لَعَلَّكُم تَتَّقُون﴾[1] .

وقال امرؤ القيس :

أيـا جارتـا سفك الـدما يحقن الـدما   وبالقتل تنجو كل نفسٍ من القتل[2]

وقد أشار الإمام أمير المؤمنين «عليـه السلام» إلى هـذا المعنى بقولـه : (ما حرم فقير إلا بما متع به غني) .

(ب) ألّا تكله إلىٰ نفسـه طرفـة عين ومعنىٰ ذلـك أن الله تبـارك وتعـالى يريد للإنسان أن يتوكل على الله في جميع أموره وهذا ما يشد الصلة بين العبد وربه . قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتوكَّل عَلَى اللَّهِ فهُو حَسبُهُ﴾[3] .

والتوكل على الله هو غير التواكل :

فإن الأول : معناه تسليم الأمور إلى الله «تعالى» ، وتفويض الأمور إليـه من بعد الثقة التامة به .

والثاني: هو الاعتمـاد على الغير والتخـاذل ، والميل إلى الـراحـة وتـرك القيام بمهمات الأمور ، والتخلي عن المسؤولية .

وقد نهىٰ ديننا الحنيف عن هذه العادة المستهجنـة فذم المتـواكلين ـ كما صـرح بذلـك القرآن العـزيـز ، في قـولـه تعـالى على لسـان بني إسـرائيـل : ﴿فَاذهَبْ أنتَ وَربُك فَقَاتِلا إنَّا هٰهُنا قَاعِدُون﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة / الآية : ١٧٩ .

(٢) في مقام المقارنة بين ما قاله أمرء القيس في هذا البيت والآيـة السابقـة ، إنه يـظهر للمتـأمل أن البيت قد أطلق القتل ، ولم يفرق بين المقتول ظلماً ، أو قصاصاً ، فهو ينطبق على جميع أفراد القتـل ، وليس النجاة في جميـع أفراد القتـل ، وبذلـك يفسـد المعنىٰ . أمـا الآيـة فـإنهـا قـد خصصت الحياة في القتل إذا كان القتل قصاصاً فقط ، وأما بقية القتل فلا .

(٣) سورة الطلاق / الآية : ٣ .

(٤) سورة المائدة / الآية : ٢٤ .

هذا ما اشترط به على نفسه للعبد ، وأما ما اشترط به على عبده ـ بعد بيان ما في هذه الحياة من مكابدة وتعب ـ فهو أن يمتثل العبد ما يقول المولىٰ «سبحانه» فعليه أن يطيع الأوامر وينتهي بالنواهي ، وقد حذره من العقاب ، وأنذره ليوم الحساب عند المعصية ، ورغبه في الثواب عند الطاعة .

وما نراه هو أن الله «تعالىٰ» قد وفى للعبد ما اشترط له من الرزق ، وعدم توكيل الأمور فيه إلى العبد ، ولكن العبد لم يلتزم ، ولم يفِ بما اشترطه عليه خالقه ، وقبل ذلك وهو في عالم الذر قبل أن يُخلق ، وها هو الإنسان يعصي ربه دون مبالاة بعد أن جاءته الرسل بالكتب البينة ، وسنوافي مزيداً من التفصيل في الأبحاث اللاحقة .

أما بالنسبة إلى عطف القلوب من الحواضن فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن الحاضنة هي الأم ، وذلك بقرينة العطف الذي أشار إليه «عليه السلام» في كلامه الذي نحن بصدد الكلام فيه . فقد سخّر الله قلبها ، ـ أي الأم ـ لطفلها مما جعلها أشد تعلقاً به ، ويمكن أن تكون الحاضنة هي المربية بغض النظر عن الأم وهي تقوم مقام الأم في التأثير على الولد سلباً وإيجاباً ، أما بالنسبة إلى العطف علىٰ الولد من غير أمه فإنه ربما ينشأ تدريجياً ، وذلك بمعاملتها للطفل بأحد أساليب المعاملة الطيبة ، والمحبة التي ينشأ بها هذا العطف عادةً . وربّما جاء هذا العطف بشيء من التكلف من المربية ثم يكون عادةً غريزية تستقر في القلب بصورة أو بأخرىٰ .

وربما توجهت في العبارة قراءةً أخرىٰ بتشديد الطاء ، ولكن الروافد اللغوية تصب في مكان واحد ؛ لتلتقي في معنىً واحد .

والعطف قد أودعه الله في القلوب ليكون غريزةً طبيعية بفعل مؤثرٍ داخلي ، وأحد بواعثه الحب ، ويختلف بين إنسانٍ وآخر ، إذ يعتمد على نوع العلاقات الإنسانية التي تربط بين الأفراد والجماعات . فبه تتقارب القلوب ،

وتصفو القلوب من الحقد الدفين ، والنفاق المشين ؛ لأنه ينزع هذه الأدران من القلوب والنفوس .

فعلاقة الأم بولدها تختلف عن علاقة الأخ بأخيه ، وعلاقة الزوج بزوجته تختلف عن علاقة العم بابن أخيه ، وهذه العلاقات الرحمية تختلف عن علاقة الصديق بصديقه . . . وهكذا نرىٰ أن العلاقات الإنسانية في أصلها متنوعة ولكن قد تطغىٰ علاقة بعيدة علىٰ علاقة أخرىٰ قريبة وفي المثل العربي السائر (ربّ أخ لك لم تلده أمك) .

أما الكفالة فهي نوع من المسؤولية التي طرحها الباري على عواتق الأمهات .

ثم لا يخفىٰ أنه قد مزج في هذه المسؤولية بين الكفالة والرحمة بواسطة الأم في قوله «عليه السلام» : (وكفّلتني الأمهات الرحائم) ، وبذلك تعتبر الأم هي المسؤول الأول عن تربية الولد ، ورسم الطريق السوي عندما يفتح عينيه على الدنيا .

قال شاعر النيل :

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم أستاذ الأساتذة الأولى ... شغلت مآثرها مدى الآفاق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بالدر أورق أيما إيراق

وقال أحمد شوقي :

وإذا النساء نشأن في أمّية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

وقلت أنا من جملة أبيات :

هي الأم فاحفظ حبها مثل حفظها ... لحبك إن الله أوصى بحبها

هي الـدين والدنيـا فكن أنت قـائمـاً بـواجبهـا دون الأنـام ونـدبـهـا
إذا الأم عـاشت في كمـال وفـطنـة تغـذى ابنهـا منهـا عصـارة قلبهـا

أمـا الكفالـة من الله «تبارك وتعـالىٰ» التي كلّف بها الأمهـات ، فهو حق طبيعي للولد على الأم ، تفرضه سنة الحيـاة ، بواسـطة الغرائـز الطبيعيـة التي تنظم العلاقات الإنسانيـة . وهذه المهمـة قد تتحقق من غيـر الأم في كثير من الأحيان بحالات اضطرارية ، كمـا حدث للنبي «صلى الله عليـه وآله وسلم» ، فإنه قد كفلته ، وربته حليمة السعدية ، ونشأ في ديار بني سعد .

فهي وإن كانت تحنو عليـه حنو المـرضعات على الفـطيم ، وتؤثره على أولادها بفضل ما هيأه الله للنبي من الحنان في قلبها . ولكن مـع كل هـذا فإن قلب الأم بالنسبة للولـد يختلف كثيراً عن بقيـة القلوب في علاقـاتها الغـريزيـة الإنسانية ، وقد قيل في المثـل العربي السـائر (مـا كل سـوداء تمرة ، ومـا كل صهباء خمرة) فالأم بلا شـك تختلف في معاملتهـا لطفلهـا كأم ؛ لأن عـلاقتها بوليدها تمتاز بنواحي دون غيرها فمنها :

أ ـ **الناحية الفسيولوجية** : وذلك أن الولد قـد مضىٰ عليه زمـان متوسـطه تسعة أشهر يتغذىٰ من بدن الأم ، ويعتمد عليه اعتمـاداً كلياً ، فنشـأ لحمه من لحمهـا ، ودمه من دمهـا ، وعظمـه من عظمهـا ، فـأصبـح جسمـه كجـزء من جسمها فهو لا يختلف في تركيبه عنها إلا في بعض النواحي الوراثية ، كالطول والقصر والسواد والبياض .

ب ـ **الناحية الاجتماعية** : وذلـك أن الأم تهمها سعـادة ولدهـا ، ونشوؤه نشـأة تتلاءم والمجتمـع الـذي يـطلب منـه في المستقبـل أن يكـون جـزءاً من أجزائه ، فهي ترسم مستقبل ولدها ، وتـداعب خيالاتهـا أمور تحب أن يكـون ولدها قائم عليها ، إذاً فهي حـريصة على سعـادته في مستقبـل أيامـه ؛ ولأنها كذلك تدخره لأيام الهرم ، فهي تهيئه لذلك اليوم .

وكثير من الأمور غيرها مما تراه الأم مناسباً لولدها الذي تحب أن تصوغه صياغة تتلاءم لمستقبله ، ومستجدات أموره ؛ ولهذا نراها تعوده على الجد لا الهزل ، فهي تمنعه عن اللعب الكثير الذي هو بطبيعته الطفولية ميال إليها .

وأما الرحمة التي وصف بها الأمهات فإنها تمنع الأم عن التنصي من هذه المسؤولية ، وذلك بواسطة التصاقها بولدها والتصاقه بها . وجاء عن أهل اللغة أن (الأمهات) خاصة الإنسان ، و (الأمات) للبقية من الحيوان .

وتحتل الأم بهذا الاعتبار رأس الهرم من بين الأرحام التي حث على صلتها الشرع الشريف ، فلقد ورد في القرآن الكريم وصايا في ذلك مثل قوله تعالى : ﴿وأُولُوا الأرحَامِ بَعضُهُم أَولَىٰ بِبَعضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿فَهَل عَسَيتُم إن تَوَلَّيتُم أَن تُفسِدُوا فِي الأَرضِ وَتُقَطِّعُوا أَرحَامَكُم﴾[2] .

وجاء في كلام الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء «عليها السلام» (وصلة الأرحام منسأةً في العمر ، ومنماةً في العدد) . كما ورد عنها «عليها السلام» بخصوص البر بالوالدين قولها : (وبرّ الوالدين وقاية من السخط) .

وعندما تصرّ الأوامر الإلٓهية علىٰ هذا الأمر بالخصوص فإنها تتعرض إلىٰ مزايا اجتماعية كثيرة تربط الأفراد بالأفراد ، والجماعات بمثلها بروابط لولاها لعاد المجتمع الإنساني مفككاً منهاراً . وتلك الروابط هي المحبة والرحمة بين أفراده ، وتختلف شدةً وضعفاً بحسب العلاقات في الأرحام بين أفرادها ، فلو أن الأم قست علىٰ أولادها لتسبب العقوق من الولد بهذه القسوة من الأم والأب كذلك ، وعلى العموم فإن النفوس تميل إلىٰ من أحسن إليها ، وعلىٰ هذا فقس جميع الصلات من أي نوع .

(١) سورة الأنفال / الآية : ٧٥ .

(٢) سورة محمد / الآية : ٢٢ .

هذا بغض النظر عن التركيب العضوي الذي يلائم بين الأم ووليدها ، والذي يحمل كثيراً من الصفات الوراثية من قريب كالأم ، أو من بعيدٍ كالجدّات السابقة .

وفي الواقع أننا عندما نتحدث عن الرحمة ، والرأفة ، والمحبة من الأم لوليدها فإننا نعني رجوع الأصل إلى الفرع أو العكس ، أو الكل إلىٰ البعض أو العكس ، وبعبارةٍ أخرىٰ إننا نتحدث عن طبيعة الإنسان الخيرة فإنه من الطبيعي أن يلجأ الوليد إلىٰ أمه وينجذب إليها في حالات الخطر والحاجة .

وبعد أن ذكر المراحل التي مرت بالإنسان في طفولته وصباه وما اعتراه من العراقيل ، معدداً النعم المتوافرة التي حفه بها ، ذكر بعد ذلك كل نعمة هي من أكبر النعم على الإنسان ، وهي حفظه من طوارق الجان ، والمفاجئات التي يقف الإنسان أمامها حائراً مذعوراً ، ليس له فرصةٌ في التفكير . فإن المشاكل التي تلم بالإنسان وخصوصاً المستعصية منها تحتاج إلى وقفة تأمل ليمنح الإنسان نفسه فرصة لكي يحل مشكلها .

أما الجان فهو مأخوذ من (جنّ ، يستجن) أي استتر ، وبهذا جاء معنىٰ (الجنون) فإنه استتار العقل وغيبوبته ، والجان والجن بمعنىً واحد ، وقيل بأن الجان هو أبو الجن ، وهو يستتر عن الإنسان ؛ لأنه خلق من مادةٍ تخالف المادة التي خلق منها الإنسان وتغايرها ، وقد أشار إلىٰ ذلك الذكر الحكيم في قوله تعالىٰ : ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلصَالٍ كَالفخَّارِ * وَخَلَقَ الجانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1] . فهو إذاً جنس آخر ، وفي الحديث عن الفوارق بين هذين الجنسين (الإنسان والجان) إطالة لسنا بحاجةٍ إليها ، فمن أراد المزيد من ذلك فليرجع إليها في مضانها مثل كتاب (الأرض والتربة الحسينية) للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء «رحمه الله» .

---

(١) سورة الرحمن/ الآيتان : ١٤ و ١٥ .

ولكننا نجد أنفسنا ، بحاجة إلى الحديث ولو بشكل موجز عن الجن ـ كما ذكر ذلك أرباب التفسير ـ نعم نحن بحاجةٍ إلىٰ معرفة هذا الجنس الغريب وغيره مما خلق الله في أرضه وسمائه ، كما أمر الله عباده بذلك ؛ ليطلعوا على آثار حكمته وبالغ قدرته ، قال تعالىٰ : ﴿قُل سِيرُوا في الأرضِ فَانظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ﴾[1] .

ولقد ذكر المفسرون كثيراً من الأداء وطرحوا ضمن تفاسيرهم كثيراً من النظريات ، ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة ما قالوا وإنما نأخذ ذلك كما ورد عن ثقاتنا «قدس الله أرواحهم» .

فمن ذلك ما جاء في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي قال : الجان هو أبو الجن ، والجن نوع من الخلق مستورون من حواسنا ، يصدق القرآن بوجودهم ، ويذكر أنهم بنوعهم مخلوقون قبل نوع الإنسان ، وأنهم مخلوقون من النار ، كما أن الإنسان مخلوق من التراب . قال تعالىٰ : ﴿وَالجَانَّ خَلَقناهُ مِن قَبلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾[2] .

(١) سورة العنكبوت / الآية : ٢٠ .

(٢) سورة الحجر / الآية : ٢٧ .

الجن عيشهم وموتهم

ثم استطرد رحمه الله في وصفهم ووصف حياتهم فقال : وإنهم يعيشون ويموتون ويبعثون كالإنسان . قال تعالىٰ : **﴿أُولَئِكَ الَّذِين حَقَّ عَليهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَـد خَلَت مِن قَبلِهِم مِن الجِنِ والإنسِ﴾**(١) ، وأن فيهم ذكوراً وإناثاً يتكاثرون بالتوالد والتناسل ، وأن شعوراً وإرادة ، وأنهم يقدرون على حركات سريعة وأعمالٍ شاقة ـ كما في قصص سليمان «عليه السلام» ، وتسخير الجن له ، وقصة ملكة سبأ ـ .

ثم إن هؤلاء مكلفون كالإنسان منهم مؤمنون ومنهم كفار ، ومنهم صالحون وآخرون طالحون . قال تعالى : **﴿وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ والإِنسَ إلَّا لِيَعبُدُون﴾**(٢) وقال تعالىٰ : **﴿إنَا سَمِعنَا قُرآناً عَجَباً * يَهدِي إلىٰ الرُّشدِ فآمنَّا بِهِ﴾**(٣) .

وهذه تشير إلى قصة نفرٍ من الجن استمعوا القرآن فآمنوا به ، وأقروا بأصول معارفه إلىٰ غير ذلك من خصوصيات أحوالهم التي تشير إليها الآيات القرآنية .

---

(١) سورة الأحقاق / الآية : ١٨ .

(٢) سورة الذاريات / الآية : ٥٦ .

(٣) سورة الجن / الآية : ٢ .

ويظهر من كلامه تعالىٰ أن إبليس من الجن ، وأن له ذرية وقبيلاً ، قال تعالىٰ : ﴿إلَّا إبليسَ كَانَ من الجِنّ فَفَسقَ عَن أمرِ ربه﴾[1] وقال تعالى : ﴿أَفَتَتَّخذُونَه وذُرِّيتَهُ أولِياءَ مِن دُوني﴾[2] .

وبعد ما تقدم نستطيع أن نقول : إن طوارق الجان تأتي من كفارهم فإنهم بحكم كونهم كفاراً يتجبرون علىٰ المؤمنين من الجن والإنس ، ولما كانت لهم القدرة علىٰ التستر ، ويأتون الإنسان من حيث لا يشعر ، ويرونه من حيث لا يراهم سمي طارقاً ، وهو الذي يأتي ليلاً فيطرق الباب بإزعاج ـ كما تقدم ـ ، ووجه الشبه هو الغفلة في كل من الإنسان الذي لا يرىٰ الجن ، وأهل الدار في هدوئهم ونومهم ليلاً .

أما السلامة من الزيادة والنقصان فهو أن يكون جسماً طبيعياً فإن التشبيه الخلقي ينفر الطباع ، ويبعد الإنسان عن الإنسان إذا لم يكن مماثلاً له ، وقد قالوا : بأن الشيء منجذب إلىٰ شبهه . فالسلامة من التشويه زيادةً أو نقصاناً نعمة أخرىٰ من الله للإنسان .

وكم قد سمعنا عن كثيرٍ ممن ولدوا وهم بزيادةٍ أو نقصان ، كزيادة رأس ، أو زيادة يد ، أو نقصان أصبع أو عينٍ ممسوحة ، ولقد ذكروا بأن الدجّال له عين واحدة والأخرىٰ مطموسة والله أعلم[3] .

وقد ذكروا بأن الجاحظ كان دميماً مشوهاً . جاءت إليه امرأةٌ وقالت إن لي إليك حاجة ، فقال الجاحظ فما هي ؟ فقالت : هلمّ معي . يقول : فمشيت معها إلى أن وقفت بي على صايغ ، وأشارت إليه ، وقالت : (مثل

(1) سورة الكهف / الآية : ٥٠ .

(2) سورة الكهف / الآية : ٥٠ أيضاً .

(3) إن موضوع الدجال ، والروايات الواردة فيه لم تأت إلاّ من طرف واحد ، أما من طريق أهل البيت فلم يأت ما يؤكد ذلك .

هذا) ، وأشارت إليّ .

يقـول الجـاحظ : فبقيت حـائـراً ، ومضت المـرأة إلى سبيلهـا ، فقلت للصـايغ بعـد ذلك مـاذا تريـد هذه المـرأة ؟ فقال إنهـا جاءت وطلبت مني أن أصوغ لها خاتماً وعليه صورة جني ، فقلت لهـا : أني لم أر الجني في حياتي حتىٰ أصوره على الخاتم ، فقالت : أنا آتيك بالجني ، فجاءت بك إلي .

فتـأمل أن الصـورة إذا كانت غيـر طبيعيـة لـلإنسـان فـإنهـا تكـون مثـاراً للسخرية ، وذلك بأنهم قد ذكروا أن الجاحظ كان دميم الخلقة ـ كما تقدم ـ .

وقـد وضع الشـارع لمثل هـذه الطواريء والعـوارض التي تلم بالإنسـان أحكاماً خاصة بها .

معنىٰ الرّحمٰن والرّحيم

قلنا في ما سبق بأن الداعي ينبغي أن يذكر ربه بالصفات التي يقبل بها على عبده ، وينظر إليه عندها بالرأفة والرحمة وهذا ما تعرض له «عليه السلام» ، فقد وصف الباري بصفتين مختلفتين ، ولكنهما متقاربتان : (فتعاليت يا رحيم يا رحمٰن) ، فالرحيم صفة لله «سبحانه» ، وقد تكون لغيره ، قال تعالى : ﴿**لَقَد جَاءَكُم رَسُولٌ من أَنفُسِكُم عَزِيزٌ عَليهِ مَا عَنِتُم حَرِيصٌ عَليكُم بِالمُؤمِنِينَ رؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[1] .

وأما الرحمٰن فإنه لا يوصف بها غير الله «تعالى» . قال الزّجاج : الرحمٰن إسم من أسماء الله «عز وجل» مذكور في الكتب الأُول ، ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله . ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة . ومعنى ذلك أن الرحيم بما أنها كلمة يتصف بها غير الله ، فإن غيره قد يرحم ، وقد لا يرحم .

إذاً فهي صفة منقطعة ، بمعنى أن لها غاية .

وأما الرحمٰن فبما أنها صفة لا يتصف بها غير الله فإنها لا نهاية لها ، ولا انقطاع ؛ لأنه رحيم ما دام هناك موضوع للرحمة .

---

(١) سورة التوبة / الآية : ١٢٨ .

وقد ورد تفسير هاتين الكلمتين (الرحمن والرحيم) عن أهل البيت «عليهم السلام» ضمن أحاديث كثيرة وردت في تفسير البسملة .

فمنها ما جاء عن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال : الرحمن اسم خاص بصفة عامة ، والرحيم اسم عام بصفة خاصة ، أي أن الرحمن اسم علم على ذات الله وحده ، ولا يطلق على غيره ولذا تقدم على الرحيم ولكن صفة الرحمة فيه تعم المؤمن والكافر من حيث الخلق والرزق في الحياة الدنيا ، والرحيم اسم عام حيث يطلق على الخالق ، والمخلوق ، وصفة الرحمة فيه تختص بالمؤمن المطيع يوم القيامة .

ومنها ما جاء في معاني الأخبار للشيخ الصدوق «رحمه الله» بحذف الإسناد عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال : سألته عن (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فقال «عليه السلام» : الباء بهاء الله ، والسين سناء الله ، والميم مجد الله ، وروى بعضهم ملك الله ، والله إلـه كل شيء ، والرحمن لجميع العالم ، والرحيم بالمؤمنين خاصة .

وفيه بحذف الإسناد عن أبي عبد الله « عليه السلام » أنه سئل عن (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فقال : الباء بهاء الله ، والسين سناء الله ، والميم ملك الله . قال : قلت : الله ؟ قال : الألف آلاء الله على خلقه من النعم بولايتنا ، (وفي بعض النسخ من النعيم) ، واللام إلزام الله خلقه ولايتنا . قلت : فالهاء ؟ فقال : هوان لمن خالف محمداً وآل محمد «صلوات الله عليهم» قلت : الرحمن ؟ قال : بجميع العالم . قلت : الرحيم ؟ قال : بالمؤمنين خاصة[1] .

وبهذا يظهر السر في مناجاته «عليه السلام» بهذه الكلمات اللائقة بجلال الله «سبحانه» ، وهو أنه في أي وقت يناجي العبد ربه ، ويطلب منه الرحمة ، والمغفرة ، يجده غفوراً رحيماً .

---

(١) معاني الأخبار : للشيخ الصدوق ،ص ٣ .

قال عليه السلام :

[حتىٰ إذا استهللتُ ناطقاً بالكلامِ ، أتممت عليَّ سوابغَ الأنعامِ فربّيتني زائداً في كلِ عامٍ] .

اللغــة

استهللت : استهـل المطر اشتـد انصبابـه ، ويقال : هـلّ السحـاب إذا أمـطر بشـدة ، وانهلت السمـاء إذا صبت وكـأن استهــلال الصبي منـه . وفي حـديث النابغـة الجعدي قـال : منيّف المائـة وكأن فـاه البرد المنهـل ، وأهـلّ الرجل واستهل إذا رفع صـوته . وأهـل المحرم بـالحج ، يهـل إهلالاً إذا لبىٰ ورفع صوته .

وقـال أبو الخـطاب : كـل متكلم رافـع الصـوت أو خـافضـه فهـو مهـل ومستهل .

قال الشاعر :

وألـفيـت الـخـصـوم وهـم لـديـه   مـبـرسـمـة أهـلوا يـنـظرونـا

ويسمى القمر لليلتين من أول الشهر هلالاً ، ولليلتين من آخره ، ويسمى ما بين ذلك قمراً ، قال تعالى : ﴿يَسأَلُونَكَ عن الأهِلةِ قُل هِي مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِ﴾[1] .

وأهللنا هلال شهر كذا واستهللناه رأينا هلاله .

ناطقاً : نطق الناطق ، ينطق نطقاً ، تكلم . والمنطق الكلام ، والمنطيق البليغ . قال ثعلب :

والنوم ينتزع العصا من ربّها   ويلوك ثني لسانه المنطيق

وكتاب الناطق بيّن كأنه ينطق ، وكلام كل شيء منطقه ، ومنه قوله تعالى : ﴿عُلّمنا مَنطِقَ الطَّيرِ﴾[2] . وقد يستعمل المنطق في غير الإنسان - كما هو صريح الآية السابقة - وأنشد سيبويه :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت   حمامة في غصونٍ ذات أوقال

الكلام : النطق . تكلم : نطق ، وقد مر في تفسير الكلمة السابقة هذا المعنى . وسيأتي في عنوان الكلام حديث حول معناه الإصطلاحي إن شاء الله .

البيان

في هذه المرحلة من عمر الإنسان ، وهي بداية لاستقبال حياة معقدة ، مجهولة المسالك ، متعددة المشاكل ؛ لأنه يزاحمه كثيرٌ من الأجناس الحيوانية

---

(١) سورة البقرة / الآية : ١٨٩ .

(٢) سورة النمل / الآية : ١٦ .

في هذه المرحلة ، فبينما نراه في بطن أمه بعيداً كل البعد عن هذه الضوضاء هانئاً مستقراً ، نراه اليوم في بداية هذه المرحلة من الحياة بخلاف ذلك ، فحالته ها هنا متعددة ، ولا يعرف الإنسان بأيها يبدأ ولهذا فإن العاقل هو من بدأ بحلّ مشاكله أولاً بأول ، فمراعاة الأولوية تحتاج إلىٰ دقة في التفكير فإذا ما انطبقت هذه الأولويات علىٰ واقع الإنسان في حياته سمي عند ذلك (عبقرياً) .

ولكن الله تبارك وتعالىٰ قد سهّل السبيل للإنسان للتعامل مع مشاكل الحياة بأن وهبه الوسائل الكثيرة الكفيلة بحلّ مشاكله .

ومن أهم هذه الوسائل النطق .

بحث حولِ النطق

يبدأ الإنسان هذه المرحلة بالنطق . والنطق هو عبارة عن حركات وسكنات تحدث بين ما يحويه الفم من اللسان ، والأسنان ، واللثة ، واللهاة ، فتقسم هذه الأعضاء الصوت الخارج من الحنجرة إلىٰ مقاطع تتميز في ما بعد عن بعضها البعض ، وتتكون بسبب ذلك الحروف ، ومنها تتكون الكلمات التي تعد قوالب للمعاني .

ونلاحظ أن هذه الأعضاء التي تقوم بمهمة إخراج الصوت من الفم علىٰ شكل موجات أن كل عضو من هذه الأعضاء يقوم بمهمة خاصة ربما يكون منفرداً بها وربما يشترك معه غيره من هذه الأعضاء .

أما كيفية هذه الحركات الإرادية في هذه الأعضاء ، وحركات غيرها من الآف الأعضاء الموجودة داخل الفم فإنها تنظم بواسطة العقل الذي يصدر أوامره الفورية بشكل عجيب ، فإن القوة العقلية هي المهيمنة على جميع هذه الحركات وغيرها من حركات الأعضاء في الجسم عامة .

وفي هذه الفترة يتعود الإنسان على النطق بكلمات يسهل عليه إداؤها ، ثم يرتقي إلى معرفة الألفاظ الصعبة حتىٰ تحصل عنده ثروة لفظية من (اللغة الأولىٰ) وهي لغة الأم .

والأصل في ذلك كله هي حروف المباني التي تتكون منها الكلمات ، ومن الكلمات يتكون الكلام .

والمنطق عند علماء الميزان هو عبارة عن (آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر) ، وذلك لأن اللسان هو المعبر الأول عما يرتسم في الذهن إلاَّ بعد أن يترجم إلى الخارج بجارحة اللسان ، فلشدة الإرتباط بين اللسان والعقل سمي احدهما باسم الآخر ؛ لأنه يعبر أحدهما عن الآخر ، ولشدة التلازم جرىٰ بينهما ذلك .

ولكن المقصود في كلامه « عليه السلام » كما يظهر من السياق (إستهللت ناطقاً بالكلام) ـ هو النطق باللسان ، وندرك هذا من كلامه بقرينة (بالكلام) ؛ وذلك لأن الولد في مثل هذه الفترة لا يستطيع أن ينظم تفكيره ، ويربط بينه وبين لسانه ؛ لينطبق عليه ما قلنا .

أما الكلام فهو النطق عند أهل اللغة ـ كما تقدم ـ إلاَّ أنه لا يمكن أن يعرف الشيء ، كما هو في كلامه « عليه السلام » ، أو وجوده قبل وجوده ، وذلك لتحقق الدور الباطل ؛ لأن معرفة النطق سابقة على معرفة الكلام ، والكلام هو النطق .

إذاً فيمكن القول : أن المقصود من الكلام في كلامه «عليه السلام» يحتمل وجهاً آخر .

فإن الكلام بالإعتبار الأول المتقدم وهو ما يستهل به الإنسان حياته قد تقدم الكلام عليه أيضاً . ولكن المفسرين لقوله تعالىٰ : ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مِّنهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ ﴾[2] قد ذكروا معنىً آخر

---

(١) سورة النساء / الآية : ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة / الآية : ٢٥٣ .

منسوباً إلى كلامه « سبحانه » اصطلحوا عليه (علم الكلام) فقد جاء في كتاب الميزان عند الكلام عن الآيتين المتقدمتين : فتكليم الله « تعالىٰ » للبشر تكليم ، ولكن بنحو خاص ، فحدّ أصل التكليم حقيقة غير منفي عنه ، ثم ربط بين المعنيين بنظرة شاملة ، ثم بدأ الكلام عن المعنىٰ الأول فقال :

أما حقيقة الكلام هو أن الإنسان بمكان احتياجه إلى الكلام والمدنية يحتاج بالفطرة إلى جميع ما يحتاج إليه هذا الإجتماع التعاوني ، ومنها التكلم ، وقد ألجأت الفطرة الإنسان إلى أن يسلك إلى الدلالة على الضمير من طريق الصوت المعتمد على مخارج الحروف من الفم ويجعل الأصوات المؤلفة والمختلطة على إمارات دالة علىٰ المعاني المكنونة في الضمير التي لا طريق إليها إلّا من جهة العلائم الإعتبارية الوضعية فالإنسان محتاج إلىٰ التكلم من جهة أنه لا طريق له إلى التفهيم والتفهم إلّا جعل الألفاظ والأصوات المؤتلفة علائم جعلية وامارات وضعية ولذلك كانت اللغات في وسعتها دائرة مدار الإحتياجات الموجودة وهي : الإحتياجات التي تنبه بها الإنسان في حياته الحاضرة ولذلك أيضاً كانت اللغات أيضاً لا تزال تزيد وتتسع بحسب تقدم الإجتماع في صراطه ، وتكثر الحوائج الإنسانية في حياته الإجتماعية .

ومن هنا يظهر أن الكلام الذي هو تفهيم ما في الضمير بالأصوات المؤتلفة الدالة عليه بالوضع والأعتبار إنما يتم في الإنسان وهو واقع في ظرف الإجتماع وربما لحق به بعض أنواع الحيوان مما لنوعه نحو إجتماع وله شيء من جنس الصوت (على ما نحسب) واما الإنسان في غير ظرف الإجتماع فلا تحقق للكلام معه فلو كان ثم الإنسان واحد من غير أي إجتماع فرض ، لم تمس الحاجة إلى التكلم قطعاً لعدم مساس الحاجة إلى التفهيم والتفهم وكذلك غير الإنسان مما لا يحتاج في وجوده إلى التعاون الإجتماعي والحياة المدنية كالملك والشيطان مثلاً فالكلام لا يصدر منه تعالىٰ على حد ما يصدر

الكلام منا أعني بنحو خروج الصوت من الحنجرة واعتماده على مقاطع النفس المنضمة إليه الدلالة الإعتبارية في المنطق فإنه تعالىٰ أجلّ شأناً وانزه ساحة أن يتجهز بالتجهيزات الجسمانية أو يستكمل بالدعاوى الوهمية الإعتبارية وقد قال تعالىٰ : ﴿ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ ﴾[1] لكنه سبحانه في ما مرّ من قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِمهُ اللهُ إلَّا وَحياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾[2] يثبت لشأنه وفعله المذكور حقيقة التكليم وإن نفي عنه المعنىٰ العادي المعهود بين الناس : فالكلام بحده الإعتباري المعهود مسلوب عن الكلام الآلهي لكنه بخواصه وآثاره ثابت له ومع بقاء الأثر والغاية يبقىٰ المحدود في الأمور الإعتيادية الدائرة في إجتماع الإنسان نظير الذراع ، والميزان ، والمكيال ، والسراج ، والسلاح ونحو ذلك .

وعلى هذا فالكلام منه تعالىٰ كالأحياء ، والاماته ، والرزق ، والهداية ، والتوبة وغيرها فعل من أفعاله تعالىٰ يحتاج في تحققه إلى تمامية الذات قبله ، لا كمثل العلم ، والقدرة ، والحياة مما لا تمام للذات الواجبة بدونه من الصفات التي هي عين الذات .

وقد ذكر الحكماء أن ما يسمىٰ عند الناس قولاً وكلاماً وهو نقل الإنسان المتكلم ما في ذهنه من المعنىٰ بواسطة اصوات مؤلفة موضوعة لمعنىٰ ، فإذا قرع سمع المخاطب أو السامع نقل المعنىٰ الموضوع له في الذي في ذهن المتكلم إلى ذهن المخاطب أو السامع ، فحصل بذلك الغرض منه وهو التفهم . والتفهم قالوا : وحقيقة الكلام متقومة بما يدل على معنىٰ خفي مضمر ، واما بقية الخصوصيات ككونه بالصوت الحادث في صوت الإنسان

(١) سورة الشورىٰ / الآية : ١١ .
(٢) سورة الشورىٰ / الآية : ٥١ .

ومروره من طريق الحنجرة واعتماده على مقاطع الفم ، وكـونه بحيث يقبـل أن يقع مسموعاً لا أزيد عدداً أو أقل ممـا ركبت عليه اسمـاعنا فهـذه خصوصيـات تابعة للمصاديق ، وليست بدخيلة في حقيقة المعنىٰ الذي يتقوم بها الكلام .

وهناك بعض المجالات التي تقوم فيها وسائل أخرىٰ مقام الكلام بإعتباره واسطة إجتماعية ، فمنها الصور التي تترجم إلىٰ كل لغة ، وتنطق بكل لسان ، مع الإحتفاظ بصور البلاغة التي تملىٰ منها وتنتزع من مؤشراتهـا ؛ لأنها ليست مربوطة باسلوب معين في قوالب من الألفاظ معينة ، فترك للرائي الحرية في ما يعجبه من التعبير .

ويحدثنا التاريخ عن اللوحات الفنية التي يصـورها الفنـانون وتعـرض في اسواق الفن والذوق ، وتباع وتشترى باثمان خيالية ؛ وما ذلك إلاَّ لأن الصـورة تحتمل كثيراً من الآراء عندما يحاول الإنسان أن يستنطقها .

أما الفراعنة فإنهم قد وضعوا كثيراً من الصور في معابدهم ، واهراماتهم وذلك لتسجيل معتقداتهم وآرائهم لمستقبل التاريخ ، ولا زال العلماء يدرسون مسألة وصول الفراعنـة إلى امريكـا ، والصور ، والكتـابات التي وجـدت على اوراق البـردىٰ خير شـاهد على ذلـك . أن الفراعنـة ربما قـد وصلوا بحراً إلى امريكا ، أو أن يكونوا قد وصلوا عن طريق البـر ، أي عندمـا كانت هنـاك قارة (أطـلانطس) التي غـرقت والتي كـانت تشغـل المكـان الـذي يحتله المحيط الأطلسي . فإن الفراعنة هم أول من اعلن للعالم عن غـرق قارة أطـلانطس .

وأن أهلها قد تفرقوا في كل القارات .وأن معظمهم قد جاء إلى مصر ملوكاً وآلهة عليها ، وهذا يدل على أن مصر في ذلك الوقت هي تمثل قمـة الحضارة في الأرض ، فمن ملكها فقد ملك الأرض وتحكم في اقطارها جميعـاً ، والى هذا أشار قوله تعالىٰ على لسان يـوسف : ﴿ قَالَ إجعلَنِي عَلَىٰ خَـزَائِنِ الأَرضِ

إني حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[1] فقد عنىٰ بالأرض مصر كما أشار إلى ذلك كثير من المفسرين .

كل ذلك قد ظهر من الحفريات بواسطة ما عثر عليه علماء الآثار من صور سجلها اصحابها قبل الآف من السنين ، ولوكان بلغة منذ ذلك الوقت إلى هذا الوقت لانقطعت الصلة بيننا وبينهم ، لأن اللغة تترجمها الكتابة ، والكتابة تتغير مصطلحاتها من وقت لآخر .

أما الإشارة التي تعتبر واسطة إجتماعية أخرىٰ بدلاً عن الكتابة فإنها شيء آخر اصطلحت عليه المجتمعات الإنسانية في ماضيها وحاضرها ، وخصوصاً في نظام السير والمرور ، وهذه لا تقل قوة في التعبير عن المقصود عن الصور ، فإن بعض السائرين ربما لا يقرأ ولا يكتب لكنه ، يعرف المراد من الإشارات الموجودة على جادة الطريق ، فهي بليغة كل البلاغة ، سهلة كل السهولة .

---

(١) سورة يوسف / الآية : ٥٥ .

رعاية اللهِ للإنسان وتربيته مستمرة

ثم ذكر « عليه السلام » تمام النعمة الذي تفضل به عليه ، فذكر نعمة التربية التي فيها شمول الرعاية والحنان ، ومراعاة المصلحة التامة للإنسان .

وفي هذا التطور زيادة الطاقات بعد نقصها ، ومنها القوة بعد الضعف ، والعلم بعد الجهل .

ويختلف عمر الإنسان كاختلاف حجمه تبعاً للوحدة المستعملة في قياسه . فيكون طويلاً حينما يقارن بعمر الجرذان ، والفراشات ، وقصيراً حينما يقارن بعمر شجرة البلوط ، وتافهاً إذا وضع في إطار تاريخ الأرض .

وإذا قلنا : بأن الإنسان تختلف مراحل عمره ، فنحن نشبهه بحركة عقارب الساعة حول الميناء . ونشبهه أيضاً بمرور هذه العقارب في فترات متفاوته ، هي الثواني والدقائق والساعات .

ويطابق زمن الساعة حوادث معينة متناسقة ، مثل دوران الأرض حول محورها ، وحول الشمس .

فعمرنا إذاً يعبّر عنه بوحدات من الزمن الشمسي ، ذلك لأن الساعة التي تقيس هذا الزمن يتساوىٰ عندها يوم الطفل ويوم والديه .

وحقيقـة الأمر أن تلك الأربـع والعشرين سـاعة تمثـل جزءاً صغيـراً من مستقبل الطفل ، وجزءاً أكبر كثيراً من مستقبـل والديـه طرداً وعكسـاً (بالنسبـة لمستقبل عمر الطفل ، وبالنسبة لماضي الرجـل الطاعن في السن) . وبـذلك نقول أيضاً : إن فترة التربية التي يحددها الباحثون من علماء نفس الـطفل هي أخـطر المراحـل التي يمر بهـا في طريق عمـره ، والتي يحسبون لهـا حسـابـاً هاماً ؛ لأنها مرحلة تربويـة هامـة ، محدد مسـار الطفـل ليشق طريقـه في هذه الحيـاة ، ويعرف كيف يتعـامل مـع مستجـدات الأمـور ، ومستقبـل حـوادثهـا الغـامضة . وفي البلدان الـراقية عملوا علىٰ الإهتمـام بحياة الـطفـل الأولىٰ ، فنرىٰ أن المراحل التعليمية والتربوية تسلم إلىٰ علماء حـاذقين بنفس الطفـل ، أكفاء في ذلك الميدان ، لكي يبنوا الإنسان بنيةً صلبةً صحيحةً مستقيمةً ، غير قابلة للإنحراف والتعجرف أمام المؤثرات الخارجية .

والتربية عنـد المسلمين هي مسؤولية كبيرة يـطرحها : الشـارع المقدس علىٰ عاتق الجميع من الناس ، والمؤسسات التعليمية والاجتماعية .

هذا ولـم يبرىء الإنسان نفسه من تحمل قسمٍ كبير من هذه المسؤولية . وعلى هذا يجب مراعاة المفاهيم التربوية كل في حدود إمكانه .

وبـهـذا المفهوم جـاء الحـديث النبـوي الشـريف (كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته) . وهذه الرعاية ، والمسؤولية المشار إليها في هذا الحديث هي بمعنىٰ التهـذيب والإنضباط الأخـلاقي ، والأمر بـالمعـروف ، والنهي عن المنكـر ، وهي تسير في معيـة عمر الإنسـان في جميع مـراحله من ولادته إلىٰ موته .

وهذا ما أشارت إليه فقرة الدعاء المطروحة أمامنا (فربيتني زائـداً في كل عام) .

فمعنىٰ الكلية في كلامـه « عليه السـلام » هو الشمـول لعمر الإنسـان ،

وربما حصل توجيه آخر في كلامه فاشار به إلى فترة محددة من العمر يبلغ فيها الإنسان أشده ، ويصل فيها إلى أوج قوته وعنفوانها فيقف عند ذلك الحد ، ثم يستمر في التوقف عن الإستمرار في الزيادة ، فإذا وصل إلى مرحلة أخرىٰ من العمر أخذ في التراجع ، والنقصان لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً .

ولقد أشرنا قبل قليل إلى المسؤولية في نظر الإسلام ، المتمثلة في الحديث النبوي الشريف الآنف الذكر ، فقلنا : أن المسؤولية المطروحة من قبل الإسلام يخاطب بها :

١ ـ الإنسان نفسه وذلك بفضل ما أعطاه الله من عقل وجسم ، وافاض عليه القدرة في إستخدام العقل ، والجسم ، وبصره بالأمور ، واوضح له الطريق ، وبين له الحلال ، واباحه له ، وافاض عليه منه النعم ، واحاطه بالخيرات ، واكمل عليه حجته . وبين له الحرام ، ونهاه عنه ، وتوعده عليه بالعقاب (ذيادةً لعباده عن نقمته ، وحياشة لهم إلى جنته)[1] فكان الإنسانُ بهذا قد وضحت له معالم الطريق ، قال تعالىٰ : ﴿ **بَلِ الإِنْسانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** ﴾[2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وَهَدَيناهُ النَّجدَينِ** ﴾[3] .

٢ ـ الوالدان وهما مسؤولان عن تربية ابنائهما لأن الله « تبارك وتعالىٰ » قد أوجب طاعتهما على الولد ، وقرنهما بطاعته ، وقد أودع في قلبيهما الحنان ، والعطف ، والمحبة للولد ، فينبغي للوالدين وهما أكثر فهماً أن يستغلا هذه العلاقة بينهما وبين ابنهما ، لتنشئته تنشئةً صالحةً ؛ ليعولا عليه عند الكبر وذلك لأنهما أقرب فهماً لابنهما من سائر الناس .

٣ ـ القرين وينبغي أن نعرف بأن قرين المرء له أثر كبير في تربية

(١) من خطبة الزهراء « عليها السلام » .
(٢) سورة القيامة / الآية : ١٤ .
(٣) سورة البلد / الآية : ١٠ .

الإنسان فهو يأخذ منه أقوالاً وافعالاً ويقتدي كل منهما بصاحبه وربما تغلب أحدهما علىٰ الآخر ، نظراً لعملية التأثير في النفس وبالاسلوب المعقول وقد أطرىٰ الشعراء كثيراً في هذه الناحية ، ووصف العلاقة بين القرين والقرين بانها ذات أثر بالغ في حياة الإنسان الإجتماعية فقال أحدهم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي أبيات منسوبة لامير المؤمنين « عليه السلام » قال :

فلا تصحب أخا الجهل   وأياك وإياهُ
فكم من جاهل اردىٰ   حليماً حين آخاهُ
يقاس المرء بالمرء   إذا ما هو ما شاهُ
وللقلب على القلب   دليل حين يلقاهُ

وقال أبو تمام :

اصحب أخا ثقة تحظ بصحبته   فالطبع مكتسبٌ من كلِ مصحوب
كالريح أخذة ممّا تمرّ به   نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

وقلت أنا من جملة أبيات في هذا المعنىٰ :

لاتصحبن من الأنام سوىٰ الذي   تحيا به بين الأنام وتسعد
إن تدعه لبّاك تلبيه امرء   شهم ، ولكن في المصائب يعضد
يفديك يوم الروع فعل أخوة   فكأن فعلك فعله يتوحد

٤ ـ المؤسسات الإجتماعية وهذه لها أثر كبير أيضاً في تهذيب الإنسان وتربيته فإن كانت صالحة كان الإنسان صالحاً والعكس بالعكس ؛ لأنه جزء لا يتجزأ منها . فدور التعليم ، والحضانة والرعاية ، والاندية كلها مؤسسات لها أهمية في تأصيل الأخلاق ، وضبط سلوك الإنسان ، وتصرفه مع الآخرين .

٥ ـ المجتمع العام الذي يعتبر الإنسـان لبنة في بنـاء صرحـه الشامـخ .

وبحكم التركيبة الاجتماعية المتغايرة في الهوايات ، والهويات يكون الإنسان والحال هذه في دوامـة من الأفكار التي تنـاقض بعضها بعضـاً ، فعليه والحـال هـذه أن يتأمـل في هذه الأفكـار الإجتماعيـة المـطروحـة التي تسـابق بعضهـا بعضاً .

وبذلك يكـون المجتمع من أخـطر الجهات المؤثـرة على الإنسان سلبـاً وإيجاباً .

قال عليهِ السلام :

[حتَّىٰ إذا كَمُلتْ فِطرتِي ، واعِتَدَلَتْ سَرِيرَتِي أو جبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بِأنْ الهمْتَنِي معرفَتِك وروّعتنِي بعجائب فِطْرَتِكَ ، وايقظْتَنِي لِمّا ذَرأْتَ فِي سَمائِـك وارْضِـكَ ، مِنْ بَدائِـع خَلقِكَ ، وَنَبَّهْتَنِي لِـذِكْـرِكَ وَشُكْـرِكَ وَوَاجِبِ طَـاعَتِـك وَعِبـادَتِك ، وَفَهَّمْتَنِي مَـا جَاءَتَ بِـهِ رُسُلُكَ ، وَيَسَّرتَ لِي تَقَبُّـلَ مـرضَـاتِـك ، وَمَنَنْتَّ عَلَيَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِعَوْنِكَ وَلُطْفِكَ] .

اللغــة

السريرة : السريرة عمل السر من خير أو شر وهي كالسر والجمع سرائـر قال تعالىٰ : ﴿ **يَـومَ تُبلَىٰ السَّرآئـرُ** ﴾[1] ، واسر الشيء كتمـه واظهره وهـو من الأضداد : سررته كتمته ، وسررته أعلمته .

والـوجهـان يفسّـران في قـولـه تعـالىٰ : ﴿**وأَسَـرُّوا النَّـدَامـةَ لَمَّـا رَأَوُا العَذَابَ**﴾[2] قيل أظهروها ، قال الفرزدق :

---

(١) سورة الطارق / الآية : ٩ .

(٢) سورة سبأ / الآية : ٣٣ .

فلمـا رأىٰ الحجـاج جـزد سيفـه   أسـرّ الحـروريُ الـذي كـان اضمـرا

الهمَ : الهمة الله خيراً لقنه أياه ، واستلهمه أياه : سأله أياه . والإلهام مـا يلقي في الـرّوع . وفي الحـديث : (اسئلك رحمـة من عنـدك تلهمني بهـا رشـدي) . والإلهام أن يلقي الله في النفس أمـراً يبعثه على الفعـل أو التـرك ، وهو نوع من الوحي ، يخص الله من يشاء من عباده . .

روّعَ : الـروع الفزع ، تقـول راعني الأمر يـروعني . قـال الليث: كـل شيء يروعك منـه جمال وكثـرة تقول : راعني فهـو رائع . والـروعة : الفـزعة وقولهم في المثل : (افرخ روعه) أي ذهب فزعه ، وانكشف وسكن .

مننت : منّ عليه منةً أي أمتنّ عليه ، ويقال : (المنة تهدم الصنيعة) ، والمنان من اسماء الله « تعالىٰ » ، ومعناه الذي يعطي إبتـداء . ولله المنة علىٰ عباده ، ولامنة لاحد منهم عليه . وهو من ابنية المبالغة كالحنّان ، والوهّاب .

ويقـول المفسـرون : أن المنّ شيء كـان يسقط على الشجـر حـلو يشـرب ، عندمـا كان بنـو إسرائيـل في التيه . والمنـون من النساء التي تـزوج لمـالها ، فهي أبـداً تمنُ علىٰ زوجها ، وقـال تعالىٰ : ﴿ وَنُـرِيُـد أن نَّمُنَّ عَلَى الَّـذِينَ استُضعِفُـوا فِي الأرضِ وَنجعَلَهُم أئمَّـةً وَنجعلهُمُ الوَارِثِينَ ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قد منَّ اللهُ علينا﴾[2] .

ذرأ : في صفـات الله « عزّ وجـلّ » الذارىء ، وهـو الذي ذرأ الخلق ، أي خلقهـم ، قـال تعـالىٰ : ﴿ وَلَقَـد ذَرَأنَـا لـجَهـنَّم كَثِيـراً مِـن الجِـنِ والإنسِ ﴾[3] ، وقـال تعـالىٰ : ﴿ فَاطِرُ السَّمٰـواتِ والأرضِ جَعَـلَ لَكُمْ مِّن

---

(١) سورة القصص / الآية : ٥ .

(٢) سورة يوسف / الآية : ٩٠ .

(٣) سورة الأعراف / الآية : ١٧٩ .

أَنْفُسِكُم أزوَاجاً وَمِن الأنعَامِ أزواجاً يَذرَؤُكُم فيهِ﴾[1] .

قال أبو إسحاق :

المعنى : يذرؤكم به ، أي يكثركم بجعله منكم . وأنشد الفراء في من جعل «في» بمعنى الباء كأنه قال :

يذرؤكم به :

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنبس لست أرغب

وذرأ الخلق : خلقهم ، وفي الدعاء : (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ ، وبرأ ، وكأن الذرء مختص بالذرية قال أبن برى : جعل الجوهري الذُّرِّية الذُّرِّيئة ، فخففت همزتها ، وألزمت التخفيف . والزرع أول ما تزرعه يسمىٰ الذرىء ، قال عبيد الله بن عبد الله بن مسعود ، وقد تقدم :

سقفت القلب ثم ذرأت فيه هواك ، فليم فالتأم الفطور

والصحيح ثم ذررت فيه . وإذ رأت الناقة ، وهي مذرىء إي أنزلت اللبن . والذرآء من المعز : الرقشاء الأذنين .

البيـــان

إن كمال الفطرة الإنسانية هو تكامل الجسم وبلوغه أشده من جميع الوجوه ؛ وذلك لأن التكاليف الشرعية التي فرضها الله علىٰ الخلق تختلف من واجب إلىٰ آخر ، فمنها واجب بدني كالصلاة والصوم ، ومنها واجب مالي كالزكاة والخمس ، ومنها ما يجمع بين الصنفين كالحج .

---

(١) سورة الشورىٰ / الآية : ١١ .

ولهذا فإن كمال الفطرة الذي أشار إليه في عبارة الدعاء : (حتىٰ إذا كملت فطرتي) هو تكامل الإنسان جسماً وعقلاً وبلوغه السّن التكليفي الذي يخاطب فيه بالواجبات ، يعني وصوله إلىٰ بداية الكمال الجسمي والعقلي ؛ لأن الجسم لو أصيب بشيءٍ من الأمراض وتوقف أداء الواجب الجسمي علىٰ صحته لسقط ذلك الواجب الجسمي ، ولو أصيب في عقله لسقطت الواجبات كلها من رأس ، وهذا منتهىٰ الرحمة والرأفة من الله بالإنسان ، هذا من جهة ، ومن جهةٍ أخرىٰ يدل هذا علىٰ مركزية العقل من الإنسان ، فإنه قد جعل سلطاناً على جميع الجوارح ، ومهيمناً على حركات الإنسان وسكناته . ولذلك فإن أي حركةٍ أو سكون إذا جرد أحدهما عن العقلانية فإنه لا يساوي شيئاً ، ولهذا جاء في القول المأثور : (ما من حركةٍ إلّا وتحتاج إلى علم) .

والجسم الإنساني إذا نظرنا إليه بعين بصيرة فإنه يقع في ميزان الضخامة في منتصف الطريق بين الذرة والنجم ، فالنسبة لجرم الأشياء المختارة للمقارنة ، فإن جسم الإنسان يبدو كبيراً وضئيلاً . فطوله معادل لطول مائتي ألف خلية نسيجية ، أو مليونين من الميكروبات العادية ، أو ألفي مليون من جزيئات الزلال إذا وضعت إحداها بجوار الأخرىٰ فإن الإنسان إذاً يعتبر هائلاً إذا قورن بالإلكترون ، والذرة ، والجزيء أو الجرثومة ، ولكنه لن يلبث أن يصبح شيئاً دقيقاً حين يقارن بجبلٍ أو بالأرض . فإنه لو قلنا : إن أكثر من أربعة آلاف رجل يقف أحدهم فوق رأس الآخر ، يمكن أن يوازوا إرتفاع جبل (مونت إيڤرست) .

ويبدو أن جسمنا يتلاءم مع نوع خلايا الأنسجة وطبيعة التغيرات الكيمياِئية ، وتجدد الخلايا في الجسم .

ولمّا كانت التأثيرات العصبية في كل إنسان بسرعةٍ واحدة ، فإن الرجال الذين تكون أجسامهم أكبر كثيراً يجب أن يكونوا أكثر بطشاً بالأشياء

الخارجية، كما يجب أن يكون ردّ فعلهم العصبي خاملاً للغاية ، فتجدد خلايا الجسم في الحصان مثلاً أقل من ترددها في الفأر . فإذا زيد حجم جسمنا زيادةً كبيرة فإن ذلك يؤدي إلىٰ الإقلال من كثافة تغييراتنا الكيميائية . ويحتمل أن يؤدي إلىٰ حرماننا من نشاطنا وسرعة شعورنا .

ومما تقدم نفهم أن تركيب الجسم الفيسيولوجي له دخل في الفهم والإدراك . وقد أثر عن بعض العارفين قوله : (من طالت رقبته قلت فطنته) ؛ وذلك بأنهم قد قالوا أن السبب في ذلك بُعدُ الرأس وهو مقر العقل عن الصدر وهو مقر القلب . وفي ذلك نظر ؛ وذلك لأن الطاقة العقلية مقرها هو الرأس الذي يضم المخ الذي يحوي قوة التفكير ، فلا علاقة له بالصدر .

إن وجود الذكاء نظرية أولية أوجدتها الملاحظة . وتتخذ قوة إدراك العلاقات بين الأشياء أهمية معينة، وشكلاً معيناً في كل فرد. والذكاء قابل للقياس بواسطة فنون ملائمة ، وهذه المقاييس تعالج فقط النواحي الإصلاحية للذكاء ، ومن ثم فإنها لا تعطينا أية فكرة دقيقة عن أهمية العقل . فالعقل وحده لا يستطيع إيجاد العلم ، ولكنه عامل لا مفر منه في الإبتداع ، والعلم بدوره يقوي العقل . فقد جلب للإنسانية موقفاً عقلياً جديداً علاوةً علىٰ الوصول إلى الحقيقة بواسطة الملاحظة والتجريب والتفكير المنطقي .

فإن الإنسان في الأيام الأخيرة قد استخدم العقل ، وفي الآونة الأخيرة من عمر هذه الحضارة الإنسانية التي تشكل خطاً بيانياً صاعداً مرةً وهابطاً مرةً أخرىٰ استخداماً دقيقاً صاعداً ليبلغ درجات الكمال الإنساني ويلبي بذلك حاجات الإنسان ومتطلباته الحضارية ، فيكون العقل بذلك قد قدم عملاً ضخماً وأسدىٰ جميلاً للإنسان .

وهابطٌ بانحرافه عن جادة الصواب بما يخترعه من آلات الدمار ، وما

يبتكره من وسائل للرذيلة والتحلل الخلقي .

فإذا تكامل الإنسان في جسمه وعقله إعتدلت سريرته ، ومعنىٰ ذلك أنه أمتاز بالعمل الجدي الذي يريد أن يثبت به وجوده كعضوٍ في الجسم الإجتماعي ويريد أن يحلّ مكاناً مرموقاً بين الناس لتعرف مكانته فيما بينهم .

وبعبارةٍ أخرىٰ إن الإنسان إذا بلغ إلىٰ هذا العمر (اعتدلت سريرته) أي أظهر ما يكنه ، وصارح أقرانه كإنسانٍ يريد أن يفرض رأيه ونفسه ، وذلك إذا أخذنا تفسير (السريرة) بمعنى إظهار المضمر ، لأن الكلمة هذه من معاني الأضداد ـ كما أشارت إلىٰ ذلك الآية الكريمة على وجه من وجوه التفسير ، وقول الفرزدق السابقين في فصل اللغة ـ .

أما وجوب الحجة علىٰ الإنسان فهو إلزامه بالأوامر بعد أن يصل إلىٰ هذا الحد من العمر ، وهو خمسة عشر عاماً في الذكر ، وتسعة أعوام هلالية في الأنثىٰ ، أو بإحدىٰ العلامات الأخرىٰ الكاشفة عن البلوغ فيهما ، وكذلك النضوج العقلي الذي يستطيع به أن يدبر شؤونه ، ويميز بين الخير والشر .

فإذا ثبت ذلك فيهما ألزم بالواجبات ، وهي الحجة التي ذكرها في الدعاء : (أوجبت عليّ حجتك) . فإن الوجوب هو الإلزام الذي لا تبرأ ذمة المكلّف إلّا بالإمتثال لها .

ثم إن الحجة لا تكمل علىٰ العبد إلّا بعد أن يعرف ربه ، وإن معرفة الله واجبة عليه (أي علىٰ الله) من باب اللطف بالعباد ، ويجب أيضاً علىٰ العبد أن يعرف ربه ، ولو معرفةً إجمالية يعرف بها مصدر الأوامر والنواهي من الخالق « سبحانه » ؛ وذلك لأن العلماء قد اختلفوا في المعرفة طبقاً لهذين القولين .

وقد ورد كلام أثر عن الإمام أمير المؤمنين « عليه السلام » قال : (لو

كشف لي الغطاء ما أزددت يقيناً) .

قال المحقق الشيخ يوسف البحراني في التعليق علىٰ هذا الحديث : إن هذه المرتبة التي ذكرهـا أمير المؤمنين « عليـه السلام » هي المـرتبة التي طلب الرسول الزيادة فيها في قوله « صلّىٰ الله عليه وآلـه وسلم » : (اللهم زدني فيك معرفةً ، اللهم زدني فيك تحيراً) . وتكـون هذه الـزيادة هي الفـارقة بين مقـام النبوة ومقام الإمامة ، فإن أحاديث طلب الـرسول الـزيادة في المعـرفة لا تـدل علىٰ بلوغـه مرتبـةً مخصوصـةً بحيث تنقص عن مـرتبـة أميـر المؤمنين « عليـه السـلام » حتىٰ تحصل المنـافات بين الأخبـار المذكـورة ، بـل هي مـطلقـة . وحينئـذٍ يحمل إطـلاقها على هـذه المرتبـة التي عنـاهـا أميـر المؤمنين « عليـه السـلام» ممـا لا يبلغ حـدّه من البشـر غيـرهمـا ، وأبنـاؤهمـا الغــرر « عليهم السلام » ، والرسول مع بلوغه إياها طلب الزيـادة فيها تحقيقـاً لعلّومقامه علىٰ الباقين . وقال في مقام أخر في معـرفة الله « تبـارك وتعالىٰ » إنهـا قد تعـددت الأقوال فيها إلى ثلاثة :

الأول : وهو المشهور ، إن وجوب المعرفـة نظري يتـوقف علىٰ الدليـل العقلي الميـزاني ، وإن من أخلّ بـذلـك فهـو مستحق للخلود في النـار ، وإن أجـريت عليه أحكـام الإسلام في دار الـدنيا ، وهـو صريـح العلامـة في بـاب الحـادي عشر ، وهـذا في غايـة من البعد عن التحقيق ، فهـو بالإعـراض عنه جدير حقيق .

الثـاني : إنـه يكفي التقليـد ، وقـد اختلف هؤلاء ، فمنهم من أكتفىٰ بمجرد التقليد وإليـه ذهب المحقق الطوسي في جملةٍ مصنفـاته ، ولم يـوجب الدليل بالكلية . فقال في رسالتـه الوجيـزة : (ولم يجب عليه نقـل الأدلة التي حررها المتكلمون ، بل مهما خطر في قلبـه تصديق الحق بمجـرد الإيمان من غير دليل ولا بـرهان مـوفر) وإلىٰ هـذا مال شيخنـا العلامـة الشيخ سلمـان بن

عبد الله البحراني « قدس سره » قال : فتارك الإستدلال مع تمكنه منه فاسق ، غير كافر بحصول الإيمان بالإعتقاد التقليدي لأهل الحق النافي للشك والوهم المستلزم للإذعان الذي به يحصل صحة العمل والإشتغال بالفروع .

ونقله أيضاً عن الفاضل المحقق محمد بن علي بن إبراهيم بن أبي جمهور الإحسائي في شرح الألفية ، إلاَّ أن شيخنا المشار إليه يذهب إلىٰ أن الواجب من الدليل ما تسكن إليه النفس وتطمئن به ، بحيث لا يختلجها قلق الريب ، ولا نزعات الشكوك ، ويخطر النقيض بالبال على سبيل الإجمال .

الثالث : ما ذهب إليه جملة من محققي متأخري المتأخرين ، وهو المؤيد بالأخبار الواردة عن الأئمة الأبرار « صلوات الله عليهم » وعليه العمل في الإيراد والإصدار . وهو أن معرفته « سبحانه » فطرية جلية ، ليس للعباد فيها صنع .

وقال جمهور الأشاعرة ، والمعتزلة ، وأكثر الإمامية : بأن معرفته« سبحانه » فطرية كسبية ، وعليه يكون أول الواجبات عندهم (المعرفة) .

ونحن إذا تأملنا ما تقدم من الأقوال في موضوع المعرفة أدركنا بأن القول الثالث هو المطابق لما جاء في عبارة الدعاء في الفقرة المطروحة أمامنا : (بأن ألهمتني معرفتك) وهو ما ذهب إليه علماؤنا « رضوان الله عليهم » من أن المعرفة من صنع الله، وليس للعباد فيها يد. ومعنىٰ ذلك ـ كما دل عليه المعنىٰ اللغوي ـ أن الله لقنه المعرفة ، وعرّفه بنفسه ، وهذا ما سبق الإشارة إليه ، وتؤيده الأخبار الواردة من طرقنا .

فقد ذكر الصدوق « رحمه الله » في كتابه التوحيد كثيراً من الروايات الدالة على ذلك ، فقد جاء فيه :

بحذف الإسناد ، سئل زين العابدين عن التوحيد فقال : إن الله « عزّ وجلّ » علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله « عزّ وجلّ » ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد﴾ ، والآيات من سورة الحديد إلى قوله : وهو عليم بذات الصدور ، فمن رام ما وراء هنالك هلك[1] .

وفيه بحذف الإسناد أيضاً : جاء إعرابي إلى النبي فقال : يا رسول الله : علمني من غرائب العلم ، قال : ما صنعت في رأس العلم حتىٰ تسأل عن غرائبه ؟ قال الرجل : ما رأس العلم يا رسول الله ؟ قال : معرفة الله حق معرفته . قال الإعرابي : وما معرفة الله حق معرفته ؟ قال : تعرفه بلا مثل ، ولا شبه ، ولا ند ، وأنه واحد أحد ، ظاهر باطن ، أول آخر ، لا كفؤله ، ولا نظير ، فذلك حق معرفته .

وروي البرقي في المحاسن ، بسنده إلى عبد الأعلىٰ ومولىٰ أبي سام ، عن أبي عبد الله « عليه السلام » قال : لم يكلف الله العباد المعرفة ، ولم يجعل لهم سبيلاً .

وفي الصحيح عن زرارة ، عن أبي جعفر ، قال : سألته عن قول الله « عزّ وجلّ » (حنفاء لله غير مشركين به) ، وعن الحنيفية ، فقال : في الفطرة التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، قال : فطرهم علىٰ المعرفة ، وكثير غيرها من الأحاديث في هذا الباب ، يضيق بها الإملاء .

أما الترويع بعجائب الفطرة فقد ذكر أهل اللغة أن لها معانٍ من جملتها : الترويع بمعنىٰ الفزع ، والترويع أيضاً بمعنىٰ الإعجاب ، وكلاهما يرد إحتماله في معنىٰ عبارة الدعاء : (وروعتني بعجائب فطرتك) .

---

(١) التوحيد ، للصدوق : ص ٢٨٣ .

أما الأول : فالمراد منه التخويف بالآيات التكوينية التي تظهر في السماء ، كالخسوف ، والكسوف ، والزلازل ، والرياح الهائجة ، والعواصف التي تدمر كل شيء أتت عليه ، الحمراء منها والصفراء .

فتخويف الإنسان بالآيات السماوية ؛ لكيلا يبتعد عن جادة الطريق التي رسمها له الشارع المقدس ، أما بالنسبة إلى الأسباب الطبيعية التي تتسبب عنها هذه الحوادث الكونية فالحديث عنها سوف يأتي في محله المناسب « إن شاء الله تعالىٰ » .

وأما الثاني : فالمقصود به هو أن الله يريد أن يظهر الآيات الدالة على عظمته ، وقدرته ؛ لكي يطمئن المؤمنين من عباده ، فعندما يتذكر الإنسان ربه في كل وقت ـ كما هو المقصود من هذه الحوادث ـ يطمئن قلبه بذكر ربه ﴿ أَلا بِذِكرِ اللهِ تَطمئنُّ القُلُوبُ ﴾[1] . وعلى النقيض من ذلك فإن هذه الآيات يرسلها الله تخويفاً للكفار من عباده كما نطق بذلك الذكر الحكيم ﴿ وَمَا نُرسِلُ بِالآيَاتِ إلَّا تَخوِيفا ﴾[2] .

ثم تطرق « عليه السلام » إلى ما خلق الله في السماء والأرض ، فقال : (وايقظتني لما ذرأت في سمائك وارضك من بدائع خلقك) أي نبهتني من الغفلة لما خلقت في السماء والأرض من الكائنات الحية المختلفة الأجناس والتي لا يأتي على أحصاء أجناسها حصر . فإن هناك مخلوقات في السماء تختلف عنها في الأرض ؛ وذلك للإختلاف الجنسي ، كما أن هناك مخلوقات في الأرض تختلف عن بعضها البعض في أشكالها ، واجناسها ، وبدائعها .

---

(١) سورة الرعد / الآية : ٢٨ .

(٢) سورة الإسراء / الآية : ٥٩ .

وعندما يمر ذكر السماء نتصور تلك الغـرائب التي تنتظم في سلك نـظام واحد يسيرها بقدر معلوم ، قـال لها خـالقها كـوني فكانت ، وقـال لها سيـري فسارت ، لا تخرج عن أمره، ولا تخرج عن نهيه ، فسبحانه من آمر ناهي .

وان أول مـا يتبـادر إلى الـذهن ، والعين المجـردة هي تلك النجــوم ، والكـواكب التي تزين السمـاء في الليـل الـدامس ، والمجـرات المنتشـرة في الفضاء اللامتناهي ، وأقرب ما يكون إلى بصرنا من المجرات هي مجرة (درب التبـانة) ، أو كمـا يسمونهـا عالم المجـرة العظمىٰ) ، وهي كبـاقي المجرات الأخرىٰ ، منطلقة في الفضاء ، تتباعد عن أخواتها .

سرعة المجرات وحركاتها

وتختلف سرعة تباعد المجرات عنّا ما بين ٦٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ ميل في الثانية .

وإذا وصلنا إلىٰ هذه النقطة فمن الصعب أن نقول : فيما إذا كانت المجرات الأخرىٰ هي التي تهرب منّا بهذه السرعة ، أو نحن الذين نهرب منها بالسرعة نفسها ، أو أن كلاً منّا هارب من الآخر بنصف السرعة المذكورة .

وكلاً منّا هذا بحسب مفاهيم النظرية النسبية للعالم الرياضي العبقري (أنيشتين) .

فإذا قلنا إن مجرة من المجرات تتباعد عنّا بسرعة ٤٠٠٠٠ ميلاً في الثانية ، هو كأنّا نقول : إننا نتباعد عنها بسرعة ٤٠٠٠٠ ميلاً في الثاني ، لا فرق إطلاقاً بين التعبيرين .

أما من يتحرك في الواقع فهذا لا نستطيع أن نحدده ؛ لأننا لو شئنا ذلك لكان من الضروري أن نجد مكاناً ثابتاً مطلقاً في الكون ، نعرف بالنسبة إليه ما إذا كانت المجرة الفلانية واقفةً أو متحركة ، وما هي سرعتها المطلقة في حركتها هذه ؛ لأنه حسب هذا المفهوم النسبي ليس في هذا الكون مكان

مطلق ، وليس هناك نقطة ثابتة ؛ لنرصد منها حركات المجرات العائمة في هذا الكون .

فالشمس وكواكبها سائرةٌ بالنسبة إلىٰ جاراتها النجوم ، (ونعني بالجارات هنا النجوم التي تبعد عنّا وعنها بضع مئاتٍ من السنين الضوئية فقط) نحو نقطة تقع ما بين مجموعة (هرقل) ومجموعة (القيثار) بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية .

هذا بالنسبة لما يرىٰ ، أو بالنسبة إلى الكائنات في هذا الكون والتي تدركها الحواس ؛ وذلك بحكم كونها مادة ، تشغل فراغاً في هذا الكون ، وتنحصر بين أبعادها الثلاثة ، أو الأربعة ، وذلك إذا ما أضيف إليها بعد الزمن -(بحسب مفاهيم النظرية النسبية) .

أما بالنسبة إلى ما لا يرىٰ فهو عوالم مختلفة في جو السماء ، وعندما نقول السماء فإننا نعني به مرة كل ما علا الإنسان ، ومرة أخرىٰ نعني بها السماء التي جاء ذكرها في القرآن والسنة . وعلى الإعتبار الثاني نجد أن في السماء كائنات خلقها الله كثيرة تختلف أجناسها ، واشكالها عمّا خلق الله في الأرض .

فبينما نجد أن الأجناس الأرضية ميالة إلى المادة ، بل منها ما هو مادي صرف ، نجد أن الأجناس السماوية روحية صرفة ، كما أن الأجناس الأرضية بحكم مادتها هي ثقيلة تنشد إلى الأرض ، بينما نجد أن الأجناس السماوية بحكم روحيتها المحضة ، وتجردها عن المادة هي أخف ، وبالتالي تكون أكثر تحرراً من الكائنات المادية ، وهذا الوصف ينطبق تمام الإنطباق على ما عرضه الكتاب العزيز في موضوع الحديث عن الملائكة ، لأنها تتصف بهذه الصفات .

الحَديثُ عَن الملائكةِ

والحديث عن الملائكة حديث عن سر غامض ، لا يعلمه الإنسان ؛ لأنه لا يدرك ذلك بحواسه ، ولا يستطيع أن يدرك ذلك بعقله ؛ لأنه عالم لا يعلم عنه شيئاً ، على أن العقل لا يبرح في تأملاته وتخيلاته ، ولكن ذلك لا يغني عن الحق شيئاً .

اللهم إلا ما ورد عنه في الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة ، والأخبار عن أهل البيت «عليهم السلام» فقد جاء قوله تعالى : ﴿قُل لَّو كَانَ فِي الأَرضِ مَلائكةٌ يَمشُون مُطمئِنِّينَ لَنَزَّلنا عَلَيهِم مِن السَّماءِ مَلَكاً رسُولاً﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَصطَفي مِن المَلاَئكَةِ رُسُلاً وَمِن النَّاسِ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿تَعرُجُ المَلاَئِكةُ وَالرُّوحُ إليهِ فِي يَومٍ كَانَ مِقدَارُهُ خَمسِينَ أَلفَ سَنةٍ﴾[3]

قال الرازي في تفسيره : روي أنه قيل يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ فقال «صلى الله عليه وآله وسلم» : ملك عن يمينك للحسنات هو أمين على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشراً ، وإذا عملت

---

(١) سورة الإسراء / الآية : ٩٥ .

(٢) سورة الحج / الآية : ٧٥ .

(٣) سورة المعارج / الآية : ٤ .

سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين : اكتب ، قال : لا لعله يتوب ، فإذا قال ثلاثاً قال : نعم اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله واستحياؤه منا .

فهو قوله تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَينِ يَديهِ ومِنْ خَلفِهِ﴾(١) .

وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لربك رفعك، وإن تجبرت قصمك ، وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة ، وملك على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك ، وملك على عينيك . فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي ، ملائكة الليل وملائكة النهار ، فهم عشرون ملكاً ، على كل آدمي .

ثم قال أيضاً في تفسيره : الملائكة عند الفلاسفة هم العقول المجردة والنفوس الفلكية ، ويخص باسم الكروبيين ما لا تكون له علاقة مع الأجسام ولو بالتأثير ، وذهب أصحاب الطلسمات إلىٰ أن لكل ملك روحاً كلياً يدبر أمره ويتشعب منه أرواح كثيرة . ثم قال ولا خلاف بين العقلاء في أن أشرف الرتبة للعالم العلوي هو وجود الملائكة فيه . كما أن أشرف الرتبة للعالم السفلي هو وجود الإنسان فيه ، إلّا أن الناس اختلفوا في ماهية الملائكة وحقيقتهم وطريق ضبط المذاهب أن يقال : الملائكة لا بد وأن تكون ذواتٍ قائمة بأنفسها ثم إن تلك الذوات إمّا أن تكون متحيزة أو لا تكون .

أمّا الأول: فقد قالوا عنه بأنها أجسام لطيفة هوائية تقدر علىٰ التشكل بأشكالٍ مختلفة مسكنها السماوات وهذا قول أكثر المسلمين .

القول الثاني: إن الملائكة ذواتٌ قائمة بأنفسها وليست متحيزة ولا أجسام

---

(١) سورة الرعد / الآية : ١١ .

وقد ذهب الفلاسفة إلىٰ أنها جواهرٌ قائمة بأنفسها ليست بمتحيزةٍ البتة ، وإنها بالماهية مخالفة لنوع النفوس الناطقة البشرية ، وإنها أكمل قوةٍ منها ، وأكثر علماً ، وإنها للنفوس البشرية جارية مجرىٰ الشمس بالنسبة إلىٰ الأضواء .

أما بالنسبة إلىٰ أفضلية الإنسان والملك فقد اختلف المسلمون في ذلك .

قال العلامة الطباطبائي في الميزان ، فالمعروف المنسوب إلىٰ الأشاعرة أن الإنسان أفضل والمراد به أفضلية المؤمنين منه ، إذ لا يختلف اثنان في أن من الإنسان من هو أضل من الأنعام ، وهو أهل الجحود منهم ، فكيف يمكن أن يفضل علىٰ الملائكة المقربين ؟ وقد استدل عليه بالآية الكريمة : ﴿ وَفَضَّلناهُم علىٰ كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقنا تَفضِيلاً ﴾(١) .

علىٰ أن يكون الكثير بمعنىٰ الجمع كما هو واردٌ عند أهل اللغة وكما ورد من طريق الرواية أن المؤمن أكرم على الله من الملائكة .

وهو المعروف أيضاً من مذهب الشيعة ، وربّما استدلوا عليه بأن الملك مطبوع علىٰ الطاعة من غير أن يتأتىٰ منه المعصية ، لكن الإنسان من جهة اختياره تتساوىٰ نسبته إلىٰ الطاعة والمعصية فقد ركب من قوىٰ رحمانية وشيطانية وتألف من عقلٍ وشهوة وغضب فالإنسان المؤمن المطيع يُطيعه وهو غير ممنوعٍ من المعصية بخلاف الملك ، فهو أفضل من الملك(٢) .

ومع ذلك فالقول بأفضلية الإنسان بالمعنىٰ الذي تقدم ليس باتفاقي بينهم ، فمن الأشاعرة من قال بأفضلية الملك مطلقاً ، كالزجّاج ونسب إلى ابن عباس .

---

(١) سورة الإسراء / الآية : ٧٠ .
(٢) الميزان : ج ١٣ ص ١٦٠ .

ومنهم من قال بأفضلية الرسل من البشر مطلقاً ، ثم الرسل على من سواهم من البشر والملائكة ، ثم عامة الملائكة مطلقاً ، ثم الرسل من البشر ، ثم الكمّل منهم ، ثم عموم الملائكة من عموم البشر ـ كما يقول به الإمام الرازي ـ ونسب إلىٰ الغزالي .

وذهبت المعتزلة إلىٰ أفضلية الملائكة من البشر ، واستدلوا على ذلك بظاهر قوله تعالىٰ : **﴿وَلَقد كَرَّمنَا بَنِي آدَم . . . إلىٰ قوله : وَفَضَّلناهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّن خَلَقنا تَفضِيلاً﴾**[1] .

وقد بالغ الزمخشري في التشنيع علىٰ القائلين بأفضلية الإنسان علىٰ الملك ممن فسّر الكثير في الآية ، فقال في الكشاف في ذيل قوله تعالىٰ : **﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا . .﴾** الآية هو ما سوىٰ الملائكة ، وحسب بني آدم أن ترفع عليهم الملائكة ، وهم هم ، ومنزلتهم عند الله منزلتهم .

وإن سنحت الفرصة للحديث بأكثر من هذا في الأبحاث الآتية فإنا سوف نأتي بذلك في المكان المناسب ـ إن شاء الله ـ.

(١) سورة الإسراء / الآية : ٧٠ .

كلامٌ حَول الأرض

وأما الحديث عن الأرض ، وما ذرأ الله فيها من مخلوقات فإن ذلك يعني الحديث عن الإنسان ، وما حوله من أجناس الحيوان ، وأنواع الجمادات ، سواء كان سهلاً أو جبلاً ، نباتاً أو غيره ، وقد مرّت عن ذلك نبذة عند الحديث عن التراب .

أما ها هنا فإن الحديث عما تحمل الأرض ، وتكنّه في جوفها من المعادن النافعة التي يستخدمها في أغراض شتىٰ . ثم الحديث أيضاً عن كيفية وضعها للناس وللحيوان ، وأسلوب معاشهم ، وسير حياتهم ، كما عرض ذلك الذكر الحكيم في قوله تعالىٰ : ﴿**والأرضَ وَضَعهَا لِلأَنام * فِيهَا فَاكهةٌ وَالنَّخلُ ذَاتُ الأكمَامِ * وَالحَبُّ ذُو العَصفِ وَالرَّيحانُ**﴾[1] .

فالأرض وضعها إما بمعنى خلقها ، وإما بمعنى جعلها متواضعة سهلة طائعة يسخرها الإنسان لما يريد ، فيزرعها فيستدر منها الرزق الذي عليه اعتماده ، واستمرار حياته . وينحت منها الحجارة فيستخدمها في البناء فيقيم منها الأكواخ ، وناطحات السحاب .

---

(١) سورة الرحمٰن / الآيات : ١٠ و ١١ و ٢ .

ويستخرج منها المعادن التي يستخدمها في أغراضٍ شتى ، فمنها ما يستخدم في الحاجات الضرورية لكي يقضي بها حاجات شتىٰ ، كالحديد والفولاذ ، ومنها ما يستخدم في الزينة والرياش كالذهب والفضة واللؤلؤ الذي يستخرج من أعماق البحار . ويستنبط منها عيون الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي ، أو بعبارة أخرى ترتبط بها حياة كل كائن حي ، من إنسان ، وحيوان ، ونبات .

والزيت وهو من أعظم النعم التي أودعها الله في الأرض ، إلا أن الإنسان حوّل هذه النعمة إلى نقمة دمّرت جزءاً كبيراً مما بناه الإنسان ، وأخذ البعض يستحوذ على البعض الآخر حتى أصبح شبح هذه الكلمة يخيم على الإنسان بصورة مرعبة .

إن الإنسان قد يخلق بأنانيته كثيراً من الأزمات التي تعود عليه بالوبال والدمار . صحيح أن الإنسان يحب مصالحه الخاصة ويسعىٰ إليها بجد واجتهاد ، ولكن لا يكون ذلك على حساب الناس الآخرين .

وما نراه اليوم من التكالب المستمر من بعض الشعوب على البعض الآخر هو نتيجة الأنانية التي لا حدود لها ولا ضوابط معينة وأن الإنسان إذا خلع رباط الدين هان عليه كل شيء فيقلب النعمة نقمة ، والخير شراً ، حتى أنه ليقلب الجهات الست ويحاول أن يغير المفاهيم رأساً على عقب .

نقول كل ذلك في الأرض فهي لا تمتنع عن شيء يريده الإنسان بها ، وقد جاء هذا المعنى على وجه من وجوه التفاسير في قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلُولاً فامشُوا فِي مَنَاكِبِها وكُلُوا مِن رِزقِهِ وإليهِ النُّشُورُ**﴾[1] .

إن الأرض وما أنبتت من ألوان النعم وأنواعها التي يتعاطاها الإنسان

---

(١) سورة الملك / الآية : ١٥ .

يومياً كثيرة ، ولكن بدلاً من أن تكون الفاكهة طعاماً يتفكه بها في أوقات الفراغ أصبحت الآن أشياء عادية من أنواع الطعام . فالفاكهة التي هي غذاء ثانوي كالعنب ، والرمان ، والزيتون ، والتين لم يكن له دور فيما مضى ، اللهم إلا في الحالات الاستثنائية .

وأما النخل الذي يجمع بين كونه أساساً ، وكونه شيئاً ثانوياً فإن له دوراً خاصاً في تقويم الأجسام ، فإنه يحوي جميع المواد الغذائية بكميات هائلة .

فالتمر يحوي الأملاح كما يحوي السكريات، وكثيراً من المواد الغذائية التي يتوقف عليها بناء الأجسام فالتمر إذاً بالضرورة يكون علاجاً لكثير من الأمراض المستعصية . إضافة إلى كونه غذاءً يعتمد عليه اعتماداً كلياً ، ولهذا نرى بأن الشارع قد أوجب عندما أوجب بعض أنواع زكاة الفطرة إخراجها من التمر ، وقد جاء مدح النخل وثمرها على لسان الشعراء ، فقد جاء على لسان الشاعر أحمد شوقي قوله :

أرى شجراً في السماء احتجبْ … وشق العنان بمرأى عجبْ
مآذن قامت هنا أو هناك … ظواهرها درجٌ من شذب
وليس يؤذّن فيها الرجال … ولكن تصيح عليها الغرب

إلىٰ أن قال :

طعام الفقير وحلوىٰ الغني … وزاد المسافر والمغترب
فيا نخلة الرمل لم تبخلي … ولا قصرت نخلات الترب
وأعجب كيف طوى ذكركن … ولم يحتفل شعراء العرب
أليس حراماً خلو القصا … ئد من وصفكن وعطل الكتب؟

أما الحب الذي يعتبر الغذاء الأساس للإنسان والحيوان علىٰ السواء كالحنطة والشعير والأرز وغير ذلك من أنواع الحبوب فهي كثيرة جداً لا يأتي عليها حصر بأذواق مختلفة وطعوم مختلفة .

وأما الريحان فهو نوع آخر من النعم التي تنتجها الأرض من جملة ما تنتج من خيراتها ، ولكن المقصود بها يختلف عن بقية منتجات الأرض ، فالريحان يقصد منه الروايح العطرة التي يستريح لها الإنسان بما تعطيه من الروايح العطرة كالورد والياسمين .

وبكلام آخر إن الله «سبحانه» جعل الأرض بما ذرأ فيها مهداً للإنسان كما أشار لذلك في الكتاب العزيز في قوله تعالىٰ : ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ مَهداً وَسَلَكَ لَكُم فِيهَا سُبُلاً وأنزَل مِن السَّماءِ مَاءً فأَخرَجنَا بِهِ أَزوَاجاً مِنَ نباتٍ شَتَّىٰ**﴾[1] ، فالمهد هو الشيء الوثير الذي خصص للطفل في أيامه الأولىٰ ، ينعم فيه بالهدوء والاطمئنان والراحة ـ كما مر الحديث عنه سابقاً ـ.

فهو قد أقر «سبحانه» الإنسان في الأرض ، يحيىٰ فيها حياة أرضية طيبةً ، ليتخذ منها زاداً لحياته العلوية الأخرىٰ كالصبي يقر في المهد ، ويربىٰ لحياة أفضل من حياة المهد وأرقىٰ ، وجعل للإنسان فيها سبلاً ؛ ليتنبه لذلك أن بينه وبين غايته المثلىٰ ، وهو التقرب منه «تعالىٰ» والدخول في حظيرة الكرامة سبيلاً يجب أن يسلكها ، كما يسلك السبل الأرضية ، لمآربه الحيوية .

ثم أنزل من السماء ماءً ، وهو ماء الأمطار ومنه مياه عيون الأرض الذي سلكه ينابيع فيها ، وأنهارها وبحارها ، فأنبت فيها أزواجاً ، أي أنواعاً ، وأصنافاً متفاوتة من نباتٍ صنوانٍ وغير صنوان ، يهديكم إلىٰ أكله .

ولا شك أن في ذلك كله عبراً لأولي العقول التي سخرها أصحابها لمعرفة الواقع ، ولمن ألقىٰ السمع وهو شهيد . ومما تقدم يظهر لك جلياً قوله «عليه السلام» : (وأيقظتني لما ذرأت في سمائك وأرضك) .

أما بدائع الخلق التي ذكرها في هذا السياق فإنها من أروع ما يوجهه

---

(١) سورة طه / الآية : ٥٣ .

العبد الضعيف إلىٰ الخالق القوي في مثل ذلك الموقف الذي يتطلب كثيراً من أنواع التضرع لله «سبحانه» والخضوع والثناء عليه ونعته بما هو أهله ، وكما مدح نفسه بذلك في قوله تعالىٰ : ﴿بَدِيعُ السَّموات وَالأرضِ﴾[1] .

وبديع معناه ـ كما مر في فصل اللغة ـ الشيء المحكم ، وأبدعه جاء به علىٰ وجهٍ لا يمكن لأحدٍ أن يأتي به علىٰ ذلك الوجه ، والبدعة في الدين معناه الشيء الجديد الذي لم يأتِ في الشرع .

وجاء بهذا المعنىٰ عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قوله : (إذا ظهرت البدع في أمتي فعلىٰ العالم أن يظهر علمه) .

وبدايع الخلق الأشياء المتقنة التي يقف العقل أمامها حائراً مشدوهاً ، بمعنىٰ لا يعرف أسرارها .

وبدايع الخلق في السماء لا تحصىٰ ، فمنها : النظام الكوني العجيب الذي لا يحيد قيد أنملة عمّا أراده الله ، ودبّره في مسيرها . فمجموعات الكواكب ، ومجموعات الشموس ، ومجموعات المجرات التي تسير في نظام عجيب متناسق ، وفي حركات متوازنة ، كلها تشير إلىٰ الإبداع في الخلق ، بتدبير محكم .

وقد مرت لمحة خاطفة عن سرعة سيرها ، وتفاوته بين مجرة وأخرىٰ ، وبين شمس وأخرىٰ ، وبين كوكب وآخر بحسب قوة الجاذبية وتأثيرها المغناطيسي ، تبعاً لاختلاف كثافة الهواء في هذا الكون الرحيب . كما مر أيضاً كيفية حركاتها فيما مضىٰ من أبحاث الكتاب .

أما الإبداع في الأرض فإنه يشبه إلىٰ حدٍ كبير الإبداع في السماء من حيث الحركات والسكنات .

---

(١) سورة البقرة / الآية : ١١٧ .

فلو بحثنا في أصغر الأشياء المادية في الأرض ، وهي الذرة وفتشنا عنها لوجدنا أن ما يدور في فلكها هو ما يدور في هذا الكون الرحيب .

فقد ذكر الفيلسوف العربي فريد الدين العطار : (إن ذرات العالم في عملٍ مستمر ، وإنه توجد في كل ذرةٍ شمس ظاهرة ، وروح باطنة) .

وقال هاتف الإصبهاني المتوفىٰ سنة ١١٩٨ هـ في أشعاره الفارسية ما معناه : إذا كشفت عن باطن كل ذرة الغيت شمساً في وسطها . فهو قد توصل إلى كشف هذه الحقيقة بإلهام ربّاني ، ونور قذفه الله «تعالىٰ» في قلبه . وقد جاء في الحديث وما أعظمه : (العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء) . وكم قذف الله من أنوارٍ في قلوب المخترعين والمكتشفين ، وكم هيأ لهم صدفاً تمكنوا بها من العثور علىٰ حقائق جديدة ، وكم كان شكرهم وخضوعهم قليلاً تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصىٰ .

هذه الذرة التي خيم شبحها على الدنيا بأسرها من أقصاها بسوء تصرف أهلها ، وسوء استخدامها في غير أغراض السلم واستغلالها في بث الرعب والخوف في نفوس البشر ، وهي من الأشياء التي ذرأها الله في أرضه .

هذا المخلوق الصغير الكبير لو تأملته ساعة أمام المجهر الذي يكشف خبايا كثيرة فيها لقضيت عجباً ، ولقيت من وصف ما تحوي نصباً .

إن الألكترونات وهي شحنات كهربائية سالبة ، يختلف عددها في كل ذرة باختلاف العناصر ، كالحديد ، والفضة والذهب . وعدد هذه الألكترونات التي تدور بسرعة هائلة في محيط الذرة يساوي دائماً عدد البروتونات التي هي وسط الذرة .

وإن لحركات الألكترونات ، وسيرها في أفلاكها الخاصة بسرعة فائقة آثارها العجيبة ، لا مجال إلىٰ ذكرها . وإن حركة الإلكترونات من الانتظام والدقة بدرجة جعلت الفيلسوف الفرنسي (هنري بركسون) أن يعترف بخالقه ،

وأن يقول : (إن يداً غيبية تعمل في تنظيم هذه الحركات المنظمة لإيجاد أو حدوث تيار كهربي وأمواج كهربائية مختلفة وتفاعلات كيميائية إلى غير ذلك مما سيكشفه العلم الحديث) .

تصوّروا الذرة عادةً أنها كرة غلافها الخارجي سحابة زغبية من الألكترونات تكون معظم حجم الكرة تقريباً . وبالرغم من ذلك فإنها لا تكاد تكون شيئاً من وزن الذرة . ويحدد عدد الألكترونات في هذه السحابة خواص الذرة الطبيعية والكيماوية .

فالذرة هي أصغر جزء من المادة وتتركب من نواةٍ بها بروتونات ، ونيوترونات ويحيط بها الكترونات .

إذاً فإن الذرة تبلغ من الصغر بحيث لا يمكن رؤيتها بأدق الآلات وهي من النوع الغير المنظور قال تعالى : ﴿**فَلَا أُقسِمُ بِما تُبصرُون * وَمَا لَا تُبصرُون**﴾[1] ذلك لأنه لو وضعت عشرة ملايين ذرة بعضها جنب بعض على شرط الكروية ، يكون طول ذلك كله مليمتراً واحداً[2] .

ومما تقدم يظهر لك جلياً واضحاً المراد في قوله «عليه السلام» (لما ذرأت في سمائك وأرضك من بدائع خلقك) . إذ أن الذرة وهي أصغر شيء في المادة تحتوي على هذه المركبات المتقنة الهائلة ، وقد أودع فيها «سبحانه» هذه الطاقات الهائلة التي تستخدم في السلم والحرب ، وهي نعمة ونقمة .

ولنا عودة مع هذا الموضوع مرة ثانية ؛ لنعرضه بصورة تفصيلية في المكان المناسب إن شاء الله .

أما التنبيه لذكر الله وشكره ، وواجب طاعته ، وعبادته ، فهو من الأمور

---

(١) سورة الحاقة / الآيات : ٣٨ و ٣٩ .

(٢) التكامل في الإسلام : ج ٢ ص ٨١ .

الطبيعية التي تربط بين العبد وربه . فإنه عندما تتعدد النعم على الإنسان ، ويكون محاطاً بها فإنه ينبغي أن يعترف بهذه النعم . وقد قال علماء الكلام : أن شكر المنعم واجب. والتنبيه لذكر الله تفضل آخر على العبد ؛ لأن الله قد أراد به خيراً ، فإن ذكر الله تطمئن به القلوب ـ كما هو صريح الكتاب العزيز ـ، يثاب الإنسان عليه . والشكر أيضاً عندما يوفق إليه الإنسان هو نعمة أخرى ، وهكذا نرى أن النعم تتجدد كلما حاول الإنسان شكر نعمة واحدة .

ونستطيع أن نقول : إن في هذا الصدد هو أن حركات الإنسان ، وسكناته إذا كانت مدروسة دراسة شرعية ، فإن الله «تعالى» يعوضه عن هذا النصب وهذا التعب ؛ لأنه أعدل من حكم ، وأكرم من أعطى .

أما الطاعة فهي الانصياع لامتثال الأوامر المولوية ، إذا كانت بصورة إلزامية ـ كما ذكر «عليه السلام» ومما يظهر من السياق إن الطاعة أعم من العبادة ، والعبادة أخص من الطاعة ، وعليه يكون بينهما عموم وخصوص مطلق ، فهي من باب ذكر الخاص بعد العام . وهذا يأتي بأغراض بلاغية كثيرة ، طويناها مخافة التطويل .

ولقد ألهم الله الإنسان معرفة ما جاءت به الرسل من الأوامر والنواهي لكيلا يكون للناس على حجة ، بل لله الحجة البالغة ؛ وذلك لأن الإنسان ليس باستطاعته أن يفهم شيئاً إلا بإذن الله ، قال تعالى : ﴿**فَفَهَّمناهَا سُليمَانَ وكُلًّا آتينا حُكماً وعِلماً . . الخ**﴾[1] . وهذا ليس من الجبر في شيء ، فإن تفهيم الإنسان بواجبه ، وبما يعود عليه بالمصلحة في الدنيا والآخرة راجح عقلاً ، إلا أننا سوف نتطرق إلى هذا الموضوع بصورة تفصيلية في المكان المناسب ، وذلك لأن هذا البحث من أهم أبحاث علم الكلام ، فلا نريد أن نحرم القارىء الكريم من الفائدة .

---

(١) سورة الأنبياء / الآية : ٧٩ .

الرُّسُلُ وَسَببُ إِرْسَالِهِمْ

أما الرسل الذين جاءوا بالرسالات من عند الله فقد بلغوا كما أمروا على أحسن وجه ، وأن الله «تعالى» قد فهم الإنسان ما جاءت به الرسل ، وليس بعد ذلك عليه إلا أن يمتثل تلك الأوامر والنواهي المحمولة إليه من الله .

وقد قسم علماء التفسير الرسل إلى قسمين :

١ ـ الملائكة ، وهم الذين يبلغون رسالات ربهم منه إلى الرسل فهم همزة الوصل بين السماء والأرض .

٢ ـ الرسل من البشر ، وهم الذين يستلمون رسالات ربهم من الملائكة ليبلغوها إلى الناس .

ومعنى ذلك أن الأوامر الإلهية والنواهي حتى تصل إلى المكلفين ليعملوا بها ، وتظهر إلى حيّز التنفيذ تمر بقنوات مختلفة . وفي قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1] تضمين للحجة على لزوم أصل الإرسال .

وأما السبب المباشر إلى إرسال الرسل والأنبياء الذين تجاوزوا الحصر

---

(١) سورة المجادلة / الآية : ١ .

فإنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بصفاته سبحانه ؛ وذلك بالنظر إلى الرأفة والرحمة اللتين يتصف بهما ، والعدل الذي هو الغرض الأسمىٰ في هذا الأمر وذلك ليهدي الناس إلى سواء السبيل .

والإنسان إذا عزم على العمل بفعل الخير وفّقه الباري ويسر له الطاعة ، بل ويسر له تقبل مرضاته . ومعنى ذلك أن يسلم العبد لتلك الواجبات التي فرضت عليه ويرضىٰ بما رضى الله له .

أما المن على الإنسان فقد تحقق بما ذكر «عليه السلام» بالنعم المذكورة . فإكمال الفطرة ، واعتدال السريرة ، وإيجاب الحجة ، ثم إلهام المعرفة ، والترويع بالعجائب الكونية، والتنبيه لما خلق في السماء والأرض ، والتفهيم لما جاءت به الرسل ، والتيسير لتقبل مرضاته . كل ذلك منٌّ من الله على العبد ؛ لأنه ابتداء بالعطاء ، أو عطاء بدون ترقب المقابل . ومعنى هذا أن المن لا يتأتىٰ إلاّ من الله «سبحانه» لأنه هو الذي يعطي ولا يريد جزاءً لعطائه .

وقد اعتبر «عليه السلام» الإعانة منه «سبحانه» على شكر النعمة ، وأداء حقها مناً منه ، فقد نبّهه لذكره وشكره على هذه النعم المتواترة ، والخيرات المتوافرة ، وفهمه ما جاءت به رسله ، ويسر له تقبل مرضاته ، وهذه هي الإعانة من الله للعبد ؛ وذلك بهدايته إلى تأدية حقوق هذه النعم التي وجب عليه شكرها .

قال عليه السلام :

[ثمَّ إذْ خَلَقتَني مِن حُـرِّ الثَّرىٰ ، لَمْ تَـرضَ لي يـا إلٓهي بِنعمـةٍ دُونَ أخـرىٰ ، وَرَزَقتني مِنْ أنواعِ المَعَـاش ، وَصُنُوفِ الـرِّيَاشِ ، بِمنِّـكَ العَظِيمِ عَلَيَّ ، وإحْسَانِكَ القَدِيمِ إليَّ] .

اللغــة

حر الثرى : قال ابن الإعرابي الحـرة الرجـلاء الصلبة الشـديدة ، وقـال غيره : هي التي أعلاهـا سود ، وأسفلهـا بيض . وقال أبـو عمرو تكـون الحرة مستديرة ، وأرض حرّية رملية لينة . وبعير حرّى يرعى في الحرة .

المعاش : المعاش والمعيش والمعيشـة ما يعـاش به ، وجمـع المعيشة معـايش على غير قيـاس ، وقد قـرىء بها قـوله تعـالى : ﴿وَجَعَلنَـا لَكُم فِيهـا مَعايِش وَمَن لَّستُم لَهُ برَازِقِينَ﴾[1] .

وقال المؤرج : هي المعيشة ، والمتعيش ذو البلغة من العيش ، يقال :

---

(١) سورة الحجر / الآية : ٢٠ .

إنهم ليتعيشون إذا كانت لهم بلغة من العيش . وعيش آل فلان الخبز ، والحب ، وعيشهم التمر . وربما سموا الخبز عيشاً ، وفي المثل : (أنت مرة عيش ، ومرة جيش) أي تنفع مرة ، وتضر أخرى .

الرياش : الرياش والريش الخصب ، والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر . وجاء في القرآن : ﴿**وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ**﴾[1] .

والريش شعر الأذن خاصة ، ورجلاً أريش كثير شعر الأذن ، وراشه الله ، يريشه ريشاً ، نعشه وتريش الرجل أصاب خيراً ، وحسنت حاله .

قال الشاعر :

فرشني بخيرٍ طالما قد بريتني وخير الموالي من يريش، ولا يبرى

البيان

خلق الله الإنسان من التراب من أعلاه ؛ لأن أعالي الأشياء أشرفها ، فالإنسان أعلاه رأسه ، وهو مركب مع جسمه تركباً حقيقياً ، وفيه معظم الحواس ، بل كلها ، وفيه سلطانها أيضاً وهو العقل . وقد تقدم بحث فيه إسهاب حول موضوع التراب .

ونضيف هنا ، أن خلق الإنسان بهذه الكيفية ؛ لأن الله يريد به خيراً ، فشدّه إلىٰ الأرض شدّاً وثيقاً ، فمنها يأكل ، ومنها يشرب ، ومنها يلبس ، ومنها يسكن ، ومنها يتمتع بأنواع المعاش وأصناف الرياش ، فهي مصدر كل خير ، وراحة وطمأنينة .

ولمّا أفاض الله الوجود على الإنسان أباح له الكثير من النعم ونهاه عن بعضها لسبب أو لآخر . إلاّ أن الإنسان بدافع التطفل مرة ، وبدفع التمرد

---

(١) سورة الأعراف / الآية : ٢٦ .

مرة ، وبدافع حب الاستطلاع مرة ، وبدافع الجشع والطمع مرةً أخرىٰ ، لم يقتنع بما قسمه الله إليه وأباحه له لمصلحة اقتضتها الإباحة ، أو لمضرةٍ اقتضاها النهي .

وحرص الإنسان كل الحرص منذ اليوم الأول الذي خلق فيه علىٰ أن يأكل من شجرةٍ واحدة كان الله قد نهاه عن الأكل منها بعد أن أباح له كل ما كان موجوداً في الجنة ، فعاد عليه حرصه إلىٰ أن أحرم جميع ما في الجنة من خيرٍ وبركة ونعيم ، قال تعالىٰ : ﴿**وَقُلْنَا يَا آدمُ أسكُن أَنتَ وَزَوجُكَ الجَنّة وَكُلا مِنهَا رَغَداً حَيثُ شِئتُما وَلا تَقرَبا هَذهِ الشَّجَرةَ فَتَكُونا مِن الظَّالِمِين * فأزلَّهُما الشَّيطَانُ عَنهَا فَأَخرجهُما مِمَّا كَانَا فِيه وَقُلنا اهبِطُوا بَعضُكُم لِبَعضٍ عدُوٌّ وَلَكُم فِي الأَرضِ مُستَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلىٰ حِين**﴾[1] .

وبهذا الإعتبار يمكننا أن نقول : إن تركيب الإنسان العضوي يختلف عن غيره من سائر المخلوقات الحيوانية والنباتية والجمادية ؛ وذلك لأن العناصر التي يتركب منها جسم الإنسان تختلف عن غيره . وهذه المواد تتعدد أيضاً تبعاً لفردية الجسم إنها تشيّد صروحاً وأنسجةً وأخلاطاً وأعضاء مؤقتة لا تفتأ تتداعىٰ ويعاد تركيبها إبان الحياة كلها ، وحينما تموت فإنها تعود ثانية إلى عالم الجماد .

وهناك مركبات كيميائية معينة تتخذ شكل صفاتنا الفردية ، والجنسية فتصبح ذاتنا حقاً ، بينما يعبر بعض هذه المواد الجسد ، وهي تساهم في الإبقاء على أنسجة الجسم ، دون أن تأخذ أياً من صفاتها ، إنها تتدفق في الجسم تدفق النهر الواسع ، وتأخذ الخلايا منها المواد اللازمة لنموها ، وصيانتها ، واتفاقها في النشاط .

---

(١) سورة البقرة / الآية : **٣٥ و ٣٦ .**

وإن لجلال الله وهيبته إجراء قوي في نشأة الإنسان حتى في تركيبه العضوي ، ويخالط ذلك الأرواح كما يخالط الأجسام ، ويذوب فيها كما يذوب الأكسجين أو النيتروجين المستمد من الطعام في أنسجتنا .

إن النعم التي أفاضها الباري على الإنسان لا تعد ولا تحصى ، وهي جديرة بالذكر والتعداد ، ولكنها تمتنع على المحصين من أن يحصوها ـ كما صرح بذلك التنزيل العزيز ـ في قوله تعالى : **﴿وإن تَعدُّوا نِعمَةَ اللَّهِ لا تُحصُوها إن اللَّهَ لغفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[1] .

---

(١) سورة النحل / الآية : ١٨ .

بعض النعم الظاهرة على الإنسان

فمنها بعد نعمة الإيجاد ، وخلقه لا من شيء أكان قبله .

أولاً : استمرارية الحياة ، ورعايته من المهد إلىٰ اللحد ،ولم يوكله إلى نفسه طرفة عين . فقد ورد عن أهل البيت « عليهم السلام » أن الله تبارك وتعالىٰ لو أوكل الإنسان إلى نفسه طرفة عين لهلك . وقد حث القرآن الكريم على التوكل على الله « تبارك وتعالىٰ » في كثير من آياته ، وذلك لكي يرتبط الإنسان بربه أكثر فأكثر ، وينشد إليه في جميع حالاته ، ليكون له خير معين قال تعالىٰ : ﴿ وَتوكَّل عَلَىٰ الحَيَ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وسَبّح بِحمدِهَ ﴾[1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَإذَا عَزَمتَ فَتوكَّل عَلَىٰ اللهِ إن اللهَ يُحبَ المُتوكّلِين﴾[2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وعَلَىٰ اللهِ فَتوكلُوا إن كُنتُم مُؤمِنِين ﴾[3] .

ثانياً : الأمان وهو نعمة من أعظم النعم ، فإنه قد منع من الإعتداء ووضع علىٰ ذلك الحدود ، وأوجب القصاص والزم بالديات لكي يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

---

(١) سورة الفرقان / الآية : ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران / الآية : ١٥٩ .

(٣) سورة المائدة / الآية : ٢٣ .

ثم إنه « تبارك وتعالىٰ » طالب الإنسان بالعدل في الحكم بعد أن إتصف بهذه الصفة ، وجعلها من أهم المباديء التي يركز عليها دين الله القويم ، قال تعالىٰ : ﴿ وإذَا حَكَمتُم بَينَ النَّاسِ أن تَحكُمُوا بِالعَدلِ ﴾[٤] وقال تعالىٰ : ﴿ إن اللهَ يأمُرُ بِالعَدلِ والإحَسانِ وإيتاء ذِي القُربىٰ ، ويَنهَىٰ عَن الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغي ﴾[٢] .

ثالثاً : الرزق الذي تعهد به لكل من خلق إنساناً كان ، أو حيواناً ، أو طيراً ، أو جنّاً ، وهو أظهر مصاديق النعمة التي أنعمها على كل موجود ، والتي أشار إليها في عبارة الدعاء بالتعدد بقوله « عليه السلام » (لم ترضى لي يا إلٰهي بنعمةٍ دون أخرىٰ) .

وقد ورد عن أهل البيت « عليهم السلام » بعد أن أفاض القرآن المجيد في ذكر هذا المعنىٰ ، في كثير من آياته ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وكَأين مِن دَابَّةٍ لا تَحمِلُ رِزقَهَا اللهُ يَرزُقُها وإيَّاكُم ﴾[٣] وقوله تعالىٰ : ﴿ يَا أيُّها الَّذِين آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّباتِ مَا رَزَقنَاكُم وَاشكُرُوا للهِ ﴾[٤] .

هذا ما جاء في الكتاب العزيز أما ما جاء عن أهل البيت «عليهم السلام» فهو كما ورد في كتاب الكافي ـ بحذف الإسناد ـ عن الباقر «عليه السلام» قال : قال رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلم» في حجة الوداع : ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا بالطلب ، ولا يحملنكم إستبطاء شيءٍ من الرزق أن تطلبوه بشيءٍ من معصية الله ، فإن الله تعالىٰ قسم

---

(١) سورة النساء / الآية : ٥٨ .
(٢) سورة النحل / الآية : ٩٠ .
(٣) سورة العنكبوت / الآية : ٦٠ .
(٤) سورة البقرة / الآية : ١٧٢ .

الأرزاق بين خلقه حلالاً ، ولم يقسمها حراماً ، فمن أتقىٰ الله وصبر أتـاه رزقه من حلّه ، ومن هتك حجاب ستر الله « عزّ وجلّ » وأخذه من غير حلّه قصر بـه من رزقه الحلال وحوسب عليه يوم القيامة .

وللعلمـاء في هذا البـاب أبحاث مختلفـة ، لا بأس بـأن نتعـرض إليهـا بشيءٍ من التفصيل فنقول :

قال شيخنا البهائي رحمه الله في كتاب الأربعين : الرزق عنـد الأشاعـرة كل ما انتفع به حي سواءٌ كان بالتغذي أو بغيره ، مباحاً كان أو حراماً . وخصه بعضهم بما يتربىٰ به الحيوان من الأغذية والأشـربة ، بمعنىٰ أن الأسمـدة التي يتغذىٰ بها النبات لا تكون من أنواع الرزق ، وعنـد المعتزلـة هو كـل ما صـحّ إنتفاع الحيوان به بالتغذي أو غيره ، وليس لأحدٍ منعه منه ، فليس الحرام رزقاً عندهم .

وقـال الأشـاعـرة في الـرد عليهم : لـو لم يكن الحـرام رزقـاً لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقاً ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزقُها ﴾[1] .

وفيه نظر : فإن الرزق عند المعتزلـة أعم من الغذاء ، وهم لم يشتـرطوا الإنتفاع بالفعل ، فالمتغذي طول عمره بالحرام إنما يرد عليهم لو لم ينتفع مدة عمره بشيءٍ إنتفاعاً محللاً ، ويشرب الماء ، والتنفس في الهواء بـل ولا تمكن من الإنتفاع بذلك أصلاً ، وظاهر أن هذا مما لا يوجد .

وقـال جمال الملّة والـدين الشيخ حسين آل عصفـور الـدرازي « رحمـه الله » في كتابه (محاسن الإعتقاد) : يقـال الرزق علىٰ مـا يصلح للإغتـذاء ، وعلىٰ الملك ، وعلىٰ المباح . فالمعتزلة والعدلية قـالوا : مـا صحّ الإنتفـاع به

---

(١) سورة هود / الآية : ٦ .

ولم يكن لأحدٍ منع المنتفع منه . وعلىٰ هذا فالحرام ليس برزقٍ ، وإنما جعله الله عوض ما فرض لهم من الرزق الحلال حيث أرتكبوا الحرام ، فالرزق يجوز طلبه ، بل قد يجب ، إذا توقف القوت الواجب عليه ، ودفع الضرر به .

وقال جماعة من الصوفية : لا يجوز طلبه لما فيه من معونة الظلمة بإعطاء الطعمات ، وبقوله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : (لو توكلتم علىٰ الله لرزقكم كما يرزق الطير في خطاها ، تعدوا خماصاً ، وتروح بطاناً) .

وفيه ضعف لمجيء الذم على ترك السعي ، وفيه الحرمان ، وتعريض النفس للدمار ، وتضييع العيلولة ، وإلقاء كلّه على الناس . فالطائر لا يأتيه رزقه إلاّ بالسعي ، وإن كان غير مكلف بالأحكام الشرعية . نعم لا يجب الكدج في الطلب ، والتهالك على المادة ؛ لأن ذلك يفقده الثقة بربه ، ويصرفه عن الواجبات الأخرىٰ ، فإن النفس لا تشبع من ملاّذ الدنيا وبهارجها ، وفي المأثور : لو كان لابن آدم جبلان من ذهب لتمنىٰ الثالث .

ومما تقدم يظهر معنىٰ ما جاء في عبارة الدعاء : (ورزقتني من أنواع المعاش ، وصنوف الرياش) فإنه في خطابه « عليه السلام » لربه نسب إليه الرزق ، وعندما ينسب الرزق إلىٰ الله فإن الله لا يعطي عبده ، ويرزقه إلاّ ما ارتضاه له ، ولا يرتضي له إلاّ ما كان حلالاً طيباً ، قال تعالىٰ : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[1] .

ولقد جاء عن أهل البيت « عليهم السلام » من الأخبار ما يدل علىٰ هذا بعد ظواهر الآيات القرآنية السابقة ، وغيرها مما لم يذكر :

(١) سورة الملك / الآية : ١٥ .

فمنها صحيح إبراهيم بن أبي البلاد ، عن أبيه ، عن الباقر « عليه السلام » ، إنه قال : ليس من نفسٍ إلاّ وقد فرض الله لها رزقاً حلالاً ، يأتيها في عافية ، وعرّض لها بالحرام من وجه آخر ، فإن هي تناولت من الحرام قاصّها من الحلال الذي فرضه لها ، وعند الله سواهما فضل كبير .

وفي مرفوعة إسماعيل ـ بن كثير ـ كما في العياشي ـ عن النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » قال : لمّا نزلت هذه الآية ﴿ **واسألوا الله مِن فَضِله** ﴾[1] قال : فقال أصحاب رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : ما هذا الفضل ؟ أيكم يسأل رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » عن ذلك ؟ فقال علي بن أبي طالب « عليه السلام » : أنا أسأله . فسأله عن ذلك الفضل ما هو ؟ فقال رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : إن الله خلق خلقه ، وقسّم لهم أرزاقهم من حلّها ، وعرّض لهم بالحرام . فمن انتهك حراماً نقص له من الحلال بقدر ما أنتهك من الحرام ، وحوسب به . إلى غير ذلك من الأخبار .

والظاهر أن الله « سبحانه » قدّر في الصحف السماوية لكلٍّ رزقاً حلالاً بقدر ما يكفيه ، بحيث إذا لم يرتكب حراماً وطلب من الحلال ، سبب له ذلك ، ويسره ، وإذا إرتكب الحرام فبقدر ذلك يمنع ما قدر له .

وكذلك الرواية الواردة عن أبي جعفر « عليه السلام » عن النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » المتقدمة .

---

(١) سورة النساء/ الآية : ٣٢

أقوال أخرىٰ في الرّزق

لقد جرىٰ كثير من الكلام فيه الأخذ ، والرد حول مسألة الـرزق ، وذلك لاعتباره من أهم مقومات الحياة ، كما يعتبر شيئاً ضرورياً لإستمراريتها ؛ ولأنه كان كذلك فإن الله لم يوكله إلى أحد من خلقـه ، ولكنه ضمنـه لهم من بدايـة حيـاتهم إلى نهايتهـا ، واباح لهم طلبـه من حيث أمرهم بـذلـك ، ومنعهم من إكتسابه من طريق الحرام ، كالنهب ، والسلب ، والسرقة ، والإبتزاز ، والخ .

ولهـذا وقـع الإختـلاف في المـال المكتسب من الحـرام هـل هـو من الرزق ؟ تعددت في ذلك أقوال المفسرين حول آيات الرزق ، وكـذلك أقـوال المتكلمين في ذلك .

فقد قال الشيخ الطوسي في التبيـان في تفسيره لآيـة الرزق ، وهي قـوله تعالىٰ : ﴿ وَمِمَا رَزَقناهُم يُنفِقُونَ ﴾[1] ما حاصلة : إن الحرام ليس رزقاً ؛ لأنه « سبحـانـه » مـدحهم بـالانفـاق من الـرزق ، والإنفـاق من الحـرام لا يـوجب المدح .

وقـد يقال : إن تقـديم الظرف يقيـد الحصر ، وهـو يقتضي كون المـال

---

(١) سورة البقرة / الآية : ٣ .

المنفق على ضربين : ما رزقه الله ، وما لم يرزقه . والمدح إنما هو على الإنفاق مما رزقهم الله ، وهو الحلال لا مما سوّلت لهم أنفسهم من الحرام ، ولو كان كل ما ينفقون رزقاً من الله « سبحانه » لم يستقم الحصر .

وقال العلامة المجلسي في البحار ، بعد نقل كلام البهائي المتقدم ، أقول : إن كان المراد بقولهم : رزقهم الله الحرام أنه خلقه ومكنهم من التصرف منه فلا نزاع أن الله « تعالىٰ » رزقهم بهذا المعنىٰ ، وإن كان المعنىٰ إنه المؤثر في أفعالهم وتصرفاتهم في الحرام فهذا إنما يستقيم على أصلهم الذي ثبت بطلانه ، وإن كان الرزق بمعنىٰ التمكين وعدم المنع من التصرف فيه بوجه ، فظاهر أن الحرام ليس برزقٍ بهذا المعنىٰ على مذهب من المذاهب ، وإن كان المعنىٰ أنه قدّر تصرفهم فيه فهو باطل .

هذا مجمل مما قاله بعض علمائنا « رضوان الله عليهم » .

وجاء في تحقيق هذا المقام بصورة أخرىٰ ، فقد ذكر ذلك شيخنا جمال الملّة والدين الشيخ حسين آل عصفور الدرازي البحراني في كتابه (محاسن الإعتقاد) قال : (وتحقيق الكلام إنه إن كان المراد من قولهم : رزقهم الله الحرام إنه خلقه ومكنهم من التصرف فيه فلا نزاع في أن الله رزقهم بهذا المعنىٰ .

ثم إن الأحاديث الواردة عن أهل البيت « عليهم السلام » دالة علىٰ أن الأرزاق إنما قسمت ، وقدّرت حلالاً ؛ لأن الله سبحانه لا يرضىٰ بما حرم .

ومن هنا ورد النهي عن مكاسب كثيرة، وإن ترتب عليها الأرزاق، الكثيرة الدّارة ، وربما جاءت بعض الأخبار في إطلاقها الرزق علىٰ الحرام ـ كما رواه صفوان بن أُمية ـ قال : كنا عند رسول « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » إذ جاء

عمر بن قرة ، فقال : يا رسول الله ، إن الله قد كتب عليّ الشقاوة ، ولا أراني أرزق إلا بدين من كفر ، فأذن لي في الغناء من غير فاحشة ، فقال « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : لا إذن لك ، ولا كرامة ، ولا نعمة . أي عدو الله ! لقد رزقك طيباً ، فاخترت ما حرم عليك من رزقه مكان ما أحلّ لك من حلاله .

أما أنك لو قلت بعد هذه المقالة ضربتك ضرباً وجيعاً .

ولو نظرنا مرة ثانية إلى سياق عبارة الدعاء الواردة في هذه الفقرة بتأمل وإمعان لرأينا أن (الرياش) أخص من (المعاش) ، آوهما بمعنىً واحد على بعض الأقوال ، وذكر الأخص بعد الأعم يدل على التوكيد كما تقول : فلان مسلم ومؤمن ؛ لأن (الرياش) بهذا المعنىٰ هو وفور النعمة وزيادتها عن حاجة الإنسان ، فكأن معنىٰ قوله « عليه السلام » : رزقتني من أنواع المعاش الذي أنا في حاجة إليه ، من الأكل والشرب واللباس والمسكن ، ثم قال « عليه السلام» : وصنوف الرياش التي هي زيادة عن حاجتي تلك ، لأنك تريد أن تمننّ عليّ بهذه الزيادة وذلك لأنك أعطيتني فوق ما أستحق بتفضلك وإحسانك . وهذا من أنواع الإبتلاء ؛ لأن الرزق بمقدار الحاجة لا يصرف إلّا فيها ، وأما الزيادة عن الحاجة في الرزق فهي التي يبتلىٰ بها الإنسان ويختبر .

أما المن فكما مرّ تفسيره : هو العطاء بدون مقابل ، وقد وصف « عليه السلام » هذا المن بأنه عظيم لأنه من الله للعبد ، فهو عندما يعطي فإنه لا يعطي قليلاً ولو كان عمل الإنسان كذلك ، وقد ورد في الدعاء المأثور : (يا من يعطي الكثير بالقليل) .

وبهذا يظهر لك الكلام المعقب بهذا الكلام وهو (الإحسان القديم) الذي مر عليه زمان ، أو بمعنىٰ آخر وهو محتمل جداً أن الإحسان من صفات الذات المقدسة لأنها من الصفات الحسنة .

ويظهر من المعاني المتعددة في اللغة أن القديم تختلف بإختلاف إستعمالاتها والقرائن الدالة عليها كما أن العلوم المختلفة التي تستعمل فيها هذه الكلمة تخالف بعضها البعض ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَالقَمَرَ قَدَّرناهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالعُرجُونِ القَدِيمِ** ﴾[1] أن المعنىٰ في الآية هو ما مر عليه ستة أشهر ، كما ورد ذلك عن الإمام الرضا « عليه السلام » عندما سأله أحدهم عن نذرٍ نذره بأن يعتق كل مملوك قديم ، فقال : كل مملوكٍ مرت عليه ستة أشهر فهو قديم ، ثم إستشهد بالآية الكريمة السابقة .

---

(١) سورة يٓس / الآية : ٣٩ .

قال عليه السلام :

[حَتَّىٰ إذَا أتْمَمْتَ عليَّ جميعَ النّعمِ ، وَصَرفت عنِّي كلَّ النِّقمِ لمْ يمْنَعكَ جَهْلي وجرأتي عَليكَ انْ دللتني علىٰ ما يُقرّبني إليكَ ، ووفقتني لما يزلفني لديكَ ، فإنْ دعوتُك أجبتني ، وإنْ سألتكَ أعطيتني ، وإنْ أطعتكَ شكرتني ، وإنْ شكرتُكَ زدتني ، كلّ ذلك إكمالاً لأنعمكَ عليَّ ، وإحسانِكَ إليَّ] .

اللغـــة

النقم : جمع نقمة وهي المكافئة بالعقوبة ، والنقمة الإنكار وجاء فيما نسب إلى الإمام علي « عليه السلام » :

ماتنقم الحرب العوان منّي بازل عامين فتيُ سنّي وقال الجوهري : نقمت على الرجل أنقم بالكسر فأنا ناقم إذا عتبت عليه ،وانتقم الله منه أي عاقبه ويأتي الجمع نقمات مثل كلمة وكلمات . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة السجدة / الآية : ٢٢ .

الجرأة : هي الشجاعة ورجل جريء مقدم ، والجريء المقدام وتجرأ عليه واستجرأ جرأةً أي جريء عند الإقدام ، وجرّاء عليه بوزن علماء جمع جريء أي متسلطون غير هائبين .

يزلف : الزلف ، والزلفة ، والزلفىٰ القربة ، والدرجة ، والمنزلة قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا أَموالكُم وَلاَ أَولادُكم بِالتَّي تُقَرِّبُكُم عِندَنَا زُلفَىٰ** ﴾[1] .

وزلف إليه وازدلف وتزلف دنىٰ منه ، قال أبو زيد :

حتىٰ إذا أعصوصبوا دون الركاب معاً دنىٰ تزلف ذي هدمين مقرور

وأزلف الشيء أي قربه ، قال تعالىٰ : ﴿ **وأُزلِفَتِ الجَنَّةُ لِلمُتَّقِينَ غَيرَ بَعِيدٍ** ﴾[2] .

والمزدلفة موضع بين منىٰ وعرفات يقف به الحاج ما بين الطلوعين ، قيل سميت لاقتراب الناس إلىٰ منىٰ بعد الإفاضة من عرفات . وزلف الليل ساعات من أوله .

البيـــان

إن النعم التي يهبها الله للإنسان يقف أمامها حائراً ، لا يعرف بأيها يبدأ في الشكر ، إذا كان الإنسان قد تأملها واعترف بها .

هـذه النعم ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها . والإعتراف بها ، والقيام بحقها وهو الشكر لله « تعالىٰ » عليها هو نوع من المحافظة عليها .

وقد مر في بحثٍ متقدم من هذا الجزء بأن شكر المنعم واجب ، والشكر ليس معناه القول دون الفعل ، فإن تأدية حق النعمة ليس بالكلام فقط ، وإنما هو إخراج ما في ذمة الفرد من حق الله تعالىٰ من زكاة وصدقات

---

(١) سورة سبأ / الآية : ٣٧ .

(٢) سورة ق / الآية : ٣١ .

وخمس ، إذا كانت النعمة مالاً ، وغيرها ما يناسبها ، كل ذلك مضاف إلىٰ الثناء والحمد بالقلب واللسان .

وفي سياق هذه العبارة عرض « عليه السلام » كيفية الإعتراف بالنعم ، وكيف صرف الله عنه النقم التي هي عبارة عن كل ما يؤذي الإنسان في حياته ، وبذلك يكون تمام الإحسان ؛ لأن النعم لو تمت علىٰ الإنسان وبقي يتقلب فيها ليلاً نهاراً ، ولكن لم يصرف عنه الأذىٰ والآلام التي تعتريه عادة في مكابدته للحياة التي خلق فيها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ لَقَد خَلَقنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾[1] فإن النعم والحال هذه لا تخلو من كدر . فتمام النعمة علىٰ الإنسان هو صرف كل ما يغايرها مما ينافي في الراحة اللازمة لتلك النعم .

ونستطيع أن نوجه هذا المعنىٰ توجيهاً تاريخياً عقائدياً إلىٰ ما تشير إليه الآية الكريمة النازلة يوم غدير خم ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً ﴾[2] . وهو أن ولاية أمير المؤمنين المنصوص عليها في كتاب الله في مواضع كثيرة منه يكون بها كمال الدين ، وتمام النعمة ، ومعنىٰ ذلك : زوال كل العقبات الموجودة أمام الإنسان ، وإزاحة الحواجز التي تمنعه من الوصول إلى رضا الرب « سبحانه » وهذا ما يشير إليه قوله تعالىٰ : ﴿وَأَن لَوِ استَقَامُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ لأسقينَاهُم مَّاءٍ غَدقَا﴾[3] .

وبما أن هذا الحدث هو تحول في تاريخ الإسلام كبير ، وقد بقي هذا محلاً للأخذ والرد ، والنقض والإبرام ، والتحليل والتأويل ، والنفي والإثبات بإملاء الأهواء والأنانيات والأحقاد ، على كثرة ما ورد في ذلك من الأدلة النقلية والعقلية ، حتىٰ لقد أصبح من القضايا البديهية التي تكون قياساتها معها .

(١) سورة البلد / الآية : ٤ .
(٢) سورة المائدة / الآية : ٣ .
(٣) سورة الجن / الآية : ١٦ .

ومع كل هذا فإنا نود أن نشير إلى تلك الإثارة من العلم التي رواها الجم الغفير من العلماء على إختلاف مذاهبهم الإسلامية إشارة عابرة ، لكي لا يخلو كتابنا هذا من ذكرها ، ومن أراد المزيد من الإضطلاع فليرجع إلىٰ هذا الموضوع في مصفاته التاريخية المختصة فنقول :

قال الترمذي في صحيحه عن زيد بن أرقم آخىٰ رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » بين أصحابه ، وترك علياً ، فجاءة تدمع عيناه وقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد ، فقال له النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : أنت أخي في الدنيا والآخرة . ثم قال : أيُّها الناس من كنت مولاه فعلي مولاه ، وزاد غيره من نقله الأخبار ذكر اليوم الذي نصب فيه رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » علياً « عليه السلام » علماً وإماماً للناس ، وأكد عليهم البيعة لأمير المؤمنين « عليه السلام» ، وأنكروا إسم الموضع الذي قال فيه الحديث المتقدم ، وذكر الزمان وكيفيته ، وأثبتوه في روايات ، ووثقوا رواته من طريق المخالف والمؤالف ، بعد ما أفاض من عرفات ، ونفر من منىٰ قالوا جميعاً : فأمّا المكان فهو ما بين مكة والمدينة ، قبل الربذة[1] وبعد رابغ[2] .

---

(١) الربذة : ـ قيل سميت باسم جبلٍ عندها ، وقال ابن الكلبي عن الشرقي : الربذة وزرود والشقرة بنات يثرب بن قانية بن مهليل بن أرم بن عبيل بن ارنخشد بن مسام بن نوح « عليه السلام » . والربذة من قرىٰ المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة ، وإليها نفي أبو ذر الغفاري ومات بها سنة ٣٢ هجرية وهي من منازل الحاج بين السليلة والعمق وقد خربت في سنة ٣١٩ هجرية بسبب إتصال الحروب بين أهلها وبين بعض القبائل . ذكر ذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان .

(٢) رابغ : ـ وادٍ يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة دون عزور وقال ابن السكيت رابغ وادٍ من دون الجحفة يقطعه طريق الحاج من دون عزور . وقال الحازمي : بطن رابغ وادٍ من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب ، وقال الواقدي : هو على عشرة أميال من الجحفة في ما بين الأبواء والجحفة ، وقد ذكر في كثير من أشعار العرب . قال كثير .

أقول وقد جاوزن من صدر رابغ   مهامه غبراً يفرع الأكم آلها

وأمّا الأسم فغدير خم ، وأمّا اليوم فهو الثامن عشر من ذي الحجة الحرام ، والمكان لم يصلح للنزول لعدم الماء والكلأ ، وإن أكثر من حضره ليلف رادءه علىٰ قدميه فسمي ذلك اليوم يوم غدير خم . واشتهر بين الطائفتين بأسمه وفضله إلىٰ يوم القيامة . وسمّاه رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » (غدير عيدٍ وسرور) بإكمال الدين وإكمال النعمة ، ورضا الرب على من عرفٍ حقه ، وسخط على من رام الغميزة فيه . وسمّاه أيضاً (يوم موسم) .

النص الجلي يوم الغدير

قال البراء بن عازب : كنا مع رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » في سفره ، فلما جزنا من مكة « شرفها الله » وجودنا السير طالبين المدينة ، وإذا به قد نزل بنا في غدير خم[1] ، فنودي فينا الصلاة جامعة . وكسح لرسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » تحت شجرتي ، فصلىٰ بنا الظهر ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب « عليه السلام » وقال : أيُّها الناس أتعلمون أني أولىٰ بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلىٰ . قال : فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه . اللهم والي من والاه ، وعاد من عاداه . أيها الناس : إن أفضل

---

(١) خم : بئر لكلاب بن مرة ، سمي بذلك لنقائه . وقال الزمخشري : خم : إسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذي هو بين مكة والمدينة بالجحفة ، وقيل هو على ثلاث أميال من الجحفة . وذكر صاحب المشارق ، أن خماً إسم غيضة هناك ، وبها غدير نسب إليها . وقال عرّام : دون الجحفة على ميل غدير خم ، وواديه يصب في البحر . وهو وادٍ لا نبت فيه غير المرخ ، والثمام والأراك ، والعشر . وجاء ذكره في شعر معن بن أوس المزني حيث قال :

عفا ، وخلا ممن عهدت به خمُّ   وشاقك بالمسحاء من شرف رسمُ

وقال الحازمي : خم واد بين مكة والمدينة عند الجحفة ، به غدير ، عنده خطب رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » . وهذا الوادي موصوف بكثرة الوخامة . وكان الناس يأتون خماً في الجاهلية والإسلام في الدهر الأول يتنزهون به . هكذا ذكره ياقوت في المعجم .

الكـلام قول : لا إلٰـه إلاَّ الله ، وأنـا أول من قـالهـا ، وأنـا نـور بين يـدي الله تعالىٰ ، أوحده ، وأمجده ، وأهلله ، وأكبره ، ويتلوه شاهد منـه . فقالـوا : يا رسـول من الشاهـد الـذي منـك ؟ قـال : هـو علي بن أبي طـالب فـإنـه أخي ووصيي ، وخليفتي ، ووزيـري ، ووارثي ، وقـاضي ديني ، وإمـام أمتي ، وصاحب حوضي ، وإمام المتقين ، وحامل لوائي ، قالوا : فمن يتلوه ؟ قال : الحسن والحسين والأئمة من ذرية الحسين « عليهم السلام » إلىٰ يوم القيامة .

وفي هذا اليوم نزلت الآية الكريمة المتقدمة ﴿ **اليَومَ أَكملتُ لَكُم دِينَكُم وأتمَمتُ عَلَيكُم نِعمتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلاَمَ دِيناً** ﴾[1]وقد جرىٰ ذكر هذا اليوم في تأريخ الإسـلام مجرىٰ الـدم في العروق ؛ وذلـك لأنه قـد رسم للمسلمين الخـطوط العريضـة للمستقبل ، وكشف لهم عن المجهـول الغامض ليتـرسموا الطريق اللاحب .

أما الأدلة النقلية على هذه المأثرة الإسلامية فكثيرة. فإن الآيات القرآنيـة المتـوافرة تنـادي بذلـك . والأحاديث الـواردة عن النبي « صلّىٰ الله عليه وآلـه وسلم » من طـرق الفريقين تجـاوزت الإحصاء أن تـأويلها بخلاف الـظاهـر لا حاجة إليها بعد وضوح معالمهـا وثبوت روايـاتها التي لا تحتـاج في فهمها إلىٰ شيء من التكلف .

وأما الأدلة العقلية فإنا وإن لم نكن في حاجة إليها بعد كلام الله ، وكلام رسوله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » لكي ينبغي الإشارة إلى أمور منها :

الأمر الأول : إنه لو لم يكن إلاَّ نزوله « صلّىٰ الله عليه وآلـه وسلم » في ذلك المكان على غيـر ماءٍ وكـلاً في ذلك السمـوم اللافـح وفي شمس تضرب بـأشعتها تلك الصحـراء الجرداء ، فيتبخـر ما كـان فيها من نـداوةٍ في التـراب

(١) سورة المائدة / الآية : ٣ .

ويـذبـل فيهـا مـا ينبت من شجـر فتنحسـر عنـه أوراقـه بفعـل سيـاط الشمس الملتهبة . وتتلاشىٰ الحياة فلا ترىٰ زرعاً ولا ضرعاً . إن النـزول في مثل هـذا المكان مع عدم صلوحه للنزول ولا بدّ وأن يكـون لامر عـظيم وشيء خطيـر ، وهـو ما جـرىٰ في ذلك المكـان من إخبار النـاس بمقـام علي بعـد رسـول الله « صـلّىٰ الله عليـه وآلـه وسلم » كمـا بلّغ ذلـك النبي « صلّىٰ الله عليـه وآلـه وسلم » في علي عن الوحي المنزل .

الأمر الثاني : هو أن الرسول قد نعيت إليه نفسه ليلتحق بالرفيق الأعلىٰ ، فـلا بد لـه من قيم على الشريعـة لمواصلة هـذه المسيرة الضخمـة التي كابـد رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » ، حوادثها ، وما جرته من حروب طيلة عمر الرسالة قبل وفاته « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » ، فلا يمكن التفـريط بترك الأمر تتلاعب به الأيدي والأهواء ، وبذلك يرجع المد الإسـلامي الزاحف إلى الإنحسار ، وتعود الدعوة بعد تقدمها القهقري .

الأمر الثالث : أن المنـافقين المندسين في صفـوف المسلمين لا زالوا ـ على قلتهم ـ يتـربصون بـالمسلمين والإسلام الـدوائر ، ويتـوكفون الأخبـار[1] للإنقضاض على المسلمين عند أول فرصة تتناسب وتحقيق مآربهم الذاتيـة من حيث يعلمون ، أو لا يعلمون ، وهذا مـا حدث بـالفعل ، وهـو الذي أنـذر به القرآن وحذر الناس من مغبة فعل ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا مُحمَّد إلاَّ رَسُـولٌ قَد خَلَت مِن قَبلِهِ الرُّسُـلُ أَفإن مَّـاتَ أو قُتِلَ انقَلَبْتُم عَلَىٰ أَعقَـابِكُم وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبيهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيئاً وَسَيَجزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾[2] .

الأمر الرابع : إن الإسلام في ذلك الظرف يحتـاج إلى رعايـة خاصـة ،

---

(١) لقد أشارت إلى ذلك الزهراء « عليها السلام » في خطبتها الشهيرة بقولها : (وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون تتربصون بنا الدوائر ، وتتوكفون الأخبار . . الخ) .

(٢) سورة آل عمران / الآية : ١٤٤

لأنه لم يبلغ بعد إلى درجة القوة الضاربة على جميع الجبهات ، فيحتاج إلى من هو كفء لرعاية المسيرة الإسلامية الغضة لكي يتخطىٰ بها الحواجز في زحف صاعد .

وهكذا نجد في هذه الأسباب وغيرها مما لم يذكر الحاجة الملحة لتعيين المسؤول الأول بعد النبي عن الشريعة . فمن المحتم أن يكون المسؤول ينصب بملأ من الناس ، وفي محفل عام شامل لكي ينقل ذلك الخبر أكبر عدد من المسلمين إلى أقطارهم ؛ لتتم بذلك الحجة لله على الناس كافة ، وهذا ما أمر الله به نبيه يوم غدير خم في قوله تعالى : **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾**[1] .

• أما الشعراء الذين سجلوا هذه المأثرة في ذلك اليوم ، والشعر الذي وصل إلينا مما قيل في ذلك الموقف فهم كثيرون وهو كثير ، فمنهم من حضر ، ومنهم من لم يحضر ، ومنهم من عايش ذلك الزمان ، ومنهم من جاء بعده ؛ لأن هذه المأثرة قد تخطت حواجز التاريخ ، ولا زالت تتخطاه ما كتب الله لها البقاء .

فمن ذلك ما جاء في ذلك الحال على لسان حسان بن ثابت :

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخمٍّ واسمع بالنبي مناديا
وقد جاءه جبريل عن أمر ربه ... بأنك معصوم فلا تك وانيا
وبلغهم ما أنزل الله ربهم ... إليك فلا تخش هناك الأعاديا
وقام به إذ ذاك رافع كفه ... بكف علي معلن الصوت داعيا
وقال فمن مولاكم ووليكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاديا
إلٰهك مولانا وأنت ولينا ... ولا تجدن فينا لك اليوم عاصيا

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٦٧ .

فقال له قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وآل وليه وكن للذي عادى علياً معاديا
فيا رب انصر ناصريه لنصره إمام هدىٰ كالبدر بين الدياجيا

ومن أولئك الشعراء كمال الدين محمد بن طلحة الشامي قال في هذه المناسبة :

أصغ واستمع آيات وحي تنزلت بمدح إمامٍ بالهدىٰ خصه الله
ففي آل عمران المباهلة التي بإنزالها أولاه بعض مزاياه
وأحزاب حميم وتحريم هل أتىٰ شهود به أثنىٰ عليه فزكاه
وإحسانه لما تصدق راكعاً بخاتمه يكفيه في نيل حسناه
وفي آية النجوىٰ التي لم يفز بها سواه سنا رشد به تم معناه
وأزلفه حتىٰ تبوأ منزلاً من الشرف الأعلىٰ وآتاه تقواه
وأكنفه لطفاً به من رسوله ترادف إشفاقاً عليه فرباه
وأرضعه أخلاق أخلاقه التي هداه بها نهج الهدىٰ ثم أولاه
وزوجه الطهر البتول وزاده بأنك مني يا علي وواخاه
وفضله لما ارتقىٰ فوق كتفه إلىٰ سطح بيت الله لما تبواه
إلىٰ الهبل الأعمى وقال اقذفن به إلى الأرض مكسوراً أجاب وإياه
وشرفه يوم الغدير وخصه بأنك مولىٰ كل من كنت مولاه
فمن ذا يضاهي المرتضى علم الهدىٰ وكتف رسول الله واسته رجلاه
ولو لم يكن إلّا قضية خيبر كفت شرفاً مما أحاطت سجاياه

وممن أجاد في هذا الموضوع الشاعر المسيحي بولس سلامة صاحب الملحمة الكبرى (عيد الغدير) قال من جملة قصيدة :

بلغ العائدون بطحاء خم فكان الركبان في التنور
عرفوه غدير خم وليس الغور إلا ثمالة من غدير
أي مستنقع وخيم كأن الماء فيه غضارة من قير
بلغوه لا يحمزرون مقيلاً بل يحثون نوقهم للمسير
وإذا بالنبي يرقب شيئاً وهو في مثل جمدة المسحور
جاء جبريل قائلاً: يا نبيّ الله بلغ كلام رب مجير
أنت في عصمة من الناس فأشر بينات السماء للجمهور
وأذعها رسالة الله وحياً سرمدياً وحجة للعصور

ثم استطرد في ذلك وأسهب في تفصيل ما قاله النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في حق على ذلك اليوم إلى أن قال :

ثم إني وليكم منذ كان الدهر طفلاً حتى زوال الدهور
يا إلّهي من كنت مولاه حقاً فعلي مولاه غير نكير
يا إلهي وال الذين يوالون ابن عمي وانصر حليف نصيري .
كن عدواً لمن يعاديه واخذل كل نكس وخاذل شرير
قالها آخذ بضبع علي رافعاً ساعد الهمام الهصور
لاح شعر الإبطين عند اعتناق الزند للزند في المقام الشهير
فكأن النبي يرفع بند العز عيداً للقائد المنصور
راوياً للزمان فضل علي باسطاً للعيون حق الوزير

ومما جاء في هذا الموضوع أيضاً مما قلته من جملة قصيدة طويلة ألقيت في كثير من الاحتفالات :

فإن أردت العلا فامسك معاقدها من حيدر فهو للعلياء قد رسما
نفس النبي التي لو أنها انقسمت نفسين لأنهار هذا الدين وانقسما

فأعجب لجسميهما والنفس واحدة كلاهما سيد لله درهما
أخوّة عقدت منذ الوجود على هام الوجود شعار العز فاتسما
لا فرق بينهما في المكرمات سوى طوق النبوة إذ طه به وسما
من بعد هذا فقل طه وحيدرة شقا يراع على طرس قد التأما
هما الوجود وإني لم أقل شططاً إن قلت هذا اعتقاداً والوجود هما
ماذا أقول لمن بالحشر قولهما فصل الخطاب وحكم الله حكمهما؟

* * *

فاسمع حديثهما يوم الغدير وقل سبحان من علم الإنسان ما علما
عاد الحجيج وقد أدىٰ مناسكه وودع الطهر طه البيت والحرما
وصاحب المصطفىٰ في السير منحدراً نحو الغميم كبحر هاج فالتطما
ضجت رؤوس الربا وانهد قائمها فالركب فوق الربا والبيد قد رسما
وثار شبه سحاب غير ذي مطر فذاك وجه الثرىٰ ناراً قد اضطرما
والشمس تقسو شظاياها ولاهبها وربّ قاس من الأشياء قد رحما
لو حلق الطير لانحصت قوائمه وانحل منسره فيها وما سلما
والوحش لو رامها خارت عزائمه فالشحم ليس يساوي عنده الورما
فلا يعيد سراباً عنه مبتعداً كالماء في لمعه فوق التلال طما
لا تطمح النفس في زرع بلا ثمر فلا حياة بأرض تنبت السلما
فارحل عن الأرض إن جفت نضارتها فالخير في بلدٍ فيه السحاب هما
والعيش في الذل إثم وهو منقصة لكنما المرء يرضاه وإن أثما

* * *

وشارف الركب أرضاً في مناكبها أسالت الشمس من نيرانها حمما
لا يستطيع نزولاً غير منتعل فالحر فيها يذيب الصخر والأدما
لكن أمر السما قد جاء يحمله جبريل عن ربه فيه الفخار سما

قف حيث أنت وبلغ ما أتيت به	يا سيد الخلق وانصب حيدراً علما
«لا يصلح الناس فوضىٰ لا سراة لهم»	إن السرى ليمضي بالورىٰ قدما
يخوض كل مخوف وهي آمنة	فالأسد في غابها لا تأمن العدما
فتلك تهلك من جوعٍ ومسغبة	والكلب تنطف كلتا راحتيه دما

* * *

وأوقف الركب والأنفاس صاعدة	نحو السماء وذاك الجمع قد وجما
واستنزل الناس كي يروي لأمته	حديث ماضي ويحصي الدهر والأمما
وسوي المنبر السامي الذي شخصت	له النواظر لما بينهم نجما
وقام يخطب في الجمع الغفير فقل	رعد تحدر لكن يرسل النغما
يحكى لهم هفوات الدهر صارخة	لكنه إذ جنى في الناس ما ندما
أين الأولى ملكوا الدنيا فما لبثوا	إلا يسيراً وعاد الملك منهدما
وأين فرعون ذو الأوتاد حيث طغى	قد فارق النيل رغماً منه والهرما
ومن بنى السد لا يرجو به عوضاً	أو من تجبر في التاريخ أو ظلما
قد ينكر المرء ما يأتي به فرحاً	خوفاً من الشر والبلوى إذا أثما

* * *

وقام طه علىٰ الأحداج يعلن ما	بين الحجيج لأمر كان منكتما
بجنبه حيدر كالبدر مقترناً	بالشمس في فلك والناس حولهما
نور تضاعف لكن بالعيون قذىٰ	لا تبصر النور لا بل بالعيون عمىٰ
قد بان إبطاهما والشمس شاهدة	بل أمر حيدرة أجلىٰ وإن بهما
يقول يا أمة القرآن هيت لكم	حذار أن تتبعوا إن سرتم الأمما
أو تحسدوا غيركم في الفضل إن وطأت	رجلاه فوق السهىٰ إن غيره حرما
أو قارنت كعبه أفق السما شرفاً	أو صادفت فعله العيوق فاصطدما
فإنما أهلك القوم الأولىٰ غبروا	نياتهم والنوايا تخلق الكلما

والعين تـرمي بسهم من كنـانتهـا | لكن يعـود علىٰ الإنسـان حيث رمىٰ
الحقـد نـار تـذيب القلب سـودتـه | إن جـاور النار جزل عـاد مضـطرما

* * *

هـذا علي أخي من بعـد مفتقـدي | أقـامـه الله فيمـا بينكـم حكـمـا
هذا الذي قد حمىٰ الإسلام صارمه | أعـظم بـه بـطلاً للدين كـان حمىٰ
هذا الذي ردّ كيـد الكفر فـانجذعت | أنف الفسـاد وأمسىٰ الكفر منحـطمـا
هـذا هـو الحق لا ريب ولا جـدل | فحيـدر والهـدىٰ لا فـرق بينهمـا
قـد وحـد الله والأقـوام مشـركـة | بـربهـا تعبـد الأوهـام والصنمـا
«لـو أن عبداً أتىٰ بـالصالحـات غداً» | بـدون حب على الـطهر مـا سلمـا
فـاستعصمـوا بعلي فهـو معتصم | أكـرم بحب امرءٍ قـد كـان معتصما
واستنـزلـوا بـولاه الـخيـر أن لـه | عنـد الجليـل مقاماً قـد عـلا وسمىٰ
واستـدفعوا الشر في الدنيـا بطلعتـه | فوجهه شمس قـدس تكشف الظلمـا
فالبرق يخصب بالوادي فحيث سرىٰ | أتىٰ بخيـرٍ إذا مـا حـزنـه انسجمـا

* * *

من كنت مـولاه ذا مـولاه وهـو على | شـريعتي قيم بـدءاً ومختـتـمـا
فـوال يـا ربِّ من والىٰ أبـا حسـنٍ | واحرم من الخير مَنْ مِنْ حبه حرمـا
وانصـره نصـراً عـزيـزاً دائمـاً أبـداً | إن قـام يـومـاً من الأعـداء منتقمـا
وعـاد كـل عـدو لـلوصي فـفـي | عـدائه نـدم لا يـشبـه الـنـدمـا
وارحم عبادك واجمع شمـل فرقتهم | فـأنت أجـدر من أعطىٰ ومن رحمـا
حمـداً إلٰهي حمـداً لا يعـد فقـد | أتممت فضـلاً علينـا الخيـر والنعمـا
واجعل علياً مـع الحق الصراح أخـاً | قـد نـاصـر الحق محمـوداً يـداً وفمـا
كم مـوقف صفق المجـد التليـد بـه | لحيـدر فبـه المجـد التليـد سما
فـاجعله حصنـاً لهـذا الـدين إن لـه | مـواقفاً قـد تسامت في الـورىٰ كرمـا

هـذا بـلاغ لأمـرٍ فـي أبي حـسـن وما رميت ولـكـن الإلّـه رمـىٰ

* * *

إن ما قدمنا من حديث مسهب حول موضوع الغدير واستعراض الروايات المختلفـة من طـرق الفـريقين والتي تصب في مكـان واحـد على اختـلاف الألفاظ ، واختلاف الرواة ، واختلاف العصور إنما نـريد أن نقـول إن ذلك لا يقبل التأويل والتحوير بعد أن قامت الشواهد الدالـة بوضـوحٍ علىٰ الغرضِ من كل ذلك وهو نصب علي بن أبي طالب وتعيينه إمامـاً للناس وعلمـاً ، ومن قال غير ذلك فهو مفترٍ كذاب قد أنكر شهادة ثمانين ألفاً من الحجـاج الذين واكبـوا رسـول الله إلىٰ ذلك المفتـرق من الطرق الـذي استوقفهم فيـه بأمـر الله العلي القدير .

أما الإنسان من جـانبه فهـو ينكر النعم ظـاهرة وبـاطنة ، وقـد جبل على ذلك منذ أن وجد على ظهر الأرض ، وأشار «عليه السلام» في الفقرة المتقدمة إلىٰ هذا النكران ، معرضاً بالدوافع التي توصل الإنسان إلىٰ هذا الموقف فيمـا بينه وبين خالقه ، وهو الجهل والجرأة .

أما الجهل فهو عدم العلم والمعرفة ، وهذا ناتـج إما عن الجهـل بالله ، أو الجهل بنعم الله .

أما الجهل بالله فهو بعيد عن ذهن الإنسان بعد أن قلنا بأن معرفتـه تعالىٰ فطرية لا تحتـاج إلى دليل ؛ لأن هـذا النوع من المعـرفة الأوليـة قد تكفـل بها سبحانه للعبد واشترطها على نفسه قبل أن يخلقه ، وقد تقدم بيان ذلك .

وأمـا الجهل بنعم الله فـإنه يقصـد منه عـدم تأديـة حق النعمـة ، وعـدم الاعتراف بها أو كفرانها . وهذا هو أقـرب الوجـوه إلىٰ الجهل الـذي ورد ذكره في سياق العبادة بحسب القرائن اللفظية . فإن الجهل كما قلنا تواً يقابل العلم

بحسب الذات ، غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم يعملون كلاً من أعمالهم الجارية عن علم وإرادة ، وإن الإرادة إنما تكون عن حب ما وشوق ما كان الفعل مما ينبغي أن يفعل بحسب نظر العقلاء في المجتمع ، أو مما لا ينبغي أن يفعل ، لكن من له عقل مميز في المجتمع عندهم لا يقدم على السيئة المذمومة عند العقلاء فأذعنوا بأن من اقترف هذه السيئات المذمومة لهون نفساني وداعية شهوية أو غضبية خفي عليه وجه (العلم) ، وغاب عنه عقله المميز الحاكم في الحسن والقبيح ، والممدوح والمذموم ، وظهر عليه الهوىٰ . وعندئذٍ يسمىٰ حاله في علمه وإرادته (جهالةً) في عرفهم ، وإن كان بالنظر الدقيق نوعاً من العلم ، لكن لما لم يؤثر ما عنده من العلم بوجهه قبح الفعل وذمه في ردعه عن الوقوع في القبح والشناعة ألحق بالعدم (الجهل) فكان جاهلاً عندهم حتى أنهم يسمون الإنسان الشاب الحدث السن ، قليل التجربة (جاهلاً) ؛ لغلبة الهوىٰ وظهور العواطف والإحساسات الطارئة على نفسه ؛ ولذلك أيضاً تراهم لا يسمون حال مقترف السيئة إذا لم ينفعل في اقتراف السيئة عن الهوىٰ والعاطفة (جهالة) ، بل يسمونها (عناداً وعمداً) وقد أشار القرآن في ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿**إنَّما التَّوبةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذين يَعمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالةٍ ثُم يَتُوبُون مِن قَرِيبٍ فأُولئك يَتُوبُ اللَّهُ عَليهِم وَكَان اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾[1] .

فتبين بذلك أن (الجهالة) في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوىٰ ، وظهور الشهوة ، والغضب من غير عناد مع الحق ، ومن خواص هذا الفعل الصادر عن جهالة أن إذا سكنت ثورة القوىٰ ، وخمد لهيب الشهوة ، أو الغضب باقتراف للسيئة أو بحلول مانع ، أو بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاجٍ ، عاد الإنسان إلى العلم ، وزالت الجهالة وبانت الجهالة

(١) سورة النساء / الآية : ١٧ .

بخلاف الفعل الصادر عن عنادٍ وتعمد ونحو ذلك ، فإن سبب صدوره لما لم يكن طغيان شيء من القوىٰ والعواطف وميل النفس ، بل أمراً يسمىٰ عندهم بخبث الذات ، ورداءة الفطرة لا يزول بزوال طغيان القوى والميل سريعاً أو بطيئاً ، بل دام نوعاً بدوام الحياة من غير أن يلحقه ندامة من قريب إلّا أن يشاء الله ، وهذا ما أراده «عليه السلام» بقوله : (وجراءتي عليك) .

ومع كل هذا الذي يصدر من العبد فإن الله «تعالى» لا يزال يتقرب إلى عبده لتوفيقه إلىٰ طاعته وإبعاده عن معصيته ، لا لحاجة إليه ولكن رحمة به ورأفة كما نطق بذلك الكتاب المنزل في كثير من آياته .

ولم يكن هذا فقط ، بل إن الله تبارك وتعالى لم يترك الإنسان تائهاً حائراً ، وإنما دله على ما يقربه إليه بالطاعة وأبعده عن كل أصناف الأعمال التي تسبب فسادها ، إلا أن الإنسان إذا غلبه هواه أصرّ على أن يبطل عمله بشكل أو بآخر . فحب الذات وحب الظهور وما شاكل ذلك من الأنانيات المتهورة كلها عوامل مؤثرة في انزلاق الإنسان وتردّيه في أحضان الرذيلة .

إن الله قد دعا الإنسان إلى المسألة والدعوة ، وضمن له الإجابة ، وذلك ضمن قوله «عليه السلام» : (فإن دعوتك أجبتني ، وإن سألتك أعطيتني) ، وقد تقدم معنىٰ الدعاء وما يتعلق به ، وما يتعلق بهذا المعنىٰ في شرح كلام له متقدم (وهو للدعوات سامع) .

ونريد أن نلمح مرة ثانية ونشير إلى ما هنالك ؛ لنذكر القارىء الكريم بهذه الإشارة بما في الدعاء من خير وبركة . وخير ما نذكره هنا هو ما نص عليه الكتاب العزيز قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُم ادعُوني أَستَجِب لَكُم﴾[1] وقال تعالى : ﴿وإِذا سَألَكَ عِبادِي عَنّي فإِني قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعوَةَ الدَّاعي إذا دَعانِي

(١) سورة غافر / الآية : ٦٠ .

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1] .

وعندما يحث الباري تبارك وتعالىٰ الإنسان علىٰ الدعاء والمسألة فإن ذلك يعني إرشاده إلىٰ كل خير ، والخير كثير لا يتصوره الإنسان حتى بعقله ؛ لأنه لم يشاهد مثله في حياته ، فعليه أن يظن بربه خيراً ، فإن الله عند ظن عبده ، وقد ورد عن أمير المؤمنين «عليه السلام» في الدعاء المنسوب إليه والمشهور (بدعاء كميل) قوله «عليه السلام» : (ما هكذا الظن بك) يعني أن ظن الإنسان بربه هو الرأفة والرحمة والخير الكثير ، وليس الظن به القسوة والعنف والتعذيب ، وما هو بالذي يتشفىٰ من العبد فإنه يتحبب ، ويتقرب إلى عبده ، ولكن العبد يتبغض ويتبعد عن ربه .

---

(١) سورة البقرة / الآية : ١٨٦ .

أسباب الرزق وأنواعه

إن المـواهب والعـطايـا والأرزاق بحسـاب أو بغيـر حسـاب تنقسم إلىٰ قسمين :

الأول : ما هو بدون مسألة وهو الـرزق المحتوم ، ومـا كان في علم الله مقدراً للعبد ومكتوباً عليه ، أو له ، فإنه لا بد وأن يحصل على رزقه وفي ذلك يتساوىٰ الناس برّهم وفاجرهم ، وشريفهم ووضيعهم ، وكـل من خلق الله أمام الإرادة الإلٓهية ، فالأرزاق تنزل من السماء بدون نظرٍ واعتبار إلى شيء آخر .

الثاني : ومنها ما لا يحصل إلاّ بمسـألة وتضـرع من العبد فيستجيب لـه الباري إما بدفع ضرر ، أو بجلب منفعة ، أو بثواب يحصل عليه الإنسان بوجه من الوجوه .

أما الطاعة من الإنسان فهي من بـاب شكر المنعم فـإن الله يشكر العبـد إذا شكر له ؛ لأنـه سبحانـه أولىٰ بفعل الخيـر من العبد . قـال تعالىٰ : ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خيراً فإنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عليمٌ﴾(١) . علىٰ أن إكمال هذه النعم وإتمامها كلها على الإنسان إنما يريد الله بذلك إتمـام الإحسان ، وسعـادة الإنسان ، وإلقـاء الحجة ، ولله الحجة البالغة على خلقه ، لا يريد منهم من رزق فإنه هو الرزاق ذو القوة المتين .

---

(١) سورة البقرة / الآية : ١٥٨ .

قال عليه السلام :

[فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ مِن مُبدِىءٍ مُعِيد ، حَمِيدٍ مَجِيد ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤكَ ، وَعظُمَتْ آلاؤكَ ، فَأيُّ نِعَمِكَ يَا إلَهِي أُحْصِي عَدَداً أو ذِكراً ، أَمْ أيُّ عَطَايَاكَ أَقُومُ بها شُكْراً ، وَهِيَ يَا رَبِّ أكثرُ مِنْ أن يُحصِيَها العَادُّونَ ، أو يَبْلُغَ عِلْماً بِهَا الحَافِظُون] .

اللغــة

سبحان : سبحان الله معناه تنزيهاً لله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به ، ونصبهُ أنه في موضع فعل على معنىٰ تسبيحاً له تقول : سبحت الله تسبيحاً له أي نزّهته تنزيهاً ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿**سُبحَانَ الَّذِي أسرىٰ بِعبدِه ليلاً**﴾[1] قال الزجاج هو منصوب على المصدر . ثم قال : وسبحان في اللغة تنزيه الله عز وجل عن السوء ، وقيل : قوله سبحانك أي أنزهك يا رب من كل سوء وأبرؤك .

---

(1) سورة الإسراء / الآية : ١ .

وروىٰ الأزهري بإسناده أن ابن الكوى سأل علياً «عليه السلام» عن سبحان الله ، فقال : كلمة رضيها الله لنفسه فأوصىٰ بها . وتأتي للتعجب ، وقد تأتي في الشعر منونةً على أنها نكرة بمعنى تنزيه قال أمية :

سبحانه ثم سبحاناً يعود له، وقبلنا سبح الجودي والجمد

وقال ابن جني : سبحان اسم علم بمعنىٰ البراءة والتنزيه ، وهي بمنزلة عثمان وعمران ، فاجتمع بذلك فيها التعريف ، والألف والنون ، وكلاهما تمنع من الصرف .

مجيد : للمبالغة وذلك إذا قارن شرف الذات حسن الفعال سمي مجداً ، والمجيد من صفات الله عز وجل ، وفي التنزيل جاء قوله تعالىٰ : ﴿**ذُو العَرشِ المَجِيدُ**﴾[1] . والمجد في كلام العرب الشرف الواسع ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿**قرآن مجيد**﴾ . قال أبو إسحاق معنىٰ المجيد الكريم ، ورجل ماجد ومجيد إذا كان كريماً معطاءً .

تقدست : التقديس تنزيه الله «عز وجل» وهو المتقدس ، القدوس المقدس من القدس وهو الطهارة ، وكان سيبويه يقول : سَبُّوح وقَدُّوس بفتح أوائلهما . وقال الأزهري لم يجىء في صفات الله تعالىٰ غير القدوس ، وهو الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص ، والتقديس التطهير والتبريك . قال الزجاج معنىٰ نقدس لك أي نطهر أنفسنا لك . وقال الفراء : الأرض المقدسة الطاهرة ، وهي دمشق ، وفلسطين ، وبعض الأردن .

الآلاء : النعم واحدها إلِيٌّ بالفتح ، وإلِيٌّ وألِيٌّ ، وفي الحديث تفكروا في آلاء الله ، ولا تتفكروا في الله .

---

(١) سورة البروج /الآية : ١٥ .

قال النابغة :

هـم الـملوك وأبنـاء الـملوك لـهـم فضـل علىٰ النـاس في الآلاء والنعم

وآلاء بـالفتح : شجـر حسن المنظر مـرّ الطعم ، وآلالاء شجر من شجـر الرمل دائم الخضرة أبداً يؤكل ما دام رطباً .

الإلٓـه : الله عز وجـل وكل مـا اتخذ من دونـه معبوداً إلٓـه عند متخـذه ، والجمع آلهة ، والآلهة الأصنام ، سمّوا بذلك باعتقادهم أن العبادة تحق لها ، وأصله من أله يأله إذا تحير ، يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله ، وغيـر ذلك من صفات الربوبية ، وصرف همّه إليها ابتعد عن الناس ، وتعلق بالله .

البيـــان

إن صفات الباري سبحـانه يقسمهـا علماء الكـلام إلى قسمين : صفات ثبـوتية ، وصفـات سلبية ، وقـد تقدم في مبـاحث متعددة من الكتـاب لمحات خاطفة عن ذلك . ونضيف هنا بعض ما يتسنىٰ لنا من الحديث عنها فنقول :

أولاً : أمـا الصفـات الثبـوتيـة فهي الصفـات التي يمكن أن تنسب اليـه سبحانه ، ومنها القادر ، والمختار ، والرحيم ، والرحمٰن وغيرها . وقد قسمها العلماء إلى قسمين : صفات ذات ، وصفات أفعال .

ويقـول الشيخ المفيـد «رحمه الله» صفـات الله على ضربين : أحـدهما منسـوب إلى الذات فيقـال عنها أنهـا صفات للذات ، وثـانيهمـا منسـوب إلى الأفعال :

١ ـ أما صفات الذات فهي تلك التي لا يتصف الله «سبحانه» بأضـدادها ، ولا يجوز أن يخلو عنها ، كالعلم ، والقدرة ، والحيـاة . فلا يـوصف سبحانـه

بالجهل ، أو العجز ، أو الموت . كما لا يجوز أن يخلو من هـذه الصفات أبداً .

يقول الشيخ المفيد : (فصفات الذات له تعالى هي وصفه بـأنه حي عـالم قادر . ألا تـرى أنه مستحق لهـذه الصفات ولا يـزال ؟ فـلا يـوصف بـالموت ، ولا بـالعجز ، ولا بـالجهل . كمـا لا يوصف بخلوه عن الحيـاة والعلم ؛ لأن هذه الصفات ثابتة له)[1] .

٢ ـ أمـا صفـات الأفعـال فهي تلك التي يـراد بهـا أنـه يصـح أن يتصف الله بأضدادها ، كما يجوز أن يخلو عنها ، كـالخالق ، والـرازق ، والمحيي ، والمميت ، والمبدىء ، والمعيد ، وغيرها . فيجوز أن يتصف بها بأنه غير خـالق اليوم ، ولا رازق لـزيد الـذي مات بـالأمس أو لم يوجـد بعد ، ولا محيي للميت الفلاني ، ولا مبدء لشيء في هذه الحالة .

وصفـات الأفعـال لمـا لم تكن جـاريـة على الـذات بلحـاظ نفس الذات ، بل بلحـاظ وجود الأفعـال ، فإنهـا على هذا لا يصـح أن توصف الذات بها قبل وجودها ، فهي إذاً حادثة بحدوث تلك الأفعال ، وعلى هذا فقبل خلقه الخلق لا يوصف بأنه خالق ، وقبـل إماتتـه الخلق لا يقال عنـه مميت[2] .

وفي هذه الصفات الثبوتية وقع خلاف بين علمـاء المسلمين على ما هـو المقصود منها ؟ فذهب الأقدمون من مشايخ المعتزلـة إلىٰ أنه عبـارة عن كونـه على صفة لأجلها يصـح منه الفعـل . وذهب بعض متأخيـرهم ومنهم العجّالي إلى أن ذلك عبارة عن حقيقته المتميزة التي تفعل بحسب الدواعي المختلفة ،

(١) تصحيح إعتقادات ، الصدوق للشيخ المفيد : ص ١١ .
(٢) نفس الصفحة من المصدر المتقدم .

وقال آخرون إنه عبارة عن كونه بحيث إذا شاء فعل ، وإذا شاء لم يفعل وهذا ما استقر عليه الرأي الصحيح[1] .

ثانياً : أما الصفات السلبية فهي تلك التي يجب سلبها عن الذات المقدسة ؛ لأن الاتصاف بها يلزم منه من المجالات ؛ لأنها تتنافى مع وجوب الوجود .

فمنها أنه ليس بمرئي ، وليس متحيز ، وليس بمتحد ولا حالٍّ في غيره ، وإنه لبس بمركب وغير ذلك .

وإننا لو تأملنا هذه الصفات جميعها لوجدنا أن وجه وجوب سلبها عنه سبحانه إنما هو بلحاظ توقف اتصافه بها على أن يكون جسماً ؛ ليكون متحيزاً ، أو متحداً ، أو حالاً في غيره أو مركباً . فإن جميع هذه الأمور من لوازم ثبوت الجسمية له ـ سبحانه وتعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً ـ.

ولو أردنا أن نستعرض فرق المجسمة لوجدناها تتمثل بشكل عام في الحنابلة والكرامية ومتقدمي الأشاعرة بما فيهم أبو الحسن الأشعري مؤسس هذا المذهب ، حيث نراه يقول في مقام شرحه لعقيدة أهل السنة : (وله ـ أي الله ـ يدان وعينان ووجه وغير ذلك من الأعضاء) . ثم نراه يقول بعد ذلك (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب) .

وإذا نظرنا إلى هذه النظريات في التجسيم رأينا أنها محكومة بالفشل ، ورأينا كذلك تحمل معها دليل بطلانها ؛ لأن القول بالجسمية له لوازم كثيرة كالحاجة إلىٰ المكان ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ، كما يدل كونه جسماً على أنه حادث ويلزم من ذلك كونه مسبوقاً بالعدم ، وهو محتاج أيضاً إلىٰ علة توجده ، سبحانه وتعالىٰ عمّا يصفون .

---

(١) قواعد المرام ، للشيخ ميثم البحراني : ص ٨٣ .

وإذا تأملنا ما جاءت به هذه الفرق المجسمة من أدلة على نظرياتها الفاسدة وجدناها لا تساوي صفراً مجرداً وحسبنا في ذلك ـ بقطع النظر عن حكم العقل ـ ما جاء به الكتاب العزيز من أدلة سمعية تكاد ـ لقوتها ـ أن تكون ملموسة ، وذلك مثل قوله تعالىٰ : ﴿لَيسَ كَمِثلِهِ شَيء وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[1] ، فهذه الآية الكريمة كافية في الدلالة على كونه «تعالىٰ» جسماً مركباً من الأعضاء والأجزاء ، وحاصلاً من المكان والجهة ، إذ لو كان جسماً مركباً مثلاً كسائر الأجسام للزم حصول الأمثال والأشباه له ، وفي ذلك ما فيه من تكذيب لمضمون ما في الآية .

(١) سورة الشورىٰ / الآية : ١١ .

روايات أهل البيت تنفي الجسمية

أما ما ورد عن أيمة أهل البيت «عليهم السلام» فهو ناطق بنفي الجسمية عنه «تعالى» ، بل نفي كل ما يستشم منه القول بالتشبيه والتجسيم . وقد خاض علماء الإمامية حرباً شعواء ضد أولئك الذين كانوا يحملون لواء القول بالتجسيم والتشبيه .

ومن جملة تلك الروايات التي ورد فيها التشنيع عن أهل البيت على أصحاب هذا القول ، ما رواه في الكافي عن أبي عبد الله الصادق «عليه السلام» قال : (سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلّا هو ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لا يُحَدُّ ، ولا يحسُّ ، ولا يجسُّ ، ولا يحيط به شيء ، ولا جسم ، ولا صورة ، ولا تخطيط ولا تحديد)[1] .

وما رواه في الكافي عن حمزة بن محمد قال : كتبت إلىٰ أبي الحسن الرضىٰ «عليه السلام» أسئلة عن الجسم والصورة فكتب : (سبحان من ليس كمثله شيء ، لا جسم ولا صورة)[2] .

(١) الكافي : ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) سورة الكافي : ج١ ص ١٠٤ .

هذه الروايات وغيرها الكثير ناطقة بدحض التشبيه والتجسيم ؛ وذلك أن هذه النظريات الباهتة مما أوحىٰ به الشيطان إلىٰ عقولهم التي لا يفقهون بها ، وأوصلهم تفكيرهم بهذا الملاك إلى ذلك . إن كل صورة يصورها العقل للذات المقدسة فهي مرفوضة ومردودة عليه ؛ لأنها لا تشير إلى حقيقة من قريب ولا بعيد . وقد ورد عن أهل البيت «عليهم السلام» بأن التجسيم هو نوع من الشرك ، جاء عن الإمام الرضا «عليه السلام» (الغلاة كفار ، والمفوضة مشركون ، ومن جالسهم أو واكلهم ، أو شاربهم ، أو واصلهم ، أو زوجهم ، أو تزوج منهم ، أو أمنهم ، أو ائتمنهم على شيء ، أو صدق حديثهم ، أو أعانهم بشطر كلمة خرج من ولاية الله «عز وجل» وولاية الرسول ، وولايتنا أهل البيت) . هذا الحديث وإن لم يشر فيه إلىٰ فكرة التجسيم إلاّ أنه قد وصم بالشرك ونسبه إلى من قال بالتفويض وهذا يدل على أن الإسلام له إحساس مرهف ومواقف متشددة في مسألة التوحيد ، ومن أراد أن يتوسع في هذا الموضوع فعليه بالكتب المبسوطة في علم الكلام .

أما تقديس أسمائه «تبارك وتعالىٰ» وتعظيم آلائه ، فبحسب ما مر في بحث اللغة هو تطهير أسمائه ، ومنها أسماء الذات ، وأسماء الصفات ، كما مرت الإشارة إلىٰ ذلك تطهيرها ، ومعنىٰ تطهيرها أو طهارتها اعتبارها كذلك أي ليس فيها عيب ، فإنه يجب على الإنسان المسلم أن يعترف بأن أسماءه «سبحانه» كلها طاهرة ومقدسة ، ولهذا فإنها قد وصفت بالحسنىٰ قال تعالى : ﴿**هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِىءُ المُصوِّرُ لَهُ الأسماءُ الحُسنىٰ** . . .﴾ الخ[1] .

قال العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان ما معناه : إن أسماء الله تنقسم إلىٰ قسمين :

الأول : الأسماء الكريمة ، وهي مذكورة في الآيتين السابقتين لهذه

---

(1) سورة الحشر / الآية : ٢٤ .

الآية من سورة الحشر ، وهي من لوازم الربوبية ، ومالكية التدبير ، التي يتفرع عليها الألوهية والعبودية بالحق ، وهي نحو الأصالة والاستقلال لله ، وحده لا شريك له في ذلك .

فالأسماء الكريمة بمنزلة التعليل للاختصاص به تعالىٰ ، كأنه قيل : لا إله إلّا هو ؛ لأنه عالم الغيب والشهادة هو الرحمٰن الرحيم ؛ ولذا أيضاً ذيّل هذه الأسماء السابقة الذكر بقوله ثناءً عليه (سبحان الله عمّا يشركون) .

الثاني : الأسماء الحسنىٰ وهي الأسماء عن آخرها لكون الأسماء جمعاً محلّى باللام وهو يفيد العموم .

وقد تبين من هاتين النقطتين أن له ـ تبارك وتعالى ـ أسماء خاصة لا يشاركه فيها غيره ، كالخالق والبارىء والمصور . . . الخ . وهناك أسماء مشتركة بينه وبين عباده كالمتكلم والعالم والسميع . وبهذا الاعتبار يكون بينهما عموم وخصوص مطلق .

أما النعم التي انطوت في كلامه من هذه الفقرة (فأي نعمك يا إلهي أحصى عدداً أو ذكراً الخ) فهي أكثر من أن تحصىٰ ، كما قال في الدعاء ، وهي أعم من الرزق ، والعطايا أعم من النعم ، فهي من باب ذكر العام بعد الخاص ، قال تعالىٰ : ﴿**فَأَنْبَتنا فِيهَا حَبّاً * وعِنَباً وقَضْباً * وَزَيتُوناً وَنَخلاً * وَحَدائقَ غُلباً**﴾[1] . وهو يشعر بالاهتمام بالمتقدم ـ كما ذكر ذلك علماء البلاغة ـ وهذه النعم كما تقدم ذكر بعضها يقرّ بعجزه عن إحصائها ففي كل لحظة من حياة الإنسان تجدد عليه النعم ، ويدفع عنه كثير من النقم ؛ ذلك لأن الله «سبحانه» قد تعهد برزق الإنسان فأفاض عليه الخير ، وتعهد بألّا يكله إلى نفسه طرفة عين فصرف عنه الشر فهو مدين دائماً وأبداً سواءً كان جنيناً أو

---

(١) سورة عبسىٰ / الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

طفلاً ، وسواء كان مكلفاً أم غير مكلف .

ولو ألقينا نظرة فاحصة في أي جهة من جهات الإنسان التي تتمثل فيها هذه النعم لشعرنا بالعجز لأول وهلة ، ووقفنا أمام إحداها مبهورين مبهوتين خائبين خاسئين لهول ما نرى من عظمة النعمة ، وآثارها .

ولا نريد أن نتعدى في ذلك إلى أكثر من الإنسان في جسمه الظاهر الذي لا يفتر عن الحركة ، والسكون المتبادلين ففي هذا الجسم الظاهر للإنسان عمليات كيميائية معقدة إخراجاً وإدخالاً ، فهناك عمليات يقوم بها الجسم بالتنسيق بين أعضائه للاستفادة من المواد الغذائية التي يتناولها الإنسان الطازجة منها والمطبوخة ، وهناك عمليات مضادة يقوم بها الجسم لردّ أي هجوم جرثومي وبائي ، فهو يدافع عن الجسم دفاع المستميت ليدرأ عنه الشر ، فإن شئت فعبر عنه (أي الجسم) بأنه دولة كاملة التنظيم لها قوانينها الخاصة كل يسير في حدود مسؤوليته التي أنيطت به لا يتعداها ولا يستهين بها وذلك بتدبير من السميع العليم .

وإذا قلنا بأن الإنسان لا يستطيع أن يحصي هذه النعم ، ليس من الضروري أن المقصود بذلك هو العدّ التنازلي ، أو التصاعدي للأعداد المتوالية والمتسلسلة ، فإن الإنسان بإمكانه أن يحصي الملايين خصوصاً بعد أن ظهرت الآلات الحاسبة الإلكترونية التي تعطيك الجواب لأعقد المسائل الرياضية بضغطة على زر سحرية ، ولكن المقصود بتلك النعم هي التي أفاضها الله «سبحانه» على الإنسان سواء كان يعلمها الإنسان أم لا ، يهتدي إليها أم لا ؛ لأنها موجودة حاضرة بين يديه في خارجه ، وفي داخل جسمه المعقد التركيب ـ كما مر ـ.

فالإنسان لم يعرف إلى زمن قريب ما يدور من الصراع بين أعضاء الجسم ، ومواده الدهنية والزلالية ، أو حماية الجدار المعوي الجسم حماية

تامة تقريباً من غزو ذرات تخص أنسجة كائنات أخرى ، وذلك بمقاومة تسرب البروتينات الحيوانية أو النباتية إلى الدم ، وهذا يسمح أحياناً لمثل هذه البروتينات بالدخول ، وعلى ذلك فقد يصبح الجسم حساساً أو مقاوماً لكثير من المواد الغريبة ولكن في صمت وهدوء . إذ أن الحاجز الذي تقيمه الأمعاء ضد العالم الخارجي ليس غير قابل للعبور .

إن من النعم الخفية التي لا يمكن للإنسان أن يحصيها أن الأغشية المخاطية للأمعاء ليست قادرة دائماً على هضم أو امتصاص عناصر معينة من الطعام لا غنى عنها . وفي مثل هذه الحالة فإن هذه المواد لو وجدت في القناة المعوية لن تستطيع دخول أنسجتنا ، والحق أن العناصر الكيميائية للعالم الخارجي تؤثر في كل فرد بطرق مختلفة تبعاً للتركيب النوعي لأغشية إمعائه المخاطية ، ومن هذه العناصر تبنى أنسجتنا ، وأخلاطنا .

لقد خلق الله «سبحانه» الإنسان من تراب الأرض ـ كما مرّ ـ ثم جعله الله بهذا المستوىٰ من الخلق ، يعالج نفسه بنفسه ، وذلك فيما إذا كان الإنسان قد انتبه إلى ما يودعه في جوفه من الطعام ، فإن النعمة قد تتحول بسوء التصرف إلى نقمة ، وينقلب السحر على الساحر .

إن ألوان الطعام المختلفة ، وأشكاله المتباينة التي يستسيغ الإنسان أن يعددها وينمقها على خوانه بين وجبة وأخرى من طعامه لا يمكن أن نقول بأنها تعود عليه بمردود إيجابي بالضرورة ، حتى ولو كان لديه مناعة ضد الجراثيم ، والطفيليات المختلفة . فإن العصارات والإفرازات المكلفة بهضم الطعام الذي يتناوله الإنسان في أشكاله المختلفة ، لا يمكن أن نقول بأنها تؤثر أثرها المطلوب في آن واحد على أصناف الطعام ؛ ذلك أن هذه الألوان من الطعام تختلف كميات الدهون التي تحويها فتسبب صعوبة في الهضم ، وسهولة بين الأنواع المختلفة . ومن ثم يتسبب عن ذلك الاضطراب في الهضم ،

والإصابة بالالتهابات المعدية والمعوية المختلفة .

إن أمير المؤمنين «عليه السلام» عندما يقول لإبنته : أتقدمين لأبيك ادامين في طبق واحد بلهجة المستغرب المنكر ، فإنه ليس من الضروري أن المقصود من ذلك الزهد والتقشف فقط ، بل إضافة إلى ذلك أنه يجوز أن يقصد هذه الناحية الصحية الضرورية ؛ لعلمه بأن تعدد الأنواع في الطعام من شأنه أن يسبب اضطرابات داخلية وتشويشاً في عملية الهضم .

وتوضيحاً لهذا المراد نسوق مثالاً بسيطاً وهو أن الإنسان لو تناول سمكاً ولحماً في وجبة واحدة فإنه سيدخل الجوف في وقت واحد ، والذي يحدث بعد ذلك هو أن المعدة ستقوم بدورها في إفراز ما يلزم لهضم هذين الأدامين من الطعام (السمك واللحم) ، ومن المؤكد هو أن السمك لا يساوي اللحم ويجاريه في عملية الهضم فباختلاف هضمهما ، إما أن تفرز المعدة عصارات أخرى لهضم ما تبقى من الطعام فيحدث اضطراب داخلها ، وإما أن تقذف بهما معاً خارجها وبذلك لا يستفيد الجسم من هذا الطعام الغير مهضوم ، إضافة إلى ما يسببه ذلك من التهابات معوية عند مرور الطعام في الأمعاء وهو غير مهضوم .

ولقد ورد عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فيما ورد من سيرة الإمام أبي الحسن الثاني «عليه السلام» لما أن جمع المأمون بينه ، وبين الطبيب الهندي الذي جاء من أقصى البلاد ليناظر المسلمين في علومهم وما بلغوا إليه . فكان قد سأل فيما سأل عن علوم الطب فقال له الرضا «عليه السلام» : أما قرآننا فقد جاء فيه : ﴿كُلُوا واشرَبُوا وَلاَ تُسرِفُوا﴾[1] ، وأما نبينا فإنه قد قال في هذا المعنى (المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء) . فقال الطبيب الهندي : ما ترك قرآنكم ونبيكم شيئاً في الطب إلا ذكراه .

---

(١) سورة الأعراف / الآية : ٣١ .

لكن سياق العبارة في الدعاء : (وهي يا رب أكثر من أن يحصيها العادّون) يقتضي أن يكون هذا الإحصاء بمعنى معرفة أعداد النعم التي أفاضها الله على الإنسان ، فإن كلمة (يحصيها) تشير إلى ذلك بوضوح ، ومعرفة العد التنازلي والتصاعدي هو مرادف لكلمة الإحصاء ؛ لأنه لا يمكن معرفة ذلك العد إلا بإحدى هاتين الطريقين . وإذا صح هذا المعنى قلنا :

إن الإنسان المتقدم والمتحضر جداً بما أوتي من فهم ، وبما ابتكر من وسائل للعدد والإحصاء من آلات حاسبة الكترونية سريعة ، والتي أشرنا إليها من قبل ، مع كل هذا فإن النعم الإلهية هي أكثر ، وأعظم من أن تحصى ولو بهذه الآلات الحاسبة المتطورة ؛ ذلك لأن النعم تتجدد كلما تجدد عمر الإنسان ، وتتجدد كلما تجدد شكره للنعم .

ففي كل لحظة من لحظات حياته مهما قصرت تعتريه نعمة وتدفع عنه نقمة ، وما توفيقه إلى الطاعة ، وإبعاده عن المعصية ، وما هدايته النجدين ، وتعريفه بطريق الخير والشر وغير ذلك من لوازم حياته وتصرفاته ، إلاَّ نعم تتوالىٰ عليه من حيث يدري أو لا يدري .

وإذا تعزر إحصاؤها فإنه من باب الأولىٰ عدم العلم بها ؛ لأن العلم بها مسبوق بمعرفة عددها .

من هم الحافظون

أما الحافظون فيحتمل فيها أحد أمرين :

الأول : الحافظون بمعنىٰ العارفون بالنعم وعدها ، ومعنىٰ ذلك أنها لا تغيب عنهم شاردة ولا واردة منها . فكأنه يقول : إن هؤلاء الذين يحفظون الأشياء ، ويعرفون دقائق الأمور إنهم لا يحيطون علماً ، ولا يبلغون إلى معرفة هذه النعم التي تحيط بالإنسان في صغره وكبره ، في نومه ويقظته وفي حركته وسكونه ، ومن فوقه ومن تحته ، فالحافظون يحفظون الأشياء المتناهية ، أما الأشياء التي لا نهاية لها ، فإنه لا يحيط بها إلَّا خالقها .

الثاني : إن المقصود (بالحافظون) هم الحفظة الذين يحفظون الإنسان من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله في جميع حالاته فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ **وإنَّ عَليكُم لحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ** ﴾[1] إي أنهم يحفظون عمل الإنسان بالكتابة ، ويحصون عليه حتىٰ أنفاسه ، ومع ذلك فإن هؤلاء مع قدرتهم على إحصاء كل شيء يصدر من الإنسان ، له أو عليه ، لا يقدرون على إحصاء هذه النعم ؛ لأنها لا نهاية لها ، ولا حدود ؛ وذلك لأن الله يعطي

---

(١) سورة الإنفطار / الآية : ١٠ .

العبد عطاءً غير مجزوذ .

ومما يناسب هذا المقام ما قلته في بعض المقطوعات الشعرية :

سبحـان من أعـطىٰ الخـلائق رزقهم   دون إنـقـطاع والـعـطاء جـزيـل
هيهـات أن يحصي الخلائق عـدّهـا   حـتىٰ ولـو بـهـم الـمـقـام يـطول
فـالشكـر بـالنعمـاء يـأتي بعـدهـا   نعم فقـل في الشكـر كيف نقـول
تـتجـدد الآلاء مـا طـال الـمـدىٰ   والـمـرء طـول حيـاتـه مـسؤول

قال عليه السلام :

[ثُمَّ مَا صَرفْتَ وَذَرَأْتَ عَنّي اللَّهُمَّ مِنَ الضُرِّ والضَّرَّاءِ أكْثَر مِمَّا ظَهَـرَ لِي مِنَ العَافِيةِ والسَّرَّاءِ] .

اللغــة

صرف : الصرف رد الشيء عن وجهه ، صرفه يصرفـه صرفـاً فانصـرف والصريف اللبن الذي ينصرف عن الضرع حاراً .

والصرفة منزل من منازل القمر نجم واحد نيّر تلقاء الزبرة خلف خـراتي الأسد يُقال إنه قلب الأسد إذا طلع أمام الفجر فذلك الخريف ، وإذا غاب مع طلوع الفجر فذلك أول الرّبيع . وتقول العرب الصرفـة ناب الـدهر لأنهـا تفتر عن البرد أو عن الحر في الحالتين قال ابن بري : يُقال سميت الصـرفة بـذلك لإنصـراف الحـر وإقبـال البـرد قـال تعـالىٰ : ﴿ **ثُمَ انَصَـرَفُـوا صَـرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم** ﴾[1] قال صخر الغي :

عــاودنـي حبـهــا وقــد شحـطـت   صرف نــواهــا فــإنــنــي كــمــد

(1) سورة التوبة / الآية : ١٢٧ .

ذرأ : الذرء الدفع وتدارأ القوم تدافعوا قال أبو زيد :

كـان عـنـي يـرد ذرأك بـعـد الله   شـغـب الـمـسـتـصـعـب الـمـرّيـد

والمدارءة المخالفة والمدافعة يُقال فلان يداريء ولا يمـادي وذرأت عنه الحد إذا أخرته عنه .

الضـراء : الـزمـانـة ، والضـراء السنـة ، والضـروراء القحط والشـدة ، والضـراء نقيض السراء وفي الحـديث : (أبتلينا بـالضـراء فصبـرنـا ، وأبتلينـا بالسراء فلم نصبـر) قال ابن الأثيـر : الحالـة التي تضر وهي نقيض السـراء ، وقيل الضراء النقص في الأموال والأنفس .

السراء : هي نقيض ما قبلها ، ويُقال أيضاً أرض سرّاء أي طيبة ، وقوله تعـالىٰ : ﴿ فأَخَـذْنَاهُمْ بِـالبَأْسَـاء وَٱلضَّرَّاءِ ﴾[1] وقيـل فيها الضـراء النقص في الأموال ، أما السرّاء فهي زيادة في الخير ووفور النعمة .

البيـــان

لقـد سبق أن أشرنـا فيما مضىٰ إلىٰ أن الله « تعـالىٰ » خلق الأشيـاء ولم يكلهـا إلىٰ نفسها ، ونعني بـذلك صـرف الشر والأذىٰ عنهـا ، وجلب المنفعـة إليهـا ؛ وذلك لأنهـا لا تهتدي إلىٰ تلك السبـل ولا تعـرف مستجـدات الأمـور وعواقبها التي تنتظرها .

وصـرف الضر والضـراء ودرؤهما عن الإنسـان يحتـاج إلىٰ وقفـة تـأمـل وإمعان .

يتساءل العاقل لماذا كل هذه العناية بـالإنسان بصـورة خاصـة ؟ لأن كلا منا يحوم حوله وهو المعني بذلك . وهل إنه يستحق كل هـذا الإطراء والعنـاية

---

(١) سورة الأنعام / الآية : ٤٢ .

من الله « تعالىٰ » ؟ ولماذا لا يكون ذلك أيضاً إلىٰ ما بقي من أجناس المخلوقات . علىٰ أننا لا ننكر الرأفة والرحمة من الله لهذه الكائنات الحية الأخرىٰ ، ولكن ليس له ما للإنسان من الكرامة علىٰ الله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَد كَرَّمنا بَنِي آدَمَ وحَمَلنَاهُم فِي البَرِ والبَحرِ ﴾[1] .

والباعث علىٰ هذا التسائل ناتج عن تقييم الإنسان ومكانته في هذا الكون ، ورقمه المتسلسل بين سائر الموجودات المتعددة . فالإهتمام بشيءٍ ما دليل علىٰ أهميته .

إن صرف الضر والضراء عن الإنسان من الله « تعالىٰ » هو شيء مسلم به لا يحتاج إلىٰ بحث ، بعد أن تعهد بذلك باريء الخلق « سبحانه » لكن هناك من الأضرار والآلام ما يعتري الإنسان مع أنها من الله « تبارك وتعالىٰ » .

فهل هي ضرر أم لا ؟ أما كونها ألماً فهو شيء لا شك فيه ، ولكن هل أن كل ألم ضرر ؟ .

إن الله تبارك وتعالىٰ لا يفعل القبيح ، والضرر قبيح . إذاً فالآلام التي تلم بالإنسان لا بد لها من تفسير وتعليل ، وبعبارةٍ أخرىٰ إن الآلام لا بد لها من أعواض وذلك بعد نسبتها إليه تعالىٰ ، وإلَّا يلزم من ذلك الظلم للعباد ، ولكنه لطيف بعباده .

وأما العوض فهو النفع المستحق الخالي عن تعظيم وتبجيل .

قلنا بأن هذا الألم أما حسن أو قبيح . أما القبيح فهو مختص بفعلنا ، والعوض فيه علينا . والأول فأما من فعلنا وهو أما من المباح ، كذبح الحيوان للأكل أو من المندوب كذبحه للأضحية أو الواجب كدم النذر والكفارة ، والعوض في هذه الثلاثة على الله تعالىٰ . وأما من فعل الله ، فأما على جهة

---

(١) سورة الإسراء / الآية : ٧٠ .

الإستحقاق كالعقاب ، أو الإبتلاء كالإيلام الواصل في الدنيا من غير إستحقاق ، وهو حسن ، ووجه حسنه أمران :

الأول : كونه مقابلاً بعوض يزيد عليه أضعافاً ، بحيث لو مثل العوض والألم للمؤلم وخير بين الألم مع عوضه أو العافية لأختار الأول .

الثاني : أن يكون فيه مصلحة لا تحصل من دونه وهي اللطف ، أما للمؤلم أو لغيره ، أما الأول فلأن الإيلام بدون العوض ظلم ، وأما الثاني فلإن الإيلام مع العوض من دون غرض عبث ، وهما محالان علىٰ الله .

أما العوض الذي يصل إلىٰ الإنسان مقابلاً للألم فهو إما أن يكون مساوياً له ، أو أزيد ، وهو كل ما يستحق عليه تعالىٰ ، أما بفعله أو إباحته ، أو أمره ، أو تمكينه لغير العاقل من الحيوان بخلق الشهوة للإيلام ونحوه فيه .

وقال قوم من العدلية إن العوض على الحيوان المؤذي ، وقال بعضهم إنه لا عوض في جنابتها أصلاً .

وأدّعىٰ من أوجب العوض في حكمة الله تعالىٰ الضرورة ، وحجة من أوجب العوض علىٰ المؤلم قوله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : (يوم يقتص من للجمّاء للقرناء) . والقصاص يومئذٍ بأخذ العوض .

وحجة من لم يوجب عليهما عوضاً قوله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : (جرح العجماء جبار)[1] .

وهناك أدلة ضمن إجابات متعددة فيها نقض وإبرام لا نريد التعرض إليها إختصاراً للكلام .

ومما تقدم نستطيع أن نفرق بين (الضر والضراء) وبين الألم ، لأن

---

(١) قواعد المرام ، للشيخ ميثم البحراني : ص ١٢٠ .

الضر والضراء لا يلزم أن يكون لهما عوض ، بل ربّما لا يكون لهما عوض ؛ وذلك لأن الضر والضراء لا يكونان من الله ، لأن الله يدفعهما عن الإنسان ، فسببهما ليس منه كما هو صريح العبارة في الدعاء (ثم ما صرفت ودرأت عني اللهم من الضر والضراء) .

ثم ما يصرفه سبحانه من الضر والضراء لا يعلمه إلاَّ هو ؛ لأن صرفهما يكون قبل وقوعهما ، ولا يتصور غير ذلك ؛ لأنهما إذا وقعا على الإنسان لا يسميان بعد ذلك مصروفين ؛ ولهذا فإنه يتخيل إلى العبد بأن ليس هناك ضرر ولا ضراء ؛ لأنه لا يعلمهما قبل وقوعهما ، ولا يعرف الإنسان ذلك إلاَّ إذا أحس بهما في نفسه ؛ لأنه لم يضطلع على الغيب .

وقد تبين لنا مما تقدم أيضاً بأن من أقسام الضرر والضراء ما يتكفل بدرئه وصرفه الباري « سبحانه » ، ومنه ما يوكل أمره إلىٰ الإنسان نفسه ، بأن أمره بتجنب مواطن الخطر والإبتعاد عن الشر .

لذلك فإنا نجد أن الإنسان قد أودع الله فيه كثيراً من الغرائز التي سمّاها العالم الإلماني (ماك دوجال) بالميول الفطرية ، تؤدي وظائفها عند الخطر ، وتحفز النفس البشرية على الإبتعاد عن الأخطار التي تهدد الإنسان .

ومن جهة أخرىٰ بحثوا الشرور الواردة علىٰ الإنسان من وجهة نظرٍ فلسفية هل هي داخلة في القضاء الإلٰهي بالعرض ؟

فقد نقل عن افلاطون أن الشر عدم ، وقد بيّن ذلك بالأمثلة ، فإن في القتل بالسيف مثلاً شراً ، أوليس هو في قدرة الضارب علىٰ مباشرة الضرب ، ولا في شجاعته ، ولا في قوة عضلات يده ، فإن ذلك كله كمال له ، ليس من الشر في شيء ، وليس هو في حدة السيف ودقة دبابه ، وكونه قطّاعاً ، فإن ذلك من كماله وحسنه ، وليس في إنفعال رقبة المقتول عن الآلة القطاعة ، فإن من كماله أن يكون كذلك . فلا يبقىٰ للشر إلاَّ زهاق روح

المقتول ، وبطلان حياته ، وهو عدمي . وعلى هذا سائر الأمثلة . فالشر عدم ؛ لأنه عدم للخير ، وعد للكمال ، وعدم للصلاح .

ثم أن الشرور التي في العالم لما كانت مرتبطة بالحوادث الواقعة مكتنفة بها ، كانت أعداماً مضافة لاعدماً مطلقاً ، فلها حظ من الوجود والوقوع كانواع الفقد والنقص ، والموت والفساد الواقعة في الخارج الداخلة في النظام العام الكوني ، ولذلك كان لها مساس بالقضاء الإلهي الحاكم في الكون ، لكنها داخلة فيه بالعرض لا بالذات ؛ وذلك إن الذي نتصوره من العدم أما عدم مطلق ، وهو عدم النقيض للوجود ، وأما مضاف إلى ملكه ، وهو عدم كمال الوجود عما من شأنه ذلك ، كالعمى الذي هو عدم البصر ممامن شأنه أن يكون بصيراً .

وبعبارة أخرىٰ أدق لولا الشر والفساد ، والتعب والفقدان ، والنقص والضعف وامثالها في هذا العالم لما كان للخير والصحة والراحة والوجدان والكمال والقوة مصداق ، ولا عُقل منها معنىٰ ؛ لأنّا إنما نأخذ المعاني من مصاديقها .

ونضيف هنا فنقول لولا الشقاء لم تكن سعادة ، ولولا المعصية لم تتحقق الطاعة ، ولولا القبح والذم لم يوجد حسن ولا مدح ، ولولا العقاب لم يحصل ثواب ، وبالتالي لولا الدنيا لم تكن الآخرة .

فالطاعة مثلاً إمتثال الأمر المولوي ، فلو لم يمكن عدم الإمتثال الذي هو المعصية لكان الفعل ضرورياً لازماً ، ومع لزوم الفعل لا معنىٰ للأمر المولوي ؛ لإمتناع تحصيل الحاصل ، ومع عدم الأمر المولوي لا مصداق للطاعة ، ولا مفهوم لها ، وقد تقدم بحث حول هذا الموضوع أو ما قاربه في الكتاب .

ومع بطلان الطاعة والمعصية يبطل المدح والذم المتعلق بهما ، والثواب

والعقاب ، والوعد والوعيد ، والإنذار والتبشير ، ثم الدين والشريعة والدعوة ، ثم النبوة والرسالة ، ثم الإجتماع والمدنية ، ثم الإنسانية ، ثم كل شيء ، وعلى هذا القياس جميع الأمور المتقابلة في النظام .

ومما سبق ينكشف لك أن (الضر والضراء) الواردتين في فقرة الدعاء ، والشر والألم بمعانٍ متقاربة وربما أجتمعت في بعض المصاديق ؛ لأنها تلتقي في موضوع واحد وهو الإنسان . (فالضر والضراء) هما ظرفان يعتريان الإنسان فيتضرر منهما ، كالفقر والإبتلاء بانواع المحن ، والشر هو ما يعتري الإنسان من الإنسان وغيره من سائر الموجودات .

والألم هو ما ينتج ويترتب على ما تقدم فربما كان له عوض ، وربما لم يكن له عوض .

وبهذا يظهر السر في معنىٰ المقابلة التي ذكرها سلام الله عليه في الدعاء : (ثم ما صرفت وزرأت عني اللهم من الضر والضراء ، أكثر « خبر للموصول ما صرفت » مما ظهر لي من العافية والسرّاء) ، فإن الضر والضراء يقابل العافية والسرّاء وهما ضدان ولا يعرف الشيء إلاّ بضده قال الشاعر :

ضدان لمّا استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضدُ
فالوجه مثل الصبح منبلج والشعر مثل الليل مسوّدُ

وقد قلنا فيما سبق بان ما يصرفه « سبحانه » من الضر لا يعلم به إلاّ هو ، وما يهبه للإنسان من العافية والسرّاء ينكشف للإنسان بعد ظهوره ؛ ولهذا لا يحتمل صرف الضر والضراء عنه لأنه لم يعلم بها إلاّ ما دهمه وحاق به .

أما العافية والسرّاء فإنها ظاهرة يفرح بها الإنسان دلما رآها عنده ، وبهذا تظهر ثمرة التوكل على الله في جميع أمور الإنسان ؛ ليكون سبحانه مسؤولاً عما يكنّه الغيب ويداهم الإنسان من حيث يدري أو لا يدري .

ومما قلته وهو يناسب هذا المعنىٰ في بعض المقطوعات الشعرية :

لا يعلم الضر والبلوىٰ لأنهما في عالم الغيب مكتومان بالحجبِ
وقد تكفل باري الخلق دفعهما كما تكفل دفع الشر والنصبِ
لا يسلم المرء من بلوىٰ معرته وليس يأمن في الدنيا من العطبِ
فإن توكل يكفيه توكله فالله يذرأ عنه كل ذي وصبِ
فثق بربك إن الرب ذو ثقةٍ فالظن بالشر فيه شأن كل غبي

قال عليه السلام :

[وَأنا أشْهدُ يا إلٰهي بحقيقةِ إيمٰاني ، وعقْدِ عَـزمٰاتِ يقيني ، وخَـالِصِ صَريح تَـوحيدي ، وبـاطِنِ مكنُونِ ضميـري ، وعلائق مجـاري نورِ بَـصَـري واسَـارِيرِ صفحـةِ جبيني ، وخُرقِ مسَـارب نفسي وَخَذاريف مَـارن عِـرنيني ، ومَسَارب صِماخ سمعي ، وما ضُمَّتْ وأُطبقتْ عليه شفتـاي ، وحركـاتِ لفظِ لسـاني ومَغْرز حنكِ فمن ، وفكّىٰ وَمنابتِ أضْـراسي ، وبُلُوغِ حَبـائـل بـارع عُنقي ، ومَسَـاغ مَطعمي وَمشْـربي ، وحِمالـة امّ رأسي وَجُمل حَـمـائل حَبـل وَتيني] .

اللغــة

أشهـد : الشهـادة خبـر قـاطـع ، تقـول : شهـد الـرجـل على كـذا ، والمشاهدة المعـاينة ، وشهده شهوداً أي حضـره فهو شـاهد ، وقـوم شهود أي حضور . وشهد له بكذا شهادةً أي أدّىٰ ما عنده من الشهادة .

والشهيـد الشاهـد والجمع الشهـداء . قال تعـالىٰ : ﴿يَـا أَيُّهـا النَّبيُّ إنّـا أَرْسَلنَاكَ شَاهِداً وَمُبشِّراً وَنَذِيراً﴾[1] . والشهيـد القتيل في سبيـل الله . والشهد

(١) سورة الأحزاب / الآية : ٤٥ .

والشُهد بفتح الشين وضمها العسل في شمعها .

عزمات : قال الجوهري في الصحاح : عزمت على كذا عزماً وعُزماً بالفتح والضم ، وعزيمة وعزيماً إذا أردت فعله وقطعت عليه . قال الله تعالىٰ : ﴿ **وَلَم نَجِد لَهُ عَزماً** ﴾[1] ، ويُقال أيضاً : عزمت عليك بمعنىٰ أقسمت عليك ، والعزائم الرُّقىٰ التي توضع في تمائم تعلق في أعناق الأطفال ، والعزائم من سور القرآن هي سور أربع معروفة .

توحيدي : التوحيد نقيض الشرك وهو أن لا يدعو مع الله إلٰهاً آخر ، والأحد الذي ليس له ثانٍ ، والواحد هو أول الأعداد ، ويُقال : فلان أوحد أهل زمانه إذا كان قد تفرد بصفات تميزه عن غيره .

مكنون : مستور ، والكن والكنة والكنان ، وقاء كل شيء وستره ، والكن البيت ، والجمع أكنان ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُم مِن الجِبَالِ أَكنَاناً** ﴾[2] . وكنّ أمره عند كنّاً أخفاه ، وأستكن الشيء أستتر ، وقالوا : الكنايةِ أبلغ من التصريح ؛ لأنها نوع من الإيهام ، والإشارة من بعد حول المراد ، يترك الإنسان له مندوحة للتملص من كلامه عندما يحتاج إلىٰ نكرانه .

قال المعيطي :

قد يكتم الناس أسراراً فأعلمها وما ينالون حتىٰ الموت مكنون

ضميري : الضمير هو ما في خاطر الإنسان ، والضمر الهزال ولحاق البطن ، وجمل ضامر وناقة ضامر بغير (هاء) . والضمير العنب الذابل وأضمرته الأرض غيبته ، أما بموت أو بسفر . وأضمرت الشيء أخفيته .

---

(١) سورة طٰه / الآية : ١١٥ .

(٢) سورة النحل / الآية : ٨١ .

قال الأعشى :

أرانا إذا أضمرتك البلاد نجنىٰ وتقطع منا الرحم

علائق : علق بالشيء علقاً ، وعلّقه : نشب فيه . والإعلاق وقوع الصيد في الحبل ، والعلاقة الهوىٰ والحب اللازم بالقلب .

قال أبو ذؤيب :

تعلقه منها دلال ومقلة تظل لاصحاب الشقاء تديرها

وقالوا في المثل : نظرة من ذي علق ، أي من ذي حب .

أسارير : هي الخطوط التي في الجبهة من التكسر فيها . قال ابن الإعرابي في قوله : تبرق أسارير وجهه قال خطوط وجهه سرٌّ وأسرار ، وأسارير جمع الجمع .

وقال بعضهم : الأسارير الخدّان والوجنتان ومحاسن الوجه وربما أخذت كلمة السرور نظراً إلى هذا المعنى ؛ لأنه يُقال : سررت برؤية فلان وسرني لقائه .

خرق : الخرق والخرقة المزقة من الثوبِ ، وخرقت الثوب إذا سققته ، والخرقة القطعة من الجراد ، وريح خريق قيل شديدة ، وقيل لينة سهلة ، فهو من معاني الأضداد ، والخرق بالكسر الكريم . قال اليربوعي :

فتن إن هو استغنىٰ تخرق بالغنىٰ وإن عض دهر لم يضع متنه الفقر

مسارب : سرب في الأرض يسرب سروباً ذهب . قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَن هُوَ مُستَخفِ بِاللَّيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهارِ** ﴾[1] أي ظاهر بالنهار ، وقال تعالىٰ : ﴿ **فَأَتَّخذَ سَبِيلَهُ فِي البَحرِ سَرَباً** ﴾[2] .

---

(١) سورة الرعد / الآية : ١٠ .

(٢) سورة الكهف / الآية : ٦١ .

خذاريف : الخذروف السريع المشي ، والخذروف عويد مشقوق في وسطه ، يشد بخيط ويمد فيسمح له حنين .

قال امرؤ القيس يصف فرساً :

دريـر كـخـذروف الـوليـد أمـره تـتـابـع كفيـه بـخيط مـوصـل

والجمع الخذاريف ، وقال في التهذيب الخذروف عود ، أوقصبة مشقوقة ، يفرض في وسطه ثم يشد بخيط ، فإذا أجرّ دار ، وسمعت له حفيفاً، يـلعب بها الصبيان .

مارن : المـارن الأنف ، وقيـل طرفه ، وقيـل : المـارن مـا لأن من الأنف ، وقيل ما لان من الأنف منحدراً عن العظم ، وفضل عن القصبة ، وما لان من الرمح . قال عبيد يذكر ناقته :

هـاتيك تحملني وأبيض صـارمـاً ومـذربـاً فـي مـارن مـخـمـوس

وهـو ماخـوذ من المـرونـة ، وهي لين في صـلابـة ، والمـرافـة اللين.. والتحرين التليين .

عرنيني : عـرنين كـل شيء أولـه ، وعـرنين الأنف تحت مجتمـع الحاجبين ، وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشم ، يُقال : هم شم العرانين ، والعـرنين الأنف كله ، وقيـل : هـو مـا صلب من عـظمـه ، وعـرانين النـاس وجوههم ، وعرانبن القوم سادتهم وقومهم .

صماخ : الصماخ من الأذن الخرق الباطن الـذي يفضي إلى الرأس ، والسماخ لغة فيه ، ويقال : إن الصماخ هو الأذن نفسها ، والجمع اصمخة . وصمخه أصاب صماخه . والصماخ البئر القليلة الماء ، وكل ضربة أثـرت في الوجه فهي صمخ .

مغرز : مغرز الضلع والضرس والريشة ونحوهـا أصلها ، وهي المغـارز والغرز ، ركاب الـرحل ، وغـرز الإبرة في الشيء أدخلهـا . قال الشعبي : مـا طلع السماك قط الإغارزاً ذنبه في برد ، أراد السمـاك الأعزل ، وهـو الكوكب المعروف في برج الميزان ، وطلوعه يكون مع الصبح لخمس تخلو من تشرين الأول ، وحينئذٍ يبتدىء البرد . وهو دون السماك الرامح .

حنـك : الحنك من الإنسـان والدابـة باطن أعلىٰ الفم ، من الـداخل . وقيل : هو الأسفل في طرف مقـدم اللحيين من أسفلهما ، والجمـع أحناك ، وحنّك الدابة دلك حنكها فأدمـاه ، والحناك وثـاق يربط بـه الأسير كلمـا جذب أصاب حنكه .

قال الراعي :

إذا مـا أشتكىٰ ظلم العشيـرة عضــه　　　حنـاك وقـراض شــديـد الشكــائـل

ورجل محنك هو قد جرب الأمور فاعتبر بها .

حبـائل : جمـع حبالـة ، المصيدة ممـا كـانت ، واحتبله أخـذه وصـاده بالحبالة ، أو نصبها له ، والحبل حبل العاتق وهو عصبة بين العنق والمنكب . قال ذو الرمة :

والقـرط في حـرة الــذفـري معلقــة　　　تبـاعـد الحبـل منهـا فهـو يضـطرب

وقيل حبل العاتق الطريقة التي بين العنق ورأس الكتف .

وقـال الأزهري : حبـل العاتق وصلة مـا بين العـاتق والمنكب . وحبـل الوريد عرق يدرّ في الحلق ، وقيل : عرق في العنق .

مساغ : ساغ الشراب في الحلق سهل مدخله فيه ، وساغ الطعام سوغـاً نزل في الحلق وسوّغه ما أصاب هنأه ، وشـراب سايـغ عذب ، وطعـام أسوغ

يسوغ في الحلق .

قال الهذلي :

قـد ساغ فيـه لهـا وجـه النهـار كمـا ساغ الشـراب لعـطشـان إذا شـربـا

وقال الآخر :

وسـاغ لي الشـراب وكـنت قـبـلاً أكـاد أغص بـالـمـاء الـفـرات

وأنا سوّغته له أي جوزته .

حمالة : الحمالة بكسر الحاء والحميلة عـلاقة السيف ، وهـو المحمل مثل المرجل وهو السير الذي يقلده المتقلد ، والجمـع الحمائـل . وقال آخـر الحمـالة للقـوس بمنزلتهـا للسيف يلقيها المتنكب في منكبـه الأيمن ، ويخرج يده اليسرىٰ منها فيكون القوس في ظهره .

ومن الممكن إستعارتها لحمالة أمّ الرأس ؛ لوجود الشبه القـوي ، وذلك كما هو وارد في هذه الفقرة من الدعاء ، وكما سيتضح لك في الشرح .

وتين : الوتين عرق في القلب إذا إنقطع مات صـاحبه . وقيـل : الوتين عـرق لاصق بالصلب من بـاطنه أجمـع ، يسقي العروق كلهـا الـدم ، ويسقي اللحم ، وهو نهر الجسد ، وقد عبّـر عنه الأطبـاء حديثـاً (بالأبهـر) وقيل : هـو عرق أبيض مستبطن الفقار وقيل : الوتين يستقي من الفؤاد وفيه الدم ، وقيل : هو نياط القلب ، وقيل : هو عرق أبيض غليظ كأنه قصبة . قـال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ لَقَطَعنَا مِنهُ الوَتِينَ﴾[1] .

وقال حميد الأرقط :

شـريـانـة تـمـنـع بُـعـد الـليـن وصـغـيـة ضـرجـن بـالـتـسـنـين

---

(١) سورة الحاقة / الآية : ٤٦ .

من عُلق المكلي والموتون

ووتن بالمكان ثبت وأقام به . والواتن الماء المعين الدائم الذي لا يذهب .

البيــان

الشهادة في حياة الإنسان لها دور عملي كبير في إثبات الحقوق ، ورفع الشبهات ، والبعث على الطمأنينة في الحكم . ولمّا كانت الشهادة بهذه المكانة أشترط في الشاهد أمور معينة حتىٰ تصح شهادته فمنها :

أولاً ـ البلوغ : فلا تقبل شهادة الصبي حتىٰ يبلغ سن التكلّيف إلاّ في بعض المواطن كالجراح والقتل ، كما هو المروي عن أبي عبد الله « عليه السلام » .

ثانياً ـ كمال العقل : فلا تقبل شهادة المجنون إجماعاً ، ومن ينالد الجنون أدواراً تقبل شهادته حال إفافته بعد التأكد من ذلك .

ثالثاً ـ الإيمان: فلا تقبل شهادة غير المؤمن وإن أتصف بالإسلام ، لا علىٰ مؤمن ولا على غيره . ويثبت الإيمان بقيام البينة ، أو الإقرار ، أو بمعرفة الحاكم الشرعي .

رابعاً ـ العدالة: وهي شرط في قبول الشهادة ، فلا تقبل شهادة الفاسق إجماعاً إستناداً إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾(١) . وذلك لأن الغرض من إقامة الشهادة هو الطمأنينة في الحكم لكي يجزم الحاكم بما يحكم ، ولا طمأنينة بنبأ الفاسق ؛ لأنه لا يترد في الكذب .

---

(١) سورة الحجرات / الآية : ٦ .

ومما تقدم نستطيع أن نستخلص ـ مع ملاحظة المعنىٰ اللغوي للشهادة وهو الحضور المادي للمشهود عليه إستناداً إلى الآيات الكثيرة في الكتاب العزيز ـ أنه بهذا المعنىٰ وبهذا اللحاظ أن الحاكم عندما يحكم ينبغي أن يطمئن إلى شهادة الشهود ، كما لو كان حاضراً (شاهداً) لذلك الأمر المشهود عليه . وهذا لا يتسنىٰ إلاَّ بفرض الشروط المتقدمة في الشاهد الذي أقام الشهادة عنده .

وقد نوّه في عبارة الدعاء إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله : (وأنا أشهد يا إلٰهي بحقيقة إيماني) ومعنىٰ ذلك : أن الشهادة بلا إيمان لا إعتبار لها فإن المؤمن الذي يبتعد عن الدنايا ومن الدنايا الكذب والتزوير والتدليس يكون مصدر طمأنينة ووثوق ، وهذا ما يلوح في أفق العبارة . ذلك لأن الإيمان بالله بما يفيده بمقام ربه ولو إجمالاً ، وأنه سبب فوق الأسباب إليه ينتهي كل سبب وهو المدبر لكل أمر يدعوه إلى تسليم الأمر إليه ، والتجنب عن الإعتماد بظاهر ما يمكنه من التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل ، ولازم ذلك إرجاع الأمر إليه ، والتوكل عليه .

وبهذا المفهوم نستطيع أن نقول : أن الإيمان أخص من الإسلام ؛ لأنه كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمن ، فالنسبة بينهما هي نسبة العموم والخصوص المطلق .

وقد جاء هذا المفهوم في روايات أهل البيت « عليهم السلام » ففي الكافي ، عن سماعة ، عن الصادق « عليه السلام » الإيمان من الإسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم ، قد يكون في الحرم ولا يكون في الكعبة ، ولا يكون في الكعبة حتىٰ يكون في الحرم .

وفيه عن سماعه أيضاً عن الصادق « عليه السلام » قال : الإسلام شهادة ألَّا إله إلَّا الله ، والتصديق برسول الله ، به حقنت الدماء ، وعليه جرت

المناكح ، والمواريث ، وعلى ظاهرة جماعة الناس ، والإيمان الهدىٰ ، وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام .

وبهذا المضمون روايات كثيرة لا حصر لها ، فإن الإسلام هو عبارة عن الإعتراف باللسان ، وهذا لا يعني بالضرورة الإعتقاد ، ولكن الإيمان هو الإعتقاد بالجنان مضافاً إلى الإعتراف باللسان ، وكذلك العمل بالأركان .

وبعبارة أُخرىٰ ، إن الإيمان هو محبة الله حتىٰ أنه لو أمر بأن يقتل نفسه في سبيل ذلك لفعل ، هذا فضلاً عن العبادة والسهر ، وتجافى الجنوب عن المضاجع ، والصيام نهاراً والقيام ليلاً . قال تعالىٰ : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُم فَأَقْتُلُوا أَنفُسَكُم ذَلِكُم خَيْرٌ لكُم عِندَ بَارِئِكُم فَتَابَ عَلَيكُم إِنَّهُ هُو التَّوابُ الرَّحِيمُ ﴾[1] .

وفي حديث المعراج في خطابه تعالىٰ لنبيه الكريم « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » كما يرويه في البحار ، عن إرشاد الديلمي : (يا أحمد هل تدري أي عيش أهنىٰ وأي حياة أبقىٰ ؟ قال : اللهم لا ، قال : أما العيش الهني فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ، ولا ينسىٰ نعمتي ، ولا يجهل حقي ، يطلب رضائي في ليله ونهاره ، وأما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتىٰ تهون عليه الدنيا ، وتصغر في عينه ، وتعظم الأخرة عنده ، ويؤثر هواي علىٰ هواه ، ويبتغي مرضاتي ، ويعظم حق نعمتي ، ويذكر عملي به ، ويراقبني بالليل والنهار عند كل سيئة أو معصية ، وينقي قلبه عن كل ما أكره ويبغض الشيطان ووساوسه ، ولا يجعل للإبليس علىٰ قبله سلطاناً وسبيلاً ، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً حتىٰ أجعل قلبه وفراغه وإشتغاله وهمه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي ، وأفتح عين قلبه وسمعه ، حتىٰ

(١) سورة البقرة / الآية : ٥٤ .

يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلىٰ جلالي وعظمتي ، وأضيق عليه الدنيا ، وأبغض إليه ما فيها من اللذات ، وأحذره من الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي على غنمه مراتع الهلكة ، فإذا كان هكذا يفر من الناس فراراً ، وينقل من دار الفنىٰ إلىٰ دار البقاء ، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمٰن ، يا أحمد ، ولازيننه بالهيبة والعظمة فهذا هو العيش الهني ، والحياة الباقية ، وهذا مقام الراضين فمن عمل برضاي ألزمه بثلاث خصال أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل ، وذكراً لا يخالطه النسيان ، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين ، فإذا أحبني أحببته ، وأفتح عين قلبه إلىٰ جلالي ، ولا أخفي عليه خاصة خلقي ، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار ، حتىٰ ينقطع حديثه من المخلوقين ، ومجالسته معهم ، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي ، وأعرفه السر الذي سترته عن خلقي ، وإليه الحياة حتىٰ يستحيي منه الخلق كلهم ، ويمشي على الأرض مغفوراً له ، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً ، ولا أُخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار ، وأعرفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول والشدّة ، وما أحاسب به الأغنياء والفقراء ، والجهل والعلماء ، وأنومه في قبره ، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتىٰ يسألاه ، ولا يرىٰ غم الموت وظلمة القبر واللحد ، وهول المطّلع ، ثم أنصب له ميزانه ، وأنشر ديوانه ، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشوراً ، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً ، فهذه صفات المحبين يا أحمد ، أجعل همك هماً واحداً ، وأجعل لسانك لساناً واحداً ، واجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً ، من يغفل عني لم أبال في أي وادٍ سلك) .

وفي البحار عن الكافي والمعاني ونوادر الراوندي بأسانيد مختلفة عن الصادق والكاظم « عليهما السلام » قال : إستقبل رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري فقال له : كيف أنت يا حارثة بن مالك النعماني ؟ فقال : يا رسول الله مؤمن حقاً ، فقال له رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك ؟ فقال : يا

رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فاسهرت ليلي ، واضمأت هواجري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي وقد وضع الحساب ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة، وكأني أسمع عواء أهل النار في النار . فقال رسول الله « صلىٰ الله عليه وآله وسلم » : عبدٌ نوّر الله قلبه أبشرت فاثبت .

ومن هذا الحديث وما سبقه يظهر سر قوله «عليه السلام» : (بحقيقة إيماني ، وعقد عزمات يقيني) لأن الإيمان هو الذي يظهر حقيقة الإنسان ، فيبعده عن النفاق والرياء والعجب ، وما شاكل ذلك من مبطلات الأعمال .

أما عزمات اليقين فهي كما يفهم من سياق العبارة المطروحة أمام هذا البحث تعني الإصرار علىٰ الطاعة حتىٰ آخر نفس من أنفاس الإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿وَاعبُد رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقِينُ﴾[1] .

وذلك لأن نقض العزمات عن عبادة الله على حد الرّدة ، بل هو ردةٌ حقيقةً .

وهذا هو السر في تخليد المؤمن في الجنة ، وتخليد الكافر في النار .

---

(١) سورة الحجر / الآية : ٩٩ .

بحث في التوحيد

أما خالص التوحيد وصريحه فإنه تبارك وتعالىٰ يريد من الإنسان أن لا يشرك به شيئاً قال تعالىٰ : ﴿ يَابُنَيَّ لَا تُشرِكَ بِالله إِن الشِّرك لَظُلمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُل هَوَ الله أَحَدٌ ﴾[2] .

ومبحث التوحيد هو أهم أبحاث علم الكلام . وللعلماء من أهل الفرق الإسلامية طرق في الإستدلال بعضها أوضح من بعض .

وقد إستدل الحكماء منهم على أن وجود واجب الوجوب وتعينه غير خارجين عن ذاته ، وإلَّا لزم أن يكونا معلولين لها ، والعلّة ما لم تكن موجودة معينة إستحال أن توجد غيرها ، بل عينها . فلو تعدد الواجب حصل فيه إشتراك ، وافتقر إلى مميز يكون غير عام الحقيقة ، وغير عارض ؛ لعدم خروج كل من الوجود والتعيين عن ذاته ، بل جزئه . فيلزم التركيب الملزوم للإمكان ، فيكون ممكناً ، وقد ثبت أنه واجب لذاته ، وهذا لا يمكن .

وأما المتكلمون فاحتجاجهم على عدم الإحتياج إلى العلّة لا يسلم من

(١) سورة لقمان / الآية : ١٣ .

(٢) سورة الإخلاص / الآية : ١ .

خدش ، حيث قالوا بزيادة وجود الواجب على ذاته ، فيكون الوجود هنا إعتبارياً عقلياً وزيادته على الماهية وإفتقاره إليها إنما هو في الذهن نظراً إلى أن المفتقر إلى الغير إنما يكون ممكناً إذا كان مما له عين خارجة ، ووجه خدشه ؛ لأنه إذا زاد على الذات إتصفت هي به في نفس الأمر ، وإلّا لم يكن موجوداً فلم يكن بدٌّ من إفتقار الإتصاف إلى علّة ، فيثبت الإمكان ، ولغموض هذا الكلام عَدَلَ المتكلمون عن تلك الطريقة إلى برهان التمانع المشار إليه في القرآن في غير آية كقوله تعالىٰ : ﴿ لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعلاَ بَعضُهُم عَلَىٰ بَعضٍ ﴾[2] .

وتقريره : أنه لو أمكن إلٰهان مع تساويهما في الصفات ، وتساوي الممكنات بالنسبة إليهما لم يقع منهما شيء ، ولم يقع هذا النظام للعالم ؛ لأنه كالشخص الواحد ؛ لأن المؤثر إما أن يكون كل واحد منهما فتجتمع علتان على معلول واحد شخصي ، وإلّا فيلزم الترجيح من غير مرجح .

والأوجه في تقرير ذلك أنه لو أمكن ذلك لأمكن أن يريد أحدهما حركة زيد والآخر سكونه ؛ لأمكان كل منهما في نفسه ، فمع الإرادتين إما أن يقعا ، فيجتمع الضدان أولاً ، فيلزم عجزهما مع إجتماع الضدين ، ووقوع المرادَيْن من حيث لا يقعان ، أو عجز أحدهما ، وفي العجز شائبة الإحتياج ، وأيضاً يلزم الترجيح من غير مرجح ؛ لأنهما متساويان في الكمال ، وربما منعا إختلاف الإرادتين لعلم كل منهما وحكمته المقتضية لما هو الأصلح ، فلا يمكن إختلاف الإرادة .

ويرد هذا القول بجواز أن يكون فعل كل واحد من الضدين مصلحة .

---

(١) سورة الأنبياء / الآية : ٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون / الآية : ٩١ .

وفيه ما فيه . وربما قدح فيه إبتداءً بأنه إنما يدل على إمتناع إلٰهين قادريّن على جميع الممكنات ؛ لإمتناع إلٰهين مطلقاً ، فلا يتم الإحتجاجات . وهذا خلاف المفروض .

وبالجملة فجميع الأدلة العقلية لهـذا المطلب قـابلة للمناقشـة ، فالأولىٰ الإعتماد على السمع ، ولا يلزم الدور ؛ لأنه كلام من ثبتت إلٰهيته ، ولقد نفي الشـريك عن نفسـه فقال عـزّ مِن قائـل : ﴿ **فَاعلَم أنَّـهُ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وَاستَغفِـر لِـذنبِكَ** ﴾[1] ومـا تقدم في الآيتين السـابقتين مع إشتمـالهمـا على الإستـدلال الكافي ، وقول أمير المؤمنين لأبنه الحسن « عليهمـا السلام » : (إنـه لو كـان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه) فهو في قوة البرهان ، ولعدم إحتياج التوحيد الظاهر المنادي إلى أكثر من هذا الإستدلال .

فـوا عـجبـاً كـيف يـعصىٰ الإلٰــه ... أم كـيـف يـجـحـده الـجـاحـدُ
ولـلّـه فــي كــل تــحـريـكـةٍ ... وتــسـكـيـنـةٍ أبـداً شـاهـدُ
وفــي كــل شــيء لــه آيـة ... تـدل عــلى أنــه الــواحـدُ

أما مكنون الضميـر ، وما جـاء بعد ذلـك من العبارات فـإن الشهادة بهـا يعني الإعتراف بكونها من النعم التي أفاضهـا الله عليه فـإنه قـد أخذ في ذلـك السيـاق يعدد تلك النعم واحـدة بعد أُخـرىٰ ، وكأنـه يشيـر إلى سـلامـة هـذه الجوارح من العيوب ، ومعنىٰ ذلك هو تمتعـه بالصحـة التامـة التي لا يشوبهـا كدر في حياتـه . وتعداد الجـوارح أيضاً في صحتهـا إعتراف بنعمـة الصحة ، ومعنىٰ ذلك أيضاً أنـه قد أوجب على نفسـه شكراً جـديداً لهـذه النعم في أداء حقها ، وهو علىٰ إستعداد لذلك كما يظهر من شاهد الحال والمقال . فإنه قد تمحض في هـذا اليوم العـظيم للعبادة والإنقـطاع إلى الله ، وترك عـلائقـه من غيره .

---

(1) سورة محمد / الآية : ١٩ .

أما النعم التي تتوالىٰ على الإنسان من الله فهي لا تنقطع ، طالما هو موجود ، ولذلك فإن الشكر عليها بتجدد كلما تجددت ، وكلما شكر الإنسان ربه على نعمة تجدد هذا الشكر على الشكر ، ولا نقول في ذلك بالتسلسل فإن الله قد رضي بشكر النعمة فقط ، فإذا فعل العبد ذلك سمي عبداً شكوراً كما نطق بذلك الكتاب العزيز قال تعالىٰ : ﴿ ذُرِّيَةَ مَن حمَلنَا مَعَ نُوحٍ إنَّهُ كَانَ عَبداً شَكُوراً ﴾[1] .

وتعداد النعم في مثل ذلك الموقف واحدة بعد أُخرىٰ وإحصاءها ما أمكن للعبد ذلك يعني المبالغة في الاعتراف بها .

فحاجة الإنسان في ذلك اليوم إلى المبالغة في شكرها كحاجته إلىٰ المبالغة في الإلحاح في الدعاء والمسألة .

أما بالنسبة إلى معاني هذه الألفاظ الواردة في كلامه « عليه السلام » فقد مرت في فصل اللغة بشيءٍ من التفصيل بنبذة في شرح معانيها المفردة .

ولنا كلمة حول هذا الموضوع بالنسبة إلى ما جاء في هذه الفقرة حول بعض أعضاء الإنسان التي تعمل ليلاً ونهاراً في هذا الجرم الصغير الكبير ، الصغير فيما يشغله من حيز في هذا الكون ، الكبير فيما يحتوي من دقائق الصنع وفيما تتجلىٰ فيه من الحكمة ، لقد مرّ شيء من ذلك فيما مضىٰ فنقول :

---

(١) سورة الإسراء / الآية : ٣ .

وظائف بعض أعضاء الإنسان

إن الجسم الإنساني شبيه بمعمل كيميائي معقد ، فكل عضو يؤدي دوراً في نمو الإنسان ، وإستمرارية حياته ، وان أي عطل فني في إحداها يعني تعطيل كثير من الأعضاء ، وبالتالي تعرض الجسم لأمراض مختلفة . فإن الجسم يبدو ـ كما قلنا ـ جسماً معقداً كاكثر ما يكون التعقيد ، إنه إتحاد هائل لجميع الأعضاء في العمل ، بل لجميع مختلف أنواع الخلايا التي يتكون كل نوع منها من ملايين الأفراد ، وقد أغرقت هذه الأفراد في إخلاط مصنوعة من مواد كيميائية صنعتها الأعضاء ، ومن مواد أخرىٰ مستمدة من الأعضاء ، ومن أحد جانبي الجسم إلى الجانب الآخر يحدث إتصال الخلايا بواسطة رسائل كيميائية ، أي بواسطة إفرازاتها ، وعلاوة على ذلك فإنها متحدة بواسطة جهاز دقيق متقن هو ما يطلق عليه الجهاز العصبي . وتكشف الفنون العملية عن إتحادات الخلايا ، وقد أثبتت هذه الفنون أن هذه المجموعات الخلوية على أعظم جانب من التعقيد ، ولكن مهما يكن من أمر فإن هذه الجماهير الهائلة من الأفراد تتصرف كمخلوق واحد قوي التشابك ضمن مملكة محدودة هو الجسم .

وإذا رأيت ثم رأيت عجباً ، وذلك أن الآله وجسمنا عبارة عن جسم ، ولكن

نظام جسمنا لا يشبه نظام الآلة ؛ لأن الآلة تتكون من أجزاء عديدة كانت في الأصل منفصلة أحداها عن الأخرىٰ ، وحينما جمعت معها إنقلب تعددها إلى وحدة ، وهي كالإنسان الفرد ، جمعت لغرض معيّن .

أن كل عضو يبني نفسه بواسطة فنون غريبة جداً على العقل البشـري ، ويقوم في يومه بعمليات ضخمة من البناء والهدم ، ينظمهـا طبقاً للحـاجة التي يحتاجها في الوقت نفسه ؛ ليكون دائماً محـافظاً على مستـواه الصحي . وكأن كل عضو هو جسم إنساني مستقـل ، يعمل في محيط خـاص بحسب مسؤولية أعـطيت له ، واوامـر صدرت إليه ، فهو يـدور في فلكهـا ليبحث عن المتغيرات والطورىء ، وما يرد على محيطه من مؤثرات خارجية وإختلاجات . فهو أشبـه بفرد في امة ، وعاملٍ إجتماعي نشط .

وإذا كـانت الإعضاء في الجسم كلهـا تعمل بصـورة طبيعية ، فـإن هـذا يعني الصحـة في الأعضاء ، كـالأفراد في الأمـة ، فـإن حـركتهم الـدائبـة في محيطهم يعني صحتهم ونشاطهم المنظم الذي ينتج عند زيـادة خيرهم . وقـد قـال أحد الصحيين العـالميين : (قوام الأمـة في ثلاث : في البـدن السليم ، والعقل السليم ، والخلق السليم) .

وكل أمة تحاول بالـوسائـل الكثيرة البقـاء والتغلب عليها ، ولا يخفي أن البقـاء دائماً لـلإصلح ؛ لـذلـك لا بقـاء لأمـة كـان أفـرادهـا ضعـاف العقـول والأجسام ، يعيشون في وسط غير صحي ، وما من أمة تريد أن تحتل مكـانتها المـرموقـة بين الأمم ، وتعيش عزيـزة الجـانب ، مـوفـورة الكـرامـة ، مهـابـة محتـرمة ، إلّا بعـد أن تكـون قـد وصلت إلى مستوىٰ صحي عـالٍ ، وتمتـع أفرادها بالكمال مـادة ومعنىٰ ، جسماً وعقـلاً وروحاً ، أي خُلقـاً وخَلقاً . وفي كلمة للقمان الحكيم « عليه السلام » قال : (أن العلاج لا يشفي إلّا ما ندر ، وقد يسكن في بعض الأحوال ، ولكنه يسلي أو يعزي دائماً) .

والمراد بذلك أن الشفاء التام لا يمكن الحصول عليه ، وإن حصل فلا يكون تماماً بل لا بد أن يترك أثراً في البدن ولو قليلاً ، يظهر عاجلاً أو آجلاً .

وتبعاً لذلك كان من أجل غايات الوقاية الصحة ، والتحفظ من المرض قبل وقوعه . ولا يخفي نزول وباء ، أو جائحة في بلدٍ من البلدان من ضحايا كثيرة في النفوس أو المواشي ، وغيرها مما يؤدي إلى شلل في الحياة الإقتصادية والإجتماعية ، وجميع مرافق الحياة .

وإذا نظرنا بتأمل إلى ما يعتري الإنسان من أمراض وجدناها بنسبة عاليه مسببة عن الأطعمة وأنواعها التي يتناولها الإنسان بدون حساب .

علىٰ أن الأجسام تختلف طاقاتها وقابلياتها في تقبل أنواع الأطعمة المختلفة إضافة إلى الطقس الذي يختلف بين عشية وضحاها ، فيكون له أثر في الأجسام وأعضائها ، وقد أثر القول عن مختلف الجهات العلاجية بأن الحمية هي خير الطرق العلاجية ؛ لأنها تحقق الغرض المقصود الذي يحققه العلاج .

وقد يلجأ الإنسان السليم إلى الحمية لغرض الوقاية لا للمعالجة ؛ ليدرأ عن بدنه شر الإمتلاء ، ويريح جهازه الهضمي من عناء العمل المستمر ، ويتيح له الفرصة الكافية لتخفيف السموم البدنية المتراكمة وطرحها خارج البدن بما يتسنىٰ له من طرق الإخراج ، أو إمتصاصها :

قال القراغولي في كتابه من علوم الطب في الإنسان :

إن البدن أثناء الحمية يستعين بالمواد الغذائية التي إدّخرها في الكبد فيستفيد منها عندئذٍ . وخير أنواع الحمية الصيام الذي يساعد على إذابة الشحوم ، وحرق الدّسم المختزن في الجسم وعلى تحويل سكر العنب المخزون في الكبد إلى مادة النشاء للإستفادة منها ، وبهذا يثبت لنا أن الحمية

أساس العلاج للشفاء من الأمراض ، كما أثر عن النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » فإنه قال : (المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء) ، وجاء عنه أيضاً قوله : (ما ملأ إبن آدم وعاءً شراً من بطنه) .

وبنظرة أخيرة نرىٰ أن الفقرة السابقة عندما ذكرت كثيراً من أعضاء جسم الإنسان ، لا بدّ وأن الإشارة في ضمن هذا الذكر موجودة ولو ضمناً إلى فائدة هذه الأعضاء كل على حدة ، ولقد ذكرنا تواً في هذا البحث وفي غيره أن كل عضو يعمل على شاكلته ويدور في فلك له معين .

والغرض من عمل العضو الدائب المحافظة على محيطه الذي يعمل فيه وكلف بالمحافظة عليه من الإعتدآت الخارجية من الجراثيم التي تحاول مهاجمة الجسم بشراسة في عقر داره من قبل ذلك العضو .

وليس الغرض من ذلك إلاّ المحافظة على صحة الجسم لكي يبقىٰ سليماً في زمنٍ أطول ، وما ذكرناه ـ فيما سبق ـ يتعلق بذلك كله ، وسوف نواصل هذا الطريق ونعيش مصغين إلى ما يقوله ربيب الوحي ، وخامس الأشباح ، وثاني السبطين وثالث الأيمة ؛ لنستفيد من هذا العطاء الثر من ذلك البحر المفعم بالخير والبركة ، فاستمع إليه وهو يقول :

قال عليه السلام :

[وَمَا أشتملَ عليهِ تامورُ صَدرِي ، ونِياطُ حجابِ قَلبِي ، وَأفلاذُ حَواشِي كَبدِي ، وماحَوْته شَرَا سِيفُ أضْلاَعِي ، وحَقَاقُ مَفَاصِلِي ، وَأطْرَافُ أنَـامِلِي ، وَقَبَضُ عَوَامِلِي ، وَلحمِي وَدَمِي ، وَشعرِي ، وَبَشَـرِي ، وَعَصَبِي ، وَقَصَبِي ، وَعَظَامِي ، وَمُخيِّ ، وَعُروقِي ، وَجَمِيعُ جَوَارِحِي ، وَمَا أنتَسَجَ عَلَىٰ ذَلـكَ أيَّامَ رِضَاعِي ، وَمَا أقْلتِ الأرضُ مِنِّي ، ونَومِي ، وَيَقْظَتِي ، وَسَكُونِي ، وَحَرَكَـاتُ رُكُوعِي وَسُجُودِي] .

اللغــة

التامور : والتامورة الإبريق ، وقيل التامور والتامورة الخمر نفسها . وقال الأصمعي : التامور الدم ، والخمر ، والزعفران . والتـامور النفس . وقـال أبو زيد يُقال لقد علم تامور كذلك ، أي قد علمت نفس كذلك . والتامور : وعمّ بعضهم به كل دم ، قال عمر بن قنعاس المراوي :

وتـامـوراً هـرقـت وليس خـمـراً وحبـة غيـر طـاحيـة طـحيـت

والتامور غلاف القلب ، وحبة القلب .

وقالوا أيضاً في تعريف آخر : التامور هو غشاءٌ مصلي يحيط بالقلب ليقيه الإحتكاك بالرئتين الإسفنجيتين .

النياط : نياط القلب ، وهو العرق الذي يتعلق به القلب ، وناط وإنتاط بعد .

الفلذة : القطعة من الكبد واللحم والمال ، والذهب ، والفضة ، والجمع أفلاذ ، وفي الحديث في أشراط الساعة : وتقيء الأرض أفلاذ كبدها ، وفي رواية تلقي الأرض بأفلاذها ، أو بأفلاذ كبدها ، أي بكنوزها ، واموالها . ومثله قوله تعالىٰ : ﴿ وأَخرجَتِ الأرضُ أثقالَهَا ﴾[1] ، وخص الكبد لذلك لأنها من أطايب الجزور .

الشراسيف : جمع شرسوف وهو غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف . وقال ابن سيدة : الشرسوف ضلع على طرفها الغضروف الرقيق . وقال الأصمعي : الشراسيف أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن . وقال ابن الإعرابي : الشرسوف رأس الضلع ممّا يلي البطن .

حقاق : حاقه في الأمر محاقة ، وحقاقاً أدّعىٰ أنه أولىٰ بالحق منه . والحقاق الإدراك ؛ لأن وقت الصغر ينتهي فتخرج الجارية من حد الصغر إلى الكبر .

والحقاق بلوغ العقل ، والحقاق من الإبل جمع حق وحقه ، فهو الذي دخل في السنة الرابعة .

أقل : حمل . واستقل القوم أي ذهبوا ، واحتملوا سارين ، وارتحلوا . قال الله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ إذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾[2] أي حملت .

سكون : السكون ضد الحركة ، وسكن الشيء يسكن سكوناً إذا ذهبت

---

(١) سورة الزلزلة / الآية : ٢ .

(٢) سورة الأعراف / الآية : ٥٧ .

حركته ، وسكان السفينة عربي ، والسكان ما تسكن به السفينة عن الحركة والإضطراب ، وسكان البلد قاطنوه .

الحركة : ضد السكون ، قال الجوهري الحارك من الفرس فروع الكتفين ، وهو أيضاً الكاهل .

وفي تعريف آخر للحركة والسكون قالوا :

الحركة هي الوجود الأول في المكان الثاني ، والسكون هو الوجود الثاني في المكان الأول .

البيـــان

إكمالاً لما تقدم من مواصلة بيان أعضاء الإنسان ، ويعني بالتالي ذلك بيان فوائدها ودورها الذي تؤدّيه بهذا الجسم المعقد التركيب ، وذلك إمعاناً منه « عليه السلام » في تعداد النعم الباطنة التي تمس الإنسان بصورة مباشرة ـ فإنه لو تعطل عضو من هذه الأعضاء لتعطل من أعضاء الإنسان المختلفة الكثير ، فالجهاز العصبي ، والجهاز الهضمي ، والجهاز العظمي ، وغيرها من الأجهزة التي تعتبر ممالك خاصة ، وكل عضو فيها يعمل ضمن حدودٍ معروفة بحسب أوامر تصدر إليه من جهات عُليا معروفة ، قد مرّ في البحث المتقدم إشارة إلى ذلك العمل الدؤوب . ونواصل هنا ما توقفنا عنه هناك ؛ لكي نكمل هذا الشوط الذي رسمه لنا أبو عبد الله الحسين « عليه السلام » ضمن كلامه الذي يتألق نوراً وحيوية .

تطالعنا في بداية هذه الفقرة كلمة (التامور) ، وقد قلنا معنىٰ ذلك في فصل اللغة أنه هو ذلك الغشاء المصلي الذي يحيط بالقلب فيحميه عن الإحتكاك بالرئتين الإسفنجيتين والقلب هو تلك المضخة التي تنبسط وتنقبض بحركة تلقائية فيتسبب عنها خروج الدم ليتوزع في جميع أجزاء الجسم ليمدّه

بالغذاء والطاقة والحياة .

إن هذه القطعة من الجسم تبدأ عملها بهذا الشكل في اللحظة الأولىٰ التي تلج فيها الروح في الجسد ، ولا تتوقف إلاّ في آخر لحظة من حياة الإنسان عندما تفارقه روحه .

إن جزءً من جسم الإنسان هذا عمله ، وهذه أهميته لهو جدير بأن يحاط بكل عناية خوفاً عليه من المؤثرات الخارجية التي تسبب له التوقف عن العمل ، والذي يسبب بدوره الوفاة .

إن الموقع الجغرافي للقلب في الجسم ينبؤك عن أهميته القصوىٰ من بين أعضاء الإنسان ، وقد مثلوه بينها فقالوا إنه كالسلطان بين أعضاء الجسم لأنه يأمر وينهىٰ جميع الأعضاء وليس عليها إلاّ السمع والطاعة ، وفي ضمن مقطوعة شعرية أشرت إشارة عابرة إلى ذلك فقلت :

القلب كالسلطان للأعضاء   أو مثل كسرىٰ الفرس والأمراء
هذا يغذيها غذاء حياتها   والجسم لا يحيىٰ بغير غذاء
وبتلك تعتمر الحياة لأنها   أجناده والجند للأعداء

أما إضافة (التامور) إلى الصدر فهي تعني وجوده في هذا الصندوق المغلق في قوله « عليه السلام » : (وما أشتمل عليه تامور صدري) . وإذا تأملت هذه العبارة تقف حائراً أمام هذا التركيب الذي تضمن إشارة هي أشبه شيء (بالشيفرة) التي أصطلح عليها العسكريون في ميادين القتال والتي تكون عادة مفهوم مغلقاً .

فقوله : (ما أشتمل عليه) تشير إلى أن (التامور) قد ملأ بالقلب ، فهو يحفظه من الطوارىء ، ومن ثم يحفظ الحياة للإنسان ؛ لأنها تتوقف عليه ، فإذا توقف بأي فعل توقفت الحياة . وإن الإصابة بأمراض القلب يعني نقص

في حياة الإنسان ، فهي مهددة في أي لحظة ، وموت الفجأة أو كما يسمونه حديثاً بالسكتة القلبية هو عينة المرض الذي يعتري الإنسان في قلبه فيسبب الوفاة له فوراً .

وقد أودع الله هذا القلب إحساساً مرهفاً يختلف كثيراً عن بقية الأعضاء فتراه يزيد في نبضه عند الإحساس بالخطر أو عند التعب ، أو عند الخوف ؛ وذلك أن الجسم في هذه الحالة التي تعتري الإنسان ترتفع حرارته فيستنفد كثيراً من الدم الذي إنتشر في جميع أجزاء الجسم لتغذية الأنسجة والخلايا ، فيحتاج الجسم في هذه الحال إلىٰ دمٍ جديد ليعوض عن الدم المستهلك فوراً ، وإلّا هبطت حرارته فجأة ، فيصاب الإنسان على أقل تقدير بأمراضٍ مستعصية ومنها الشلل ، وهنا يبدأ عمل القلب في التعويض عن الدم المفقود ، فيضاعف من عمله ويزيد من نشاطه ليحافظ على توازن الجسم الصحي .

ولقد ورد عن الإمام الباقر « عليه السلام » في حديث قال من جملته : (إذا ظهر الزنا كثر موت الفجأة) . وهذا يعني أن الإنسان خصوصاً المؤمن يصاب بانبهات وحيرة ، ويغمره من الأسىٰ ، والحزن ما يجعله أن يعتر به حالة من الفوضوية في جسمه ، على أثرها تتوتر أعصابه فترتفع حرارته فيحتاج إلى ضخ الدم في الجسم أكثر من حالاته العادية ، فيصاب القلب بمفاجآت ربما يكون غير مستعد لها فيصاب بالإرتباك ، وبسبب ذلك يحدث (موت الفجأة) .

أما أفلاذ حواشي الكبد فإنها تعني التعرجات التي توجد في حواش الكبد ؛ لأن الكبد في حواشيها يوجد بعض هذه التعرجات ، أو التموجات ؛ لكن هذه التعرجات ، والتموجات ليست بسبب مرض أو عيب ، أو ما شابه ذلك ، ولكنها وجدت لكي تحمي الكبد بعضها البعض من الحركات التلقائية

التي يتحركها الإنسان ؛ وذلك لأنها بسبب هذه الحركة تتحرك جميعها فلو لم تكن تلك الحواشي ، وعلى ذلك الشكل لتحركت كلها دفعة واحدة ، وأحس الإنسان بهذه الحركة ، وإحساسه بهذه الحركة من الكبد ربما يؤدي به إلى الوساوس على أقل تقدير ، إذا لم ينتج عن ذلك أذىً للإنسان ، فوجود التعرجات ، أو فطور في بعض الحالات في حواشي الكبد ضروري لها ؛ لأنه لو تعرضت الكبد لحركة ضارة فإنها لا تشمل الكبد برمتها ، وإنما تختص بفلذة واحدة .

ونستدرك هنا فنقول : أن هذه الأفلاذ ـ كما أشار إليها « عليه السلام » ، هي التي تجعل الكبد بمعزل عن الحركات العنيفة التي تضرُّ بها ؛ لأنها تعطيها نوعاً من المرونة ، وهذه من النعم الخفية التي لا يدركها إلاَّ من وفقه الله لذلك .

أما شراسيف الأضلاع فهي كما وردت في فصل اللغة زوائد مرنة يسهل ثنيها ، وبذلك تسلم من الكسور التي تتعرض لها الأشياء الصلبة .

وهذه شراسيف لا تختص بالإنسان فقط ، فإن الله قد أنعم بها على كل كائن حي ، حتىٰ الحشرات المتناهية في الصغر .

وقد جاء عن أمير المؤمنين « عليه السلام » في خطبة النملة ، وهي من خطب نهج البلاغة قال : (ولو فكرت في مجاري أكلها ، في علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ! فتعالىٰ الذي أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها . . . الخ) .

هذه الزوائد المرنة في الأضلاع إضافة إلىٰ حماية الأضلاع من الكسور تحمي الأحشاء الداخلية من الأضلاع فيما لو كانت رؤوسها صلبة مدببة فإنها تمرق في المعدة بأي حركة يتحركها الإنسان .

أما حقاق المفاصل ، وأطراف الأنامل ، فهو كما يلوح من العبارة في الدعاء إضافة إلى القرائن المتقدمة هي رؤوس العظام التي تنتهي عادة بزوائد غضروفية مرنة تعتبر حماية للعظام من التأثر في نفسها ، أو التأثير في غيرها ؛ ولذلك وصل كلامه بأطراف الأنامل ، وقبض العوامل ، وناهيك بهذا من دقة في الصنع ، ودقة في الوصف .

أما الدقة في الصنع فهي أن الخالق « سبحانه » قد هيأ لذلك ظروفاً مكانية خاصة تحيط بهذه الرؤوس الغضروفية الناتئة فجعلها محاطة بسائل دهني يتجدد كلما فقد العظم المتصل بهذه الغضاريف جزءاً منه بسبب الإحتكاك الناتج عن الحركات المختلفة ، فيكسوها بالمادة الصلبة مرة ثانية ، فهي تتجدد كلما احتاجت هذه الأعضاء إلى حماية .

ولهذا نرىٰ أن كثير الحركة أكثر حيوية ونشاطاً من القليل في حركته ؛ وذلك للتجديد المستمر أثناء الحركة المتواصلة .

وأما الدقة في الوصف فإن الحسين « عليه السلام » قد أشار إلى ذلك ، ولكن هذه الإشارة تحمل أكثر من معنىٰ . فهي إضافة إلىٰ وصف هذه الأعضاء فإنها تحمل معنىٰ الحكمة ـ كما أشرنا إلى ذلك .

أما اللحم والدم ، والشعر ، والبشر ، والعصب والقصب ، والعظام والمخ ، والعروق ، وجميع الجوارح ـ كما ورد في سياق العبارة ـ فهي نعم من الله ، لا يحس بها الإنسان بل هي نعم عليه ضرورية لحياته .

فاللحوم غنية بالمواد الزلالية والدّسم ، أما الكربوهيدرات (الفحوم المائية) فكميتها قليلة .

تركيب اللحوم وأنواعها

ولا يختلف تركيب اللحم كثيراً بالنسبة لأنـواع الحيوان ، وإنمـا يختلف بحسب طراز معيشة ذلك الحيوان ، وعمره ونوع غـذائه ، فمـا كان عـائشاً في الحظائر أكثر دسماً من حيوان المراعي ، وأليافه ألين والطف من الثاني .

أمـا الحيوانـات الكبيرة فـإن عضلاتهـا ليفية صلبـة لذلـك تكـون صعبـه الهضم ، قليلة التغـذية لتقـدمهـا في السن ، بينمـا تكـون لحـوم الحيـوانـات الصغيرة هلامية ضعيفة سهلة الهضم إلاَّ أنها قليلة الغذاء . وخير الحيوانات ما كانت في ربيع أعمارها لا كبيرة ولا صغيرة .

أنواع اللحوم

هناك أنواع كثيرة من اللحوم تبعاً لتعدد أنـواع الحيوانـات الموجـودة في الـطبيعة إلَّا أنهـا ليست كلها يجـوز أكلها أو تنـاولها ، فمنهـا ما هـو مشروع ، ومنها ما هو محرم .

فـالمشروع لحم الضـأن ، والمعـز ، والبقـر ، ويكـره لحم الخيـل إمـا محافظة على نوعها أو لسر آخر . ويحرم لحم الخنزير لقذارة حيوانه ، وكثـرة أمـراضـه ، ويحـرم كـذلـك لحم كـل لاحم من الحيـوانـات ، قـال تعـالىٰ : **﴿ حُرِّمَتْ عَليكُمُ المَيتَةُ وَالدَّمُ وَلَحمُ الخِنزِيـرِ وَمَا أُهِـلَّ لغَير اللهِ بِـهِ وَالمُنخنقةُ وَالمـوقُوذَةُ والمتَرَدِيَةُ وَالنَّـطِيحةُ وَمَـا أَكَلَ السَّبُـعُ إلَّا مَـا ذَكيتُم وَمَـا ذُبِـحَ عَلَىٰ النُّصُبِ . الخ ﴾**[1] .

واللحوم تعتبر من الأغذية الـرئيسية لـلإنسان ، وتستهلك يـومياً بكميات كبيرة ، وتجارتها رائجة مربحة ، وهي بحسب لونها نوعان :

الأول : لحوم بيضاء ، كلحوم الطير والأسماك ، وهي أقل تغذية لقلة ما فيها من مركبات الحديد ، وأصعب هضماً ، ما خلا الفراريج .

---

(١) سورة المائدة / الآية : ٣ .

الثاني : ولحوم حمراء ، وهي كثيرة التغذية ، وغنية بمركبات الحديد ، وسهلة الهضم .

أما الدم الذي أشار إليه ، فهو من أهم ما يعتمد عليه الإنسان في حياته ؛ لأن هذا السائل الحيوي الضروري للإنسان ينتشر في جميع أجزاء الجسم . وإذا كان للقلب وظيفة ذات أهمية ، فلا يعدو كونه خزاناً يوزع الدم على جميع أجزاء الجسم بحسب ما ينال كل عضو من نصيب من ذلك الدم ، وهذا السائل الحيوي ، يوزعه القلب في دفعات مختلفة بمقدار حاجة العضو .

وهذا السائل الحيوي أيضاً هو الذي يحافظ على حياة الإنسان بمقدار الحاجة ، فلو زاد لقتل ، ولو قل لقتل ، وهو (عبد عارم) كما أشار لذلك الإمام الكاظم «عليه السلام» في رسالته إلى الرشيد ، كما جاء توضيحه من الأخ الدكتور محمد حسن عبد علي في رسالته التي أوضحت جوانب مهمة من رسالة الإمام الكاظم « عليه السلام » كما أشرنا إلى ذلك عند ذكرها فيما مضى .

بعض الأسرار من تحريم بعض المحرمات

ونود أن نشير هنا إلى السّر في تحريم المحرمات الواردة في الآية السابقة فمنها :

أولاً : الدّم فقد دلّت البحوث الطبية الحديثة على أن الدّم يصاب بالتعفن ، وأن جميع الجرائيم تستطيع أن تحدث عفونة عامّة في الدم ، كما أثبت ذلك زرع الدّم الذي نتحقق بواسطته من وجود الجرائيم ومعرفة نوعها .

ترد الجراثيم إلى الدّم على شكل دفعات من بؤرة عفنة كالإلتهابات الرحمية النفاسية ، والجروح العفنة ، وإلتهاب الزائدة الدودية ، وهي لا تؤدي حتماً إلى تسمم دموي صريح إلّا إذا كانت قادرة على التكاثر في الدّم ، وعفونة الدّم لا تحدث إلّا إذا كان الجرثوم نشيطاً ، وأمكنه التغلب على وسائل الدفاع في البدن .

ودلّت البحوث الطبية الحديثة أيضاً على أن الدّم يصاب بالتجرثم ، حيث يمر الجرثوم في الدم دون أن يحدث أعراض تسمم لنشاط وسائل الدفاع في البدن .

ويصاب (بالتذيفن) أي بالتسمم ، حيث لا يوجد الجرثوم في الدّم بل

يبقىٰ في البؤرة العفنة ، ويرسل (ذيفانه) أي سمّه إلى الدورة الدموية .

وأخيراً نقول : إن الدّم غير قابل للهضم ، فإذا تناول الإنسان دماً صرفاً كغذاء عن طريق الجهاز الهضمي فإنه يخرج منه دون أن يتأثر بعملية الهضم ، ودون أن يمتصه الجسم ، أو يستفيد منه ؛ لذلك حرمه الله « سبحانه » وهو أحكم الحاكمين .

هذا من جهة ومن جهة أخرىٰ أن الدّم سريع التأثر بالعوامل الجوية وسريع التجرثم ، فما يكاد أن يبرز للجو الخارجي حتىٰ يظهر عليه الأثر واضحاً ، وبهذا يكون الإنسان عرضة عند تناوله لمختلف المؤثرات الخارجية .

ثانياً : **أما تحريم أكل الميتة وأكل لحم الخنزير فقد ألمحنا إلى ذلك سابقاً ، وأشرنا ضمن ذلك إلى أسباب صحية وشرعية طويناها خوف الإطالة ،** وخوف الهروب عمّا نحن فيه من الحديث .

والشعر والبشر والعصب والقصب والعظام تدخل ضمن هذا الإطار من التحريم .

ونعود مرة ثانية فنقول إن هذه الجوارح كلها من النعم التي ذكرها في كلامه « عليه السلام » في الإنسان ، والمخ والعروق وسائر الأعضاء نعم ينبغي للعبد أن يذكرها ويعترف بها أمام المولىٰ كل ما أقتضته الظروف والأحوال ، كما ينبغي أيضاً له أن يذكر النقم التي دفعها الله عنه ، وكفاه شرها ، ويعترف بالذنوب التي أقترفها عند ما يسأل من الله أن يغفرها ، وبهذا الإعتبار يمكن للعبد أن يتلافىٰ ما فرّط في جنب الله

ما ينتسج أيام الرضاع

وأما ما ينتسج أيام الرضاع فإن بداية نشأة الإنسان في أيامه الأولىٰ من حياته له أهمية كبرىٰ في تقويم جسمه وتنشيطه بالرضاع من الأم ، أما ما تداولته الأيدي من إستعمال اللبن المعقم فله آثار سلبية على صحة الوليد الذي يعتمد في بناء جسمه على حليب الأم ، والتركيب الإلٰهي الذي أودع فيه جميع المواد الغذائية الضرورية لبناء الجسم .

فاللبن المعقم يعوزه التركيب الكامل للمواد الغذائية التي يعتمدها الجسم وخلوه من الجراثيم التي توجد في لبن الأم ، والتي يعتبر وجودها فيه ضرورياً ؛ لكي تحمي الجسم من الجراثيم المؤذية التي تغزو الجسم ، وتدافع عنه بحكم الوطنية .

وقد أشار « تبارك وتعالىٰ » في القرآن الكريم إلىٰ ذلك معتبراً أن البنية الأساسية لتقويم جسم الإنسان منذ ولادته حتىٰ يتم حولين كاملين أو دون ذلك بقليل . قال تعالىٰ : ﴿ **وَالوَالِدَاتُ يُرضِعن أَولَادَهُنَّ حَولَينِ كَامِلَينِ لِمَن أَرَادَ أن يُتِّم الرَّضَاعَةَ** ﴾[1] ، فقد بيّن « سبحانه » في هذه الآية أن الوالدات أحق

(١) سورة البقرة / الآية : ٢٣٣ .

لـرضاعـة أولادهن من غيرهن ، وأن مـدة الرضـاعة عـامان تـامّـان . لمن أراد الإتمام للرضاعة كما صرحت بذلك الآية .

وسنبحث فيما يلي رضاعة الطفل الوليد وتغذيته كما يقرره الطب الحديث ؛ لنعرف السّر الذي من أجله جعل الله « سبحانه » الحق للوالدات في رضاعة أولادهن بأنفسهن ، ولمدة الحولين الكاملين .

تعتبر تغذية الوليد مشكلة صحية إجتماعية يعرف خطورتها ويقدرها الأطباء المختصون ، والأباء والأمهات بممارستهم تربية الأطفال واصطدامهم بمشكلة التغذية وجهاً لوجه ، وما أكثر الأطفال الذين ذهبوا ضحية الحثل وسوء التغذية ، وسكنوا المقابر ، وما أكثر الأمهات اللاتي قصرن بحق أولادهن فأسأن إليهم الإسآت البالغة وسببن لهم الضعف والهزال المبكرين في المرحلة التي يكون فيها الطفل أكثر المخلوقات حاجة إلى الغذاء الصحي لبناء جسمه ، وتقويم كيانه ؛ لذلك كانت التغذية الصحيحة اللبنة الأولىٰ في حفظ صحة الطفل وصيانته من الأمراض .

والواسطة الطبيعية المفضلة لتغذية الطفل تغذيةً صالحة هي إرضاع الأم طفلها بنفسها ؛ لأن لبنها مكيف تكييفاً مناسباً لحالة وبنية الطفل الرضيع منذ الساعات الأولىٰ من ولادته ، ولا شيء يساويه في قيمته الغذائية والصحية ، ولا يغني عن لبن أم الطفل لبن إمرأة أخرىٰ لما بين اللبنين من إختلاف كبير أدركه الطب وعرف قيمته .

تبدأ الرضاعة في المرحلة الأولىٰ من ولادة الطفل باللباء مدة ثلاثة أو أربعة أيام قبل الدرة (ظهور اللبن) ، وله فائدة كبيرة وأثر بعيد في صحة الطفل ؛ لأنه يقوم بدفع ما في أمعاءه من (العقىٰ) لما فيه من خاصة ملينة .

هذا من جهة ومن جهة أخرىٰ أن هناك فائدة كبيرة من تناول الطفل من

الأم ، وهي نقل المضادات الحيوية بجميع أنواعها من الأم عن طريق اللباء إلى الطفل ، فتساعده في الأيام الأولىٰ على تجنب أنواع الإلتهابات بالجراثيم .

تبدأ الوالدة بإرضاع طفلها منذ الساعات الأولىٰ من لبنها الذي يأخذ بالتكيف يوماً بعد يوم مسايراً نمو الطفل وتقدمه في العمر ، فيكون اللبن في بدايته رقيقاً ثم يغلظ بالتدريج وغير خفي ما في ذلك من حكمة بليغة وأثر عميق ، فلا يمكن والحالة هذه الحصول على مثل هذا اللبن من الألبان الغريبة .

إن الأم بإرضاعها طفلها باللبن الصالح المنطلق من أثدائها والذي هو هبة من الله « سبحانه » لهذا الرضيع وأول رزقه في هذه الحياة ، ترضعه مع كل ذرة من ذرات لبنها العطف والحنان والشفقة اللآتي يخلو منها أي لبن في العالم ، وكيف لا يكون كذلك وهي تحنو عليه هذا الحنو الدائم ، وتلقمه ثديها وترضعه خلاصة غذائها ، وتؤثره على نفسها ، وتسهر معه آناء الليل ، وتقوم برعايته أطراف النهار .

وقد ثبت أن في الإرضاع فوائد كبيرة في الأم عدا ما فيه من فوائد للطفل فهو من متممات الحمل ، وفيه ينقطع الطمث مدة طويلة بعد الولادة ، وتستريح الرحم ، وتعود إلىٰ حجمها الطبيعي ، وتنشط قابلية الإغتذاء لدىٰ الأم ، فتزداد صحة وعافية ويقيها من خطر السمنة والإنبعاج ؛ لصرفه كثيراً من شحم الغذاء في تكوين اللبن .

أما بالنسبة للطفل الرضيع فإنه يصون صحته ويمدّه بلبنٍ حديث نظيف دافىء معقم طبيعي حي غير متغير بالتسخين أو فاسدٍ بالجراثيم .

أوقات الإرضاع

لا يخفى ما في الولادة من إرهاق كبير ، ومتاعب جمة نفسية وبدنية تعانيها الوالدة فتكون بحاجة شديدة إلى الراحة والهدوء والنوم العميق ، فلا يرضع الوليد أكثر من مرة أو مرتين ، ولا بأس من بقائه مدة ١٢ ـ ٢٤ ساعة دون إرضاع لا يعطي خلالها شيئاً غريباً كالماء المحلىٰ بالسكر ، وإنما يكفي إعطاؤه ملعقة صغيرة من الماء القراح المغلى والمبرد .

أما في اليوم الثاني فيفضل أن تكون الرضعات متناوبة ، رضعة واحدة في كل أربع ساعات .

ويستحسن أن تستريح معدة الطفل ست أو سبع ساعات ونصف الليل الأخير هو الوقت المفضل لهذه الراحة .

أما في اليوم الثالث والرابع والخامس ، فيرضع مرة واحدة في كل ثلاث ساعات مع فترة الراحة بتمامها في النصف الأخير من الليل .

أما في اليوم السادس حتىٰ نهاية الشهر الخامس فيرضع كل ساعتين ونصف[1] .

---

(١) من علوم الطب في الإسلام : ص ٨٤ للدكتور عارف القراغولي .

(وما أقلت الأرض منى) إن حمل الأرض للإنسان ، وهو منها يرجع في أصل تكوينه إليها ، فإنه يرتبط بها إرتباطاً عضوياً وثيقاً ، وينشد إليها إنشداداً قوياً ، فمنها طعامه ، ومنها شرابه ، ومنها كساؤه ، ومنها مأواه ، وإليها يستريح ، فلا ينفصل عنها فترة حتىٰ يعود .

فهو وإن غزا الأجواء الخارجية ، وحدثته نفسه بالإبتعاد عن الأرض ، فإنه لا يلبث أن يعود إليها ، ويحن إليها ، كما يحن الوليد إلى أمه ، والطير إلى وكره ؛ وذلك لأنه جزء منها ، تربطه بها الطبائع المشتركة بينه وبينها .

فقد خلق أديمها ، وتفرع عن أصلها ، والفرع ينسب إلى الأصل . وفي جميع هذه الحالات التي تطرأ على الإنسان وعلى استمرار معيشته فيها ، سواء طالت أو قصرت فإنه يتقلب في خيراتها ، وما أفاض الله من برِّها على الإنسان لا يحتاج إلى دليل ، فهو يشاهد بالبصر ، والبصيرة ، ويلتمس بجميع الحواس ويدرك بأدنىٰ تأمل .

فإنشداد الإنسان إلى أمه الأرض من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى برهان .

وبعد كل هذا لا يلبث أن يعود إليها ، ويرجع إلى حالته الأولىٰ ، ويكون تراباً بعد موته ، قال تعالىٰ : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكُم وَمِنها نُخرجكُم تارةً أُخرىٰ ﴾[1] .

وهذا المعنىٰ أصبح ظاهرة حقيقية لا مجال للشك أو التشكيك فيها ، ولقد تحدث عنها الإنسان عبر العصور ، بل أصبح يتغنىٰ بها في أهازيجه

(١) سورة طه/ الآية : ٥٥ .

وأشعاره ، فمن جملة ذلك ما قاله أبو العلاء المعري :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلَّا من هذه الأجسادِ
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ـد هو أن الآباء والأجدادِ
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عادِ ؟

وأشرت أنا في ضمن أبيات في هذا المعنىٰ :

أين من حاطت الجنود حماه في بناءٍ مشيد الأركان
ذهبوا غير من أتىٰ فعل خيرٍ إن فعل الخيرات عمر ثاني

النوم واليقظة من النعم المجهولة

أما النوم واليقظة فهما نعمتان معروفتان مجهولتان .

معروفتان : لأن الإنسان يمارسهما في جميع الحالات بالليل والنهار ، فهو لا ينفك عن إحداهما بحال .

ومجهولتان : لأنه لا يقدرهما حق تقديرهما ، ولا يعرف سرّ النوم واليقظة .

وفي هاتين الحالتين ـ النوم واليقظة ـ دليل على الموت والبعث ـ كما جاءت بذلك الأخبار عن أهل البيت ـ بما معناه (تموتون كما تنامون ، وتبعثون كما تستيقظون) .

وجاء في توحيد المفضل الذي أملاه عليه الإمام الصادق « عليه السلام » قال : (والكرىٰ يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن ، وإجمام قواه) . قال تعالىٰ : ﴿ اللهُ يَتَوفَّىٰ الأنفُسَ حِينَ مَوتِهَا والَّتي لَم تَمُت فِي مَنَامِها .. الآية ﴾[1] .

---

(١) سورة الزمر / الآية : ٤٢ .

والنـوم له وظيفـة كبيرة ، ومنفعـة عـظيمـة في تـركيب جسم الإنسـان ، والمحافظة عليه من الإنهيار بـالتعب المستمر ، فـإن الإرهاق الدائم ، والتعب المتواصل يؤدي إلى الإعياء ، ومعناه تهديم أكبر كمية من خـلايـا الجسم التي يصعب عليه تعويضها بسرعة .

وقد عرّفوا النوم فقالوا: بأنه غشية ثقيلة تهجم على القلب ، فتبطل عمل الحواس ، وتمنعه المعرفة بالأشياء .

وبعبارة أخــرى : النـوم ريح تقـدم من غشية الـدماغ ، فـإذا وصل إلى العين فترت ، وإذا وصل إلى القلب نام .

وحـدّة الفقهاء بـذهاب حاسة السمع والبصـر ، وغيبة إدراكهمـا عنهمـا تحقيقاً أو تقديراً .

وهناك ألفاظ تأتي ضمن هذا الإطار ، ولكن العلماء فـرقوا بينهـا تفريقـاً دقيقاً فقالوا : بأن الفرق بين السِّنة ـ بالكسر ـ والنعاس ، والموت والـوسن ثقل النـوم . والرقـاد النوم الـطويل ، أو هـو خـاص بـالليـل . والمـوت عبـارة عن إنقباض الروح أي إنقطاع تعلق عن ظاهر البدن وباطنه . والنوم إنقطاعهـا عن ظاهر البدن فقط .

والنعاس والسنة بمعنىٰ واحد ، وهو الفتـور الذي في الحـواس بمقارنـة النوم .

وقيل : السنة في الرأس ، والنعاس في العين ، والنوم في القلب ، وقد نفى الله « تعالىٰ » ذلك كله عن نفسه بقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَـوْمٌ ﴾[1] ، لأنه آفة وهو سبحانه وتعالىٰ منزه عن الآفات ولا يغيره شيء .

---

(١) سورة البقرة / الآية : ٢٥٥ .

وقيل : النوم حالة تعرض للحيوان من إسترخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً .

وبعبارة ثالثة : هو حالة طبيعية تتعطل به القوىٰ بسبب ترقي الأبخرة إلى الدماغ .

وفي الحديث (النوم راحة للجسد ، والنطق راحة للروح ، والسكوت راحة للعقل) .

وجاء في نومة الأوقات المختلفة ومزاياها فقيل : إن نومة الضحىٰ في الصيف مبردة ، وفي الشتاء مسخنة . وجاء عن بعض العارفين قوله : إني لأعجب ممن يستلقي على فراشه ويطبق عينيه يبتغي النوم ، كيف لا يقوم يصلي حتىٰ تغلبه عيناه ، فلا نوم ألذ من ذلك النوم .

قال الشاعر :

نوم أمرء خير له من يقظة   لم يرض فيها الكاتبين الحفظة

ومما جاء عن النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » في النوم قال : قيلوا فإن الشيطان لا يقيل . وقال : النوم في أول النهار خرق ، وأوسطه خلق ، وآخره حمق .

أما الحزق فنومة الضحىٰ تشتغل عن أمر الدنيا والآخرة ، وأما الخلق الجميل فنومه الهاجرة التي ندب إليها رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » وقال : قيلوا فإن الشيطان لا يقيل .

وأما الحمق فنومه ما بين العصر والمغرب ، أو بين العشائين لم ينمها إلاّ أحمق ، أو سكران . وقال : النوم على أربعة أنحاء :

١ ـ إستلقاء : وهو نوم الأنبياء للتفكر في مخلوقات الله .

٢ ـ ونوم على الجنب الأيمن : وهو نوم العبّاد والعلماء .

٣ ـ ونوم على الجنب الأيسر : وهو نوم الأطباء والملوك .

٤ ـ ونوم على الوجه : وهو نوم الكفار والشياطين .

وعن علي « عليه السلام » قال : النوم على أربعة أصناف :

أ ـ الأنبياء تنام على أقفيتها مستلقية ، وأعينها لا تنام ، متوقعة لوحي ربّها .

ب ـ والمؤمن ينام على يمينه مستقبل القبلة .

جـ ـ والملوك وأبنائها تنام على شمالها ليستمرؤا ما يأكلون .

ع ـ وإبليس وإخوانه وكل مجنون وذي عاهة ينام على وجهه منبطحاً .

قال المجلسي : في نوم الأنبياء على أقفيتهم لتوجههم إلى السماء انتظار الوحي .

ونوم الأطباء على مياسرهم وشمائلهم لتشتمل الكبد على المعدة ، وتصير بمنزلة دثارٍ عليها ، فتسخنها بما فيها من الحرارة القوية ، فإذا تم الهضم تعاد إلى اليمين ليعين على الانحدار إلى جهة الكبد بميله الطبيعي إلى الأسفل .

ونوم المنافقين والشياطين على وجوههم ؛ لأنه على هيئة اللواطه التي اخترعها اللعين ، أو المراد بالشياطين أتباعهم من الإنس العاملين بهذا العمل .

ونوم المؤمنين على إيمانهم لقناعتهم في بطء هضم الغذاء .

من آداب النوم

ولقد ورد كثير من النصائح والإرشادات ضمن أحاديث وردت في آداب النوم عن أهل البيت الطاهر « عليهم السلام » .

فمما ورد في الصحيح عن أبي عبد الله جعفر بن محمد « عليه السلام » قال : من قال حين يأوي إلى فراشه (لا إله إلاّ الله) مائة مرة بنىٰ الله له بيتاً في الجنة، ومن (استغفر الله) مائة مرة حين ينام بات وقد تحاتت الذنوب كلها عنه ، كما يتحات الورق من الشجر ، ويصبح وليس عليه ذنب[1] .

وفي الصحيح أيضاً عنه « عليه السلام » قال : من قال حين يأخذ مضجعه ثلاث مرات : (الحمد لله الذي علا فقهر ، والحمد لله الذي بطن فخبر ، والحمد لله الذي ملك فقدر ، والحمد لله الذي يحي الموتىٰ ويميت الأحياء ، وهو على كل شيء قدير) خرج من الذنوب كيوم ولدته أمه .

وفي الأخبار المعتبرة من بات على طهر فكأنما أحيا ليله[2]

وفي مصباح المتهجد وغيره إذا أوىٰ إلى فراشه فليقل : (أعوذ بعزة

---

(١) الصدوق في الخصال : ج ٢ ص ١٤٦ .

(٢) الفقيه : ج ١ ص ٢٩٧ .

الله ، وأعوذ بقدرة الله ، وأعوذ بجمال الله ، وأعوذ بسلطان الله ، وأعوذ بجبروت الله ، وأعوذ بملكوت الله ، وأعوذ بدفع الله ، وأعوذ بجمع الله ، وأعوذ برحمة الله ، وأعوذ برسول « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » ، وأعوذ بأهل بيت رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر العامة والسامة ، ومن شر فسقة العرب والعجم ، ومن شر كل دابة في الليل أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم)[١] .

ومن خاف الأرق فليقل عند منامه (سبحان الله ذي الشأن وائم السلطان ، عظيم البرهان ، كل يوم هو في شأن) . ثم يقول : (يا مشبع البطون الجائعة ، ويا كاسي الجنوب العارية ، ويامسكن العروق الضاربة ، ويا منوم العيون الساهرة ، سكن عروقي الضاربة ، وأذن لعيني نوماً عاجلاً)[٢] .

وروىٰ الصدوق في المجالس عن الصادق « عليه السلام » قال : يقوم الناس على فرشهم على ثلاثة أصناف ، صنف له ولا عليه ، وصنف عليه ولا له ، وصنف لا عليه ولا له .

فأما الذي له ولا عليه فهو الذي يقوم من منامه ، ويتوضأ ويصلي ويذكر الله عزّ وجلّ ، والصنف الذي لم يزل في معصية الله حتىٰ نام فذاك الذي عليه لا له ، والصنف الذي لا له ولا عليه فهو الذي لا يزال نائماً حتىٰ يصبح[٣] .

وروىٰ الصدوق في المجالس أيضاً عن النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » قال : قالت أم سليمان بن داود يا بني إيَّاك وكثرة النوم بالليل ، لأنها تدع الرجل فقيراً يوم القيامة . وكثيرٌ غيرها من الروايات جاءت في هذا

---

(١) مصباح المتهجد : ص ٨٥ .
(٢) البحار : ج ٨٤ ص ١٧٥ .
(٣) مجالس الصدوق : ص ١٣٤ .

الباب[1] .

أما اليقظة فقد عرفوها بأنها حالة طبيعية يستعمل فيها الحيوان آلات الحس والحركة عند إنصباب الروح النفسانية فيها ، وهي ضد النائم ، وهي بمعنىٰ الإنتباه .

وأحلام اليقظة هي عبارة عن مرحلة من مراحل حياة الإنسان ، ينتقل فيها شعوره من حالة السكون إلى حالة اليقظة ، فأعضاؤه تتحرك بفعل الغريزة الجنسية وسورة الشباب التي تدفعه إلى الميل إلى الجنس الآخر ، أو بعبارة أخرىٰ النوم هو عبارة عن هدوئه وعدم حركته قبل أن يصل إلى مرحلة البلوغ والنضوج البدني والعقلي .

وهذا المعنىٰ وإن كان غير مقصود في عبارة الدعاء إلاَّ أنها لا تأباه .

أما السكون والحركة فهما معنيان متناقضان وقد مرّ تعريفهما في فصل اللغة بشيءٍ من التفصيل .

أما حركات الركوع والسجود فهي تختلف عن حركات الإنسان في أوقاته العادية ؛ لأنها عبادة والعبادة توفيق من الله .

إن حركات الركوع والسجود تختلف كل الإختلاف عن الحركات العادية العشوائية الحرة ؛ لأن هذه الحركات والسكنات لاُبد وأن تصدر بميزات كما أراد الله ، فلو زادت هذه الحركات عن المطلوب لتعرضت العبادة للبطلان .

وبمعنىً آخر أن الحركة والسكون نعمتان متداخلتان ، وبما أن الركوع والسجود هما ركنان من أركان الصلاة تبطل بعدهما ، وبما أن قد أعطىٰ القدرة على الإتيان بهما في الصلاة ؛ فأنهما يعتبران نعمة في مقام الإمتنان ، لأن الله قد وفق الإنسان لأداء الواجب بهما .

---

(١) مجالس الصدوق : أيضاً ص ١٤١ .

قال عليه السلام :

[أَن لَو حَاوَلْتُ وَاجْتَهـدْتُ مَدَىٰ الأَعْصَـارِ والأَحْقَابِ لَـوَ عُمِّرتُهـا ، أَنْ أُؤَدِّي شُكْرَ وَاحِدَةٍ مِنْ أنْعمُكَ ، مَا إستطَعتُ ذَلِكَ إلاَّ بِمنِّكَ المُوجِبِ عَلَيَّ آنِفاً جَدِيداً ، وَثَنَاءً طَارِفاً عَتِيداً] .

اللغــة

حـاولت : المحاولـة : مطالبتـك الشيء بـالحيـل ، وكـل من رام أمـراً بالحيل فقد حاوله ، وحاولته محاولة أي طالبته بالحيلة ، قال لبيد :

ألا تســألان المـرء مــاذا يـحــاول   أنحب فيقضي أم ضــلال وبــاطــل

إجتهد : الإجتهاد والتجاهد بذل الوسع . وأجهدوا علينا العداوة جدّوا ، وجاهد العدو مجاهدة وجهاداً قاتله ، وجاهد في سبيل الله ، والجهـاد محاربـة الأعداء . وقيل : الجهاد المبالغة واستفراغ الـوسع في الحـرب ، أو اللسان ، أو ما أطاق من شيء .

الأعصار : جمع عصر بتثليث العين ، الدهر . قال تعـالىٰ : ﴿ وَالعَصرِ

* ﴿إن الإنسَانَ لَفِي خُسرٍ﴾[1] .

وقـال ابن عباس : العصـر ما يلي المغـرب من النهار . وقـال قتادة هي ساعة من ساعات النهار . والجمع أعصر وأعصار وعصور .

والعصـران الليل والنهـار . والعصر الليلة والعصـر اليوم قـال حميد بـن ثور :

ولـن يلبـث العـصـران يـوم وليـلة إذا طـلبـا أن يـدركـا مـاتيـممـا

الأحقاب : قال الفراء في قوله تعالىٰ : ﴿لأَّبثينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾[2] الحقب ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً اليوم منه ألف سنة من عدد الـدنيا .

ثم قال : وليس هذا مما يدلّ على غاية ـ كما يظن بعض النـاس ـ وإنما يدل على الغاية التوقيت ، خمسة أحقاب أو عشرة ، والأحقاب الدهور وقيل : الحقب السنة .

عمرّتها : عمر الرجل يعمر عمـراً وعمارة عـاش وبقي زمانـاً طويـلاً قال الكسائي : عمرك الله لا أفعل ذلك ، نصب لفظ الجلالـة علىٰ معنىٰ عمرتـك الله ، أي سألت الله أن يعمرك .

قال لبيد :

وعمـرت حرسـاً قبل مجـرىٰ داحس لـو كـان لـلنفس الـلجـوج خـلود

آنفاً: أتيت فلاناً آنفاً كما تقول من ذي قبل وجاء القوم آنفاً أي قبيلاً إذا كان قبل ذلك بزمنً قصير وقال الزجاج في قوله تعالىٰ : ﴿ ماذا قَالَ آنِفاً ﴾[3] أي

---

(١) سورة العصر / الآية : ١ و ٢ .
(٢) سورة النبأ / الآية : ٢٣ .
(٣) سورة محمد / الآية : ١٦ .

ماذا قال الساعة في أول وقت يقرب منّا ؟ ومعنىٰ آنفاً من قولك الشيء إذ ابتدأ.

قال الشاعر :

وأنت المنىٰ لـو كنت تستـأنفيننـا بـوعـد ولـكن مـعتـفـاك جـديب

طارفاً : قال الجوهري : يصرف بصرك عنه أي تستطرف الجديد فتنسىٰ القديم ، وأطرفت الشيء أي اشتريته حديثاً .

قال ذو الرمة :

كـأنني من هـوىٰ خـرقـاء مـطرف دامي الأظـل بعيـد الشـأو مهيـوم

والشأو الهمة ومهيوم به هيـام والطرف هـو النظر ، والـطِرْف هي الفرس العتيق .

عتيداً : الشيء العتيد المعـد الحاضـر وعتيد جسيم وقـد عتده تعتيـداً ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّا اعتَدنَا لِلظَّالِمين نَاراً أَحَاطَ بِهِم سُرَادِقُها﴾[1] .

وقال الشاعر :

أعتـدت للغـرمـاء كلبـاً ضـاريـاً عـنـدي وفضـل هـراوة مـن أزرق

والعتاد العدة ، والجمع أعتدة .

البيـــان

إن الإجتهاد في الطاعة يختلف باختلاف الرغبات والقابليـات . وإذا قلنا بأن الإجتهاد في الطاعة يعني بالدرجة الأولىٰ بذل ما في وسع الإنسان ، وليس بذل ما فوق وسعه ؛ لأن الله « سبحانه » لم يكلّف الإنسان فوق مـا يستطيـع ، وهو الواصف نفسه « سبحانه » بالرأفة والرحمة في كتابه المنزل .

---

(١) سورة الكهف / الآية : ٢٩ .

فـالإجتهاد من العبـد وليس من الله ، وتأديـة الفرائض الـواجبة أيـاً كـان نوعها لا يسمىٰ إجتهاداً ، ولكنه يسمىٰ بذلك إذا زاد عن المطلوب ، ولكن في حـدود الإستطاعـة وفي إطار المشـروع ؛ ولهذا فـإن الكلمة الـواردة في فقـرة الـدعاء المـطروحة أمـامنا للبحث في قـوله « عليـه السـلام » : (واجتهـدت) مسبوقة بالمحاولة ؛ لأنها غير واجبة ، وإلاّ لم تكن محاولة ؛ لأن الواجب ليس فيه محاولة بل هو فرض يجب عليه أن يؤديه .

ولكن الإجتهاد على كل حال هو مقـرب إلى الله إذا كانت العبـادة تطوع بها في حدود الشرع ، لأنه قد فتح الباب علىٰ مصراعيه للتنافس في الحصـول على رضا الخالق ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَالسَّابِقُون السَّـابِقُونَ* أُولئـكَ المُقَرَّبُـونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴾[1] .

أمـا إذا أدّىٰ هذا الإجتهـاد في العبادة أو التـطوع إلى السأم والملل فـإن العبادة هذه لا تخلو من شوب .

ثم إنه قد ورد في المأثور لا يـطاع من حيث يعصىٰ وذلك إذا أدّىٰ هـذا الإجتهاد إلىٰ الخروج عن جادة الصواب فإنه يضـرب به عـرض الجدار ، قـال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنهُ فَانتهُوا** ﴾[2] .

وفي مسألة إبليس ورفضه السجود لآدم قال : يا رب إعفني من السجـود لآدم ، وأنا أعبدك عبادة لم يعبدك بمثلها ملك مقرب ولا نبي مرسل .

فقال «تعالى» له : لا حاجة لي في عبادتك .

إن العبادة من حيث أريد أنا ، لا من حيث تريد أنت ، أخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين .

---

(١) سورة الواقعة / الآيات : ١٠ و ١١ و ١٢ .

(٢) سورة الحشر / الآية : ٧ .

كلام في الإجتهاد

وسنبحث هذا الموضوع مربوطاً بما قاله علماؤنا الأعلام بإعتبار أنه بحث في الوسائل التي يصل بها الإنسان المجتهد إلى الوسيلة لتحصيل الحكم الشرعي .

ولقد جرىٰ الحديث في هذا الإصطلاح بين علمائنا ـ قدس الله أرواحهم ـ منذ بدأ العلامة الحلي بتحرير كتابه (الفصول المهمة) . وفي أيام تصنيف الحديث إلى أصنافه الأربعة .

وقد ذكر علماؤنا أن الذين أخذوا بهذا الإعتبار لا يخرج هذا الأخذ عن أحد أمرين : أما إلزاماً لغيرهم في مقام الإحتجاج ، وقد أجاب المحقق في كتابه الأصول معللاً ذلك بأمورٍ منها .

١ ـ إنه مع إستفراغ المجتهد الوسع يتحقق العذر .

٢ ـ إن الأحكام الشرعية تابعة للمصالح فجاز أن تختلف بالنسبة إلى المجتهدين كاستقبال القبلة ، فإنه يلزم كل من صلّىٰ وقد غلب على ظنه أن القبلة على جهة أن يستقبل تلك الجهة ، إذا لم يكن له طريق إلى العلم ، ويمكن أن يكون فرض المكلف بالحق أمر ، ومع عدمه أمر اخر .

٣ ـ إنا نجد الفرقة المحقة مختلفة بالأحكام الشرعية إختلافاً شديداً ، حتىٰ أن الواحد منهم يفتي بشيء ، ويرجع عنه إلى غيره فلو لم يختلف الأثم لعمّهم الفسق ، وشملهم الأثم .

ولما كان كتابنا هذا ليس كتاباً أصولياً ، ولا يعنينا من ذلك أمرٌ من أمور النقد والإبرام في هذا الموضوع ، لأنه قد تكفلت بمثل هذه الأبحاث كتب خصصت لهذا الغرض ، ولكن مراعاة لجانب الإختصار رأينا ترك الأقوال والردود في هذا المجال ، ونكتفي بلمحة خاطفة مما جاء على لسان فقيه أهل البيت الشيخ يوسف البحراني « قدس سره » في كتابه (الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة) في المقدمة الثانية عشرة حيث قال :

إنما ذكروه من وجوه الفرق بينهما (المجتهد والأخباري جلُّه بل كله عند التأمل لا يقر فرقاً في المقام ، فإن من أظهر ما أعتمدوه فرقاً في المقام هو كون الأدلة عند المجتهدين أربعة : (الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، ودليل العقل) الذي هو عبارة عن البراءة الأصلية والاستصحاب .

وأما عند الأخباريين فالاولان خاصة (الكتاب والسنة) وفي هذا الفرق نظر ظاهر .

فإن الإجماع وإن ذكره المجتهدون في الكتب الأصولية ، وعدّوة في جملة الأدلة ، وربما استسلفوه في الكتب الإستدلالية ، إلاَّ أنك تراهم في مقام التحقيق في الكتب الإستدلالية يناقشون في ثبوته وحصوله ، وينازعون في تحققه ووجود مدلوله ، حتىٰ يضمحل أثره بالكلية ـ كما لا يخفىٰ على من تصفح الكتب الإستدلالية كالمعتبر والمسالك والمدارك ونحوها ـ .

واما دليل العقل فالخلاف في حجيته بين المجتهدين موجود من غير موضع ، والمحققون منهم على منعه . وقد فصل المحقق في أول كتاب المعتبر ، والمحقق الشيخ حسن في كتاب المعالم ، وغيرهما في غيرهما

الكلام في البراءة الأصلية والاستصحاب على وجه يدفع تمسك الخصم به في هذا الباب .

ومن الفروق التي ذكروها إن الأشياء عند الأخباريين على التثليث (حلال بيّن ، وحرام بيّن ، وشبهات بيّن ذلك) ، وأما عند المجتهدين فليس إلاّ الأولان خاصة (الحلال البيّن ، والحرام البيّن) . وفي هذا الوجه أيضاً نظر ، فإن الشيخ في العدة وقبله شيخه المفيد قد ذهبا إلى القول بالتثليث كما نقلوه عن الأخباريين مع انهما من أساطين المجتهدين ، وكلام الصدوق « قدس سره » في كتاب الإعتقادات صريحاً ، وفي كتاب من لا يحضره الفقيه ظاهراً مما ينادي بالقول بالتثنية كما عليه المجتهدون ، قال في كتاب الإعتقادات : (باب الإعتقاد في الحظر والأباحة قال الشيخ « رضي الله عنه » : إعتقادنا في ذلك الأشياء كلها مطلقة حتى يرد في شيء منها نهي) أنتهىٰ .

فالأشياء عِنده إما حلال أو حرام كما هو عند المجتهدين مع أنه رئيس الأخباريين .

ومنها : أنهم ذكروا أن الإستدلال بالكتاب والسنة خاصة مخصوص بالأخباريين ، مع أن الخلاف بين الأخباريين واقع فيه .

فمنهم : المحدث الاستربادي الذي هو المجدد لمذهب الأخباريين في الزمان الأخير ، فإنه قد صرّح في كتاب (الفوائد المدنية) بعدم جواز العمل بشيء منه إلاَّ ما ورد تفسيره عن أهل العصمة « سلام الله عليهم » . واقتصر آخرون على العمل بمحكماته ، وتعدىٰ آخرون حتىٰ كادوا أن يشاركوا الأئمة « عليهم السلام » في تأويل متشابهاته ـ كما تقدمت الإشارة إليه ـ .

ثم أن العصر الأول كان مملوءاً من المحدثين والمجتهدين مع أنهم لم يرتفع بينهم حيث هذا الخلاف ، ولم يطعن أحد منهم على الآخر بالإنصاف

بهذه الأوصاف ، وإن ناقش بعضهم بعضاً في جزئيات المسائل ، واختلفوا في تطبيق تلك الدلائل .

وحينئذٍ والاليق بذوي الإيمان ، والأحرىٰ والأنسب في هذا الشأن هو أن يُقال : إن عمل علماء الفرقة المحقة ، والشريعة الحقة ـ أيدهم الله تعالىٰ بالنصر والتمكين ، ورفع درجاتهم في أعلىٰ عليين سلفاً وخلفاً ـ إنما هو على مذهب أئمتهم « صلوات الله عليهم » ، وطريقهم الذي أوضحوه لديهم ، فإن جلالة شأنهم ، وسطوع برهانهم وورعهم وتقواهم المشهور بل المتواتر على مرّ الأيام والدهور يمنعهم عن الخروج تلك الجادة القويمة ، والطريقة المستقيمة ، ولكن ربما حاد بعضهم إخبارياً كان أو مجتهداً عن الطريق غفلة أو توهماً ، أو لقصور إضطلاع أو قصور فهم ، أو نحو ذلك في بعض المسائل ، فهو لا يوجب تشنيعاً ولا قدحاً . وجميع تلك المسائل التي جعلوها مناط الفرق من هذا القبيل ، كما لا يخفىٰ على من خاض بحار التحصيل فإنا نرىٰ كلاً من المجتهدين والإخباريين يختلفون في آحاد المسائل ، بل ربما خالف أحدهم نفسه ، مع إنه لا يوجب تشنيعاً ولا قدحاً .

وقد ذهب رئيس الأخباريين الصدوق « رحمه الله تعالىٰ » إلى مذاهب غريبة لم يوافقه مجتهد ولا أخباري ، مع أنه لم يقدح ذلك في عمله وفضله .

ولم يرتفع حيث هذا الخلاف ولا وقوع هذا الإعتساف إلّا من زمن صاحب الفوائد المدنية ـ سامحه الله تعالىٰ برحمته المرضية ـ فإنه جرّد لسان التشنيع علىٰ الأصحاب ، وأسهب في ذلك أي إسهاب ، وأكثر من التعصبات لا تليق بمثله من العلماء الأطياب ، وهو وإن أصاب الصواب في جملة من المسائل التي ذكرها في ذلك الكتاب إلّا أنها لا تخرج عمّا ذكرنا من سائر الإختلافات ، ودخولها فيما ذكرنا من التوجيهات ، وكان الأنسب بمثله حملهم على محامل السداد والرشاد ، إن لم يجد ما يدفع به عن كلامهم الفساد ..

فإنهم « رضوان الله عليهم » لم يألوا جهداً في إقامة الدين وإحياء سنة سيد المرسلين ، ولا سيما آية الله (العلامة) الذي قد أكثر من الطعن عليه والملامة ، فإنه بما ألزم به علماء الخصوم والمخالفين من الحج القاطعة والبراهين حتىٰ آمن بسببه الجم الغفير ، ودخل في هذا الدين الكبير والصغير والشريف والحقير ، وصنّف من الكتب المشتملة على غوامض التحقيقات ودقائق التدقيقات ، حتىٰ أن من تأخر عنه لم يلتقط إلاَّ من ورد نثاره ، ولم يغترف إلاَّ زاخر بحاره ، وقد صار له من اليد العليا عليه (والمقصود هو صاحب الفوائد المدنية) وعلى غيره من علماء الفرقة الناجية ما يستحق به الثناء الجميل ، ومزيد التعظيم والتبجيل ، لا الذم والنسبة إلى تخريب الدين كما إجترأ قلمه عليه « قدس سره » وعلى غيره من المجتهدين .

هذا ما ذكره صاحب الرأي السديد ، وهو كلام أحق أن يتبع ؛ لأنه حق .

قال المؤلف :

ثم إن لنا ما نضيفه هنا تذييلاً لذلك فنقول :

إن من أعطىٰ التأمل حقه ، وأكثر الإمعان والنظر في هذه المسألة سوف يخرج بنتيجة لا شك فيها ولا ريب ، ولا جدل ، وهي أن الفريقين بجمعهم وحدة الهدف ، وهو الوصول إلى الحكم الشرعي بدليل أو بآخر ، ولكن الخلاف كما أتصوره يمكن في ناحيتين مهمتين :

الأولىٰ : هل أن هذا الطريق يوصلني إلى الغرض المقصود أم لا ؟

وهذا الغرض هو المقصد الأسمىٰ والمهم ؛ لأنه يعرف الإنسان واجبه نحو ربه ويتوصل بذلك إلى الأمر المولوي الذي ألزم به الإنسان منذ صدورة والذي لا يسقط إلاَّ بالإمتثال أو العصيان ، ولا يمكن معرفة هذا الأمر يقيناً أو ظناً إلاَّ بعد البحث في الدليل الموصل إلى معرفة الحكم في هذا الأمر .

الثاني : هل أن هذا الطريق أقصر ، أم الطريق الآخر الذي سلكه الطرف المقابل فلو أن الطرفين أتفقا علىٰ الطريق الأقصر للوصول إلى الغرض لسارا فيه إختصاراً للوقت والجهد ؛ لأنهم عقلاء ، فلا يفرطون في جهدهم ووقتهم .

وهناك ناحية ثالثة ربما تطرح نفسها في هذه الساحة وهي في صيغة تساؤل يتبع بعضها بعضاً ، وهو : هل أن هذه الوسيلة أو الدليل يصلح للوصول إلى الهدف وهو الحكم الشرعي ؟

وهذا التساؤل مبني على معرفة مدىٰ قوة الدليل ووضوحه في مجال الإستنباط والإستدلال لتحصيل ذلك الحكم .

أما (الأعصار) التي ذكرها في سياق العبارة فهو الزمن المحدد ، وأما (الأحقاب) ، فهو زمان غير محدد ـ كما ذهب إلى ذلك الفراء في تفسير الآية التي ذكرناها في فصل اللغة قبل هذا الكلام ـ وكأنه يشير بالقول : أني لو كان عمري غير محدد ، بل معمراً ، واستفرغت وسعي ، أو فوق وسعي وطاقتي لما أستطعت أن أؤدي شكر نعمة واحدة إلاَّ بمنك عليّ والتفضل بالمساعدة وهذه نعمة أخرىٰ .

وفي معنىٰ آخر للأحقاب كما جاء عن الإمام الصادق « عليه السلام » كما ذكره الصدوق في معاني الأخبار قال : « حدثنا سعد بن عبد الله ، عن يعقوب بن يزيد ، عن جعفر بن محمد بن عقبه ، عمن رواه عن أبي عبد الله ـ في قول الله عزّ وجلّ « لابثين فيها أحقاباً » قال : الأحقاب ثمانية أحقاب ، والحقبة ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، واليوم كألف سنة مما تعدون[1] .

---

(١) معاني الأخبار : ٢٢٠ .

وإن التدرج الذي ذكره من الأعصار إلى الأحقاب يشير إلى الإعتراف بالعجز عن أداء شكر النعم التي أعترف بها آنفاً ، وإن الخط البياني المتصاعد من (الأعصار) إلى (الأحقاب) يدل على تراجعه عن القيام بشكر النعمة والإعتراف بعدم طاقته على تأدية شكرها ، وهو غاية الخضوع والتذلل لله « سبحانه » .

وقد يتسائل الإنسان عن معنىٰ تكرار هذا العجز عن شكر النعمة في كل حين ، وهذا التساؤل يجيب عليه الظرف الذي قيل فيه هذا الدعاء من حيث الزمان والمكان ، وهو خير ما يأتي به العبد في ذلك اليوم الذي عجت فيه الأصوات إلى الله بمختلف الدعوات .

أما ما ذكره عن التعمر فإن المعمر هو الذي يكون عمره أطول من غيره نسبياً ، وقد قالوا : بأن من تجاوز المئة فإنه معمر ، وقد ذكر لنا التاريخ كثيراً من المعمرين الذين عاشوا زماناً طويلاً ويعزىٰ التعمر إلى أسباب متعددة منها فسيولوجية ، ومنها دينية ومنها إجتماعية وسنستوفي الكلام على هذه الأسباب كما يلي :

١ ـ **الناحية الفسيولوجية** : ونعني بذلك إرتباط الإنسان ببيئته ، فإن المناخ من حيث البرودة ، والحرارة ، يؤثر في نمو الجسم ، ومن ثم المافظة على خلاياه سالمة ، أو يكون سبباً في تهديمها ، ومن ثم أيضاً يكون ذلك عاملاً مهماً في حيوية الجسم ونشأته ، ثم المحافظة على أجزائه وجزيئاته لزمن أطول .

قال الكسيك كاريل في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » : تستمد المادة الغذائية التي يحملها الدم إلى الأنسجة من ثلاثة مصادر : من الهواء الجوي عن طريق الرئتين، ومن سطح الأمعاء ، وأخيراً من غدد «الأندوكروين» .

وجميع المواد التي يستعملها الجسم ـ فيما عدا الأكسجين ـ تأتي عن طريق الأمعاء سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . ويعامل الطعام بواسطة اللعاب فالعصارة المعدية ، وعصارات البنكرياس ، فالكبد ، فأغشية الأمعاء المخاطية على التعاقب .

ثم قال إن الأغشية المخاطية ليست قادرة دائماً على هضم أو إمتصاص عناصر معينة من الطعام لا غنىً عنها . وفي مثل هذه الحالة فإن هذه المواد لو وجدت في القناة المعوية ، لن تستطيع دخول أنسجتنا . وفي الحق إن العناصر الكيميائية للعالم الخارجي تؤثر في كل فرد بطرق مختلفة تبعاً للتركيب النوعي لأغشية أمعائه المخاطية . ومن هذه العناصر تبنىٰ أنسجتنا وأخلاطنا . لقد خلق الإنسان من تراب الأرض ، ولهذا السبب تتأثر وجوه نشاطه الفسيولوجية والعقلية تأثراً كبيراً بالتكوين الجغرافي للبلد الذي يعيش فيه ، وطبيعة الحيوانات . . . والنباتات التي يطعمها عادة . كذلك يتوقف بناؤه ووظائفه على إختياره لعناصر معينة من بين الأطعمة النباتية والحيوانية الموضوعة تحت تصرفه . لقد كان الرؤساء يتناولون دائماً طعاماً يختلف تماماً عن الطعام الذي يتناوله رعاياهم ، وكان المحاربون ، والقواد ، والغزاة يتناولون اللحوم والمشروبات المتخمرة بصفة خاصة ، بينما كان المسالمون والضعفاء والمستسلمون يكتفون باللبن ، والخضروات ، والفاكهة ، والحبوب . إن إستعدادنا ومصيرنا يجيء إلى حد ما ، من طبيعة المواد الكيميائية التي تبني أنسجتنا . ويبدو أن البشر مثل الحيوانات ، يمكن أن يمنحوا صناعياً صفات مميزة معينة من الناحيتين البدنية والعقلية إذا قدمت لهم أطعمة مناسبة منذ الطفولة .

ويحتوي النوع الثالث من المواد الغذائية التي يحتوي عليها الدم ـ علاوة على الأكسجين الجوي ومنتجات الهضم المعوي ـ إفرازات غدد

الأندوكرين وللجسم خاصة عجيبة هي قدرته على بناء نفسه وصناعة أخلاط جديدة من مواد الدم الكيميائية . وهذه الأخلاط تغذي أنسجة معينة وتنبه وظائف معينة . وهذا الضرب من خلق الذات بالذات يشبه تدريب الإرادة ببذل جهد بمعرفة الإرادة . والغدد ، مثل الثايارويد وغدد فوق الكليتين . . . الخ ، تتركب صناعياً من الكيميائيات الذائبة في الوسيط العضوي والتي تكون عدداً من أخلاط جديدة كالتيروكسين والادرنالين والأنسولين . . الخ إنها محولات كيميائية حقيقية ، وبهذه الطريقة تنتج المواد اللازمة لتغذية الخلايا والأعضاء والنشاط الفسيولوجي . ومثل هذه الظاهرة غريبة مثل الغرابة التي نستشعرها فيما لو كانت أجزاء معينة من المحرك تخلق الزيت الذي تستعمله أجزاء أخرىٰ من المحرك نفسه ، والمواد التي تزيد من سرعة إحتراق الوقود ، بل وحتىٰ أفكار المهندس . ومن الواضح أن الأنسجة لا تستطيع أن تقصر غذائها علىٰ الأخلاط التي يمدها الطعام بها بعد مرورها عبر الغشاء المخاطي المعوي ، بل يجب أن يعاد تشكيل هذه الأخلاط بمعرفة الغدد . وإلى هذه الغدد يعزىٰ بقاء الجسم بوجوه نشاطه المتعددة[1] .

٢ ـ **الناحية الدينية** : ونعني بذلك إرتباط الإنسان بالله « تعالىٰ » عن طريق أو آخر ، فمثلاً إن الإرتباط الوثيق الذي يحصل بين العبد وربه بواسطة الدعاء هو خير وسيلة للإستجابة في إطالة العمر ، والعبد أقرب ما يكون إلى الله « تعالىٰ » عندما يصل إلى هذه الدرجة من التذلل والخضوع ، وقد مرّ في محله من الكتاب تفصيل ذلك .

٣ ـ **الناحية الإجتماعية** : وهي أقرب في نظري إلى الجهة الدينية منها إلى الجهة الإجتماعية ، فمن ذلك صلة الأرحام ؛ ذلك لأن الدين قد حث عليها في الكتاب والسنة ، وقد تظافرت الأخبار بذلك بعد الكتاب العزيز .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : ص ١٠٦ .

فقد ورد في كتاب نهج البلاغة لأمير المؤمنين «عليه السلام»: (أيها الناس ، إنه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عترته ، ودفاعهم عنه بأيدهم والسنتهم ، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه ، والمهم لشعثه ، وأعطفهم عليه عند نازلة إن نزلت به ، ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير من المال يرثه غيره .

ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرىٰ بها الخصاصة أن يسدّها بالذي لا يزيده إن أمسكه ، ولا ينقصه إن أهلكه ، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يدٌ واحدة ، وتقبض منهم عنه أيدٍ كثيرة ، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة .

ومن آثار صلة الأرحام ما ورد أيضاً من طريق أهل البيت قولهم (صلة الأرحام تحسن الخلق ، وتسمح الكف ، وتطيب النفس ، وتزيد في الرزق ، وتنسيء من الأجل)[1] .

وفيما كلّم الله به موسىٰ « عليه السلام» (قال موسىٰ : فما جزاء من وصل رحمه ؟ قال : يا موسىٰ أنسيء له أجله وأهون عليه سكرات الموت)[2] .

وجاء أيضاً (صلة الرحم تعمر الديار ، وتزيد في الأعمار ، وإن كان أهلها غير أخيار)[3] .

وعن هشام بن الحكم عن مُيَسِر ، قال : قال أبو عبد الله « عليه السلام » يا مُيَسِر لقد زيد في عمرك فأي شيء تعمل ؟ قلت : كنت أجيراً وأنا

---

(١) بحار الأنوار : ج ٧٤ ص ١١٤ .

(٢) بحار الأنوار : ج ٦٩ ص ٣٨٣ .

(٣) بحار الأنوار : ج ٧٤ ص ٩٤ .

غلام بخمسةً دراهم ، فكنت أجريها على خالي)[1] .

وفيما ورد عن الزهراء « عليها السلام » في خطبتها المشهورة قالت : (وصلة الأرحام منساةً في العمر ، ومنماة في العدد) .

ومما تقدم من هذه الأحاديث والأخبار التي ركزت على مكانة صلة الرحم ، ودوره في حياة الفرد والجماعة نجد أن هناك كثيراً من النواحي الإيجابية التي تعود على الفرد والجماعة بكثير من الخير في الدنيا والأخرة وهذا بعينه ما جاء عن الإمام الحسين « عليه السلام » : (إتقوا الله ، وصلوا الأرحام ، فإنه أبقىٰ لكم في الدنيا ، وخير لكم في الأخرة) .

وكثير هي الأحاديث التي وردت بهذا المضمون طوينا ذكرها خوف الإطالة ، واكتفينا بما قلنا منها .

---

(١) بحار الأنوار : ج ٧٤ ص ٦٩ .

بعض المعمّرين

أما أخبار المعمّرين فقد حمل لنا التاريخ ذكر كثير من الأشخـاص الذين تجاوزت أعمارهم المألوف . هـذا بغض النظر عمّن ذكـرهم القرآن الكـريم ، كالخضر ، والياس ، ونوح .

أما سائـر البشر الـذين جاءت أعمـارهم مراغمـة للمألـوف فهم أكثر من يحصوا عدداً ، ونذكر هنا نموذجاً من النماذج التي ظهرت في التاريخ فمنهم :

١ ـ سلمان الفارسي : فعمره على المشهور أربعمـائة سنـة ، وفي رواية العوالم إنه لقي عيسىٰ بن مريم .

٢ ـ في غيبة الطوسي أن إفريدون العادل عاش ما يزيد على ألف سنة ، ويقـولون : إن الملك الـذي أحدث المهـرجان عـاش ألفي سنة ، وخمسمـائة سنة .

٣ ـ عن الصدوق أن أبي الحسن حمّادويه بن أحمد بن طولون كـان قد فتح عليه من كنوز مصر مـا لم يرزق أحـد قبله ، فاغـري بالهـرمين فاشـار إليه ثقاته وحاشيته وبطانته ألا يتعرض لهدم الأهرام ، فإنه ما تعرض أحد لهـا فطال عمره ، فلج في ذلك وامـر ألفاً من الفعلة أن يـطلبوا البـاب ، وكانـوا يعملون سنة حوالية حتىٰ ضجروا وكلّوا ، فلما همّوا بالأنصراف بعـد الأياس منـه وترك

العمل ، وجدوا سرباً فقدّروا أنه الباب الذي يطلبونه ، فلمّا بلغوا آخره وجدوا بلاطة قائمة من مرمر ، فقدّروا أنها الباب فاحتالوا فيها إلى أن قلعوها واخرجوها ، فإذا عليها كتابة يونانية فجمعوا حكماء مصر وعلمائها ، فلم يهتدوا لها ، وكان في القوم رجل يعرف بابي عبد الله المديني أحد حفّاظ الدنيا وعلمائها ، فقال لأبي الحسن حمّادوية بن أحمد : اعرف في بلاد الحبشة أسقفاً قد عمّر وأتىٰ عليه ثلاثمائة وستون سنة ، يعرف هذا الخط ، وقد كان عزم علىٰ أن يعلمنيه ، فلحرصي علىٰ علم العرب لم أقم عليه ، وهو باقٍ . فكتب أبو الحسن إلى ملك الحبشة يسأله أن يحمل هذا الأسقف إليه . فأجابه : إن هذا قد طعن في السن فحطمه الزمان ، وإنما يحفظه هذا الهواء ويخاف عليه إن نقل إلى هواء آخر ، واقليم آخر ، ولحقته حركة وتعب ، ومشقة السفر أن يتلف ، ففي بقائه لنا شرف وفرج وسكينة ، فإن كان لكم شيء يقرأه ويفسره ومسألة تسألونه كاتبوه بذلك ، فحملت البلاطة في قارب إلى بلد (أسوان) من الصعيد الأعلىٰ ، وحملت من (اسوان) علىٰ العجلة إلى بلاد الحبشة وهي قريبة من (اسوان) فلما وصلت قرأها الأسقف وفسر ما فيها بالحبشية ثم نقلت إلى العربية . فإذا فيها مكتوب : أنا الرّيان بن دومغ فسأله أبو عبد الله عن الرّيان من هو كان ؟ قال : هو والد العزيز ملك يوسف ، واسمه الرّيان بن دوفع . فقد كان عمر العزيز سبعمائة سنة ، والرّيان والده ألف وسبعمائة سنة ، وعمر دومغ ثلاثة الآلف سنة ، فإذا فيها أنا الرّيان بن دومغ خرجت في طلب علم النيل لأعلم فيضه ومنبعه إذ كنت أرىٰ مفيضه ومنبعه ، فخرجت ومعي ممن صحبت أربعة الآف ألف رجل ، فسرت ثمانين سنة إلى أن أنتهيت إلى الظلمات والبحر المحيط بالدنيا ، فرأيت النيل يقطع البحر المحيط ويعبر فيه ، ولم يكن له منفذ بالذات ، وتماوت أصحابي ، وبقيت في أربعة الآف رجل فخشيت على ملكي فرجعت إلى مصر وبنيت الأهرام والبرابي وبنيت الهرمين واودعتهما كنوزي وذخائري ، وقلت ذلك شعراً :

وأدرك علمي بعض مـا هـو كـائن ... ولا عـلـم لي بـالـغيـب والله أعـلـم
وأتقنت مـا حـاولت إتقـان صنعـه ... واحـكـمتـه والله أقـوىٰ واحـكـم
وحـاولت علم النيـل من بـدء فيضـه ... فـاعجـزني والعجـز بـالمـرء ملجم
ثمـانـون شـاهـوراً قـطعت مسايحـاً ... وحـولي بني حجـر وجيش عـرمـرم
إلى أن قـطعت الجن والأنس كلهم ... وعـارضني لـج من البحـر مـظلم
فـأيقنت أن لا منفـذاً بعـد منـزلي ... لـدىٰ هـيبـةٍ بـعـدي ولا متـقـدم
فـأبث إلى ملكي وارسيت نـاديـاً ... بـمـصـر ولـلأيـام بئس وانـعـم
أنـا صاحب الأهـرام في مصـر كلهـا ... وبـاني بـرابيـهـا بهـا والـمقـدم
تـركت بهـا آثـار كفي وحـكمـتي ... على الـدهـر لا تبـلىٰ ولا تتـهـدم
وفيـه كـنـوز جـمـة وعـجـائـب ... ولـلدهـر أمـر مـرة وتـهـجـم
سيفتـح اقفـالي ويبـدي عجـائبي ... ولـيّ لـربي آخـر الـدهـر يـنجـم
بـاكـنـاف بيـت الله تـبـدو أمـوره ... ولا بـد أن يعلو ويسمـو بـه الـسم
ثـمـان وتـسـع واثـنـتـان واربـع ... وتسعـون اخـرىٰ من قتيـل وملجم
ومن بعـد هـذا كـرّ تسعـون تسعـة ... وتـلك الـبـرابـي تستخـر وتـهـدم
وتيـدي كنـوزي كلهـا غيـر أنـني ... أرىٰ كـل هـذا أن يفـرقهـا الـدم
رمزت مقـالي في صخـور قـطعتهـا ... ستبقىٰ وافني بعـدهـا ثم اعـدم(١)

ونكتفي بهذا القدر من ذكر المعمرين ؛ لأننـا أردنا بـذلك أن نـدلل على أن نقـول الأعمار يـرجع إلى الأسبـاب التي مرّ ذكـرها وهنـاك اسبـاب غيـرهـا طويناها خوف الإطالة .

ويظهر مما تقدم معنىٰ قوله «عليه السلام»: (مدىٰ الاعصار والأحقـاب ، لو عمّرتها) .

---

(١) في هذه القصيدة كثير من الأقواء ، وهذا متعارف عند الشعراء قديماً وحديثاً ، وهو أن تأتي قافية بيت في القصيد بخلاف جملة القافية فيها .

كيفية شكر النّعمة

أما شكر النعمة فهو واجب عقلاً ، والنعم التي أعطاها الله للإنسان وتفضل بها عليه لا تحصىٰ ، ولكن ليس المهم هذا في الأمر ولكن المهم هو معرفة تلك النعم وكيفية إحصائها وذلك لأنها تتجدد في كل لحظة من حياة الإنسان ، فكلما حاول أن يقوم بشكر واحدة منها تجدت مرة أخرىٰ . فإن الطاعة مثلاً هي نعمة ، والتوفيق لفعلها هي نعمة أخرىٰ فهي تتجدد كلما قام الإنسان بحركة الطاعة ، وقد ذهب علماء الكلام إلى هذا القول (شكر المنعم واجب) . ويتخذون من هذا الكلام قاعدة عامة للتعامل بين الناس والإعتراف لصاحب الجميل بالجميل ، فمرة يستطيع الإنسان أن يقوم بشكر هذه النعمة ، إذا كانت من الإنسان للإنسان ، ومرة يقر بعجزه ويعترف بعدم الإستطاعة علىٰ شكر النعمة ، وفي هذا المعنىٰ أو ما يقاربه .

قال الشاعر :

لا تسدين إليّ عارفة ... حتىٰ أقوم بشكر ما سلفا
[فالشكر أوجبه الإله على ... من كان للنعماء قد ألفا][1]

وهذا ما أشار إليه في فقرة الدعاء في قوله « عليه السلام » : (ما

(١) هذا البيت من تذييل المؤلف .

أستطعتَ ذلك إلاّ بمنك الموجب عليّ شكراً آنفاً جديداً وثناءً طارفاً عتيداً) .

ولقد جاء في المأثور عن أهل البيت الطاهر « عليهم السلام » (إعلمو أنكم لا تشكرون الله بشيء بعد الإيمان بالله ، ورسوله ، وبعد الإعتراف بحقوق أولياء من آل محمد « عليهم السلام » أحب إليكم من معاونتكم لأخوانكم المؤمنين على دنياهم)[1] .

وجاء عنهم أيضاً : (عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله « عليه السلام » : هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكراً ؟ قال : نعم ، قلت : ما هو ؟ قال : يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل أو مال ، وإن كان في ماله حق أدّاه[2] ، ومنه قوله «جلّ وعزّ » ﴿ سُبحَانَ الَّذِي سَخَّر لَنا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقرِنِين ﴾[3] .

ومنه أيضاً قولهم : (ما أنعم الله على عبد صغرت أو كبرت فقال : الحمد لله إلاّ أدىٰ شكرها)[4] .

ونعود مرة ثانية لنكرر ، ونقر ما قلناه بهذا المعنىٰ ، وهو إن الإنسان لا يمكن أن يشكر نعمةً إلاّ وتتجدد عليه نعمة أخرىٰ بشكره ، ومهما بلغ بالثناء والحمد لربّه فإنه لا يزال مقصراً في حمده وشكره ، فكأنه كلما زاد نقض ، أو كلما نقص زاد ؛ ذلك لأنه هو الذي وهب التوفيق للعبد على ذلك الحمد ، فالفضل يرجع في ذلك كله إلى الله « سبحانه » ، والعكس بالعكس ، وبهذا يتجلىٰ واضحاً حديث (لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين) ، وسنبحث هذا الموضوع في مكانه المناسب من الكتاب إن شاء الله .

---

(١) البحار : ج ٧٨ ص ٣٥٥ .
(٢) الكافي : ج٢ ص ٩٦ .
(٣) سورة الزخرف الآية : ١٣ .
(٤) الكافي : ج ٢ ص ٩٦ .

قال عليه السلام :

[أَجَلْ ! وَلَو حَرُصْتُ أَنَا وَالعَادُّونَ مِنْ أَنَامِكَ أَنْ نُحْصِيَ مَدَىٰ إنعَامِكَ ، سَالِفَةً وَآنِفَة ، لما حَصَرنَاهُ عَدَداً ، وَلاَ أَحْصَينَاهُ أبَداً] .

اللغــة

أجل : بفتحتين بمعنىٰ نعم ، وقوله أجل إنما هو جواب مثل نعم قال الأخفش : إلاَّ أنه أحسن من نعم في التصديق ، ونعم أحسن منه في الإستفهام ، فإذا قال : أنت سوف تذهب ، قلت : أجل ، وكان أحسن من نعم . وإذا قال أتذهب ؟ قلت : نعم ، وكان أحسن من أجل . وأجل تصديق لخبر يخبرك به صاحبك فيقول : فعل ذلك ؟ فتصدقه بقولك له : أجل .

وأما نعم فهو جواب المستفهم بكلام لا جهل فيه ، تقول له : هل صليت ؟ فيقول : نعم ، فهو جواب المستفهم .

حرصت : الحرص شدة الإرادة ، والشره إلى المطلوب وقال الجوهري : الحرص الجشع .

وقول أبي ذؤيب :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم فإذا المنية أقبلت لا تدفع

عدّاه بالباء ، لأنه في معنىٰ هممت ، والمعروف حرصت عليه ، قال الأزهري : قول العرب حريص عليك معناه حريص على نفعك ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدۡ جَاۤءَكُمۡ رَسُولࣱ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ ، حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفࣱ رَّحِيمࣱ ﴾[1] .

الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق ، وقال المفسرون في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾[2] هم الجن والإنس قال : والدليل على ما قالوا : إن الله تعالىٰ قال بعقب ذكره الأنام إلى قوله : والريحان، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ولم يجر للجن ذكر قبل ذلك إنما ذكر الجان بعده فقال : ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلࣲ كَٱلۡفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلۡجَاۤنَّ مِن مَّارِجࣲ مِّن نَّارࣲ ﴾[3] والجن والإنس هما الثقلان وقيل : جاز مخاطبة الثقلين قبل ذكرهما معاً لأنهما ذكراً بعقب الخطاب .

البيـــان

بعد أن عدد كثيراً من أنواع النعم أعترف بعجزه عن تعدادها وإحصائها فقال : (أجل ! ولو حرصت أنا والعادون من أنامك) والحرص هنا ـ كما يفيده سياق العبارة ـ بمعنىٰ الجد والإجتهاد والعد ، وذلك إن النعم من الباري لا يمكن أن تحصىٰ ؛ وذلك لأمور أهمها :

١ ـ أنها تتجدد في كل لحظة ، فاستمرار وجود الإنسان يحتاج إلى ما يضمن له البقاء وهذا قد ضمنه الباري قبل خلق الإنسان عندما كان في مرحلته

(١) سورة التوبة / الآية : ١٢٨ .

(٢) سورة الرحمٰن / الآية : ١٠ .

(٣) سورة الرحمٰن / الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

الأولىٰ من مراحله الست . بل ونقول أيضاً بأن الأنفاس التي تحتاج إلى ما يقومها من عناصر الهواء هي نعمة أخرىٰ ، بل والقدرة على التنفس ، واستعمال حركة الشهيق والزفير نعمة ممّا لا ينتبه الإنسان إليها .

ونحن نرىٰ أن الغاز الفعّال الذي يقدر بخمس الهواء الجوي تقريباً هو الذي نحتاجه بالضرورة ليضمن لنا إستمرار حياتنا بالتنفس ، بينما نجد أن بقية الغازات في الهواء يحتاجها الإنسان حاجةً ضرورية شعر بذلك أو لم يشعر ، فغاز الهيدروجين ـ مثلاً ـ وهو أخطر الغازات ؛ لأنه غاز مشتعل ، ولكن إذا إتحد مع الأكسجين وهو المساعد على الإشتعال بنسبة ١ ـ ٢ فإنه يكون الماء الذي هو قوام الحياة على هذه الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾[١] . وثاني أكسيد الكربون وهو جزء آخر من الهواء ضروري آخر لتكون المادة التي هي قوام الأشياء الموجودة .

٢ ـ إن حاجات الإنسان في هذه الحياة لا تنحصر في جهة معينة ، فكله حاجة ، والحاجة ماسة ، وكله إفتقار ، والإفتقار ضرورة ، والضرورة يتوقف عليها قوام الإنسان وإستمرار وجوده ، ففيها يعيش في حرج ، وفيها يعيش أزمة ، وفيها لا يهتدي إلى الحياة سبيلاً .

٣ ـ إن الإنسان بعقله قد أوجد ما يعينه على مسائل العد والإحصاء ؛ لأنها أكثر إلتصاقاً بحياة الإنسان اليومية ؛ ولأنها مجهودٌ عقلي بحت ، والجهد العقلي أشق وأتعب من الجهد الجسماني ؛ لأنه يحتاج فيه إلى ترتيب مقدمات صحيحة ؛ ليحصل على نتائج صحيحة وهذا لا يهتدي له كل الناس ، بخلاف الجهد الجسماني ، فإن الحيوانات العجماء لها القدرة على ممارسته فضلاً عن الإنسان .

---

(١) سورة الأنبياء / الآية : ٣٠ .

فهناك الآلات الحاسبة التي تستطيع أن تؤدي في بضع ثوان أو دقائق ما يؤديه خمسون رياضياً في شهور أو سنوات

ولم تكتف تلك الآلات العجيبة بالقيام بأشد العمليات الحسابية تعقداً وطولاً في لحظاتٍ معدودات ، ولكنها إستطاعت فوق ذلك أن تترجم من لغة إلى أخرىٰ ، وغير ذلك مما لا يتصوره عقل الإنسان .

وتلجأ الحكومات في البلدان المختلفة إلى عملية الإحصاء لمعرفة الزيادة والنقصان وما تتوخاه من حلول مشاكل قد تنجم مستقبلاً كنتيجة محتمة لذلك ، فتضع الخطط مسبّقاً وفيها الحلول المحتملة لتلك المشاكل الناجمةعن زيادة السكان ، كزيادة المحصولات الزراعية ، وسائر المواد الغذائية ، ومسألة السكن ، وكافة المشاريع العمرانية التي تكون في حدود طاقتها من حيث الكيف والكم .

وإذا نظرنا إلى الأشياء التي نحاول أن نحصيها بعقولنا وجدناها تصنف إلى ثلاثة أصناف :

الأول : هي الأعداد الأولية التي تعتمد عليها حصيلة الإنسان ، ويكون بمقدوره إحصاؤها وعدها بسهولة ويسر ، وهي مثل الواحد ، والإثنين ، ونصف الواحد ، ونصف الإثنين ، ومضاعفاتهما التي تنتج ، وتحصل من ضربهما في نفسيهما . وتأتي هذه ضمن المعلومات البدائية التي تعطىٰ للأطفال في صفوفهم الأولىٰ .

الثاني : الأعداد المتصاعدة : وهي الأعداد التي تعتمد علىٰ مقدمات أوليه صحيحه حتىٰ تأتي بنتائج صحيحة ، وهي أعداد تحتاج إلى كثير من التأمل والنظر ، وتحتاج إلى البحث الدقيق بواسطة المعلومات المتوفرة لدىٰ العقل عن المجهولات .

الثالث : وهي الأعداد المتسلسلة التي لا نهاية لها ولا يدرك العقل كنهها بأي واسطة من الوسائط ، كمعرفة عدد حبات الرمل ، وعدد الكواكب ، والنجوم التي في السماء ، وكمعرفة الأرقام المتعددة الأصفار ، والتي لا يوجد لها إصطلاح لفظي علمي محدد عند علماء الرياضة ، ومنها بعض المسافات بين الكواكب ، وبين النجوم إذا حسبت بالأميال ـ مثلاً ـ ؛ ولهذا لجأ العلماء الباحثون في علم الفلك إلى تقدير المسافات بين بعض الكواكب في هذا الكون الرحيب بالسنين الضوئية ، بناءً على أن سرعة الضوء كما ـ قدروها ـ هي ١٨٦٠٠٠ ميلاً في الثانية ، أي ما يساوي ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية .

فمثلاً إن المسافة بيننا وبين الشعرىٰ اليمانية تساوي ١٥٠ سنة ضوئية ، أي أن الضوء يسير بسرعته المقدرة له في الثانية مدة ١٥٠ سنة حتىٰ يصل إلينا من الشعرىٰ اليمانية ، أو يصل إليها في نفس هذه المدة من الأرض . فلو ضربنا سرعة الضوء المعروفة في الثانية في الدقيقة الواحدة التي تساوي ٦٠ ثانية في الساعة الواحدة التي تساوي ٦٠ دقيقة في اليوم الواحد الذي يساوي أربعاً وعشرين ساعة في الشهر الواحد الذي يساوي ثلاثين يوماً في السنة الواحدة التي تساوي ٣٦٥ يوماً ، ثم في البعد الضوئي المقدر بالزمن بيننا وبين الشعرىٰ اليمانية وهو ما يساوي ١٥٠ سنة ضوئية ، لو ضربنا هذه الأرقام في بعضها البعض لحصل لدينا من الأرقام ما يرعب الناظر ، ولا يستطيع أي رياضي أن يقرأ ذلك الرقم الخيالي الناتج ، بل وحتىٰ أنشتين أعلم علماء الرياضة في كل العصور ـ كما قالوا ـ والذي طرح هذه المفاهيم في نظريته الشهيرة (بالنظرية النسبية) .

أما بالنسبة إلى نعم الله على العباد فهي الأخرىٰ التي لا يمكن إحصاؤها وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضىٰ ، وقلنا : بأنها تتعدد ، وتنشأ كلما عاش الإنسان مدة من عمره ، وكلما حاول شكر نعمة من النعم ، بل وكلما مرّ عليه

يوم جديد كلما صبحته نعم جديدة ، وكلما أمسىٰ المساء عليه زادت النعم ظاهرة وباطنة ، فإذا ما أوىٰ إلى فراشه واعتراه النوم ، وهدأت أعصابه ، وتراخت ، أخلد إلى الراحة . فالنوم بهذا الإعتبار نعمة ضافية **علىٰ الإنسان لا سبيل إلى نكرانها ، فإذا ما أستيقظ من نومه واستعاد نشاطه وتجددت قوته وحيويته فإن ذلك نعمة لا تكفر ، قال تعالىٰ : ﴿ إذ يُغَشِّيكُمُ** النُّعاسَ أَمَنةً مِنهُ ويُنزِّلُ عَلَيكُم مِن السَّماءِ مَاءً . الخ﴾[1] .

ذكر ذلك «سبحانه» في مقام الامتنان . هذا وسوف يأتي في مطاوي كلامه «عليه السلام» في الفقرة الآتية التي ينطرحها للشرح مزيد من التوضيح حول تلك النعم الوافرة التي ينغمس فيها الإنسان يومياً إلى مشاشه ـ كما سبق وأن تحدثنا ومثلنا لذلك في كثير من مناسبات الكلام ـ .

ويظهر من كلمة (أنامك) في سياق العبارة شمول العجز للإنسان كل الإنسان مهما بلغ في تقواه وعبادته ، وبالغ في شكر النعم ، بل ومهما بلغت مرتبته عند ربه نبياً كان أو وصي نبي فإنه يشترك مع غيره في العجز عن القيام بشكر نعمة من نعم الله .

أما في قوله : (سالفة وآنفة) فهو يعني النعم السابقة على الحال الموجود فيها عند الحديث ، ويحتمل إحتمالاً قوياً أن يكون المقصود من (النعم السالفة) السابقة على حياة الإنسان ، فإن حياته هذه مسبوقة برعايةً خاصة من الله ، في عالم الذر إلى أن ينزل إلى الأصلاب ، ومن الأصلاب إلى الأرحام ، وقد سبق لنا الحديث في هذا المعنىٰ في شرحه «عليه السلام»: (لم تخرجني لرأفتك بي ولطفك لي ، وإحسانك إليّ ، في دولة

(١) سورة الأنفال / الآية : ١١ .

أيام الكفرة . . الخ) ، فإن إخراج الإنسان في أيام العدل والإنصاف ، والدين والهداية لهو من أكبر النعم .

وأما (آنفةً) فالمقصود بذلك هو النعم المستجدة التي لا يعلم إحصاءها وعدّها إلاّ الله « سبحانه » ، وكيف يستطيع أن يقوم بشكر نعم لا يحصيها ولا يعدها ؟ إلاّ أن الله زيادة منه في الرأفة بالعباد قبل منهم القليل من الشكر والطاعة ، وأعطاهم على ذلك الجزيل من الثواب راجع إلى توفيقه ومنه فسبحانه من كريم حنان ، ومتفضل منان .

قال عليه السلام :

[هيهات أنّي ذلك وأنت المخبر عن نفسك في كتابك الناطق ، والنباء الصادق ، : « وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها ، » صدق كتابك اللهم وإنباؤك ، وبلغت أنبياؤك ورسلك ما أنزلت عليهم من وحيك ، وشرعت لهم من دينك] .

اللغــة

هيهات : فعل ماض جامد بمعنىٰ بَعُدَ ، فهو يلازم حالة واحدة . وهو فعل لازم يكتفي بالفاعل عن المفعول .

وحيك : الوحي الإشارة والكتابة والرسالة ، والإلهام ، والكلام الخفي ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ، والوحي : المكتوب والكتاب .

قال علقمة : قرأت القرآن في سنتين . فقال الحرث : القرآن هين ، الوحي أشد منه . أراد بالقرآن القراءة ، وبالوحي الكتابة والخط . وفي التنزيل العزيز قال تعالىٰ : ﴿وَأَوحىٰ رَبُّكَ إلىٰ النحلِ﴾[1] . ومعنىٰ ذلك أمرها .

قال العجاج :

(١) سورة النحل / الآية : ٦٨ .

وحىٰ لهـا القـرار فـاستقـرتِ   وشـدهـا بـالـراسيـات الثبتِ

والعرب تقول : أوحىٰ ، ووحىٰ بمعنىً واحـد . قال الكسـائي : وحيث إليه بالكلام أحي به ، وأوحيتـه إليه ، هـو أن تكلمه بكـلام تخفيه عن غيـره .

قال أبو ذؤيب :

فـقـال لـهـا وقـد أوحـت إلـيـه   ألا لله أمـك مـا تـعـيـف

دين : الديان من أسماء الله « عزّ وجلّ » معناه الحكم القـاضي . وسئل بعض السلف عن علي بـن أبي طالب « عليه السلام » فقال : كـان ديّان هـذه الأمة بعد نبيها ، أي قاضيها وحاكمها . ومنه شعر الأعشىٰ الحرمـازي يخاطب النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » :

يا سيد الناس وديّان العرب

وفي حـديث أبي طالب قـال له « عليـه السلام » (أي النبي) أريـد من قريش كلمةً تدين لهم بها العرب ، أي تطيعهم وتخضع لهم .

البيـــان

في هذه الفقرة أستبعد أن يستطيع الإنسان إحصاء هذه النعم ، وقـد بدأ في تعدادها سابقاً ، أو بالأحرىٰ تعداد قسم منها ، ثم سلم بالأمر الواقع ، وهو عدم إستطاعته أن يعدهـا ؛ لأنه ـ وكمـا تقدم ـ يـرىٰ أمامـه النعم تترىٰ ظـاهرةً وباطنة ، ولقد صدق في قوله « عليه السلام » فيمـا تقدم : (وهي يـا ربِّ أكثر من يحصيها العادّون . . الـخ) ، وقد سبق الحـديث عن ذلك ، ونضيف هنـا إلى ما تقدم ذكره ما تسنّىٰ مما تحتمله هذه العبارة فنقول : إن الإستبعـاد الذي ذكره « عليه السـلام » في هذه الفقـرة ناتـج عن محاولـة لعدّ هـذه النعم ولكنه كلمـا أخذ يحصيهـا زاد عـددهـا ، فكـأنمـا هي لا تكـاد تنتهي حتىٰ تبـدأ من جديد ، فكأنه يبتدىء من حيث ينتهي ، وينتهي حيث يبتديء ، وهـذا ما يقف

أمامه الإنسان حائراً ، لأنه يعيش مع عدٍّ تصاعدي إلى ما لا نهاية .

إن الإقرار بالعجز منه « عليه السلام » ولغيره من الناس عن إحصاء نعم الباري هو نعمة أخرىٰ يلهمها الله « سبحانه وتعالىٰ » الإنسان ليسلم إلى الله بذلك تسليماً وقد كررنا ذكر هذا المعنىٰ بأساليب مختلفة في مطاوي الكتاب عبر أبحاثه السالفة .

وإذا نظرنا إلى هذا الإستبعاد وجدناه تفويضاً وتسليماً إلى الله تسليم عاجزٍ عن مجرد إحصاء النعم عوضاً عن القيام بشكرها ؛ ولهذا نراه « عليه السلام » يلجأ في ذلك إلى قول الله « تعالىٰ » فإنه أحسن وأبلغ ما يعبر عن العجز هذا : ﴿ وإِن تَعُدُّوا نِعمَةَ اللهِ لا تُحصُوها ﴾[1] .

ولقد أشار « عليه السلام » في خطابه هذا عن النفس أو الذات المقدسة ، وحول هذا الموضوع نريد أن نقف وقفة تأمل فتقول :

(١) سورة النحل / الآية : ١٨ .

أقسام النَّفس

إن النفس نفسـان ، وليس معنىٰ ذلك أن لكـل موجـودٍ هاتين النفسين ، بـل نقول إن منهم من ينـطوي تحت نفسٍ وآخـر ينـطوي تحت نفسٍ آخـرىٰ مغايرةٍ لها .

وعندما نقول هي نفسان نقصد من ذلك :

(أ) النفس الأمارة بالسوء وهذه تنطوي تحتها نوعيات من النفوس الأخرىٰ .

(ب) النفس المنـاقضة لـلأمارة بـالسوء وهـذه أيضاً كسـابقتهـا تنـطوي تحتهـا نوعيات أخرىٰ من النفوس مختلفة .

إذاً فالمعنىٰ فيهمـا معنىً مشكـك بحسب الإصـطلاح المنـطقي ، وهـو المعنىٰ الذي يصدق على فردٍ قبل صدقه على الفرد الآخر . وسنتاول بالحديث كلاً من هاتين النفسين بما يتسع لنا فيه المجال فنقول :

أما الأولىٰ : فهي النفس الأمارة بـالسوء ، وهي التي تـروي الإنسان في المهـالـك لأنهـا لا تشبـع من الشهـوات والملذات ، ولا تميـز بين الحـلال والحرام ، والخير والشر وهي لا تقنع بالقليل دون الكثيـر ، فمرة تكـون فرسـاً جمـوحاً ، فتـروي صاحبهـا في المهالـك ، ومـرةً أخـرىٰ تكـون بعكس ذلـك

مروضة كما سيأتي .

وقد قلت في هذا المعنىٰ بعض المقطوعات الشعرية نذكر منها :

النفس نفسك في الحياة يزينها ترويضها ويشينها التدليل
وإذا العواطف في النفوس تحركت غطى على أفكارها التضليل
(والنفس إن رضيت بذلك أو أبت) فلحكمة عمل العباد يؤول

وقد ورد عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، وذلك فيما إذ قورن بجهاد الكفار والمشركين والمنافقين وكل عدو للدين والإنسان ، مهما كانت ضراوة هذه المعارك . ولقد سئل بعض الحكماء عن المسافة بين الله والإنسان فقال : قدم واحد يضعها الإنسان على نفسه فيصل إلى الله .

وهذه النفس هي التي عناها القرآن بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾[1] .

هذه النفس هي التي حذّر منها الأنبياء ، وحذرت منها الكتب السماوية وأعتبروها من الد أعداء الإنسان ؛ لأنها بين جنبيه لأنه لا خلاص له منها إلّا بمفارقته الحياة .

قال الشاعر العرب :

إبليس والدنيا ونفسي والهوىٰ كيف الخلاص وكلهم أعدائي .

وأما الثانية : فهي النفس اللوامة : وهي النفس التي تلوم صاحبها على فعل الذنوب الصغيرة والكبيرة ، وتكون له شبه رادع ، وهذه النفس عندما تلوم صاحبها على المعاصي في دار الدنيا وتحثه على الطاعة لا شك أنها تنفعه يوم القيامة بهذا اللوم . فربما عدّ من الحسنات التي تأكل السيئات ، وبه يحدث

(١) سورة يوسف / الآية : ٥٣ .

تجاوز نسبي عمّا أقترفه الإنسان من الذنوب .

وقال أرباب التفسير أن المراد بالنفس اللوامة هي النفس الإنسانية وهي أعم من المؤمنة الصالحة ، والكافرة الفاجرة ، فإنها تلوم الإنسان يوم القيامة .

أما الكافرة فإنها تلوم صاحبها على كفره وفجوره . وأما المؤمنة فإنها تلوم صاحبها على قلّة الطاعة ، وعدم الإستكثار من الخير ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾(١) .

وقيل : المراد نفس الكافر التي تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر ، ومعصية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾(٢) .

ولا يخفىٰ أن لكل ما سبق من الأقوال وجوه ، وله أدلة تختلف شدة وضعفاً أمام النقد ولا داعي لذكرها لأن ذلك ليس من موضوعنا في شيء .

وأما الثالثة : فهي النفس المطمئنة ؛ وهي التي قد بلغت من الإيمان ذروته ، فرضيت برضا الله وسلمت إليه القياد ، فترىٰ أنها عبد لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شر أو نفع أوضر ، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وترىٰ الدنيا دار مجاز ، وما يستقبله الإنسان فيها من غنىً أو فقر أو نفع أوضر إنما هو إبتلاء وإمتحان إلٰهي ، فلا يدعه تواتر النعم عليه إلى الطغيان والإكثار من الفساد ، والعلو في الأرض والإستكبار ، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر بل هو في مستقر العبودية ، لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط

ولهذا فإنه قد وصفها « سبحانه وتعالىٰ » بالراضية المرضية فقال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً

---

(١) سورة القيامة / الآية : ٢ .

(٢) سورة يونس / الآية : ٥٤ .

﴿ فَادخلِي فِي عِبَادِي * وَادخُلِي جَنَّتِي ﴾[1] . وهذا ما يستلزم رضاها بما قدّر لها « سبحانه » وقضىٰ تكويناً ، أو حكم به تشريعاً ، فلا تسخطها سانحة ، ولا تزيغها معصية ، وإذا رضي العبد من ربه رضي الرب منه ، إذ لا يسخطه تعالىٰ إلّا خروج العبد من زي العبودية ، فإذا لزم طريق العبودية أستوجب ذلك رضا ربه ، وهذا ما أشار إليه « سبحانه » في الآيات السابقة .

ولقد ورد عن بيت أهل العصمة « سلام الله عليهم » ما يشير إلى هذا المعنىٰ ، ونحن نذكر هنا بعض ما ورد عنهم في ذلك .

في الكافي بإسناده عن سدير الصيرفي قال : قلت لأبي عبد الله « عليه السلام » : جعلت فداك يا بن رسول الله ، هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال : لا والله ، أنه إذا أتاه ملك الموت ليقبض روحه جزع عند ذلك ، فيقول ملك الموت : يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمداً لأني أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك ، أفتح عينيك فأنظر . قال : ويمثل له رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » وأمير المؤمنين « عليه السلام » وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم « عليهم السلام » فيقال له : هذا رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة « عليهم السلام » رفقاؤك . قال : فيفتح عينيه فينظر فينادي روحه منادٍ من قبل العزة فيقول : يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد وأهل بيته ، إرجعي إلى ربك راضية بالولاية ، مرضية بالثواب ، فادخلي في عبادي يعني محمداً وأهل بيته ، وادخلي جنتي ، فما من شيء احب إليه من إستلال روحه واللحوق بالمنادي .

وروي هذا المعنىٰ القمي في تفسيره والبرقي في المحاسن .

---

(١) سورة الفجر / الآيات : ٢٧ و٢٨ و ٢٩ و ٣٠ .

وفي رواية عن الإمام الصادق « عليه السلام » حول نزول الآيات الأخيرة في سورة الفجر ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَفسُ المُطمئنَة * ارجِعِي إلىٰ رَبِّكِ رَاضِيةً مَّرضِيَّة * فَادخُلِي فِي عِبَادِي * وَادخُلِي جَنتِي ﴾[1] . إن هـذه الشريفـة نزلت في حق جده الحسين « عليه السلام » وهذا الحـديث لا ينافي عمـومية شمـول الآية ، إنمـا هو لبيـان الفرد الأكمـل والمصداق الأتم لهـذه الآية وهـو الإمام الحسين « عليه السلام » ؛ لذلك تسمىٰ سورة الفجر (سورة الحسين) .

وطبقاً لهذا المعنىٰ نستطيع أن نقـول في الآية الكـريمة (يـا أيتها النفس المطمئنة . . الخ) أنها هي آخر مراتب التكـامل البشـري ، وأن النفس الأمّارة هي أولى تلك المـراتب ﴿ إنَّ النَّفسَ لأَمَّـارَةُ بِـالسُّـوءِ ﴾[2] ، ولكن بعــد أن تـدخل في تيـار الحركـة التكـامليـة تصبـح نفسـاً لـوّامـة ﴿ وَلاْ أُقسِمُ بِالنَّفسِ اللّوامـة ﴾[3] وبعـد ذلـك تصـل إلى مـرحلة الإلهـام ﴿ فَـألهَـمهَـا فُجـوُرَهَـا وَتَقواَها ﴾[4] ، فتكون النفس الملهمة ، وتستمـر في التكامـل حتىٰ تصل إلى مرحلة الإطمئنان النفسي . وهذه الأخيرة أيضاً لها مراتب .

ومنهـا الراضيـة : ومعنىٰ ذلك أنهـا قد رضيت بقضـاء الله وقدره ، ومـا قسم الله لها وسلمت بذلك تسليماً مطلقاً .

ومنها المرضية : وهي التي يرضيها ربها بـأنواع النعم فـلا يحجب عنها شيئاً في سمائه وأرضه .

وفي معنىٰ النفس نزل قوله تعالىٰ : ﴿ فَمنَ حَاجَّك فِيه مِن بَعدِ مَا جاءَكَ مِن العِلمِ فَقُل تعالَوا نَدعُ أَبناءَنَا وَأَبناءَكُم وَنَساءَنَـا وَنساءَكُم وَأَنفُسنَـا وَأَنفُسَكُم

---

(1) سورة الفجر / الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ .

(2) سورة يوسف / الآية : ٥٣ .

(3) سورة القيامة / الآية : ٢

(4) سورة الشمس / الآية : ٨ .

ثم نَبْتَهِلْ فَنجعلْ لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ ﴾[١] .

نقل العلامة السيد هاشم الحسيني البحراني في تفسير البرهان عن الشيخ المفيد في كتاب الإختصاص قال : حدثني أبو بكر محمد بن إبراهيم العلّاف الهمداني بهمدان ، قال حدّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر بن شاذان البزاز ، قال حدّثنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن سعيد البزاز المعروف بابن المطبقي وجعفر الدقاق ، قال حدثنا أبو الحسن محمد بن الفيض بن فياض الدمشقي بدمشق ، قال حدثني إبراهيم بن عبد الله بن أخي عبد الرزاق ، قال حدثنا عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، قال حدثنا معمّر بن راشد ، قال حدثنا محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جدّه :

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ٦١ .

المباهلة

قال : لمّا قدم السيد والعاقب أسقفا نجران في سبعين راكباً وفداً على النبي « صلّى الله عليه وآله وسلم » كنت معهم فبينا كرز يسير ، وكرز صاحب نفقاتهم إذ عثرت بغلته فقال تعس[1] من تأتيه يعني النبي ، فقال له صاحبه وهو العاقب ، قال : فلم ذلك ؟ قال : لأنك أتعست النبي الأمي أحمد . قال وما علمك ؟ قال : أما تقرأ من المفتاح الرابع من الوحي إلى المسيح ؟ أن قل لبني إسرائيل ما أجهلكم تتطيبون بالطيب لتطيبوا به في الدنيا ، وعند أهلها وأهلكم وإخوانكم عندي كجيفة الميتة . يا بني إسرائيل برسول النبي الأمي الذي يكون في آخر الزمان ، صاحب الوجه الأقمر ، والجمل الأحمر ، المشرب بالنور ، ذي النيات الحسن والثياب الخشن سيد الماضين عندي . الباقين على السنن ، والصابر في ذات جنبي ، والمجاهد بيده المشركين من أجلي ، فبشر به بني إسرائيل ، ومُرَّ بني إسرائيل أن يعزروه وأن ينصروه . قال عيسىٰ : قدوس قدوس ، من هذا العبد الصالح الذي قد أحبه قلبي ولم تره عيني ؟ قال : هو منك وأنت منه ، وهو صهرك على أمك ؛ قليل الأولاد كثير الأزواج ، يسكن مكة من موضع أساس من وطن إبراهيم مثله من

(١) التعس : الهلاك ، والعثار ، والسقوط ، الشر ، والبعد ، والإنحطاط .

مباركة ، وهي ضرة أمك في الجنة ، له شأن من الشؤون ، تنام عيناه ، ولا ينام قلبه ، يأكل الهدية ، ولا يقبل الصدقة ، له حوض من شفير زمزم إلى مغيب الشمس ، يدفق فيه ميزابان من الرحيق والتسنيم ، فيه أكاويب[1] ، عدد نجوم السماء ، من شرب شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وذلك بتفضيلي إياه على سائر المرسلين ، يوافق قوله فعله ، وسريرته علانيته ، فطوبىٰ له ، وطوبىٰ لأمته الذين على ملته يحيون وعلى ملته يموتون ، ومع أهل بيته يميلون آمنين مؤمنين مطمئنين مباركاً ، يظهر في زمن قحط وجدب فيدعوني فترخىٰ السماء عزاليها حتىٰ يرىٰ أثر بركاتها في أكنافها ، وأبارك فيما يضع فيه يده . قال : إلٰهي سمه . قال : هو أحمد وهو محمد . رسول إلى الخلق كافة ، وأقربهم مني منزلة وأحضرهم عندي شفاعة ، لا يأمر إلَّا بما أحب ، وينهي لما أكره قال له صاحبه فأين تعدينا على مَنْ هذه صفته ؟

قال : نشهد أحواله ، وننظر أيامه ، فإن يكن هو ساعدناه المسألة ، ونكفه بأموالنا عن أهل ديننا من حيث لا يشعر بنا ، وإن يك كاذباً كفينا بكذبه على الله « عزّ وجلّ » قال : ولم إذا رأيت العلامة لا تتبعه ؟ قال : أما رأيت ما فعل بنا هؤلاء القوم ؟ كرمونا وتولونا ، ونصبوا لنا الكنائس ، وأعلوا فيه ذكرنا ، فكيف تطيب النفس بالدخول في دين يستوي فيه الشريف والوضيع ؟

فلما قدموا المدينة قال من رآهم من أصحاب رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلم » ما رأينا وفداً من وفود العرب كانوا أجمل منهم ، لهم شعوب وعليهم ثياب الحبر . وكان رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » متنائياً عن المسجد ، وحضرت صلواتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » تلقاء المشرق ، فهمَّ بهم رجال من أصحاب رسول الله تمنعهم فأقبل رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » فقال دعوهم ، فلما

---

(١) أكاويب : جمع كوب لا عرىٰ لها ولا خراطيم .

قضوا صلواتهم جلسوا إليه ، وناظروه ، فقالوا يا أبا القاسم حاجّنا في عيسى

قال: هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، فقال أحدهما : بل هو ولده وثاني اثنين ، وقال آخر : بل هو ثالث ثلاثة أب وابن وروح القدس وقد سمعناه في قرآن نزل عليك يقول : فعلنا ، وجعلنا ، وخلقنا . ولو كان واحداً لقال : خلقت ، وجعلت ، وفعلت .

فتغشىٰ النبي الوحي ، فنزل عليه صدر سورة آل عمران إلى قوله رأس الستين منها : « فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم . . الخ » . فقص عليهم رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » القرآن ، فقال بعضهم لبعض : قد والله أتاكم بالفصل من خبر صاحبكم . فقال لهم رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » إن الله « عزّ وجلّ » قد أمرني بمباهلتكم ، فقالوا إذا كان غداً باهلناكم ، فقال بعضهم حتىٰ ننظر بما يباهلنا ؟ بكثرة أتباعه من أوباش الناس ، أم بالقلة من أهل الصفوة والطهارة ، فإنهم وشيخ الأنبياء ، وموضع بهلهم .

فلما كان من الغد غداً النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » بيمينه علي ، وبيساره الحسن والحسين ، ومن ورائهم فاطمة « عليهم السلام » عليهم النمار النجرانية ، وعلى كتف رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » كساء قرقف رقيق خشن ليس بكثيف ولا لين ، فأمر بشجرتين ففسح ما بينهما ، ونشر الكساء عليهما ، وأدخلهم تحت الكساء ، وأدخل منكبه الأيسر معهم تحت الكساء معتمداً على قوسه النبع ، ورفع يده للسماء للمباهلة ، وأشرف الناس ينظرون واصفر لون السيد والعاقب ، وكرّ حتىٰ كاد أن تطيش عقولهما فقال أحدهما لصاحبه : أتباهله ؟ قال : وما علمت أنه ما باهل قوماً نبياً فنشى صغيرهم أو بقي كبيرهم ، ولكن أره أنك غير مكترث وأعطه من المال والسلاح ما أراد ،

فإن الرجل محارب ، وقل له بهؤلاء تباهلنا ؟ لئلا يرىٰ أنـه قد تقـدمت معرفتنـا بفضله وفضـل أهل بيتـه . فلما رفـع النبي « صلّىٰ الله عليه وآلـه وسلم » يـده للسماء للمباهلة قال أحدهما لصاحبه وأي رهبانيـة أدرك الرجـل ؟ فإنـه إن فاه ببهلة لم ترجع إلى أهل ولا مال .

فقالا : يا أبا القاسم أبهؤلاء تباهلنا ؟ قال نعم هؤلاء أوجه من على وجه الأرض بعدي إلى الله « عزّ وجل » ، وأقربهم إليهم وسيلةً .

قال : فبصبصا يعني ارتعدا وكرّا، وقالا له : يا أبا القاسم نعطيـك ألف سيف ، وألف درع ، وألف حجفـة ، وألف دينـار كـل عـام علىٰ أن الـدرع والسيف والحجفة عندك إعارة حتى تأتي من وراءنا من قومنا فنعلمهم بالذي رأينا وشـاهدنـاه ، فيكون الأمـر على ملأ منهم ، فـأما الإسـلام وأما الجـزيـة وأما المقاطعة في كل عام . فقال النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » قد قبلت ذلك منكم ، أما والذي بعثني بالكرامة لو بـاهلتموني بمن تحت الكسـاء لأضرم الله « عـزّ وجلّ » عليكم الـوادي ناراً تـأجج تـأججاً حتىٰ يسـاقها إلىٰ ورائكم في أسـرع من طرفـة عين فـأحـرقتهم فهبط عليهم جبـرئيـل الـروح الأمين « عليـه السلام » فقال : يا محمد الله يقرؤك السلام ويقول لك وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لو باهلت بمن تحت الكساء أهـل السموات والأرض تسـاقطت السمـاء كسفاً متهافتة ولتقطعت الأرضون براً سـائخة فلم يستقـر عليها بعـد ذلك فـرفع النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » يده حتىٰ رؤي بياض أبطيه ثم قال : وعلى من ظلمكم حقكم وبخس الأجر الذي افترضه فيكم عليهم بهلة الله تتـابع إلى يوم القيامة[1] .

ونستنتـج من آية المبـاهلة السابقـة أن نفس النبي « صلّىٰ الله عليه وآلـه وسلم » هي نفس علي بن أبي طالب « عليه السلام » ونفس علي بن أبي طالب

(١) البرهان في تفسير القرآن : للسيد هاشم الحسيني البحراني ـ المجلد الأول ص ٢٨٨ .

هي نفس رسول الله لا فرق في التعبيرين بعد أن صرحت الآية بذلك .

إن نفس النبي ونفس علي اللتين هما نفس واحدة إعتبرتهما الآية الكريمة في أرقىٰ درجات الكمال الإنساني ؛ ولذلك طرحتهما للمباهلة مع قوم قد عرفوا بمكانتهم في ذلك المجتمع البشري المحدود . وقد أشرت إلى ذلك المعنىٰ السامي في بعض الغديريات التي سبق لها أن ألقيت في كثير من الإحتفالات في مناسبة الغدير ومنها :

فإن أردت العلى فامسك معاقدها ... من حيدر فهو للعلياء قد رسما
نفس النبي التي لو أنها انقسمت ... نفسين لانهار هذا الدين وانقسما
فاعجب لجسميهما والنفس واحدة ... كلاهما سيد الله درهما

وقد ذكرنا معظم هذه القصيدة عند الحديث عن الغدير في بحث سابق فراجع .

ومن كل ما تقدم نفسهم معنىٰ النفس عند الإنسان بحسب تقسيماتها السابقة وما يتفرع منها .

أما النفس المنسوبة إلى الله « سبحانه وتعالىٰ » فلها معنىً آخر . فلقد ورد عند أهل اللغة أن النفس بمعنىٰ الروح والذات ، والنفس بمعنىٰ الدم ، وقد اصطلح علىٰ ذلك علماء الفقه في ابحاثهم عند الحديث عن الدم عند التفريق بين الطاهر والنجس ، فقالوا إذا كان الدّم من حيوان ذي نفس سائلة فهو نجس ، أي إذا كان له دم سائل من عروق وأوردة ، والعكس بالعكس .

وقد ورد في تفسير قوله « تعالىٰ » : ﴿ **تَعلمُ مَا فِي نَفسِي وَلَا أَعلمُ مَا فِي نَفسِكَ** ﴾[1] أي تعلم غيبي ولا أعلم غيبك ؛ لأن ما في نفس عيسىٰ

---

(١) سورة المائدة / الآية : ١١٦ .

« عليه السلام » ، وما في قلبه هو ما يغيبه عن الخلق وإنما يعلمه الله ، وسمي ما يختص الله بعلمه بأنه في نفسه على طريق الإزدواج في الكلام كما قال « تعالىٰ » : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ﴾[1] ، ويقوي هذا التأويل قوله « تعالىٰ » في ذيل الآية السابقة (إنك أنت علاّم الغيوب) ؛ لأنه علل أنه إنما يعلم ما في نفس عيسىٰ لأنه علاّم الغيوب ، وعيسىٰ ليس كذلك ؛ فلذلك لم يعلم ما يختص الله بعلمه .

ومما روي عن جابر الجحفي ، عن أبي جعفر « عليه السلام » في تفسير هذه الآية (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب) . قال إن إسم الله الأكبر ثلاثة وسبعون حرفاً ، فاحتجب الرب «تبارك وتعالى» منها بحرفٍ ، فمن ثم لا يعلم أحد ما في نفسه « عزّوجلّ » ، أعطى آدم أثنين وسبعين حرفاً فتوارثها الأنبياء حتىٰ صارت إلى عيسىٰ « عليه السلام » ، فذلك قول عيسىٰ (تعلم ما في نفسي) يعني اثنين وسبعين حرفاً من الأسم الأكبر ، يقول أنت علمتنيها ، فأنت تعلمها ، ولا أعلم ما في نفسك . يقول : لأنك إحتجبت عن خلقك بذلك الحرف فلا يعلم أحد ما في نفسك .

وعن عبد الله بن قيس ، أبي عبد الله « عليه السلام » قال : كان مع عيسىٰ حرفان يعمل بهما ، وكان مع موسىٰ أربعة ، وكان مع إبراهيم ستة ، وكان مع نوح ثمانية ، وكان مع آدم خمسة وعشرون ، وجمع لرسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » ، إن إسم الله ثلاثة وسبعون حرفاً ، كان مع رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » إثنان وسبعون حرفاً ، وحجب عنه واحد .

ومن كل ما تقدم نستطيع أن ندرك الفرق بين النفس المضافة إلى الله

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ٥٤ .

« سبحانه » في قوله « عليه السلام » في الفقرة التي بين أيدينا (وأنت المخبر عن نفسك) ، وبين النفس المضافة إلى الإنسان كل الإنسان ، وذلك بعد غض النظر عن الفوارق الموجودة بين أبناء البشر فالنفس هي النفس ، ولكن التقسيم المتقدم ناتج عن ترويضها وإعطائها بمقدار ما تستحق كما يعطىٰ الطعام ملح الطعام .

وفي هذه الفقرة إعتراف ضمني بالعجز عن إحصاء النعم الذي ساق الآية الكريمة (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها) كدليل عليه ، ولقد أراد من الإستدلال بها إعترافاً حقيقياً وتصديقاً لا يشوبه كدر ؛ ولذلك فقد عقب بقوله « عليه أفضل الصلاة والسلام » بعد الآية (صدق كتابك اللهم وإنباؤك وبلغت أنبياؤك ورسلك ما أنزلت عليهم من وحيك وشرعت لهم من دينك) وناهيك به من تصديق وإعتراف ، فإنه أشهد على ما قال الأنبياء والرسل الذين أنزل عليهم وحيه وشرع لهم من دينه .

والشرع من الدين هو ما أنزل الله على الأنبياء من كتاب وكلام في وحي وكلفهم بتبليغه إلى الناس كافة وقد جاء ذلك في التنزيل العزيز في قوله تعالىٰ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِن الدِينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً والَّذِي أوحَينَا إلَيكَ ﴾[1] .

قال الطوسي في شرح التبيان في معنىٰ هذه الآية : خاطب تعالىٰ خلقه فقال : (شرع لكم من الدين ما وصىٰ به نوحاً) معنىٰ شرع بين وأظهر ، وهو (الذي أوحينا إليك) يا محمد ، وهو (ما وحينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ) وسائر النبيين ، وهو أنّا أمرناهم بعبادة الله والشكر له على نعمة وطاعته في كل واجب ونذر مع إجتناب كل قبيح وفعل ما أمره به مما أدّىٰ إلى التمسك بهذه الأصول مما تختلف به شرائع الأنبياء . ثم بين ذلك فقال (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

---

(١) سورة الشورىٰ / الآية : ١٣ .

ومن هذه الآية نفهم ما أراد من قوله « عليه السلام » (وشرعت لهم من دينيك) بأن الشرع الإيضاح والإظهار ، ومن ذلك أخذت كلمة الشرع ؛ لأن أحكامه واضحة المعالم جلية تتمشىٰ مع الفطرة الإنسانية .

أما الكلام عن الوحي الذي ذكره « عليه السلام » في هذه الفقرة فنرجئوه إلى بحث لاحق .

قال عليه السلام :

[غيرَ أنّي يا إلهي أَشْهَدُ بِجِدِّي وَجُهدِي وَمَبالِغَ طَاقَتِي وَوُسْعِي ، وَأَقُولُ مُؤمِناً مُوقِناً : الحمدُ للهِ الَّذي لَمْ يَتخِذْ وَلَداً فَيَكُونَ مَورُوثاً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ فَيُضَادَّهُ فِيمَا ٱبْتَدعَ ، وَلاَ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ فَيُرفِدُهُ فِيمَا صَنَعَ] .

اللغــة

مبـالـغ : بلغ الشيء بلوغاً وصل وانتهى ، وتبلغ بالشيء وصل إلى مراه ، والبلاغ ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب .

قال قيس بن الأسلت السلمي :

قالت ولم تقصد لقيل الخنى مهلاً فقد أبلغت أسماعي

وفي التنزيل العزيز : ﴿ **إلَّا بَلاَغاً مِن اللهِ وَرِسَالاَتِهِ** ﴾[1] أي لا أجد منجيً إلَّا أن أبلغَ عن الله ما أرسَلني به . وبلغ الغلام احتلم كأنه بلغ وقت الكتابة عليه بالتكليف . وكذلك بلغت الجارية وجارية بالغ بغير (هاء) ،

(١) سورة الجن / الآية : ٢٣ .

كطالق وحائض ، وبلغ السيل الزبا أي بلغ ذروته ، والزبا جمع زبية ، وهي مصيدة للأسد توضع في أعلىٰ التل .

طاقتي : الطوق والإطاقة القدرة على الشيء ، والطوق الطاقة ، وقد طاقه طوقاً ، وأطاقه إطاقة ، وأطاق عليه .

قال الراجز :

كل امرء مجاهد بطوقه والثور يحمي أنفه بروقه

يقول : كل إمرىء مكلف ما أطاق . والطاقة شعبة من ريحان أو شعر ، والطاق ما عطف من الأبنية .

وسعي : من أسماء الباري « تعالىٰ » الواسع ، وهو الذي وسع رزقه جميع خلقه ، ووسعت رحمته كل شيء والسعة نقيض الضيق وتوسعوا في المجلس أي تفسحوا ، والسعة الغنىٰ والرفاهية ، ويُقال : أوسع الله عليك أي أغناك الله ، وقوله تعالى : ﴿وَالسَّماءَ بَنيناهَا بأيدٍ وإنّا نَمُوسِعُون ﴾[1] أي أغنياء قادرون .

قال امرىء القيس :

فتوسع أهلها أقطاً وسمناً وحسبك من غنىً شبع وريّ

موقناً : اليقين العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر وقد أيقن يوقن إيقاناً فهو موقن ، واليقين نقيض الشك ، أو هو نقيض الوهم ، والعلم نقيض الجهل . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وإنَّهُ لَحَقُّ اليَقِين ﴾[2] واليقين الموت . قال تعالىٰ : ﴿ واعبُد رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأتِيَكَ اليَقِينُ ﴾[3] وربما عبّروا بالظن عن

---

(١) سورة الذاريات / الآية : ٤٧ .

(٢) سورة الحاقة / الآية : ٥١ .

(٣) سورة الحجر / الآية : ٩٩ .

اليقين ، وباليقين عن الظن .

قال أبو سدرة الأسدي :

تـحـب هــوّاس وأيــقــن أنــنــي بهــا مفتـد من واحــد لا أغــامــره

فيضـاده : الضد كـل شيء ضاد شيئاً ليغلبه ، والسـواد ضد البيـاض ، والموت ضد الحيـاة ، والليل ضـد النهار . قـال ابن السكيت : حكى لنا أبـو عمر الضد مثل الشيء ، والضد خلافه . وقال الجوهري : الضد الملء .

فيرفده : الرفد العطاء والصلة وترافـدوا أعطىٰ بعضهم بعضـاً ، أو أعان بعضهم بعضاً . الرافد : هو الذي يلي الملك ويقوم مقامه إذا غاب .

الرفادة شيءٌ كانت قريش تتـرافد بـه في الجاهليـة ، فيخرج كـل إنسانٍ مالاً بحسب طاقته فيخرجون من ذلك مالاً عظيمـاً أيام المـوسم ، فيشترون بـه للحاج الجزر والطعام ، وكانت الرفادة والسقاية لبني هاشم ، وكـانت السدانـة واللواء لبني عبـد الدار ، وكـان أول من قام بـالرفـادة هاشم بن عبـد منـاف ، وسمي هاشم لهشمه الثريد .

قال الشاعر يمدحه :

يــا أيهــا الــرجــل المجــد رحيله هــلاّ مــررت بــآل عــبــد مــنــاف

عمـر العـلا هشم الثـريـد لقـومـه ورجــال مكـة مسنتــون عجــاف[1]

ثكلتــك أمــك لــو مــررت بــداره لـعجبت مـن كـرم ومـن أوصــاف

بســطوا إليـك الـرحلتين كـلاهمـا عــنــد الـشــتــاء ورحـلة الأيــلاف

البيـــان

في هذه الفقرة من الـدعاء كـرر ما قـاله فيمـا مضىٰ بلون آخر من ألـوان

---

(١) الملاحظ في هذين البيتين هو إختلاف إعراب القافية ، فهي إما من باب الإقواء ، وإما أن يكون آخرها مسكوناً .

الإعتـرافات التي تصـدر عن مثله من الإقرار بـالعجز عن أداء شكـر نعمـة من النعم الموفورة التي أفاضها الله على عباده .

هذا اللون الذي طرحه في هذه الفقرة المطروحة أمتاز بتوجيه المخطاب إلى الله « سبحانه وتعالىٰ » مباشرة ؛ وذلك لكي يكـون أقرب إلى الإعتـراف . فقوله : (غير أني يا إلٰهي أشهد بجدي وجهدي) والشهادة إن كـانت بالكـلام فقط فهي لا تحتـاج إلى جدٍ وجهـد ـ كما ذكـر « عليه السـلام » ، لأن الكلام كثير والفعل قليل ، وقليل هم الذين تتبع أفعالهم أقوالهم .

فمن الناس يعمل في صمت ليحقق مآربه التي خطط لها قـال أبو مسلم الخراساني الذي قضىٰ على دولة آل أبي سفيان وذيولها من بني مروان :

حققت بالحزم والكتمـان ما عجـزت	عنـه ملوك بني مـروان إذ حشـدوا
لا زلت أسعى بجهـدي في دمـارهم	والقـوم في غفلة بـالشـام قـد رقـدوا
حتى ضـربتهم بـالسيف فـانتبهـوا	من رقـدةٍ لم ينمـهـا قبـلهم أحـد
ومن رعىٰ إبـلاً فـي أرض مسبعـة	ونـام عنهـا تـولىٰ رعيهـا الأسـد

ثم إن كـانت الشهادة بشيءٍ آخـر والكلام أيضـاً فإنهـا تحتـاج إلى وقفـة تأمل .

إذا أمعنّا النظر في معنىٰ الشهادة بمجرد الكلام والإعتراف بـاللسان فـإن ذلـك لا يعني الحقيقة كمـا هي قرب شـاهد يقـول زوراً وينطق بهتـاناً ، ورب شاهدٍ آخر تحت ضغط التأثير الخارجي من تهديد وتوعيد أو إغراء أنتزعت منـه الشهادة إنتزاعاً ، ولا يمكن ـ والحال هذه ـ أن نصدق كل ما يجـري في حدود هذا الإطار ؛ ولهٰذا فإن الشارع المقدس مبالغة منه في الطمـأنينة في الشهـادة بـالقول ربمـا أحتاج إلى تـزكية الشـاهد بشـاهـدين آخـرين معـروفين إذا كـان مجهولاً ، وهذا ما يدل على أن الشهادة بهذا الشكل ليست هي كل الحقيقة .

أما الشهادة بـالجد والإجتهـاد وبجميع مـا وسع الإنسـان من الطاقـة فإن

ذلك يعني الشهادة بحقيقتها ، وبعبارةٍ آخرىٰ أن الشهادة بهـذا الشكل يعني أن جميـع الجـواح في جسم الإنسـان تنـطق بهـا .وهـذه الشهـادة لا مجـال إلى تكذيبها ، وإنها الحقيقة بكاملها ، بل هي البديهـة بأحلىٰ صـورها وقـد ورد ما يقارب هذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدتُّم عَلَينـا ﴾[١] وقـوله تعـالىٰ : أيضـاً : ﴿ وَمَـا كُنتُم تَستَتـرُونَ أَن يَشهـدَ عَلَيكُم سَمْعُكُم وَلاَ أبصارُكُم وَلاَ جُلُودكُم ﴾[٢] وقولـه تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ إذَا مَـا جَاؤُهَـا شَهِدَ عَلَيهِم سَمعُهمُ وَأَبصَارُهُم وَجُلُودُهُم ﴾[٣] وقوله تعالىٰ : ﴿ يَـومَ تَشهَدُ عَلَيهِم أَلسِنَتُهُم وأَيدِيهِم وأَرجُلُهُم بِما كَانُوا يَعملُونَ ﴾[٤] .

وهذه الآيات قد ذكرت الشهـادة بحـواس الإنسان وسـائر جـوارحه وهي أبلغ في إقامة الشهادة ؛ وذلك لخروجها عن المألوف كتـوفر البينـة بالشـاهدين العدلين ، أو بالشاهد واليمين .

والمــراد بـالشهـادة في هـذه الآيـات شهـادة الأعضــاء على الإنسـان والمعاصي بجنب ما يناسبها فما كان منهـا من قبيل الأقـوال كالقـذف والكذب والغيبة ونحوها شهدت عليه الألسنة ، وما كان منهـا من قبيل الأفعـال كالسـرقة والمشين للنميـمة وغيـرهمـا شهـدت عليـه بقيـة الأعضـاء ، وإذا كـان معـظم المعاصي من الأفعال للأيدي والأرجل أختصتا بالذكر .

وبالحقيقة الشاهد على كل فعل هو العضو الذي صدر منه كما يشير إلى ذلـك قـولـه تعـالىٰ : ﴿ إنَّ السَّمـعَ والبَصَـرَ وَالفُؤادَ كُـلُّ أُولئِـكَ كـان عَنـهُ مسئُولا ﴾[٥] وقولـه تعالىٰ : ﴿ اليَـومَ نَختِمُ عَلَىٰ أَفواهِهِم ، وتُكَلِمُنَـا أَيـدِيهِم

(١) سورة فصلت / الآية : ٢١ .

(٢) سورة فصلت / الآية : ٢٢ .

(٣) سورة فصلت / الآية : ٢٠ .

(٤) سورة النور / الآية : ٢٤ .

(٥) سورة الإسراء / الآية : ٣٦ .

وتَشهدُ أرجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكسِبُونَ ﴾[1] .

ومما تقدم يظهر لـك أن الشهادة بـالجد والجهـد ـ كما في قـوله « عليـه السلام » الماثل بين أيدينا للشرح ـ يعني بكل ما لديه من وسائل الشهادة وبكل مـا يكون من الإعتـراف بالنعم المتـوفرة وهـذا من أروع مـا يعبـر بـه في هـذا المعنىٰ من الإعتراف بالعجز .

وهذا ما أشـار إليه قـوله « عليـه السلام » (ومبـالغ طـاقتي ووسعي) أي بجميع ما أملك من وسائل الإعتـراف على نفسي بالعجـز عن أن أحصي هذه يقول .

والطاقة التي تعرضت لها هذه العبارة هي كافيه في التدليل على ذلـك .

وللحديث عن هذه الطاقة نقف قليلاً كي نستوعب ما قالـه عنها العلمـاء في المجالات المختلفة .

---

(١) سورة يٓس / الآية : ٦٥ .

الطاقة وعلاقتها بالكتلة

الـطاقة هي القـوة التي تدفـع الإنسـان إلى إنجـاز عمـلٍ معين يستهلك جهداً كبيراً ، ومعنىٰ ذلك أنه مقابل هذه القوة الدافعة تحتـرق أجزاء من جسم الإنسان من الدّم والخلايا لكي تتولد الحـرارة التي تتولـد منها الـطاقة وهـذا ما عبّروا عنه بتحول الكتلة إلى طاقة ، وهذا المعنىٰ كما تعارف عليـه أهل اللغـة كذلك وردت له معانٍ أخرىٰ في المصطلحات العلمية .

فمنها ما جاء في علم الفيزياء وتعلقها بالكتلة . ففي مجال تحول الكتلة إلى طاقة يبحث هذا الموضوع في أطار (القانون الـرابع) من قـوانين النظريـة النسبية للعالـم الفيزيائي أنشتين وقد بني هذا القانون على أستبعاد عالـم الأثير ، وهو الوسط الذي ينتقل فيه الضوء من مكانٍ إلى مكان عبر المسافات الشاسعـة في هذا الكون الرحيب .

أما ما جاء في هذا القـانون فهـو أنه قـد أدخل في هـذا المجال مفهـوماً جديداً يفسر الظواهر (الكهرو مغناطيسية) كلهـا وينسجم مع النـظرية النسبيـة وهذا المفهوم الجديد يسمىٰ بالمجال (الكهـرومغناطيسي) ومعنىٰ ذلـك : أنه بحسب هذا القانون أن الظواهـر هذه ـ والضـوء هو إحـدىٰ هذه الـظواهر ـ هي ليست مجـرد ظواهـر وإنما هي أشيـاء ماديـة ، أي أن الضوء مـادة تخـرج من

مصدرها ، وتسير في الفضاء حتىٰ تقع في عين الرائي ، وبعبارة أخرىٰ تقول النظرية النسبية : بأن للضوء كتلة ، ولا تكتفي بل تقول : بأن لكل طاقة كتلة مهما كانت هذه الطاقة قليلة أم كبيرة ، ومعنىٰ ذلك أن المصباح ذا البطارية الجافة الذي تحمله في يدك في الليل إذا ما سرت في الظلام يفقد من وزنه شيئاً فشيئاً وأنت تضيؤه بسبب كتل الضوء التي تخرج منه . وكأنما يريد أن يقول صاحب هذا القانون إن للضوء وزناً ، وبعد أن شطب على الأثير لم يكن أمامه إلَّا أن نقول إن الضوء مادّة ذات كتلة ووزن ، وإذا كنا نحصل على أرقام ضئيلة إذا ما أردنا أن نقيس كتل الظواهر (الكهرومغناطيسية) الموجودة على الأرض ، فإننا عندما نحاول أن نقيس هذه الظواهر في أجرامٍ فلكية كبيرة سنجد أرقام ضخمة جداً . فالشمس مثلاً تفقد من الضوء والحرارة كل يومٍ ما مقداره (٤ × ١٠)[١١] أي أربعة أمامها أحد عشر صفراً من الأطنان وإذا قلنا بأن الضوء يسير على شكل موجات يجب علينا أن نعلم بأن هذه الموجات تختلف عن موجات الصوت إختلافاً جذرياً ، وهذه أيضاً تختلف عن موجات الماء ؛ لأن هذه هي إرتفاعات وإنخفاضات متناسقة في ترتيب جزيئات الماء ، أي أن الجزيء يكون مرة في أعلىٰ الموجة ثم ينحدر إلى أسفل ، ويصعد إلى أعلىٰ الموجة الأخرىٰ ، والشيء نفسه يقال عن موجات الصوت .

أما موجات الضوء فشيء ينتقل من مكانٍ إلى آخر ، وهو بذلك كالأفعىٰ التي تسير في موجات فيندفع جسمها كله إلى الأمام . وإذا كان الضوء كذلك كان معنىٰ هذا أن لا لزوم بعد الآن لافتراض وجود الأثير كناقل لموجاته .

ونحن إذا قلنا بأن للضوء كتلة في هذا المجال إنما نتخذه مثالاً فقط لأن الكلام نفسه ينطبق على جميع الظواهر (الكهرومغناطيسية) .

ونستطيع أن نستنتج من هذا القانون أن مقدار الطاقة التي يمكن أن يزودها بها رطل إنجليزي واحد من الفحم تساوي ثلاثة أمامها ستة عشر صفراً

قدما ، وهذا ما يعادل مجموع الطاقة التي تـولدهـا محطات القـوىٰ الكهربـائية مجتمعة في أعظم بلدان العالم لمدة شهـر ، وبناءً على ذلـك فإن مـلء ملعقة صغيـرة من الفحم تزود أكبـر عابـرات المحيط لتقطع المحيط الأطلسي ذهـاباً وإياباً عدة مرات .

ولنا أن نتساءل فنقول : ولكننا نحرق في الشتاء أرطالاً عديدة من الفحم والحطب فلا تكاد تكون كافيه لتدفئة المنزل ، ألا تطلق طاقة عند إحتراقها ؟

أجل إن إحتراق للفحم يزودنا بطاقة ، ولكن عملية الإحتراق هي عمليـة كيمـاوية تغير في ترتيب الجزيئات ولا تفقـدنا شيئـاً منها ، والـذي يحصل في عملية الاحتراق هو اتحاد الأكسجين بالفحم ، وينتج عن هذا الاتحاد انـطلاق طاقة على شكل حرارة ، لكننا في الواقع لم نفقد شيئـاً من كتلة أحدهمـا ، لا من كتلة الفحم ولا من كتلة الأكسجين .

وما التفاعلات النووية إلاَّ تحول الكتلة أو جـزء منها إلى طـاقة ، ونجـد عنـدئذ أنهـا تعطينـا ثلاث الآف مليـون مرة من الـطاقة قـدر ما تعـطينا عمليـة الإحتـراق ، ولكن التفاعـلات النوويـة تختلف إختلافـاً جـذريـاً عن الإحتـراق والتفاعلات الكيماوية الأخرىٰ .

وقد بقيت طاقة الشمس التي كانت ولا تزال تعطينا هذه الطاقة منذ الآف الملايين من السـنين لغزاً من الألغاز حتىٰ إكتشفت التفاعلات النووية ، وعرف العلماء قانون النسبية الخاصة حول تحول الكتلة إلى طاقة [1] .

وفي هـذا البحث تفريعـات كثيرة تـركناهـا خوف الإطـالة ، ولكنـا نعود فنقول أن هذا العالم الرياضي والفيزيائي العبقري قـد طرح هذه القوانين التي استغرب منها العلماء في أول الأمر ، ثم ما لبثوا إن عـادوا بعد إستغـرابهم إلى

---

(١) الكون الأحدب : ص ١٣٠ وما بعدها ، للدكتور عبد الرحيم بدر .

الإعجاب بهذه القوانين ، فأخذوا يصفقون إكباراً وإجلالاً لعظمة هذا المفكر العبقري الذي سبق علماء زمانه باشواط بعيدة .

ونقول : أنه إذا كان للإنسان أن يقف مشدوهاً أمام هذه القوانين التي أصبحت تتحدىٰ الزمن وغيرت من حياة البشرية بما جاء فيها من المعادلات التي أثبتت أن للضوء وزناً ، وأن لموجات الصوت وزناً ، وأنه لم يكن هناك أثير ، وان التحولات الكيميائية والنووية جارية في المادة بشكل عادي فلنا أن نقول : إذا كان للبشرية أن تفخر بمثل هؤلاء العظماء ، فيجب عليها أن تفخر بمن سبقهم بعشرات القرون من أهل بيت العصمة الذين طرحوا هذه المفاهيم واعظم منها ، والتي لا يزال جزء كبير منها سراً غامضاً ضمن أدعية وردت واحاديث أثرت عنهم « عليهم السلام » .

الإمام السجاد والقانون الرابع من النسبية

فاستمع إلى راهب أهل البيت وقديسهم الإمام زين العابدين « عليه السلام » فيما قاله في الصحيفة السجادية التي نسميها بزبور آل محمد « عليهم السلام » في أحد أدعيتها يقول : (سبحانك اللهم وحنانيك ـ سبحانك اللهم وتعاليت ، سبحانك والعز أزارك ، سبحانك اللهم والعظمة رداؤك ، سبحانك اللهم والكبرياء سلطانك ، سبحانك من عظيم ما أعظمك ، سبحانك سبحت في الملأ الأعلىٰ ، تسمع وترىٰ ما تحت الثرىٰ ، سبحانك أنت شاهد كل نجوىٰ ، سبحانك موضع كل شكوىٰ ، سبحانك حاضر كلا ملأ ، سبحانك عظيم الرجاء ، سبحانك ترىٰ ما في قعر الماء ، سبحانك تسمع أنفاس الحيتان من قعور البحار ، سبحانك تعلم وزن السماوات ، سبحانك تعلم وزن الأرضين ، سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر ، سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور ، سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء ، سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرة ، سبحانك قدوس قدوس قدس ، سبحانك عجباً من عرفك كيف لا يخافك ، سبحانك اللهم وبحمدك ، سبحانك العلي العظيم .) .

ثم أنتقل « عليه السلام » إلى مرحلة الحمد والثناء علىٰ الله « سبحانه »

على تلك النعم المتقدمة التي عدد قسماً منها ، ثم أقر بالعجز عن حصرها مستشهداً بكلام الله ـ كما نطق بذلك الكتاب العزيز .

فقوله « عليه السلام » (وأقول مؤمناً موقناً) أي أنني أقول هذه القولة وأنا مطمئن إلى صدق كلامي في الثناء على الله والحمد بأنه مستحق لذلك على كل حال ، فعندما أحمده صادقاً ، وعندما أذكره مؤمناً ، وعندما أثني عليه مؤمناً بما أقول من أن هذه النعم التي ذكرتها هي من عنده ، فهو الذي أغنىٰ وأقنىٰ ، وسيأتي في مطاوي الدعاء الثناء والحمد بهذه الألفاظ وسنطرحها للبحث في مكانها المناسب .

والإيمان واليقين في هذا المعنىٰ من اللوازم التي ينبغي أن يؤكد عليهما ؛ لأنهما صفتان قلبيتان فالإيمان هو صفة أخص من الإسلام ، واليقين والإستيقان هو صفة ملازمة للإيمان فلا يمكن أن يتصور إيمان بلا يقين ، ولا يمكن أن يتصور يقين بلا إيمان ، وربما أطلق معنىٰ كلٍ منهما على الآخر ، وإن وجدت هناك بعض الفوارق ولكنها ليست بحالة مضطردة .

أما قوله « عليه السلام » (الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً فيكون له موروثاً) فهي قوله أراد منها أن يثني على الله ويحمده بذكر ذاته وصفاته . ولقد قلنا فيما مضىٰ بأن كثيراً من المتكلمين من علمائنا قد قالوا بأن صفاته كلها سلبية وهي كما وردت في العبارة ، فقد نفىٰ فيها ما قالته اليهود من أن له ولداً ، وفي هذه العبارة التفاتة وهي أن الولد ألصق بوالده من غيره من سائر الأرحام ولذلك فإن الأب والولد يتبادلان الولاية كل منهما على الآخر في حالة الوفاة والحياة ، وهذا ما أشار إليه قوله « تعالىٰ » ﴿ فَهبَ لي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آلِ يَعقُوبَ وَاجعَلهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾[1] .

---

(١) سورة مريم / الآية : ٥ .

والولاية عندما نذكرها ، ونتحدث عنها هي في الحقيقة ناحية من نواحي الحياة الإجتماعية سنتحدث عنها بعد قليل .

ثم نفىٰ « عليه السلام » ما قالته النصارىٰ ونسبته إلى الله بأنه ثالث ثلاثة ، فقالوا فيه بالتشريك ، وذلك بقوله « عليه السلام » (ولم يكن له شريك في الملك فيضاده فيما إبتدع) والشريك إما أن يكون مساوياً ، أو زائداً أو ناقصاً وعلى أي تقدير فإن مجرد المشاركة تمنع بقية الشركاء من التصرف كلًا على حده إلاَّ يرضىٰ الجميع ، أما إذا تصرف أحدهم بدون ذلك فإنه لا يعتبر ذلك التصرف مشروعاً .

ومن ثم فقد نهى الله « سبحانه وتعالى » عن الشرك لأن ذلك وضع جعل أنداد ، وأضداد لله « تعالىٰ » ومن ثم لا يجوز على الله أن يتصرف إلاَّ برضاهم . قال « تعالى » في سورة لقمان : ﴿ **يَا بُنَيِّ لَا تُشرِكْ بِاللهِ إنّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] يعني أنّ من يشرك بالله فقد ظلم نفسه بهذه الدعوىٰ ؛ وذلك لسدّ باب المغفرة الذي فتحه الله لجميع عباده ،قال تعالىٰ :﴿**إنَّ اللهَ لَا يَغفِرُ أن يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ مَا دوُنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[2] .

أما الولاية من الذل ـ كما ذكر في ذيل هذه الفقرة المطروحة للبحث ـ فالولاية بهذا الإعتبار يعني التصرف بما يعود بالفائدة والمصلحة التامة للمتولى عليه ولقد قلنا قبل قليل أن الولاية هي حالة إجتماعية لأزمة بين الناس ، وفي « قوله تعالى » : ﴿ **وَقُلِ الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذ وَلَداً وَلَم يَكنُ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَلَم يَكنُ لَهُ وَلِيٌّ مِن الذُّلِ وَكَبِرهُ تَكبِيراً** ﴾[3] إشارة إلى أنه ليس له ولي يشاركه في الملك ، يفوق عليه فيصلح من ملكه بعض ما لم يقدر هو على إصلاحه .

---

(١) سورة لقمان / الآية : ١٣ .

(٢) سورة النساء / الآيتان : ٤٨ و١١٦ .

(٣) سورة الإسراء / الآية : ١١١ .

وفي معنىٰ آخر للآية أنه « تعالىٰ » لا يجانسه شيء حتىٰ يكون ولد له إن كان ذا فهم ، أو شريكاً له إن كان مساوياً له في مرتبته ، أو ولياً له إن كان فائقاً عليه في الملك . وقد أشرنا ـ أيضاً ـ قبل قليل إلى أصناف تعدد الشركاء إلى ثلاث صور ربما تندرج هذه تحت تلك ، أو بالعكس .

قال العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان : الولاية هي القرب الخاص في الأمور المعنوية ، ولازمها أن للولي ممن وليه ما ليس لغيره إلّا بواسطته . فكل ما كان من التصرف في شؤون من وليه مما يجوز أن يخلفه في غيره ، فإن ما يخلفه الولي لا غيره ، كولي الميت ، فإن التركة التي كان للميت أن يتصرف فيها بالملك ، فإن لوارثه الولي أن يتصرف فيها بولاية الوراثة ، وولي الصغير يتصرف بولايته في شؤون الصغير المالية لتدبير أمرة ، وولي النصرة له أن يتصرف في أمر المنصور من حيث تقويته في الدفاع ، والله سبحانه ولي عبادة يدبر أمرهم في الدنيا والآخرة لا ولي غيره وهو ولي المؤمنين في تدبير أمر دينهم بالهداية والدعوة والتوفيق والنصرة وغير ذلك . والنبي ولي المؤمنين من حيث أن له أن يحكم فيهم ولهم وعليهم للتشريع والقضاء . والحاكم ولي الناس بالحكم فيهم على مقدار سعة حكومته ، وعلى هذا القياس سائر موارد الولاية ، كولاية العتق ، والحلف ، والجواد ، والطلاق ، وابن العم ، وولاية الحب ، وولاية العهد وهكذا .

فالمحصل من معنىٰ الولاية في موارد إستعمالها هو نحو من القرب يوجب نوعاً من حق التصرف ومالكيه التدبير .

ومما جاء في تفسير الآية الكريمة وهي قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ والَّذِين آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُم رَاكِعُون ﴾[1] فضيلة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب « عليه السلام » وهي :

(١) سورة المائدة / الآية : ٥٥ .

التصدق بالخاتم

لقد ذكر المفسرون لهذه الآية مناسبة وسبباً في نزولها وهي التصدق بخاتم أعطاه أمير المؤمنين لسائل في المسجد . ونحن إذ نذكر هذه الفضيلة التي رواها التاريخ الإسلامي من جهتيه لا لغرض التدليل عليها وإنما نذكرها لأنها تحمل معنىٰ الولاية التي نحن بصدد توضيحها فنقول :

ذكر صاحب تفسير البرهان (السيد هاشم الحسيني البحراني) عن أبي علي الطبرسي ، قال : حدثنا السيد أبو الحمد محمد بن نزار الحسيني ، قال : حدثنا الحاكم القايني، قال حدثنا الحاكم أبو إسحاق الحسكاني ، قال حدثني أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه الصيدلاني ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الشعراني ، قال حدثنا أبو علي أحمد بن علي بن رزين الباشاني ، قال حدثنا المظفر بن الحسين الأنصاري ، قال حدثنا السندي بن علي الوراق ، قال حدثنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني ، عن قيس بن الربيع ، عن الأعمش ، عن عباية بن ربعي ، قال : بينا عبد الله بن العباس جالس على شفير زمزم يقول : قال رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » إذ أقبل رجل معتم بعمامة ، فجعل : ابن عباس لا يقول قال رسول الله إلا قال الرجل قال رسول الله . فقال ابن عباس سألتك بالله من أنت؟ فكشف العمامة عن

وجهه ، وقال أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي ، أنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري ، سمعت رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » بهاتين وإلاّ صمتا ، ورأيته بهاتين وإلاّ عميتا ، يقول : (علي قائد البررة ، قاتل الكفرة ، منصور من نصره ومخذول من خذله) أما إني صليت مع رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » يوماً من الأيام صلاة الظهر ، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً ، فرفع السائل يده إلى السماء وقال : اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً ، وكان علي « عليه السلام » راكعاً ، فأومأ بخنصره اليمنىٰ إليه ، وكان يتختم فيها فأقبل السائل حتىٰ أخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بعين رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » فلمّا فرغ النبي من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إن أخي موسىٰ سألك فقال (ربي اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، وأحلل عقدة من لساني يفقه قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، أشدد به أزري ، وأشركه في أمري) فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكم) اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك اللهم فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري وأجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري ، قال أبو ذر فوالله ما استتم رسول الله «صلّىٰ الله عليه وآله وسلم» الكلمة حتى نزل عليه جبرئيل من عند الله فقال يا محمد إقرأ قال : وما أقرأ قال (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . . . الخ) .

ثم قال الطبرسي روىٰ هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بهذا الإسناد بعينه ، قال : وروىٰ أبو بكر الرازي في كتاب أحكام القرآن على ما حكاه المغربي عنه والطبري والرماني ، إنها نزلت في علي « عليه السلام » حين تصدق بخاتمه وهو راكع ، وهو قول مجاهد والسدي وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله وجميع علماء أهل البيت « عليهم السلام » وقال ،

وقال الكلبي : نزلت في عبد الله بن سلام واصحابه لمّا أسلموا وقطعت اليهود موالاتهم ، فنزلت الآية .

وفي رواية عطا قال عبد الله بن سلام : يا رسول الله أنا رأيت علياً تصدق بخاتمه وهو راكع فنحن نتولاه ، قال : وقد رواه لنا السيد أبو الحمد عن أبي القاسم الحسكاني بالإسناد المتصل المرفوع إلى أبي صالح عن إبن عباس ، قال : أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن قد آمنوا بالنبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » فقالوا : يا رسول الله إن منازلنا بعيدة وليس لنا مجلس ولا متحدث دون هذا المجلس وإن قومنا لمّا رأونا آمنا بالله ورسوله وصدقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم بأن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا ، فشق ذلك علينا فقال لهم النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : (إنما وليكم الله ورسوله . . . الخ) الآية ، ثم النبي خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع فبصر بسائل ، فقال النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : هل أعطاك أحد شيئاً ؟ فقال : نعم خاتماً من فضة فقال النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: من أعطاكه؟ فقال: ذلك القائم وأومىٰ بيده إلى علي « عليه السلام » فقال النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : على أي حالٍ أعطاك ؟ قال : أعطاني وهو راكع ، فكبر النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » ثم قرأ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّىٰ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِين آمَنُوا فإنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ ﴾[1] .

فأنشد حسان بن ثابت شعراً :

أبا حسنٍ تفديك نفسي ومهجتي   وكل بطيء في الهدىٰ ومسامع
أيذهب مدحيك المحبر ضايعاً   وما المدح في جنب الإلٰه بضايع
فأنت الذي أعطيت إذ أنت راكعاً   زكوة فدتك النفس يا خير راكع
فأنزل فيك الله خير ولاية   وثبتها مثنىٰ كتاب الشرايع

---

(١) سورة المائدة / الآية : ٥٦ .

ونقل الطبرسي في الإحتجاج قال : ومما أجابه أبو الحسن علي بن محمد العسكري « عليه السلام » في رسالته إلى أهل الأهواز حين سألوه عن الجبر والتفويض أن قال : أجتمعت الأمة قاطبة لـلاختلاف بينهم في ذلك أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع فرقها في الإجتماع عليه مصيبون ، وعلى تصديق ما أنزل الله مهتدون ، لقول النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » لا تجتمع أمتي على ضلالة فأخبرهم « عليه السلام » أن ما أجتمعت عليه الأمة ولم يخالف بعضها بعضاً هو الحق فهذا معنىٰ الحديث ما لا تأوله الجاهلون ، ولا ما قاله المعاندون ، من إبطال حكم الكتاب وإتباع أحكام الأحاديث المزورة ، والروايات المزخرفة ، وإتباع الأهواء المردية المهلكة التي تخالف نص الكتاب ، وتحقيق الآيات الواضحات النيرات ، ونحن نسأل الله أن يوفقنا للصواب ، ويهدينا إلى الرشاد ، ثم قال « عليه السلام » : فإذا شهد الكتاب بتصديق خبر ، وتحقيقه ، فأنكرته طائفة من الأمة وعارضته بحديث من هذه الأحاديث المزورة فصارت بإنكارها ودفعها الكتاب كفاراً ضلالاً وأصح خبر ما عرف تحقيقه من الكتاب ، مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » حيث قال : إني مستخلف فيكم خليفتين ، كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ، وإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض ، واللفظة الأخرى عنه في هذا المعنىٰ بعينه قوله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض ، أما إنكم إن تمسكتم بهما لن تضلوا فلما وجدنا شواهد هذا الحديث نصاً في كتاب الله مثل قوله : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) ثم أتفقت روايات العلماء في ذلك لأمير المؤمنين « عليه السلام » ، أنه تصدق بخاتمه وهو راكع فشكر الله ذلك له وأنزل الآية فيه ، ثم وجدنا رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظة ، من

كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وقوله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » : علي يقضي ديني وينجز موعدي ، وهو خليفتي عليكم بعدي ، وقوله حيث أستخلفه على المدينة ، فقال : يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان ؟ فقال : أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ ، إلَّا إنه لا نبي بعدي فعلمنا أن الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار ، وتحقيق هذه الشواهد ، فيلزم الأمة الإقرار بها إذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن ووافق القرآن هذه الأخبار ، فلما وجدنا ذلك موافقاً لكتاب الله ووجدنا كتاب الله موافقاً لهذه الأخبار وعليها دليلاً ، كان الإقتداء بهذه الأخبار . فرضاً ، لا يتعداه إلَّا أهل العناد والفساد[1] .

ومما تقدم نفهم أن الولاية ضرورة ملحة في تسير أمور الإنسان وفقاً للنظام الإلٰهي المنزل على الأنبياء ؛ ولأن الولي بهذا المعنىٰ المذكور فيما سبق من الروايات هو صلب حياة الإنسان ، بل هو كيانه ووجوده ، فلا قيمة له في الحياة بدون الولاية الإلٰهية بالإعتبار المذكور .

---

(١) تفسير البرهان : للسيد هاشم التوبلاني البحراني .

قال عليه السلام :

[سُبحَانَهُ ، سُبْحَانَهُ ، سُبْحَانَهُ ، لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ، وَتَفَطَّرتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ الواحِدَ الحقِّ ، الأَحَدِ ، الصَّمَدِ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ] .

اللغة والإعراب

لفسدتا : الفساد نقيض الصلاح وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسعوَنَ فِي الأرضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحبُّ المُفِسدِينَ ﴾[1] نصب فساداً لانه مفعول له ، أراد يسعون في الأرض للفساد ، قال سيبويه : قوم فسدىٰ جمعوه جمع هلكى لتقاربهما في المعنىٰ . وتفاسد القوم تدابروا وقطعوا الأرحام ، والمفسدة خلاف المصلحة ، والاستفسار خلاف الاستصلاح، وقالوا : هذا الأمر مفسدة لكذا أي فيه فساد .

قال الشاعر :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للعقل أي مفسدة .

(١) سورة المائدة / الآية : ٦٤ .

الأحد : وهو الفرد الذي لم يزل ، ولم يكن معه آخر ، وهو إسم من أسمائه تعالىٰ بُنِيَ لنفي ما يذكر معه من العدد ، والأحد بمعنىٰ الواحد وهو أول العدد تقول أحد وإثنان ، وأحد عشر ، وإحدىٰ عشرة ، وأما قوله تعالىٰ : ﴿ قُل هُوَ اللهُ أَحدٌ ﴾(١) فهو بدل من الله لأن النكرة قد تبدل من المعرفة كما قال الله تعالىٰ : ﴿ لَنسفَعَاَ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ ﴾(٢) قال الكسائي : إذا أدخلت في العدد الألف واللام فأدخلهما في العدد كله .

الصمد : من صفاته تعالىٰ لأنه أصمدت إليه الأمور فلم يقضي فيها غيره ، والصمد الذي لا يطعم ، وقيل : الصمد السيد الذي ينتهي إليه السؤدد ، وقيل الصمد السيد الذي قد أنتهىٰ سؤدده . قال الأزهري : أما الله تعالىٰ فلا نهاية لسؤدده ؛ لأن سؤدده غير محدود ، وقيل الصمد الدائم الباقي بعد فناء خلقه وكل هذه المعاني دالة على وحدانيته ، وقال أبو عمر : الصمد من الرجال الذي لا يعطش ولا يجوع في الحرب وأنشد :

وسارية فوقها أسود بكف سبنتي دفيف صمد

كفؤاً : كافأة على الشيء مكافأة وكفاءُ جازاه ، والكفيء النظير ، وكذلك الكفء والكفوء ، والكفء النظير والمساوي . ومنه الكفاءة في النكاح ، وهو أن يكون الزوج مساوياً للزوجة في حسبها ونسبها ودينها وبيتها قال الشاعر :

فانكحها لا في كفاءٍ ولا غنىً زياد أضل الله أصل زياد

قال الزجاج : في قوله تعالىٰ ﴿ ولم يكن له كفؤاً أحد ﴾ أربعة أوجه القراءة منها ثلاثة كفؤاً بضم الكاف والفاء ، وكفأ بضم الكاف وإسكان الفاء ،

(١) سورة الإخلاص / الآية : ١ .

(٢) سورة العلق / الآيتان : ١٥ و١٦

وكفأ بكسر الكاف وسكون الفاء ، وقد قرأ بها . وفي حديث النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » إسلمون تتكافيء دماؤهم . قال أبو عبيد : يريد تتساوي في الديات والقصاص ، فليس لشريف على وضيع فقيل في ذلك . وكفأت والقدر وغيرها إذا كببتها لتفرغ ما فيها .

قال ابن أبي خازن :

وكأن ظعنهم غداة تحمّلوا ... سفن تكفأ في خليج مغرم

البيان

إن تكرار هذه الكلمة « سبحانه » يدل على أكثر من معنىٰ ، وذلك لأن الكلمة تشير إلى تنزيه الباري « تعالىٰ » من كل ما يقوله المشركون فمن جملة هذه المعاني :

١ ـ تأكيد هذا التنزيه الذي لا يليق بغيره تعالىٰ وهذا ما يسميه علماء النحو بالتأكيد اللفظي وهو نظير ما يقوله الشاعر .

أخاك أخاك إن من لا أخاً له ... كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح

فقد وردت كلمة (أخ) مرتين في البيت .

٢ ـ ويحتمل أن يأتي هذا التكرار على عمدٍ منه لكي يقرب دعاؤه من الإجابة فإن تنزيه المولىٰ « تبارك وتعالىٰ » من النقائص والثناء عليه بأبلغ المحامد يجعل العبد قريباً من المولىٰ ، وهذا ما يستدعي قرب الإجابة .

وهكذا نجد أن دواعي التكرار واردة في مثل ذلك الموقف الذي يتملق فيه العبد لمولاه ويلح في المسألة .

وقد ورد هذا المعنىٰ ، وهو معنىٰ « سبحانه » عن أهل البيت « عليهم السلام » في روايات كثيرة . فقد روىٰ الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الشجري بنيسابور ، قال :

أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حمزة الشعراني العماري من ولد عمّار بن ياسر « رحمة الله » قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن يحيىٰ بن عبد الباقي الأذني ، بأنه قال : حدثنا علي بن الحسن المعافي قال : حدثنا عبد الله بن يزيد ، عن يحيىٰ بن عقبة بن أبي العيزار قال : حدثنا محمد بن حجار ، عن يزيد بن الأصم . قال : سأل رجل عمر بن الخطاب قال : يا أمير المؤمنين ما تفسير سبحان الله ؟ قال : إن في هذا الحائط رجلاً كان إذا سئل أنبأ ، وإذا سكت إبتدأ ، فدخل الرجل فإذا هو علي بن أبي طالب « عليه السلام » فقال يا أبا الحسن : ما تفسير سبحان الله ؟ قال : هو تعظيم جلال الله « عزّ وجلّ » ، وتنزيهه عمّا قال فيه كل مشرك ، فإذا قالها العبد صلّىٰ عليه كل ملك .

ونقل فيه أيضاً قال : حدثنا أبي « رضي الله عنه » قال : حدثنا علي بن إبراهيم ، عن محمد عيسىٰ بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمٰن ، عن هشام بن الحكم ، قال : سألت أبا عبد الله « عليه السلام » عن سبحان الله فقال « عليه السلام » أنفة الله عزّ وجلّ .

ونقل فيه أيضاً قال : حدثنا محمد بن موسىٰ بن المتوكل « رحمه الله » قال : حدثنا علي بن الحسين السعدآبادي ، عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي ، عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني ، عن علي بن اسياط ، عن سليمان مولىٰ طربال ، عن هشام الجواليقي ، قال : سألت أبا عبد الله « عليه السلام » عن قول الله « عزّ وجلّ » : سبحان الله ما يعني به ؟ قال : تنزيهه[1] .

إن تكرار « سبحانه » ثلاثاً في مثل هذه العبارة وتذيليها بقوله « عليه السلام » (لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا وتفطرتا) دليلٌ على أن إيمانه قد

(١) التوحيد : ص ٣١١ للصدوق « رحمه الله » .

بلغ الغاية ، فإن تنزيهه عن الشركاء ، وتنزيهه « سبحانه » عن كل الصفات التي لا تليق بجلاله « تعالىٰ » ، ثم نفي الآلهة بهذا الأسلوب العجيب ، وإبعاد الشركاء عنه لهو من أرفع درجات التوحيد .

فإن طرح دليل التمانع بعد تهيئة الجو بتأكيد التنزيه من أعظم الأدلة وأمتنها على وجوده وتوحيده في آنٍ واحد .

فممّا لا شك فيه بأن الفساد والتفطر يعتري هذا العالم لو كان هناك تعدد آلهة ؛ لأن تعددها يوجب إمكانها ، وإمكانها يوجب عدم الحاجة إليها ، فالفساد والتفطر يعتريه أما لتعدد الألهة ، وذهاب كل بما خلق ، وإما لعدمها بعد أن قلنا بإمكانها وعدم الحاجة إليها ، وهذا ما ينفيه الوجدان فإن الكون بهذا التنسيق العجيب والنظام الدقيق لا يمكن أن يستمر من غير مدبر ، وقد مرّ في صدر الكتاب لمحات في أبحاثٍ مختلفة حول هذا الموضوع .

فنفي تعدد الآلهة مع ثبوت هذا النظام يدل على وجود إلٰه واحد لا شريك له ، وإلاّ (لفسدتا وتفطرتا) ؛ لأن من دواعي الفساد والتفطر إختلاف الآراء والرغبات والشهوات وذلك خلافاً لما قاله الشاعر أحمد شوقي في مسرحيته (مجنون ليلىٰ) :

إختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

ثم إنه « عليه السلام » بعد أن أثبت هذا الحق لله « سبحانه » نزهّه مرةً ثانية عن النقائص وعمّا يقوله المشركون فقال «عليه السلام» من بعد ذلك : (فسبحان الله الواحد الحق) ؛ لأن التسبيح ذكر من الأذكار وعبادة من أفضل العبادات ، وقد ورد في فضله عن أهل البيت « عليهم السلام » ما يأخذ بالألباب . فمنه :

في تفسير على بن إبراهيم في قوله تعالىٰ : ﴿ **وإن مِن شيء إلاّ يُسبحُ**

بِحَمدِهِ وَلَكِن لا تَفقَهُونَ تَسبِيحهُم ﴾[1] .

فحركة كل شيءٍ تسبيح لله « عزّ وجلّ » .

فالكون كله متحرك ، وكل شيءٍ في هذا الكون المتحرك بل الدائم الحركة يسبح لله « تعالىٰ » . وإذا صحّ لنا أن نعتبر الأصوات من الحركات الغامضة أو المعروفة تسبيحاً ، صحّ لنا أن نتمثل بقوله تعالى : **﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾**[2] .

ثم عقب بقوله « عليه السلام » : (فسبحان الله الواحد الحق) وقد جاءت هذه العبارة كنتيجة لما تقدم من الكلام فكأنه قال « عليه السلام » : أنا أنزهه أيضاً كما نزّه نفسه عمّا يقول المشركون ، وبما نزّه به نفسه من الصفات التي لا يشاركه فيها أحد غيره ، وهي قوله «عليه السلام» : (الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوًاً أحد) .

وقد مرّ تفسير بعض هذه الصفات في بحث اللغة ، أما هنا فإنا نبحث هذه الصفات من وجهة نظر كلامية ؛ وذلك لتعلق هذه الصفات بالذات المقدسة ، ولا شك أنها خاصة به « سبحانه » لا يشاركه فيها أحد من خلقه ، كما أن هناك صفات أخرىٰ مشتركة بين الله وبين خلقه كالحياة والعلم بغض النظر عن تلك الفوارق التي توجد بينهما .

ونعود إلى هذه الصفات الخاصة فنقول : إنها قد إشتملت عليها سورة الإخلاص وهذه السورة نزلت بمناسبة سؤالٍ طرحته اليهود على النبي « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » ليتعرفوا من خلاله على الذات المقدسة .

---

(١) سورة الإسراء / الآية : ٤٤ .

(٢) سورة الرعد / الآية : ١٣ .

أهلُ البيت يفسرون معنىٰ صفاته تعالىٰ

في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله « عليه السلام » قال : إن اليهود سألوا رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » فقالوا : إنسب لنا ربك فلبث ثلاثاً لا يجيبهم ثم نزلت (قل هو الله أحد) إلى آخرها .

وفي الإحتجاج عن العسكري « عليه السلام » إن السائل عبد الله بن صوريا اليهودي ، وفي بعض رواياتٰ بعض السنة إن السائل عبد الله بن سلام ، سأله ذلك بمكة ثم آمن وكتم إيمانه ، وفي بعضها أن أناساً من اليهود سألوه ذلك ، وفي غير واحدٍ من رواياتهم أن شركي مكة سألوه ذلك .

وورد أيضاً في عدةٍ من الروايات عن أئمة أهل البيت « عليهم السلام » وقد وجّهوا كون السورة تعدل ثلث القرآن بوجوه مختلفة. أعدلها أن ما في القرآن من المعارف تنحل إلى الأصول : التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، والسورة تتضمن واحداً من الثلاثة وهو التوحيد .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين « عليه السلام » : رأيت الخضر في المنام قبل بدرٍ بليلة فقلت له : علمني شيئاً أنصر به على الأعداء فقال : قل : يا هو يا من لا هو إلاّ هو ، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله

« صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » فقال لي : يا علي علّمت الأسم الأعظم ، فكان على لساني يوم بدر . وإن أمير المؤمنين « عليه السلام » قرأ (قل هو الله أحد) فلما فرغ قال : يا هو ، يا من لا هو إلاّ هو ، إغفر لي وأنصرني على القوم الكافرين .

وقد ورد عن أهل البيت « عليهم السلام » معاني هذه الصفات المذكورة بإسهاب وذلك لأهمية هذه الصفات الخاصة به تعالىٰ في تحديد الذات المقدسة ، فقد روىٰ في التوحيد عن وهب بن وهب القرشي عن الصادق عن آبائه « عليهم السلام » أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي « عليهم السلام » يسألونه عن الصمد ، فكتب إليهم :

بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعد فلا تخوضوا في القرآن ولا تجادلوا فيه ولا تتكلموا فيه بغير علم فقد سمعت جدّي رسول الله « صلّىٰ الله عليه وآله وسلم » يقول : من قال في القرآن بغير علم فليتبوء مقعده من النار ، وإن الله « سبحانه » فسر الصمد فقال : الله أحد الله الصمد ثم فسّره فقال : لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وفيه بإسناده إلى أبن أبي عمير عن موسىٰ بن جعفر « عليه السلام » أنه قال : واعلم أن الله تعالىٰ واحد أحد صمد لم يلد فيورث ولم يولد فيشارك .

وفي خطبة أخرىٰ لعلي « عليه السلام » الذي لم يولد فيكون في العز مشاركاً ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً .

وفيه في خطبة له « عليه السلام » : تعالىٰ أن يكون له كفؤاً فيشبه به .

وإذا تأملنا في هذه المعاني التي ذكرتها الروايات عرفنا ما هو المقصود من ذكرها وإقحامها في عبارة الدعاء من هذه الفقرة التي أمامنا للحديث عنها فإن ذكر هذه الصفات في موقفٍ تترائىٰ فيه للعبد الإجابة ، أو أنه كمن تناول

حاجته بيده في ذلك اليوم لهو من أقرب القربات ، وأخلص الطاعات ، وذلك لأن ذكره « سبحانه » بصفاته التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه إخلاص له في التوحيد ، ونفي الشرك والشركاء عنه « سبحانه » وهذه من أخلص الطاعات التي تصدر من العبد ، ومن أحبها للمولىٰ « تبارك وتعالىٰ » . فإن جميع الذنوب قابلة للغفران إلاَّ الشرك بالله فإنه لا يمكن التسامح فيه . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[1] ، وقال تعالىٰ في سورة لقمان ﴿ وإذ قَالَ لُقمَانُ لإبنِهِ وَهوَ يَعظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِركَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ ﴾[2] قال المفسرون : إن عظمة كل عملٍ بعظمة أثره ، وعظمة المعصية بعظمة المعصىٰ ، فإن مؤاخذة العظيم عظيمة ، فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته وكبريائه فوق كل عظمة وكبرياء بأنه لا شريك له وأعظم معاصيه في أنه الله لا شريك له .

وقد روي عن أهل البيت « عليهم السلام » إن أكبر الكبائر الشرك بالله .

وفي الفقيه المروية عن سيد العابدين « عليه السلام » حق الله الأكبر عليك أن تعبده ولا تشرك به شيئاً ، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة .

إلى هنا ينتهي الجزء الأول من كتاب (أصول المعرفة) في شرح دعاء عرفة للإمام الحسين « عليه السلام » أسأل الله أن ينفع به إخواني المؤمنين كما أرجو ألاَّ ينسوني من دعائهم ويتلوه الجزء الثاني إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) سورة النساء / الآية : ٤٨ .

(٢) سورة لقمان / الآية : ١٣ .

المصادر

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ القرآن الكريم .	
٢ ـ التوحيد	الصدوق
٣ ـ بحار الأنوار	المجلسي
٤ ـ تفسير البرهان	للسيد هاشم التوبلاني
٥ ـ الكافي	الكليني
٦ ـ من لا يحضره الفقيه	الصدوق
٧ ـ كتاب القضاء	السيد عبد الله الشيرازي
٨ ـ الأرض والتربة الحسينية	كاشف الغطاء
٩ ـ تفسير الميزان	للطباطبائي
١٠ ـ التبيان	الطوسي
١١ ـ مصابيح الأنوار	السيد عبد الله شبر
١٢ ـ من علوم الطب في الإسلام	عارف القراغولي
١٣ ـ الكون الأحدب	الدكتور عبد الرحيم بدر
١٤ ـ معاني الأخبار	الصدوق

اسم الكتاب	المؤلف
١٥ ـ الحج من كتاب السداد	الشيخ حسين العصفور
١٦ ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي
١٧ ـ لسان العرب	ابن منظور الإفريقي
١٨ ـ الصحاح	الجوهري
١٩ ـ دائرة المعارف	محمد حسين الأعلمي
٢٠ ـ الطب محراب الإيمان	الدكتور خالص جلبي
٢١ ـ الصحيفة السجادية	للإمام زين العابدين (ع)
٢٢ ـ شرح نهج البلاغة	لإبن أبي الحديد
٢٣ ـ الحدائق الناضرة	للعلامة الشيخ يوسف العصفور
٢٤ ـ توحيد المفضّل	الإمام الصادق
٢٥ ـ الإنسان ذلك المجهول	الكسيس كاريل
٢٦ ـ قواعد المرام في علم الكلام	الشيخ ميثم البحراني

فهرست الكتاب

الموضوع | الصفحة

أصول المعرفة